

الموسوعة غير الشياملية

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

المجلد الثامن والأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

المسألة، وأجابوا بأن الافادة التي عملت لم تكن صحيحة، حسبما جرى عرضها، وأن هذه المطالب لا ينبغي الاستجابة لها، وبناء عليه جرت مناقشة القضية قانونياً، وبعد الإصغاء بعناية إلى مرافعات كل من الطرفين، وبعد مداولات، وبناء على نصيحة إخواننا، إننا في نهايتها نصدر مرسوماً، بأنك مقبول بكل حرية للقيام بالزيارات التفتيشية للعميد، وللهيئة الكهنوتية، وكذلك إلى الكهنة، وإلى رجال الدين في جوقة المنشدين، وإلى القساوسة، وحجاب الكنائس، والكهنة العائدين إلى الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوم أيضاً أغلاطهم، وأن تصلح عاداتهم، وعلى كل حال سوف لن تقدم نفقات مالية من قبل الهيئة الكهنوتية في الكنيسة الكاتدرائية، من أجل الزيارات التفتيشية، وأخطاء كهنة الكنيسة الكاتدرائية، التي جرت العادة بتقويمها من قبل الهيئة الكهنوتية، سوف يجري تقويمها من قبلها، وفقاً لعرف الكنيسة، الذي جرت مراعاته حتى الآن بسلام، وأن يجري تعيين ذلك لهم بناء على دعوتك وأوامرك، وأن يكون ذلك من قبلك ومن قبل خلفائك في مدد مناسبة، وإنه منذ ذلك الوقت سوف تقوم أنت أو خلفاؤك، وقد وضعتهم الرب القدير أمام أعينكم، بتقويمهم بالروادع الكنسية، وذلك حسب ما تتطلبه معالجة النفوس.

ونحن نأمر أيضاً الكهنة المتقدم ذكرهم بمراعاة الطاعة الكهنوتية، وأن يقدموا الاحترام لك، وهم ليسوا على كل حال مرغمين على ربط أنفسهم لهذا بيمين، أو بإعطاء أيديهم، أو بالوعد، حيث لست مخولاً بهذا العرف، وبالنسبة لقضايا ما طلبته بالتماسك، نحن نحلل العميد المتقدم الذكر والهيئة الكهنوتية، وبناء عليه، ما من أحد سوف يسمح له بالاعتداء على هذا، أو أن يقاومه بطيش، أي ما جاء في كتابتنا المحددة، وإذا ما حاول أي واحد الاقدام على فعل من هذا القبيل، هو سوف يجني غضب الرب القدير، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص. صدر في ليون، في هذا اليوم الخامس والعشرين من آب، في السنة الثالثة من بابويتنا».

موت جون أسقف هارتفورد

في الرابع عشر من تشرين الأول من هذا العام، دفع جون أسقف هارتفورد دين الطبيعة ذلك أنه عاش ثلاثين سنة، منذ أن حرم من أسقفيته بناءً على أمر من البابا، إنما احتفظ — على كل حال — بمرتبه الأسقفية، ولدى اغلاقه لحياته السعيدة الفنية، لم ينس إضفاء بعض المنافع على كنيسة القديس ألبان، فترك في وصيته إلى تلك الكنيسة كتبه، وبعض الزينة الكنسية، ولذلك كوفيء بنيل حصة في جميع الأعمال الجيدة التي عملت فيها، وكأنه كان راعي دير آخر، وقد دفن هناك فيها، أمام مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus مع كل المهابة المستحقة.

موت وولتر راعي دير بورغ

في الثاني والعشرين من كانون الأول من هذا العام، وبعد كثير من الارهاق غير المستحق والاضطراب ومرض ثقيل، حصل في بلاط روما بسبب تلك القضية، غادر وولتر، راعي دير بورغ Bourg طريق الجسد، مما سبب خسارة كبيرة واضطراباً لكنيسته.

الخديعة اللطيفة والتقوية للملك الفرنسي

مع اقتراب حلول عيد ميلاد مولانا، وهو الوقت الذي اعتاد فيه النبلاء على توزيع ألبسة وغيارات جديدة من البقايا — وهو ما ندعوه بالعادة بشكل عام، الثياب الجديدة — على آل بيوتهم، كان الملك الفرنسي، هو الذي تولى حمل عمل الصليب، وجعل من نفسه المسؤول عن التبشير، والوكيل المسؤول عن قضية الصليبية في شكل جديد، لأنه أمر بصنع أردية مع ملحقاتها، بأعداد كبيرة، أكثر مما هو معتاد، بأن تصنع من أغلى الأقمشة، مع جلود مختلفة فيهم، وصلبان تعمل من أفضل أعمال الذهب، حتى تخاط على جزء الكتف من الأردية، وأمر بصنع هذا كله بسرية فاعلة، وفي الليل، والصباح الباكر، أمر الفرسان بارتداء أرديتهم الملكية، ليظهروا معه في الكنيسة لسماع القداس،

الأمر الذي فعلوه في الصباح الباكر، حتى لا يتعرضوا للنقد بالكسل أو التراخي، وفيما هم على نية القداس:

وعبر العالم الشمس المرحّة

بدأت ثانية تسير في مسارها

ووفقاً لمثل بيرسيوس Persius:

كل واحد يرى المخلاة على ظهر جاره.

فقد حمل كل فارس شارة الصليب، وهي معمولة على كتفي جاره، وبعد لأي اكتشفوا بأن الملك مارس هذه الخديعة التقوية عليهم، وقد دخلوا الآن على طريقة جديدة، لم يسمع بها من قبل حول التبشير بالصلبية، وأصبحوا مبشرين بالأفعال أكثر منهم بالأقوال، وبما أنه بدا أنه غير لائق ومهين، وكذلك غير جدير بهم، أن يضعوا جانباً هذه الصلبان، قاموا مع ابتسامة، لم تكن — على كل حال — من دون رغبة، ومع فيض من دموع الفرح، فأطلقوا على الملك الفرنسي — بسبب هذه الواقعة — اسم «صياد الحجاج» و«صياد سمك جديد».

مختصر أخبار السنة كلها

كانت هذه السنة مدهشة ووافرة بالقمح، وزادت بخصبها العظيم عر السنة المتقدمة كثيراً حتى أن مقياس القمح هبط سعره إلى شلنين فقط، ولكن بسبب اضطراب الفصول وسوء أحوال المناخ في الصيف لم تنتج أشجار الفواكه أية ثمار، وكانت أحداث السنة منتجة للازدهار وللزيادة خاصة في فرنسا، وكان هناك اضطراب وخسارة بالنسبة لانكلترا، وللأرض المقدسة، وعدوانية وخطر، وبالنسبة للآيرلنديين متاعب وإنهاك، وبالنسبة للويلزيين دم وسوء حظ، وللبواتيين سوء معاملة، وكأنهم أولاد جاءوا من زوجة الأب، وجعلت هذه السنة الامبراطورية كلها وبلاط روما يرتجفان.

عام ألف ومائتين وستة وأربعين غضب البابا ضد الإنكليز بسبب أنهم تجروا على الشكوى في المجمع

عام ١٢٤٦، الذي هو العام الثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، وفي عيد الميلاد لهذا العام كان الملك المذكور في لندن، بصحبة عدد كبير من نبلاء المملكة، ومع أخيه الايرل رتشارد، والمملكة، وأختها كونتيسة كورنول، الذين جميعاً، بعدما عانوا من إرهاق اليوم وحرارته مع الملك، في ويلز، احتفلوا بعيد الميلاد مع كثير من البهجة، وهكذا فإن هؤلاء الذين كانوا رفقاء في الاضطراب، كانوا الآن شركاء في السرور والبهجة، لكن حدث في هذه الآونة، في سبيل أن لا يتسم السرور على الفنانين من دون أن يمتزج بالحزن، أن راجت شائعة مريبة، وصدر عن هذه كثيراً من الشكوك، حيث تحدثت عن أن البابا ما يزال يحتفظ بمشاعر الحقد في قلبه، مع أنه لم يبق هناك سبب منطقي لفعله ذلك، وفي الحقيقة كان هو غاضباً كثيراً، وشرع بتهديد الملك والمملكة الانكليزية بكثير من الطرق المتنوعة، وأعلن أنه إذا استطاع اخضاع الامبراطور فردريك، فلسوف يطأ بعد ذلك الشموخ المتمرد للانكليز، الذين كانوا يتحركون ضده، لأنهم قاموا بالشكاية في المجمع ضد مظالم البلاط الروماني، وبشكل خاص حول الجزية، لأنه بدا بالنسبة له أن الانكليز التعساء، ينبغي عدم السماح لهم بالبكاء أو التنهد تحت تأثير المضار المضاعفة التي أنزلت بهم، فخلال المؤتمر السري والطويل، الذي عقده مع الملك الفرنسي في كلوني، سعى لاقناع ذلك الملك، ولتحريضه للقيام بانتقام كاف بسبب هذا الأذى، ويكون بالهجوم على الملك الانكليزي الضعيف، وبتجريدته من ميراثه، أو على الأقل معاقبته بطريقة تجعله ينحني، شاء أم يشأ، أمام إرادة البلاط الروماني، وفي هذا المؤتمر قال قداسته بأن السلطات البابوية سوف تساعد بأقصى جهودها،

وهذا كما يقال بأن الملك الفرنسي قد رفض بكل إصرار فعله، لأن الملكين كانا أقرباء، وملكاتهما أختين، ولأن الملك الفرنسي لم يكن لديه إدعاء واضح في مملكة انكلترا، ومجدداً لأنه كانت هناك هدنة بينهما، وأن هذه الهدنة كان المطلوب إطالتها بسبب حجه، بدلاً من نقضها بشكل خياني، وبسبب أنه كان هناك عدو أكثر قوة، ينبغي تدجينه، وهو عدو أكثر إيذاء للكنيسة الرومانية، وكان ذلك العدو هو فردريك، كما أنه لن تكون الدماء المسيحية قليلة هي التي سوف تسفك، قبل أن تدعن المملكة الانكليزية للفرنسيين، ولأن الصليبيين في الأرض المقدسة كانوا عرضة للعسف وللتنكيل من قبل المسلمين، ويتوقعون قدومه، مثل أناس سفيتهم عرضة للغرق، ومنتظرون ريحاً أكثر لطفاً ومواءمة.

غضب ملك إنكلترا من الأذى الذي

لحق به من كونتسه بروفانس

قبل عيد الغطاس ومع الفراغ من الاحتفالات المهيبة لعيد ميلاد الرب، وصلت تقارير من بروفانس أزعجت الملك وأقلقته إلى درجة عالية، ذلك أن بيترايس كونتسه بروفانس، وأم الملكة، التي كانت تتسلم منذ خمس سنوات مبلغاً سنوياً مقداره أربعة آلاف مارك، من أجل تحصين ست عشرة قلعة في بروفانس، كانت عائدة إلى الملك بحكم زواجه، قد قامت دون تذكر للعدل، ولاخلاصها لاتفاقيتها، وناسية للتشريفات، وللكرم الذي أضفي عليها عندما ذهبت إلى انكلترا، فتخلت عن بروفانس وتنازلت عن قلاعها إلى الملك الفرنسي، دون أن تذكر حقوق ملك انكلترا، أو اتفاقياتها معه، وأعطت ابنتها الصغرى، التي هي الآن حرة وآمنة من المؤامرات ضدها، إلى الملك الفرنسي لتتزوج من ابنه شارل، وبهذا خرقت الكونتسه المذكورة عهدها بدرجة سيئة، وذلك بقدر ما كانت قد وعدت الملك الانكليزي بشكل ثابت ومخلص، بأنها سوف لن تسلم القلاع المذكورة إلى أي كان، ولا بشكل

من الأشكال، إلا أنه، ولم يقابل الملك — على كل حال — بالتعاطف أو بالمواساة من قبل أي واحد من أجل خسارته واهانته، لأن الكونتسه بيتريس عندما قدمت منذ بعض الوقت إلى انكلترا في أبهة عظيمة، قام الملك من دون تقدير لما ينبغي ولما هو موافق، وبطريقة غير اعتيادية وغير مستقيمة، باخضاع نفسه وأتباعه وممتلكاتهم إلى انفاق كبير جداً، حسبما ذكرنا من قبل في المكان المناسب، وبناء عليه، يقال أن الكونتسه المذكورة، بعدما وزنت بمكر أعمال الملك وكلامه، قالت: «أنا آسفة لأنني أعطيت ابنتي (التي دعتهم حسب التعابير العامة في بروفانس: ولديها) بالزواج لهذا الملك ولأخيه».

الملك الفرنسي يطلب تمديد الهدنة

ومع اقتراب حلول عيد القديسة هيلاري، كان الملك الفرنسي مشغولاً في التحضير لحجه، ولذلك كان قلقاً بأن جميع القضايا ينبغي تتيها، وترتيبها سلمياً في مملكته، حتى أنه عندما سينطلق في حملته لن يترك أي مشكلة معلقة خلف ظهره، ولذلك سأل من أجل تمديد الهدنة التي كان قد عملها في بواتو بينه وبين ملك انكلترا، كما قيل بأنه عرض أيضاً بشكل سري، بعض العروض للسلام، وهي عروض، تردد ملك انكلترا، على كل حال، في قبولها، وكانت هذه العروض، تتضمن إعادة جميع الأراضي الموجودة في القارة، والتي كانت من قبل ملكاً للملك الانكليزي، وذلك باستثناء نورماندي، تعاد بشكل حر إلى ملك انكلترا المذكور، على أساس أن يتخلى عن نورماندي، التي اعتقد أن للمملكة الفرنسية حق كامل بتملكها بشكل أبدي، وردّ الملك الانكليزي على الجزء الأول من هذه الرسالة، لكنه ترك الجزء الآخر من أجل مداولات أكثر نضوجاً، فعلى الجزء الأول أعلن بأنه سوف يكون راغباً وعلى استعداد لمنح هدنة أطول إلى الملك الفرنسي، وذلك حسب رغبة هذا الملك، وذلك حتى لا يظهر هو، أي الملك الانكليزي، معيقاً لمسألة

الحملة الصليبية، إنما على شرط أن لا يقوم الملك الفرنسي بإيذائه، بل عليه أن يتخلى له بسلام عن ذلك الجزء من بروفانس، مع القلاع الست عشرة، التي تقدم ذكرها، والتي هي عائدة له بسبب الزواج المعقود بينه وبين إليانور ابنة ريموند، كونت بروفانس، المتوفى أخيراً.

إعفاء تم الحصول عليه من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، صدرت الرسالة التالية عن أسقف لنكولن، من أجل إخبار أفضل إلى الناس حول المسائل المتقدمة: «إلى جميع أبناء الكنيسة الأم، الذين إليهم سوف تصل هذه العروض، من روبرت، الذي هو بفضل الرحمة الربانية، أسقف لنكولن، صحة دائمة بالرب: ليكن معلوماً إليكم بشكل عام، أننا قمنا بفحص أمر وصاية من البابا، ليست عرضة للإزالة أو للإلغاء أو لإبطال بأي حال من الأحوال، وصيغتها هي كما يلي: «من أنوسنت الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: الأساقفة، وإلى أبنائه المحبوبين كثيراً، رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمداء، والحجاب، والقساوسة الآخرين، ورجال دين الكنائس في جميع أرجاء المدينة، والأسقفية، ومنطقة كانتربري، صحة ومباركات: إن عمق الخطط اللاهوتية، هي التي رتبت كل شيء بشكل دقيق ومحكم وحكيم، وهي ليست من دون أساسات مؤكدة وربانية، حيث تتولى تغيير مظاهر الأعمال، مثل أنها قد تقدم في وقت من الأوقات العون الضروري من الأدنى مرتبة إلى الأعلى مرتبة، وتقدم في وقت آخر العون الضروري من الأعلى مرتبة إلى الأدنى مرتبة، في سبيل أنه بهذه التغييرات يمكن لبني البشر أن يروا عدم الاستقرار في أوضاعهم، وأنهم بتعاطفهم، وبمساعدة أحدهم الآخر، من الممكن تنفيذ قانون المسيح وتطبيقه، الذي به قد أمر كل واحد بمحبة جاره، وأن يحمل أثقال أتباعه، وبما أنه بناء عليه، قد عرض علينا أخونا المحترم، رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسة كانتربري الآن،

وكذلك كانت فيما مضى في أيام أسلافه، الذين عانوا من اضطرابات لا تحصى، وأزعجوا بعدم تحسن عدد كبير من الضروريات، ومثل هذا أيضاً خلال الفراغ الطويل الذي عاشته تلك الكنيسة، والذي خلاله خرج كل من الأصدقاء والغرباء سواء عن طريقهم، لنهب ممتلكاتها وتجريدها منهم، ولذلك ضغط عليها كثيراً بدين كبير وثقيل جداً لم تتمكن إلا بصعوبة بالغة من تحرير نفسها منه، وبعد الاستعانة بالحكمة المتوفرة في الكرسي الرسولي، وقد توجهت الآن بتواضع بالرجاء إلينا، بأن نتلطف بلطفنا المعتاد فنقدم المساعدة إلى الكنيسة المذكورة، خشية أنه من خلال تضاعف الفائدة، سوف تصبح خسائرها أكثر قسوة، وتصبح في وضع لا يمكن انقاذها منه، هذا وإن كنيسة كانتبري المذكورة، هي فوق جميع الكنائس الأخرى في العالم، وهي بحكم احتلالها لمثل هذه المكانة، ينظر إليها بنظرة عاطفة مخلص، بمثابة أنها الابنة المحبوبة والتميزة بعلامات الخطوة المنفردة، من قبل الكنيسة الرومانية، برائحة طيبة منعشة، تعيدها إلى حالة الهدوء، والتقدم بازدهار، ودعونا أيضاً نعامل كنيسة كانتبري المذكورة، بذلك الامتياز الخاص من الخطوة والنعمة، وبناء عليه، إننا بتجاوب مع الطلب المستعجل للكنيسة المذكورة، وبشكل رئيسي بتقدير لرئيس الأساقفة المذكور، الذي هو ابن مخلص، وطرف نبيل للكنيسة متحمس في تقواه، وفي سلوكه بالحياة، ومتميز بنبالته، ويحتل لدينا التقدير الأعلى والتعاطف، وكذلك من قبل إخواننا، وإننا بناء على نصيحة إخواننا نعطي موافقة طيبة لالتماساته، ونعطي برسائلنا هذه، أوامر إلى أخينا المبجل، أسقف هيرفورد، بأن يقوم لمدة سبعة أعوام، وليس أكثر، فيجمع موارد السنة الأولى من جميع المنافع اللاهوتية، التي سوف تصبح من هذا الوقت شاغرة: في مدينة، وفي أسقفية، ومقاطعة كانتبري، إلى أن يصل المبلغ إلى عشرة آلاف مارك، لكن إذا جرى جمع المبلغ قبل انتهاء الأعوام السبعة، ما من شيء يجري طلبه بعد، وكذلك عليه أن يجمع ألفي مارك سنوياً من موارد

رئيس الأساقفة المذكور، وعليه أن يستخدم تلك المبالغ المتقدم ذكرها باخلاص، من أجل دفع ديون الكنيسة المذكورة، شريطة أن يخصص ذلك الأسقف المذكور حصة كافية من تلك الموارد، ليجري تعيينها إلى الأشخاص الذين يقومون بواجبات المنافع المذكورة، للانفاق عليهم، حتى لايجري حرمانهم من المنافع المستحقة لهم، إذا ما حدث وكانت موارد المنافع المذكورة للسنة الأولى عائدة —وفقاً لعادات البلاد— إلى أشخاص يموتون، سوف يقوم الأسقف المذكور بجمع محصلات هذه المنافع في السنة التالية، وأن يضبط جميع السنة السوء بسلطتنا، وبناء عليه، إننا نرجو، ونحذر، ونحث، وبهذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم كلها، بإيلاء الانتباه إلى حقيقة أن من الموائم لحالة الضرورة للأمم، أن تلقى التفريج بوساطة ثروات أولادها، حيث عليهم باخلاص، وبلطف دعمها في أعبائها، وأن يظهروا أنفسهم متحمسين وجاهزين بالكلمة وبالفعل لجمع الموارد المذكورة، ودفعها إلى الأسقف المذكور، حتى يتمكنوا هكذا في مستقبل الأيام، أن يكون لديهم ادعاء لنيل الخطوة والارادة الطيبة من رئيس الأساقفة المذكور، وأن تجدوه على أساس هذه المسألة أكثر استعداداً، لرفع شأن منافعكم، ومنافع كنائسكم. صدر في ليون، في اليوم السابع والعشرين من آب، في السنة الثالثة من حبريتنا، وكشاهد على هذا، جعلنا خاتمتنا يجري وضعه وتثبيته على هذه العروض».

غضب الملك ثم هدوئه فوراً

عندما وصلت هذه الأشياء إلى علم الملك، أصيب بالدهشة أولاً، ولأنه أثير كثيراً وغضب، عبّر عن مشاعره بصوت مرتفع قائلاً: «أنا مستغرب أن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أنا رقيته ورفعته إلى هذا المقام، قد تسبب بهذا القدر من النفقات إلى مملكتي، ولم ينع بأنه قام بشكل وقح، فاقتلع من الأسقفية في شيكستر روبرت باسلو،

الذي أنا اخترته، والذي توليت ترقيته، بل إنه منخرط بالحرب يومياً، مثل قاطع طريق، وهو يعمل الآن على ابداع خطط ضدي، في سبيل إلحاق الخسارة بي، والخط من كرامتي في بروفانس، وكذلك في انكلترا، فها هنا الآن استخراج للمال لم يسمع بمثله حتى الآن من قبل، ما أكثر المصائد العائدة للصيادين، التي نصبت لخداع البسطاء من رعاياهم، فبهذه الآلية، جرى خداع نبلائي الذين إلى رعايتهم تعود الكنائس، فقد جردت الأرض من مواردها، ويخشى من تكرار وقوع مثل هذه الاستخراجات»، وعندما أخيراً، وبعد لأي همس إلى الملك أن لديه سبب صغير للغضب من رئيس الأساقفة من أجل إلغائه انتخاب روبرت المذكور، بسبب حرمانه الكنسي، حيث وجد ضعيفاً، وأيضاً بسبب أن إلغاء انتخابه كان مفيداً ومربحاً له، أي الملك، لأن روبرت كان الآن مستخدماً نفسه بنشاط يومي من أجل تعويض ملكي، مثل امرأة، وأن قراره بمعارضة هذا الإجراء قد دمر، وكما قيل هو كان ضعيفاً بكل مهانة بالاتصال الجنسي مع النساء، وهو لذلك يدعى امرأة، لأنه جلب الوليل والضعف إلى الرجل.

كما أن الملك (ويا للعار أقول ذلك) لم يقف بشجاعة، كما ينبغي من أجل حماية الكنيسة لأنه كان من الواضح أن كنيسة كانتربري كانت مظلومة إلى درجة عالية من قبل رئيس الأساقفة ادموند بشكل خاص فيما يتعلق بالفائدة، كما أنه لم يقف بشجاعة من أجل حماية مملكته، أو في سبيل صون كرامة الأبحار المقدسين لكانتربري، بل إنه أعطى الاذن لبونيفيس رئيس الأساقفة المذكور لكي يتسلم الاسهام المذكور من قبل في جميع أرجاء انكلترا، وأصدر على كل حال، في الوقت نفسه أمراً منع فيه أي واحد قدم من البلاط الروماني، بناء على أمر البابا، ويحمل رسائل عليها ختمه، من اصدار مراسيم بقصد استخراج مال من الكنيسة الانكليزية، ومن إفقار مملكته، وبعدم السماح لهم بالتجول في

البلاد على الأساقفة، وأن أي واحد سوف يمسك وهو يفعل ذلك، ينبغي أن يعتقل، ويحبس في سجنه الملكي، كما أنه أمر بحراسة الموانئ، ويفرض هذا الأمر على مدرائهم، وشجع هذا بعض الشيء قلوب الانكليز التعساء، الذين عرفوا عدم استقرار الملك، وعلموا بالتجارب المتوالية بأنه كان يقلع عن أي قرار، بالسهولة نفسها التي أقنع بها لعمل القرار.

كيف فرضت غرامة على اللندنيين

وحوالي هذا الوقت نفسه، مع أن المناخ الربيعي الهادئ قد ابتسم لبعض الناس، مع ذلك فإن العالم المعارض قد أزعج أوضاعهم، لأن سكان لندن، الذين كانت الرحمة الملكية ملزمة بحفظهم تحت جناحيها، في حمايتها السليمة، قد أرغموا، مع مرارة بالقلب، ومع تعرضهم لأذى كبيراً لأنفسهم ولانقاص لممتلكاتهم، أرغموا على انقاذ أنفسهم، بدفع ألف مارك، تحت عنوان «حساب»، ووافق كثير من الناس تماشياً مع نبوءة ميرلين Merlin، وكانوا شهوداً على صدقها، وأعلنوا بأن الملك هنري كان حقاً: «وشقا (حيوان) يخرق كل شيء بعينه»، أي أن تقول يصبص في حافظات نقود الجميع ويخرقها.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

وفي الوقت الذي كان فيه نهر الزمان يقيس عمر الانسان، أصدر الملك رسائل، استدعى فيها جميع نبلاء المملكة إلى الاجتماع في لندن، في اليوم الذي يغنى به «لتبتهج القدس»، أي في منتصف الصوم الكبير، لترتيب شؤون المملكة بشكل عام.

طموح رهبان دومينيكان

وحوالي الوقت نفسه تجاوز الرهبان الدومينيكان حدود الفقر، الذي أقروه، وآمنوا به مؤخراً، وشرعوا بالصعود إلى مراتب أعلى، وشجعهم

على ذلك كونهم كانوا محترمين، ويخشى جانبهم من قبل القساوسة اللاهوتيين، وتطلعوا نحو أن لا يكونوا واعظين فقط، بل معترفين كذلك، واغتصبوا لأنفسهم واجبات المعمدين، الذين جعلوهم ينظر إليهم نظرة ازدراء، وكأنهم كانوا ضعفاء وغير أكفاء بالعلم والقدرة على حكم شعب الرب، ومن ثم الامساك بأزمة الكنيسة، وبهذه الاجراءات، ظهروا لكثيرين على أنهم رجال مستقيمين، ليتولوا بشكل كبير احداث الاضطراب في ترتيبات الكنيسة العالمية، حسبما كانت قد تأسست من قبل القديسين الرسل والعلماء اللاهوتيين المقدسين، من أسلافنا، الذين كانت قداستهم ظاهرة إلى جميع العالم، ولقد وضح أنه لطائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين قد تدمرتا بوساطة هذه التجاوزات خلال سياق سنوات كثيرة، لأن طائفة هؤلاء الدومينيكان، قد زرعت أغصانها في انكلترا خلال هذه السنوات الثلاثين، وبعد مضي سنوات قليلة، حصلوا على امتياز لم يسمع بمثله، من البابا غريغوري، الذي كان معتنياً بهم بشكل خاص، وحصلوا الآن، في الأيام الحاضرة على امتياز آخر من البابا، وجاء هذا الامتياز الجديد لمتين الأول، مما ألحق خسارة كبيرة وأذى بالمعمدين.

إمتياز الدومينيكان الأول

«من غريغوري، الأسقف، وعبدعبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأبناء الأحباء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، والعمداء، ورؤساء الشمامسة، ورؤساء الكهنة، ورجال الدين الآخرين للكنيسة، الذين إليهم سوف تصل هذه الرسائل، صحة، ومباركات رسولية: بما أن الظلم بات كثيراً، والاحسان الصادر عن كثير من الناس بات بارداً، إنظر إن الرب جلب إلى الحياة، طائفة رهبان الدومينيكان المحبوبين كثيراً من قبلنا، الذين لا يطلبون ماليس لهم، بل الذي هو عائد إلى المسيح، في سبيل وضع نهاية للهرطقات،

ومحق الأويثة الأخرى المميتة، وأن يكرسوا أنفسهم بالتبشير بكلمة الرب، في فقر تطوعي شديد، وإننا بناء عليه، في سبيل معاونة قصدهم المقدس، وإحاطة قداساتهم الضرورية برعايتنا، نعهد بهم باخلاص إلى جماعتكم، ونرجو ونصلي باسم الرب في سبيل احسانكم إليهم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بحكم تبجيلكم للرب، أن تقبلوا بلطف أولادنا المحبوبين، رهبان هذه الطائفة، لأداء واجبات الوعظ، التي من أجلها أنيىوا، وأن تسمحوا للناس المعهود بهم إلى تقواك، أن يتلقوا بذور كلمة الرب من أفواههم، وأن يعترفوا إليهم، بحكم أنه مسموح لهم بموجب سلطاتنا أن يسمعو الاعترافات، وأن يفرضوا العقوبات، ونحن نحثكم أن تقوموا بشكل مواظب، بموجب احترامكم لنا، وللكرسي الرسولي، أن تساعدوهم بكرم في ضرورياتهم، وأن يكون الناس مستعدين، بموجب حثكم، على استقبال المتقدم ذكرهم، عليهم يكونوا مثل أرض خصبة، بدأت لتقدم حصاد الفضائل عوضاً عن الأشواك وعليق الشرور، وأن يتمكن الرهبان المذكورين بالتعاون معكم من إكمال عمل الخدمات الدينية، الذي تعهدوا به، وأن يجنوا الثمار المرجوة والمتنطرة، لجهودهم، أي جهود انقاذ النفوس، هذا وبالنسبة للشرور التي غالباً ما تدخل بشكل سري تحت قناع يشبه الفضائل، فغالباً ما يبدل الملاك الشيطان شكله إلى شكل ملاك الضياء، ولذلك إننا بموجب سلطات هذه العروض نعطي أمراً، أي أن أي واحد يقول بأنه من طائفة المبشرين، سوف يتولى التبشير في مقاطعاتكم، مغيراً منهجهم إلى طلب الحصول على المال، الذي بموجبه سوف تتعرض عقيدة الذين آمنوا بالفقر إلى الإهانة، عليك على الفور إلقاء القبض على مثل هؤلاء، ومعاقتهم بحكم كونهم مبشرين زائفين. صدر في أناني Anagni في الثامن والعشرين من أيلول، في العام الأول من حبريتنا.

الإمتياز الثاني تشيئاً للأول

«من أنوسنت الرابع، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الإخوة المبجلين أساقفة: وينكستر، وووركستر، ونورويك، صحة ومباركات رسولية: بما أن بعض الناس يتمتعون بالشروع، أي بكسرهم لأغلال التقشف، حيث أنهم يمنحون حرية الحركة للأعمال اللاقانونية، ويضعون جانباً كل خوف من الرب، ويقدمون على إهانة الرهبان بطرق متنوعة ومضاعفة، ولذلك عملت الكنيسة الأم المتعاطفة ممارسة للاحسان، لمساعدة هؤلاء الأشخاص ضد مثل هذه الشرور، بمنحهم وسائل الدفاع، بحيث يمكن بذلك ضبط طيش هؤلاء المفسدين، وينبغي أن يبقى هؤلاء الأشخاص بسلام، كما ينبغي حرمان الآخرين من وسائل اقتراف اعتداءات مماثلة، وبناء عليه، بما أن رؤساء الرهبان الاقليميين، ورهبان طائفة الدومينيكان في انكلترا (حسبنا ذكر لنا باسمهم) يعانون من أضرار مضاعفة من بعض الذين لا يخافون من تناول اسم الرب عبثاً، نحن نرغب بحماية هؤلاء ضد المحاولات الوقحة لهؤلاء الأشخاص ذوي العقول الشريرة، فبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمر إخوتكم، بموجب حماية حظوظكم، أن تقوموا بشكل فعال بمساعدة رئيس الرهبان المذكور والرهبان، ضد جرأة الناس الأشرار، وبأن لا تسمحوا لهم بتعذيبهم بشكل غير جائز، بوساطة أية معارضة للامتيازات الممنوحة لهم من قبل الكرسي الرسولي، وايقاف جميع مثل هذه الاضطهادات لهم، دون الاهتمام بمرسوم رحلة اليومين، الذي صدر في المجمع العام، فهو لم يعد له فعالية بعد مدة عشرة أعوام، وإذا لم تتمكنوا جميعاً أن تكونوا حاضرين أثناء وضع هذه القضايا موضع التنفيذ، يتوجب على اثنين منكم مع هذا، أن يشرفا على تنفيذهم. صدر في اللاتيران، في اليوم السابع عشر من أيار، في السنة الأولى من حبريتنا».

جواب رئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان

وفرّح الدومينيكان وتشاخوا بوساطة هذا الامتياز، فقدموا بصلف أنفسهم إلى مختلف أساقفة الكنائس، ورؤساء الشمامسة، أثناء التروّس لمؤتمراتهم، حيث توفر كثير من الرجال ذوي النفوذ، مثل العمداء، والكهنة، والنواب، وقساوسة الكنائس في الاجتماع، وأروهم بشكل معلن هذين الامتيازين اللذين منحاهم، وطلبوا بوقاحة وعناد أنه تتوجب دعوتهم، وأن يستقبلوا باحترام، وأن يوصى بهم في كنائسهم، وأنه يتوجب قبول الرهبان الدومينيكان أنفسهم من دون أي اعتراض، ليقوموا بالوعظ بين الناس في المجامع المقدسة، وفي الكنائس الأسقفية، وكأنهم نواب بابويين، لابل كأنهم ملائكة للرب. ويتصرفات وقحة، كانوا يسألون باستمرار كل واحد، حتى شمل رجال الدين: «هل اعترفت؟»، وإذا جاء الجواب بالتأكيد، كان الدومينيكان يسألونهم: «من قبل من؟» وإذا جاء الجواب: «من قبل كاهني»، كانوا يضيفون: «من هو ذلك الأحمق، هو لم يصنع قط إلى اللاهوت، وهو لم يدرس قط المراسيم، وهو لم يتعلم قط حل أي سؤال، إنه من قوم عميان، وقادة عميان، تعالوا إلينا، نحن الذين نستطيع أن نميز مجذوم عن آخر، والذين إلينا جرى منح التعب، والمصاعب وأبيحت الأسرار الخفية للرب، اعترفوا من دون خوف إلينا، نحن الذين كما سترى وتسمع، قد منحت إلينا سلطات كبيرة».

وبناء عليه، فإن كثيراً من الناس، ولاسيما النبلاء، وزوجاتهم، استخفوا بكهنتهم وقساوستهم وعملوا اعترافاتهم إلى الدومينيكان، وبذلك غدت مكانة وأحوال المعمدين، ذات تقدير صغير، وفي وضع سيء جداً ومضطرب، وقد انزعجوا كثيراً لأنهم باتوا في حالة الرفض هذه، ولم يكن ذلك من دون سبب واضح، لأنهم شاهدوا بأن التنظيم اللاهوتي قد اضطرب كثيراً، وهو النظام الذي كان يسير منذ زمن

طويل في الماضي، في طريق الرب ببساطة هادئة، قدمت كما هو واضح إلى الرب كثيراً من القديسين لدى مغادرتهم هذا العالم، والذين كما أعتقد، أنه من العيب الشك بقداستهم، ولقد نظروا أيضاً إلى ذنوبهم الكنسية بجرأة ووقاحة، لأنهم عرفوا أنهم سوف لن يتعرضوا للإهانة أمام كاهنهم، عندما يعترفون بذنوبهم، التي عدت ذات خطر كبير، ومهينة بالقدر نفسه، ومسببة قدراً من الاضطراب أثناء الاعتراف بشكل رئيسي، وفي الجزء الأكبر من التوبة، ولذلك عندما كانوا على وشك اقتراف أي ذنب، كان أحدهم يقول همساً إلى الآخر: «دعونا نفعل أي شيء يبدو إلينا ممتعاً وشهوانياً، وبعد فعلنا لما رغبتنا به، سوف نعرف من دون أي ازعاج إلى بعض الدومينيكان أو الفرنسيسكان، عندما يعبرون من قربنا، وهم الذين لم نرهم قط بعد، وسوف لن نراهم ثانية»، وهكذا، بما أن المعمدين وتلاميذهم قد أهملوا، تراكمت الذنوب، وبينما كان العالم آنذاك، مثل البحر هائجاً ومضطرباً بمثل هذه الحركات، امتلك بعض الدومينيكان الجرأة، وهم مزودون بامتيازاتهم، فدخلوا إلى كنيسة القديس ألبان (حيث كان رئيس شمامسة تلك الكنيسة — كما كانت العادة — عاقداً اجتماعاً كما هو متوجب)، وعرضوا امتيازاتهم، التي زودوا بها بسلطات جديدة، لم يسمع بمثلها، وكذلك بمراتب، وطالب أحدهم، الذي بدا أنه صاحب سلطات أكبر من الآخرين، بالتزام الصمت، لأنه مقبل على الوعظ، وبناء عليه رد رئيس الشمامسة قائلاً: «تصرف بنفسك بلطف أيها الراهب، وانتظر قليلاً ريثما أشرح لك، وجهة نظري: نحن أناس بسطاء، قد اعتدنا على العادات القديمة المصادق عليها، ونصاب بالدهشة أمام هذه البدع المفاجئة، وليس عجباً أن تنتج مثل هذه البدع الجديدة التي لم يسمع بها العجب والخوف، فلماذا أنت تعدنا هكذا بعناد أننا غير جديرين، أو غير أكفاء للقيام بواجبات المنصب الذي جرى تعيينه لنا؟ وهل تعتقد أنك وحدك من بين هذه الأعداد، الذي سوف تنجو؟ لأن الرسول يقول: «ما من إنسان

يعرف هل هو يستحق الكراهية أم المحبة»، وأنتم الآن مقحمين أنفسكم، ليس للتبشير فقط، وفقاً لاسمكم «المبشرين»، لكنكم تتلقون الاعترافات أيضاً، أو بالحري تستخرجونها، أي أنه بإمكانكم إضافة لقب جديد لأنفسكم وهو «الرهبان المعترفين»، يا إخواني، أنا لا أعتقد أنه من الحكمة ترك ما هو مؤكد من أجل ما ليس مؤكداً، وأن تتراجع عما اعتدت أن تفعله، لتبني ما لم تعتد أن تفعله، من دون المزيد من التداول والمشاورات مع رؤيسكم، وأنا سوف لن أسمح لكم بالتبشير، أو بتلقي الاعترافات، من الذين أنا معين عليه بموجب أوامر راعي الدير، لأنه واضح إلى جميع الكنيسة، بأن المراسيم التالية، التي سوف أريك إياها، وأريها إلى جميع الذين من حولك، قد عملت وتأكدت من قبل المجمع العام، الذي عقد في أيام انوسنت الثالث، في سنة النعمة ألف ومائتين وخمس عشرة، الذي كان حاضراً فيه أوائل الجماعة المسيحية كلها: واحد وستون رئيس أساقفة، وأربعمئة واثنى عشر أسقفاً، وثمانمئة راعي دير ورئيس رهبان، وكانت هذه المراسيم أوامر تتوجب مراعاتها من دون تردد في جميع الأوقات»، ثم إنه فتح الكتاب، وأشار إلى مارسم حول هذه القضية وقراه.

المراسيم حول القضايا المتقدم ذكرها

«على جميع المسيحيين من الجنسين، عندما يصلون إلى سنوات الرشد، الاعتراف بشكل سري بذنوبهم، على الأقل مرة واحدة في السنة، إلى كاهنهم الخاص، وعليهم، بقدر ما يمتلكون من قدرة السعي إلى تنفيذ العقوبة التي فرضت عليهم، ولسوف يتلقون باحترام قداس القربان، على الأقل في الفصح، ما لم —بناء على نصيحة كاهنهم— ربما يرون أن من الموائم التمتع عن استلامه لبعض الوقت، لسبب ما معقول، وإذا ما رفضوا فإنهم سوف يمنعون —طالما هم أحياء— من الدخول إلى الكنيسة، وعندما يموتون لايسمح لهم بدفن مسيحي، ولقد رسم هذا

بشكل صحيح، لذلك يتوجب نشره تكراراً في الكنائس، خشية أن يقوم أي واحد، صدوراً عن العمى، أو عن الجهل، فيتخذ لنفسه حجاً بـ بعض الأعداء، وإذا ما رغب أي واحد — لسبب ما صحيح — أن يعترف بذنوبه إلى كاهن غريب، لا بد له من أن يسأل أولاً الحصول على إذن من كاهنه، لأنه إذا ما لم يفعل هذا، لا يمكن للكاهن الغريب تحليل المغلول، ويتوجب أن يكون الكاهن مستقيماً وحذراً، أي أن يكون مثل طبيب بارع، يمكنه أن يصب الزيت والخمرة في جروح الرجل المصاب، ويبحث بعناية في ظروف المذنبين، والذنب، وبذلك يستطيع أن يفهم كيف يمكنه اعطاء الرأي المفيد إلى الشخص المعترف، وحسبما ينبغي أن يتسلم، وأن يستخدم نوعاً من العلاج، وأن يقوم بتجارب متنوعة لشفاء الرجل المريض، وعليه أن يتخذ كل الاحتياطات الممكنة والعناية الفائقة، بأن لا يخون المذنب، لا بالكلمة أو بالإشارة، أو بأي شكل من الأشكال مهما كان نوعها، وإذا ما احتاج الكاهن النصيحة من أي شخص أكثر حكمة، ليقم بالسؤال بحذر، من دون أن يذكر اسم الشخص، وكل شخص سوف يقدم على كشف أي ذنب أبيع إليه، عند منصة الاعتراف، هو لن يخلع فقط من وظيفته اللاهوتية، بل سوف يلقي به أيضاً في واحد من الديرة القاسية، ليعاني من عقوبة دائمة.

موت داود أمير شمالي ويلز

وفي حوالي بداية الربيع من هذا العام، عندما كان هؤلاء (الانكليز مع الويلزيين) على وشك الاشتباك بالحرب، التي كانت بالعادة أكثر عجلة، وفي أثناء العمل على صنع الترتيبات الضرورية، مات داود، أمير شمالي ويلز، وحفيد الملك، من جهة الأخت، وكان رجلاً حائثاً لليمين وقاتلاً لأخيه، وكان قد تلاشى تعباً بسبب مختلف الاضطرابات، فلقد غادر وادي الفنانين إلى وادي الموت، بعد معاناة لما لا يحصى من الأحزان بالعقل، وبعد رؤيته لدمار أراضيه، وشهوده لمختلف المذابح،

وآلام رعيته من الجوع، وهو الآن قد ترك ويلز في حالة اضطراب، وفي أوضاع مأساوية مزعجة، وفي محله انتخب الويلزيون ابن غريفين ليكون مقدماً لهم، الذي عندما سمع بهذا، ترك على الفور ملك انكلترا، وهرب بشكل مفاجيء مثل أرنب بري، إلى أوكار اختباء الويلزيين، مع أن الملك المذكور، كان قد تلقاه في صدر رحته، ورياه بشكل مشرف لمدة طويلة من الوقت الذي مضى، وارتقى به إلى المراتب.

عقد برلمان في لندن

في هذا العام، عملت بعض القوانين، مع زيادة بالقسوة ضد جميع الذين اقترفوا بشكل سري أعمالاً آذوا بها الحداثق أو المطارد التابعة للآخرين، وقد أعطي وصف كامل لهم في كتاب الرسائل، بعد عملية التفتيش المتعلقة بالتجاوزات المرتبطة بالغابات.

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير، وفي التحديد في اليوم الذي يغنى به: «لتبتهج القدس»، اجتمع جميع النبلاء من كل أرجاء انكلترا، بما في ذلك الأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، وكذلك الايرلات، والبارونات، في برلمان عام في لندن، بناء على دعوة ملكية، لعمل ترتيبات فعالة، حسبما تقتضي الحاجة، لشؤون المملكة، التي كانت الآن في أوضاع متأرجحة، لأن الشعب كان متأذياً من الظلم الذي لا يمتلئ، والذي مورس ضدهم بدون انقطاع من قبل البلاط الروماني، والذي لم يعد بإمكانه تحمله أية مدة أطول، من دون نيل تهمة الجبن، ومن دون جلب الدمار على أنفسهم، وقد أصيبوا بقسوة أكبر في نفوسهم، لأن البابا حث بوعوده، وعسف بهم وظلمهم يومياً، بشدة أعظم مما كان من قبل عملهم شكواهم، وفيما يلي الوعود التي كان قطعها البابا في مجمع ليون:

إمّياز آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع الأساقفة بشكل عام، وإلى كل من الكنائس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، وإلى رعاة الكنائس من رجال الدين والعلمانيين في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إنه بالنسبة لبعض الأضرار التي لحقت بكم من قبلنا من دون إرادتنا، أي من قبلنا أنفسنا، أو من قبل الآخرين بموجب سلطاتنا، مع أن المتوجب علينا هو أن نسعى — حسبما هو واجبنا — لحمايةكم من أزعاجات بعض الناس، لذلك ليكن معلوماً لديكم بموجب فحوى هذه العروض، أنه إذا كان ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارثن، كاهن حجرتنا، قد تولى بموجب أمرنا تعليق أي واحد منكم عن تناول المنافع أو امتلاكها، لقد قررنا سحب مثل هذه التعليقات، ما لم يكن قد جرى فرضها من أجل بغض الأشخاص، الذين قررنا — على كل حال — أن يقتصر عددهم على اثني عشر، شريطة أن لا يعدّ بينهم أيّاً من المنافع المتقدمة الذكر التي منحت، أو الذين لديهم رسائل تتعلق باستحواذهم من أولياء نعمتهم، أو من الذين الممتلكات عائدة إليهم».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الإخوة المبجلين، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، في جميع مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: بما أن الكرسي الرسولي متأثر بعاطفة كبيرة نحو الانكليز، إلى حد أنه ينوي أن يرفعهم فوق إخوانهم بعطايا مضاعفة، وأن يشرفهم بعلامة خاصة ذات إرادة طيبة، وإن رغبتنا العظيمة والمخلصة، هي أن يستمر الانكليز المذكورين بشكل متواصل في الاستمرار بتقواهم، وأن يرفعوا عالياً ممارسة أعمال الرب الصالحة، حتى يحتلوا بذلك بين البقية الجدارة والقبول، وبناء عليه نحن نرجوكم، ونحثكم، وبهذه الكتابات الرسولية نأمر جماعتكم، بتحريض سريع ومستمر، بأن تقنعوا رجال الدين في

مدنكم، وأسقفياتكم، والذين يمكن أن يعدّوا بين الفرسان الكهنوت، وبشكل خاص أبناء النبلاء، والرجال ذوي المراتب، بأن يارسوا بشكل ظاهر، الأمانة بالسلوك، وأن يستثمروا معارف الكتابة والفضائل، وأن يدرسوا بكل يقظة حتى يجعلوا من أنفسهم شاكرين، وموامين للمطالبة بنيل حظوة الكرسي المتقدم ذكره، والرغبات الطيبة للآخرين، وجائزة لاستقامتهم، لأننا على استعداد بكرم لفتح يد العناية اللاهوتية، إلى رجال الدين الانكليز المستحقين لذلك عن جدارة، وأن نوزع منافع ذاتية، على الذين أكثر نبلاً وأفضل أخلاقاً، من الذين نعرف أنهم يستحقون حصة أكبر من حظوتنا».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع رؤساء الأساقفة، والأساقفة في جميع أرجاء مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إن اخلاصكم يستحق عن جدارة، أن يقوم الكرسي الرسولي بتقويتكم بمعروف مناسب، وأن يرفع من شأنكم بامتياز نعمة خاصة، ولذلك نحن نميل إلى تزويدكم، ونرغب بالحفاظ على حقوقكم دون تعرض للأذى، وننصحكم، ونحذركم، ونحثكم، وبوساطة السلطات الرسولية نأمر جماعتكم، وبوساطة السلطات نفسها، بمنحكم الإذن — بقدر ما هو متعلق بكم — حراً، ومن دون معارضة، بأن تمنحوا المنافع اللاهوتية في عطاياكم، عندما يصبحون شاكرين، وأن تعطوهم إلى الأشخاص المناسبين، الذين يمتلكون الرغبة وكذلك القدرة على القيام بواجبات تقدمهم. ولذلك لاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى أبنائه رعاية جميع الكنائس في جميع أرجاء مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إن الاخلاص الحار للانكليز،

يتوجب أن يقوم الكرسي الرسولي باحتضانهم بذراعي عاطفة الأمومة لديه على أنهم أولاده المحظيين، وأن يرفع من شأنهم بامتياز النعمة الخاصة، ولهذا نحن نميل نحو التماساتكم، ونرغب بالحفاظ على حقوقكم دونما خرق، وبناء عليه نمحكم إذناً — بقدر ما هو متعلق بكم — حراً ومن دون اعتراض، بأن تقدموا إلى المنافع اللاهوتية التي لكم حق الرعاية عليها، أينما صارت شاغرة، الأشخاص المناسبين، الذين سوف يمتلكون الرغبة وكذلك الإرادة، والقدرة على أداء واجب ازدهارهم، ولا تدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى ملك انكلترا اللامع، إلخ، إلخ، نحن نرجو أن نخبر معاليكم، بفحوى هذه العروض، وهي مع أن الذين تولوا حمل الصليب من أجل مساعدة الأرض المقدسة قد أعفوا من أشياء كثيرة، نحن لانرغب في أن يكون الذين في مملكتكم، الذين حملوا شارة الصليب من أجل تلك الغاية، أن يكونوا معفيين من مراعاة العادات المرعية للمملكة المذكورة، بل أن يكونوا ملزمين مثل الآخرين بمراعاتها».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الملك المشهور لانكلترا، إلخ، إلخ: نحن نرجو بفحوى هذه العروض أن نخبر معاليكم، بأننا رسمنا مؤخراً، تمايشاً مع المجمع المقدس، بوجوب تعيين الجزء العشرين من جميع الموارد اللاهوتية لمساعدة الأرض المقدسة، وأن شطراً مساوياً من وارد بعض الكنائس — حصّة الثلث من بعض الأشخاص، وحصّة العشر من بعضهم الآخر — ينبغي أن يعطى لانقاذ الامبراطورية الرومانية (حسبما جرى تبيان ذلك بشكل كامل في القرارات التي نشرت حول

هذه القضية)، ولقد كان رسلك، الذين بعثتهم إلى المجمع المذكور باسمك، وباسم المملكة كلها، قد عارضوا بشدة جميع المراسيم من هذا النوع في ذلك المجمع».

وكان سبب هذه المعارضة، هو أن البابا قد رسم بأن يعطى منصب جباية هذه الضريبة لأي واحد سوف يختاره، وهذه حالة أصبحت موضع شك.

آخر

وكتب مرة أخرى إلى الملك، بادئاً رسالته بقوله: «بموجب فحوى هذه العروض نرغب بأن يكون معلوماً لديكم، بأنه مع أن الإذن قد منح حتى الآن، من قبل الكرسي الرسولي إلى بعض أساقفة الكنائس، بحرية الاحتفاظ لبعض الوقت بالمنافع اللاهوتية التي كانت بحوزتهم قبل ترقيةهم، إننا لاننوي من الآن فصاعداً القيام بمنح مثل هذه المنافع».

وإضافة إلى ذلك منح امتياز واحد هو: «ينبغي أن يخلف إيطاليا ايطالي على الفور»، وقد جرى منح هذا بسبب غش الذين قاموا إثر موت أشخاص متفعين، بشكل سري، بتعيين آخرين مكانهم، لكن جميع هذه المراسيم ومراسيم أخرى قد جرى اضعافها بسبب العثرات المعيقة، بعبارة «دون الاهتمام»، إلخ. «فأين هو الصدق؟ وأين هي الحقوق التي جرت العادة بتأكيدا بالكتابات؟ لقد نفيت».

كيف سعى الملك الفرنسي إلى مصالحة الإمبراطور مع البابا

في هذه الآونة عندما كان بحر الدنيا هائجاً بهذه العواصف، أخذ فردريك، ربما بعد قليل من ردات الفعل والتأمل، وربما لشعوره بالانذار، ولخوفه من حملات من الألمان، وكذلك من الايطاليين، ومن رعاياه أيضاً، ومن جيرانه، وربما لرعايته عقيدة الخوف من غضب

الرب، تغيرت مشاعره نحو الأحسن، وقد منح روح التواضع من قبل الذي قال من خلال نبيه داود: «املاً وجوهمم بالحياء، وهم سوف يطلبون اسمك، أيها المولى»، ولذلك عرض بعمل استغفار لذنوبه إلى البابا، وفي هذه المسألة عيّن الملك الفرنسي ليكون وكيله ووسيطاً، وقد بذل هذا الملك جهوده، وذهب إلى البابا الذي كان مقيماً في ليون، والذي قدم إلى كلوني لدى قدومه، للقاءه، ولعمل ترتيبات في سبيل إقامة سلام، إذا ما جرى تقديم أية عروض له، وقد عرض الامبراطور فردريك بأن يغادر إلى الأرض المقدسة، وأن لا يعود أبداً، أي أنه سوف يمضي حياته هناك في سبيل القتال من أجل المسيح، و سوف يبذل جهوده كلها في سبيل إعادة المملكة كلها إلى العبادة المسيحية، على شرط أن يوضع ابنه مكانه في المنصب الامبراطوري، وأن يجري منحه غفراناً وتحليلاً، أي إلى فردريك المذكور، مع مسامحة كاملة عن ذنوبه التي اقترفها، وبذلك يتم استرداد اسمه للسمعة الطيبة تماماً، وبذلك أيضاً يمكنه التحول من كونه خائناً إلى ابن للمصالحة، وعلى هذا العرض ردّ البابا قائلاً: «كم من مرة عمل الشيء نفسه، لابل إنه تقدم بوعود أعظم، فكل ذلك عمل من قبله، وجرى تثبيته بالآيمان من قبله، وهي آيمان لم يكتف بخرقها فقط، ورفض أن ينفذها، لكنه أضاف إليها ذنوباً لاتعد ولا تحصى»، ثم إنه نظر بتواضع نحو الملك، وقال: «مولاي ملك الفرنسيين، والابن المحبوب كثيراً، إنها ليست قضيتي التي هي موضع البحث، بل إنها أيضاً قضية جميع المسيحيين أيضاً، وليقم جلالتك بتقدير كم من مرة جرت دعوته وكيف كان ذلك بتواضع، في سبيل تحقيق مقصد المصالحة، في حين كان المجمع كله منتظراً، لكنه لم يقدم، مع أنه دعي من أجل الالتزام بالقرار الصحيح للمجمع، وليس للمحاكمة من قبل حكام، وكيف أنه رفض الوفاء بما كان قد وعد به من قبل، وأقسم عليه بنفسه، مقابل المخاطرة بروحه، ومن خلال وسطائه، الذين أيضاً أقسموا بروحه، ولذلك تعرضوا جميعاً للعار، وهي وعود —علاوة على

ذلك — أودعها كتابة، وصدّق عليها بختمه الامبراطوري اللازوردي.

فكيف لي أن أتمكن من ربط بروتوس هذا المتقلب دوماً؟

لقد جعل نفسه غير جديرة بالثقة في كل شيء».

وعلى هذا رد الملك الفرنسي التقي قائلاً: «أوليس مكتوباً في الانجيل، يا صاحب القداسة: (سبعون مرة سبع مرات) ينبغي فتح صدر الرحمة إلى الذي يطلب المسامحة؟ قدّر كم هي هذه الأوقات شريرة، الأرض المقدسة في خطر، وليست هناك من سبل لتحريرها مفتوحة أمامنا، مالم يقيم هو — بعد الرب — بمساعدتنا، فهو الذي يمتلك السلطات على الموانئ، والجزر، وعلى الأرض الواسعة قرب شواطئ البحر، وهو الذي يعرف جميع الأشياء، التي سوف تكون مفيدة لنا، نحن الذين على وشك الانطلاق في حجنا، وقد عمل وعوداً كبيرة، وإنني أطلب منك وأنصحك، باسمي، ونيابة عن الآلاف الكثيرة من الآخرين الذين على وشك القيام بالحج، والذين ينتظرون الفرصة الموائمة لعبور البحر، أو بالحري نيابة عن الكنيسة العالمية، وعن المسيحية كلها، في أن تقبل مثل هذا التواضع من جانب مثل هذا الأمير العظيم، متبعاً خطوات المسيح الذي أنت نائبه على الأرض، والذي — كما قيل — تواضع بنفسه حتى الخضوع للموت على الصليب»، لكن بما أن البابا كان عنيداً، فقد رفض، ولم يقبل الاستجابة لهذا الطلب، وغادر الملك الفرنسي غاضباً، ومنزعجاً، لأنه وجد فقط قليلاً من التواضع، عند الذي أمل بأن يكون «عبد عبيد الرب».

كيف سعى الداوية والاستتارية لفداء

إخوانهم الذين كانوا بالأسر

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور وسط مسيرة الشعب في هذا الجانب من الألب، وصل بدورانه أيضاً مسبباً تقلبات كثيرة إلى

الصلبيين في مقاطعات ما وراء البحر، وحيث أن الداوية والاستبارية شعروا بتعاستهم، فتفكروا حول ذلك فيما بينهم، مع أن ذلك جاء متأخراً، فقرروا تنفيذ صلوات خاصة، والتزموا بصيام أكثر من المعتاد من أجل انقاذ الأرض المقدسة، مدركين —علاوة على ذلك— بأن مقدميهم مع بعض فرسان الداوية وآخرين كانوا محبوسين وهم أحياء بمثابة أسرى، في ظل سلطة سلطان مصر، ولهذا أرسلوا بعضاً من فرسانهم الرهبان الذين عرفوا أنهم أكثر حكمة من البقية إلى السلطان المذكور للتباحث معه بشكل فعال، من أجل إطلاق سراح الأسرى المذكورين مقابل فدية، مهما كان المبلغ المطلوب كبيراً، وأمروهم أن لا يوفروا ذهباً أو فضة في الوصول إلى هدفهم، وكان هؤلاء الرهبان المبعوثين قد حصلوا على هدنة وأمان، وقد قدموا في المقام الأول هدايا ثمينة إلى أعيان رجال السلطان، ورجوهم بحرارة للتدخل بشكل فعال لصالحهم لدى السلطان، لإقناعه، لقبول مبلغ من المال، بقدر ما سيختار. ويطلب، يكون بمثابة فدية مقابل إطلاق سراح مقدميهم مع بعض إخوانهم، وعندما سمع السلطان بهذا وجه اللوم إلى هؤلاء المتوسطين، وانتقد الداوية والاستبارية المذكورين قائلاً: «كم هم تعساء هؤلاء المسيحيين الذين ندعوهم داوية، واستبارية، ذلك أنهم خارقين بالفعل لقانونهم ولنظامهم، ذلك أنهم رغبوا في المقام الأول، قبل عدة سنوات مضت، أن يقوموا بشكل خياني، بخيانة امبراطورهم فردريك، عندما كان في حجه في خدمة المسيح، لكن بفضل تقديرنا للعدل قمنا بحمايته، ولذلك لم ينجحوا في محاولاتهم، ومجدداً، إن هؤلاء الناس الملزمين بشكل متبادل بحب إخوانهم مثل جبههم لأنفسهم، وأن يساعدونهم في وقت الحاجة، قاموا الآن، ولمدة خمس سنوات، بشن الحرب فيما بينهم، ورعوا مشاعر للبغضاء الشديدة، أحدهم ضد الآخر، كما أن الايرل رتشارد أخو ملك انكلترا، الذي عدّ الأكثر تمييزاً بين جميع المسيحيين، لم يستطع تهدئتهم، ولقد قام هؤلاء الداوية بشكل وقح

بخرق الهدنة التي أبرمت بحكمة من قبله، نظراً لكراهيتهم له، أي
للايرل رتشارد المذكور، الذين سموه صبيّاً، وجاء ذلك بمثابة ازدراء
لإخوانهم الاسبتارية، وكذلك في الآونة الأخيرة، في المعركة التي
حوربت بيننا وبينهم، كان مقدمهم وحامل الراية (الذي يدعونه
Balcanifer) قد تصرفا بشكل معاكس لنظام طائفتهم، فقد كانا
أول من انسحبا هاريين من المعركة، وأضافوا الآن شراً إلى شرور،
وكدسوا خرقاً على خرق لأنظمة طائفتهم، بسعيهم لشراء تحرير
مقدميهم، وإخوانها الذين هم أسرى، بدفع مبلغ كبير من المال، وذلك
في الوقت الذي نعلم فيه، أنه وفقاً لأنظمة طائفتهم، يمكنهم فقط
إطلاق سراحهم بوساطة حزام محدد أو غطاء رأس، وبالنظر لانتهاكاتهم
المضاعفة، هكذا ألقى الله بهم أسرى بين أيدي الذين يكرهونهم»، ثم
إنه مع نظرة حادة عابسة أمر أولئك الوسطاء بالمغادرة معلناً أن أوضاع
الأسرى سوف تكون أسوأ بالنسبة للمستقبل، وعندما أبلغت نتيجة هذا
الطلب إلى الرسل، قالوا بأسف إلى الذين توسطوا من أجلهم: «ما الذي
علينا فعله في حالة الطوارئ هذه؟ هل أعطيناكم الهدايا من دون غاية،
مشاهدين كم كانت الثقة التي وضعناها بكم؟ انصحونا وبينوا لنا
بشكل فعال، الوسائل التي يمكن بها إطلاق سراح إخواننا الأسرى،
الذين نحن نطلبهم»، وقد أجابهم المترجم قائلاً: «صحيح أنكم
أعطيتمونا هدايا فاخرة، لسوف نعيدها إليكم، مع نصيحة صادقة، فكل
الذي يمكنكم فعله هو التالي: أقنعوا الامبراطور فردريك، الذي يحبه
مولانا، ويحترمه فوق جميع الناس، بأن يرسل رسالة شفوية مع رسول،
أو رسالة مكتوبة بأكثر عبارات الالتماس لطفاً، وكل هؤلاء الذين
تطلبونهم سوف يطلق سراحهم بامتنان»، فرد الرسل قائلين: «لن نوافق
مطلقاً مادامنا أحياء على خطة من هذا النوع»، وهكذا بعدما تعرضوا
لنقد حاد، غادروا وهم مضطربين، من دون أي أمل في تحرير أسراهم،
ومن هذه الواقعة يمكن استنتاج كم كانت الصداقة عظيمة، التي جمعت

بين الامبراطور فردريك والسلطان المذكور.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

فيما يتعلق باجتماع النبلاء في بارلمان سلف ذكره، في اليوم الذي ينشد فيه «لتبتهج القدس»، قام الملك في المقام الأول بمخاطبة الأساقفة، بفمه، منفردين، ثم خاطب بعد ذلك الايرلات والبارونات، وأخيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، حول القضايا التي من أجلها بعث برسله الخاصين إلى المجمع في ليون، وأراهم بعض الغفرانات، والرسائل البابوية التي تقدم ذكرها في هذا الكتاب، وهي الرسائل التي جلبها الرسل معهم لدى عودتهم، وأخبرهم كيف أن البابا قد عمل كثيراً من الوعود الجيدة للرسل المذكورين لصالحه ولصالح المملكة، ولكن لأن الملك قد شعر، حسبما سمع فيما بعد واكتشف، أنه حتى بعد الغفرانات المذكورة والوعود، ألقى البابا يده بثقل أكثر، وعمل، وكأنه متحدياً، مزيداً من المطالب، أكثر مما هو معتاد، تقدم بها نحو المملكة بوساطة ظلمه للكنيسة، وأراهم بنوداً تتعلق بالمظالم والأذى الذي مورس ضد الكنيسة وضد مملكته، وكان فحواهم هو كما يلي:

الأذى الذي لحق بمملكة إنكلترا

«ظلمت المملكة بسبب أن البابا لم يقتنع بالموارد الذي أطلق عليه اسم «بنس القديس بطرس»، بل استخرج اسهامات ثقيلة من جميع رجال الدين في انكلترا، ومازال يسعى لممارسة استخراجات أعظم، وقد عمل هذا من دون رضى أو موافقة الملك، بشكل معاكس للعادات القديمة، والامتيازات والحقوق الخاصة بالمملكة، وذلك على الرغم من المرافعات والالتماسات من قبل قساوسة الملك والمملكة في المجمع العام.

بند: إن الكنيسة وكذلك المملكة قد تعرضتا للظلم، بسبب أن رعاة الكنائس لم يمتلكوا السلطة لتقديم رجال دين موائمين لهم، عندما

يشغرن، وهو ما منحه البابا لهم في رسائله، بل إن الكنائس قد أعطيت إلى الرومان، الذين هم جاهلين تماماً باللغة الصحيحة للمملكة، مما يعرض أرواح الناس إلى الخطر، وهؤلاء الرومان يحملون المال إلى خارج المملكة، وبذلك يفقدونها إلى أبعد الحدود.

بند: إنها مظلومة بموجب القرارات المعمولة من قبل البابا لاستخراج أموال بشكل معاكس لفحوى رسائله، التي أفاد فيها، أنه من دون الأخذ بجميع الإجراءات التي عملت في انكلترا، إنه ينوي منح اثنتي عشرة منفعة، ونعتقد أنه بعد كتابة تلك الرسائل المذكورة، قد جرى منح كثيراً جداً من المنافع، وكثيراً من العطاءات عملت بعد ذلك من قبله.

بند: إنها مظلومة، لأن إيطاليا خلف إيطاليا، وبسبب أن الانكليز، قد سحبوا إلى خارج المملكة، بموجب السلطات الرسولية، وانتزعوا من بين قضاياهم، على الرغم مما قضت به أعراف المملكة، وعلى عكس الشرائع المكتوبة، لأنه لا يجوز أن يحشروا بين خصومهم، وعلى عكس الغفرانات التي منحت إلى ملك انكلترا، من قبل البابوات المتقدمين.

بند: إنها مظلومة بموجب إعادة تكرار، وظهور تلك العبارة غير الشهيرة في الرسائل وهي «دون المبالاة»، التي بموجبها أضعفت روابط الإيمان ودمرته، مع العادات القديمة، وقوة الكتابات المقدسة، والسلطة بمنح استثناءات وتأسيس قوانين وامتيازات، وبذلك فإن أعداد كبيرة من الناس في انكلترا، قد عسف بهم بحدة، وتضرروا، كما أن البابا نفسه، في إعادته النظر بسلطاته، قد ألزم نفسه بالتعامل مع مملكة انكلترا بشكل معتدل ولطيف، كما أنه قد وعد بشكل مؤكد بحماية مملكة انكلترا.

بند: إنها مظلومة بموجب الضرائب العامة التي جرت جبايتها

وأخذها، حيث أن ذلك جاء من دون موافقة الملك ورغبته، وعلى الرغم من مرافعة ومعارضة قساوسة الملك وجماعة انكلترا.

بند: إنها مظلومة، بسبب أنه في منافع الايطاليين، انعدمت مراعاة الشرائع، ورعاية الفقراء، وتقديم الضيافة، كما أن التبشير بكلمة غير حاضرة، ومثل ذلك انعدام استخدام زينة الكنائس، ومثل ذلك أيضاً لم تعد معالجة النفوس، والقداسات، تمارس بالكنائس، كما ينبغي ووفقاً لعادات البلاد، بل في أبنيتهم، انهارت الجدران مع السقف، وتدمرت نهائياً.

وبعد إيلاء هذه البنود العناية، وافق الجميع، أنه صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، عليهم أن يحاولوا ثانية بالرسائل وبالرسل الخاصين، التوجه بالرجاء إلى البابا، ليضع حداً لمثل هذه الأضرار التي لا تحتمل، وأن يرفع هذا النير الذي لا يحتمل عنهم، وبناء عليه كتبوا إلى البابا كما يلي:

شكوى جميع الإنكليز من المظالم المذكورة

«إلى أبينا المبجل في المسيح، انوسنت الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، من نواب الأساقفة في منطقة كانتبري، مع التوصية بتقبيل قدميكما المباركتين: إن لطف الكرسي الرسولي الذي وضعنا في صدر إكرامه، مع عاطفة خاصة، عندما كنا مؤخراً في مجمع ليون، وسمو هذا الكرسي الذي أظهر نحونا في كثير من الجوانب عطفاً كبيراً على تواضعنا، قد دفع عقولنا في حماسها الطفولي، في أن تتحمس من أجل كرامة وازدهار أمنا الكنيسة المقدسة، مظهرين بأننا راغبين بالعمل من أجلها، ومن أجل كرامتها، وللحفاظ عليها بسلام، كما هو متوجب علينا أن نفعل، وكلما ازدادنا حماسة بالحصول على نتائج اخلاصنا، كلما وجدنا أن علينا أن نزيد بقوة من الاحسان إلى شعبنا، ولملككتنا بالاتحاد

مع الكنيسة الأم، لكن هذا لا يمكن أن تكون له فعالية من قبلنا، من دون مساعدة خاصة من الكرسي المذكور، وكنا في المؤتمر الذي عقد مؤخراً في منتصف الصوم الكبير من قبل رئيسنا وملكنا، والذي كنا فيه حضوراً، قد سمعنا بعض الأشياء، نحن نقوم بتكرارها لقداستكم مع الأسف: وكانت هذه الأشياء هي أن الملك والنبلاء، وبالفعل الشعب بشكل عام، كانوا غير راضين، ويكررون الشكاوى، أنه بالنسبة لتوزيع المنافع، التي عملت بالفعل من قبل أصحاب العقود في انكلترا، أنهم هم والمملكة، وكذلك الشعب بشكل عام قد عوملوا باستخفاف، وبظلم لا يحتمل من قبل النبلاء ومن قبل آخرين، قد استدعيوا للمحاكمة خارج المملكة، بشكل مضاد لإمتيازاتهم ولإمتيازات المملكة، وأيضاً بوساطة أشياء أخرى مغضبة عديدة، نحن نعتقد أنهم ينوون إخبار قداستكم بتفصيل أكبر، ولدى إدانة هذه الأشياء بشكل مكشوف أعلنوا، وكأن ذلك كان صادراً عن قلوبهم، بأنهم بالحري يفضلون الموت على تحملهم أية مدة أطول، حيث يبدو أنهم يزدادون كل يوم أكثر فأكثر، وبشكل خاص لأن هذه المظالم المذكورة تعسف بهم، حسبما أكدوا، بثقل أعظم، وبشدة أكبر، غير عابئة بوعد تخفيفهم، الذي قيل بأنه قطع لقساوستهم من قبل قداستك، في المجمع المذكور أعلاه، وعلاوة على ذلك إن الشكاوى الصاخبة والهائجة لعدد كبير من الأشخاص الأقوياء جداً، هي خطيرة، وثقيلة لا يمكن تحملها بالنسبة لنا، ولا يمكن لنا تهدأتها بأية وسيلة من الوسائل، مع أننا نعمل بكل مشابرة ونستخدم كل الوسائل التي نعرفها للوصول إلى هذا المقصد، وإذا ما استمرت الأمور تسير هكذا، نحن نعتقد ونخشى، سوف يشكلوا بداية للمآسي، ومصدراً لكثير من الشرور في انكلترا، ولذلك نلقي بأنفسنا عند قدمي قداستكم، وبدموع نلتمس منكم ونرجوكم بمنح الانتباه إلى الإيثار المتوقد لدى الأنكليز، وأن تقدروا بأن مملكة انكلترا قد برهنت عن نفسها بأنها مخلصه بشكل خاص إلى الكنيسة

الرومانية المقدسة، وأن تنظروا بحق تبجيلكم للرب إلى الشعب المذكور بروح مواساتكم الأبوية في هذه القضايا التي تفضي إلى سلامته وأمنه.

ونحن أيضاً، بما أننا نرغب بحرارة بخلاصهم وأمنهم، سوف نبذل مساعيها للمحافظة عليهم معاً، في وحدة إيمان واخلاص للكنيسة، في سبيل —مع عون المسيح— أن تتحول لتشريف الرب، والكنيسة، وأنتم أيضاً شخصياً، أيها الأب المقدس، وبالإضافة إلى هذا، لعله يرضي قداسكم تهدة عقلي أميرنا المذكور مع أخيه رتشارد، إيرل كورنول، بموجب بنود مشرفة، ذلك أنهما قد أكداً قد أوديا بشكل متبادل، وأعلنا أن الإيذاء المذكور هو خطوة غير صحيحة أظهرتها الكنيسة الرومانية إلى الفئة المضادة».

رسائل رعاة ديرة إنكلترا إلى البابا

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، والمولى المحبوب كثيراً، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الخير الأعظم للكنيسة العالمية، من أبنائه المخلصين: رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان والرهبان في ديرهم في مقاطعتي كانتبري، ويورك، صحة وقبالات لقدميه المقدستين: إن حكمة الجلالة اللاهوتية، قد وزعت كل الأشياء، بالعدد، والوزن، والمقياس، وأرست قواعد الكنيسة، وقرينها على صخرة قاسية، أي على بناء أساس ثابت، تقوى كثيراً بملاط دم ابنه، حتى يتمكن من أن يرتفع البناء بسهولة أعظم، وبازدهار أكبر، فالكنيسة العالمية قد نبعت من دم المسيح، الذي صرخ عالياً من أجل المسامحة وليس من أجل الانتقام، وهي بتدبير من قرينها، قد حكمت من قبل أب واحد وراع واحد في الوقت نفسه، وفق طريقة سفينة نوح، التي انتهت إلى ذراع، واقتيدت فوق مياه الفيضان، والمسيح —أنا أقول— الذي هو فضيلة الرب وحكمته، قد وجد نفسه مع الكنيسة العالمية، على أنها قرينته الوحيدة، بسبب أنها حمامته الوحيدة، والمختارة الوحيدة من قبله، والتي مع أنها مقسمة إلى أجزاء خاصة،

يتوجب عدم فصلها عن العبادة اللاهوتية، وقد أظهرت كنيسة انكلترا نفسها بدون توقف مجيدة إلى قرينها، الذي دخل معها في اتفاق في الرحم العذراوي، من دون تلطيخ أو وصمة، وإلى الأوقات المتأخرة قد قيلت أشياء مجيدة كثيرة عن مدينة الرب، أي الكنيسة الانكليزية، التي بحكم كونها عضواً من الكنيسة الرومانية المقدسة، فإن جبال لبنان، والكرمل، وصهيون، يقومون دوماً برعاية واجباتها اللاهوتية، ومع نقاء الطهارة يتدفق قلبها مثل الماء، وهي ترفع يديها النقيتين إلى الرب، وتوجه بشكل مستمر أريج صلواتها إلى كرسي الحكم للثلث، ومع أنها لم تمل بأدنى الدرجات ولم تقصر في تأدية واجباتها، هي حزينة، وتبكي، ومضطربة بشأن الاستخراجات، والمظالم، والضرائب المضاعفة، التي وقعت ثقيلة عليها، لأننا كما علمنا من تأكيد النبلاء، وكذلك من صرخات الناس، فإن الريح المندفعة من الصحراء، قد هاجمت بعنف، وهزت الأركان الأربعة للكنيسة المذكورة، مثل بيت أيوب، ولذلك غيرت بهجتها إلى نحيب، وسرورها إلى بكاء، لأن روحها في وضع مرير، مالم يحصل بفضل من جلالكم، بعث الرأس الواهن الآن، ورفعته ثانية، وإليكم — بناء عليه — أيها الأب المبجل، تلجأ الكنيسة الانكليزية، بحكم كونكم بمثابة عمود قد ثبته الرب، وليس الانسان، وهي آملة بثقة بالرب، الذي أعماله هي الخير، بأنك سوف تستخدم علاجاً صحيحاً ضد مظالمها، وأنتك سوف تعطي بحق العدالة التي تتجلى من السماء، وتتطلع نحو الأسفل من خلال وحدة الرب مع الانسان، إلى كل واحد حقوقه، وأن تحفظ الجميع في عدالتهم، وبناء عليه، بما أننا أبناء مؤمنين ومخلصين للكنيسة الرومانية المقدسة، قد رأينا بشكل صحيح، أنه حتى يكون الأذى الصادر عن السهم الذي سلفت رؤيته أدنى درجة، إحالة القضايا المتقدم ذكرها إلى الكرسي الرسولي، مشاهدين أن مخاطر مضاعفة محيقة بها، وأنه في كثير من النقاط، مالم يتم تقديم العلاج الناجع من قبلكم، سوف يكون هناك سبب للخوف من

وقوع اضطراب بين الناس، سوف تنجم عنه فضائح، ولسوف ينتج كثيراً من الانشقاقات، لأن الناس مثارين ضد الملك، وعلى استعداد للتخلي عن ولائهم، ما لم تتم مواجهة المرض المحيق بسرعة من قبل السلطة الملكية، لأن النبلاء والرجال ذوي المناصب قد أعلنوا بأن الكنائس المعطاة من قبلهم إلى ديرة، سوف تعطى إلى رجال دين ايطاليين، إنهم يمتلكون الحق لاسترداد هذه الكنائس والمنافع الأخرى، ووضعها بين أيديهم، لأن الموارد الناتجة عنهم، يتوجب حقاً استخدامها لصالح الأشخاص الفقراء والحجاج، لأن هذه كانت نية المانح، وسبب المنح، فهل —بناء عليه— يرضي قداستك عمل ترتيب يقضي بعدم الفصل بين المملكة والكهانة، ولا بأي نوع من الأنواع، لأنه إذا ما حدث للكنيسة —التي عدت فيما مضى، فخار جميع العصور، ووفقاً لقول النبي أرض عمالقة— وقام انفصال هكذا بين المملكة والكهانة، فإنها سوف تجر إلى الدمار، كما أن الشعب سوف يكون غير راض، ومثل ذلك الكهانة، ولسوف يتبع ذلك من دون شك مقتل كثير من الناس، وفيما يتعلق بالأضرار التي يتشكى منها النبلاء والرجال ذوي المناصب، فإن الرسل الحاملين لهذه العروض سوف عنها يخبرونكم، ذلك أنه بتقويم يأتي مباشرة إثر شعورهم بالأسى، من الممكن تحويل أساهم إلى سرور».

رسالة من الجماعة العامة لإنكلترا إلى البابا

«إلى الأعظم قداسة، إلخ، إلخ، من أبنائه المخلصين: رتشارد إيرل كورنول، وسيمون دي مونت فورت إيرل ليستر، ودي بوهون إيرل هيرفورد وايسكس، ور. R لى بيغود إيرل أوف نورفولك، ور. R إيرل أوف غلوستر وهيرفورد، ور. R إيرل أوف وينكستر، و.و. W إيرل ألبميرل Abemarle، وهـ. H إيرل أوف اكسفورد، ومن آخرين في جميع أرجاء إنكلترا كلها، من بارونات

ونبلاء، وكذلك نبلاء الموانئ الساكنين قرب شاطئ البحر، ومثل ذلك أيضاً من رجال الدين والناس بشكل عام، صحة، وتبجيل جدير بجميع احترامات مثل هذا الخبر العظيم: إن الكنيسة الأم ملزمة تمام الالتزام برعاية أبنائها، وأن تجمعهم تحت جناحيها، حتى لا يقصروا في واجباتهم نحو أمهم، بل أن يبذلوا جهوداً كبيرة وقوية لصالحها، إذا كان ذلك ضرورياً، وأن يشهروا السيف، ويحملوا الترس، فإنهم قد يعرضون أنفسهم إلى كل خطر في الدفاع عنها، وهي التي من حليها استمدوا المواساة، أثناء تعلقهم على صدرها ذي العواطف المليئة بالأمومة، ثم إن على الأم أن تتذكر أولاد رحمها، خشية أن يتصرفوا بشكل معاكس، وينسحبوا من التغذي بحليها، وبذلك تظهر وكأنها قد غدت زوجة الأب، والأب الذي يسحب عواطفه عن أبنائه، ليس بأب، بل ينبغي دعوته — لسبب صحيح — الأب زوج الأم، لأنه يعدّ أولاده الطبيعيين، أولاداً غير شرعيين، أو أولاد الزوجة، وعلى هذا الأساس أيها الأب المحترم، يامن أنت «عربة بني اسرائيل وقائدها»، نحن نلوذ بثقة إلى ملجأ عاطفتكم، ونحن نصرخ بصوت مرتفع خلفك، وندعو باخلاص لك، على أمل نيل تعويض رباني، فقم بالاصغاء برحمة إلى أصوات الذين يصرخون من خلفك، وقدم لهم علاجاً ناجعاً لأثقالهم وأضرارهم، ومظالمهم المتوالية التي فرضت على مملكة انكلترا، ومورست عليها، وإذا كان الأمر عكس ذلك فإن مولانا الملك، سوف تدفعه الفضيحة التي ستقوم، وسوف تحرضه، مثلما حرضتنا نحن أنفسنا، بوساطة صراخ الناس، وعلى هذا إنه لمن الضروري بالنسبة لنا — أنه ما لم يتم تحرير الملك والمملكة على الفور من المظالم التي مورست عليه وعلى المملكة — أن نعرض أنفسنا بمشابة سور لبنت الرب، ومن أجل حرية المملكة، وهذا بالفعل قد أجّلنا عمله حتى الآن، وذلك صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، لكننا لن نتمكن من الإخفاء بعد عودة رسلنا الذين أرسلوا حول هذه القضية إلى الكرسي الرسولي،

ولا التمتع عن تقديم نجدة — بقدر ما نمتلك من قوة — إلى رجال الدين، وكذلك إلى شعب مملكة انكلترا، الذي لن يستطيع بأي حال من الأحوال تحمل مثل هذه الإجراءات، ويتوجب على قداستك أن تتأكد تماماً، أنه ما لم يتم اصلاح القضايا المتقدم ذكرها، بكل سرعة من قبلك، سوف تكون هناك أساسات منطقية للخوف، بأن مخاطر كبيرة سوف تحيق بالكنيسة الرومانية، وكما بين مولانا الملك إنه لن يكون من السهل تقديم علاج لهذه القضايا، لاسمح الرب».

رسالة الملك إلى البابا من أجل تحرير إنكلترا من المظالم البابوية

«إلى الأعظم قداسة، إلخ: يعلم الذي ليس بجاهل بأي شيء، أننا دوماً نحفظ بمشاعر صادقة نحو أمناء الكنيسة الرومانية المقدسة، وذلك بقدر ما هو متوجب علينا أن نحبها، فهي التي نطير إليها ونحن واثقين في أوقات الحاجة الملحة، مثلما يفعل الولد حين يطير إلى أمه، التي أرضعته من صدرها، والتي عليها أن ترعاه عندما يقاتل تحت حمايتها الخاصة، غير أننا لا يمكننا عدم سماع صرخات الشكوى غير الاعتيادية لنبلأ انكلترا، ولرجال الدين فيها، ومثل ذلك إلى الشعب، وذلك مهما كانت عظيمة المشاعر التي نحملها نحو أمناء المذكورة، وهو ما ننوي — بعون الرب ورعايته — بالاستمرار باظهاره نحوها، ذلك أن النبلاء قد أصبحوا، أكثر مما هو معتاد، رافعين لأصواتهم في شكوايهم، متوجهين بالدعاء إلينا من أجل استرداد حقوقهم وامتيازاتهم من المظالم، التي جرى حتى الآن لفت انتباهكم إليها بوساطة رسل خاصين، لكن هذه المظالم ما انفكت سيئة كما كانت تشكل الآن عبئاً أعظم ثقلًا عليهم، وبناء على ذلك أرسل النبلاء المذكورين — محقين — رسولهم الخاص إلينا، ولذلك نلتمس بحرارة من قداستكم، الاستجابة إلى التماساتهم بطريقة يمكن بها أن نحولنا نحن الأبناء، إلى راغبين كثيراً ومخلصين لأمناء ولك، ونخشى،

إذا فعلت غير ذلك، أن نوضع نحن، وكذلك الكنيسة الرومانية في أخطار كبيرة (نرجو الرب برحمته منعها) إلى حد أننا لن نكون قادرين أبداً على تحرير أنفسنا منها».

رسالة أخرى منه نفسه إلى الكرادلة حول القضية نفسها

إلى الآباء المحترمين أفراداً وكنية في المسيح، الذين هم بنعمة الرب كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من هنري، الذي هو بالنعمة نفسها ملك انكلترا، إلخ، صحة، وعواطف خالصة: مهما كانت درجة حبنا للكنيسة الرومانية، ورغبتنا بازدهارها ورفع شأنها، نحن لانستطيع المرور متعامين بصرخات الشكوى الصادرة عن نبلاء انكلترا، وعن رجال الدين، وكذلك عن الشعب، فهؤلاء أصبحوا أكثر إلحاحاً مما هو معتاد في رفع أصواتهم عالياً ضد المظالم، التي جرى من قبل لفت انتباه البابا إليها، ولفت انتباهكم أيضاً، في وقت متقدم، بوساطة رسلهم الخاصين، ولذلك إنهم يلتمسون بتواضع وبإخلاص بأن يتنازل بالإصغاء إلى التماساتهم المنطقية التي قدمت إليه بوساطة رسل متوالين، لأنه بذلك سوف يحولهم إلى أكثر محبذين ومخلصين إلى الكنيسة المذكورة، وإلينا، وسوف نمنعهم من أن يصبحوا بعيدين عن ولائهم، ونحن نرجوكم أيضاً بإخلاص، بحكم عاطفتكم الأبوية، ببذل جهودكم، في سبيل أن رسل النبلاء المذكورين الذين أرسلوا ثانية، يمكن أن يصغى إليهم بعناية من قبل البابا، وكذلك من قبلكم أنفسكم، حتى لا يسقط الخطر الهائل الذي هو الآن معلق فوق الكنيسة المذكورة — التي نحن مرتبطون بإظهار الخضوع لها إلى الأبد — علينا وعليها، مع أن هذا مخشي منه بدرجة كبيرة من قبل كل واحد، لابل من قبل الجميع في مملكتنا. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في اليوم الثامن والعشرين من أيار، في السنة الثلاثين من حكمنا».

كيف تكدست الشكاوي فوق الشكاوي

تواصل الآن، قدوم كثير من الناس الذين تضرروا من قبل البلاط الروماني، بالقدوم إلى الملك، مع روايات عن الوقائع اليومية للمظالم التي تقدم ذكرها أعلاه، (ولذلك تضاعفت الشكاوي في جميع الاتجاهات) أملين أن يبقى الملك ووكلائه ثابتين في توجهاتهم، وبشكاويهم أعادوا إلى ذاكرته وقائع كثير من المضار التي لحقت بهم، وإلى ذاكرة مستشاريه، والأضرار التي لم تكن قد ذكرت من قبل، أضيفت الآن إلى قائمة شكاويهم المتقدمة، والتي لم يكن ضررها قليلاً بالنسبة إلى الملك والمملكة، مثل مايلي:

شكاوي ضد البلاط الروماني

«صدرت مؤخراً رسائل عن الكرسي الرسولي، تتضمن قضايا على درجة عالية من الأذى إلى الملك وإلى المملكة، وهي أن على بعض الأساقفة تزويد قداسة البابا، بعدد محدد من الفرسان، بعضهم بعشرة، وبعضهم الآخر بخمسة، وبعض الآخرين بخمسة عشر، وعلى هؤلاء الفرسان الاستمرار في خدمة الكنيسة الرومانية لمدة سنة كاملة، وأثناء قيامهم بالخدمة، من المتوجب أن يكونوا تحت الدفع من قبل هؤلاء الأساقفة، كما أنه من المتوجب تزويد هؤلاء الفرسان بشكل جيد، وبما فيه الكفاية من الخيول والسلاح، وأن يكونوا حيث يرى البابا أنه موافق، لكن مثل هذه الخدمات العسكرية لا تجوز تأديتها إلى أي إنسان، باستثناء إلى الملك فقط، وإلى أمراء أصحاب مملكة، وليس من المتذكر قط، حتى وقتنا الحالي، أنها فرضت من قبل أي واحد، ولاحتى إنه إذا ما رغب البابا في فرض أي شيء من هذا النوع من دون موافقة الملك، أو إذا أراد تسلم مبلغ كبير من المال، مقابل الاعفاء من هذه الخدمة، فإن هذا لا يحق له، ولا بأي شكل من الأشكال، يضاف إلى هذا، ولكي لا يمتلك الملك وسائل احترازية ضد هذا العمل، جرى تدبر ذلك

بشكل مخادع من قبل بعض رسل الكنيسة، وصدر أمر من قبلهم إلى كل واحد من الأساقفة، أنه لا يجوز لهم الإباحة بخبر هذا الإلزام، إلى أي واحد تحت طائلة التعرض إلى عقوبة الحرمان الكنسي، أو دفع فدية ثقيلة عوضاً عنها، وذلك في إطار مدة نصف سنة، ومجدداً، مما أحدث أضراراً كبيرة وأذى عظيماً إلى جميع رعاية الكنائس الانكليزية، جرى في هذه الآونة، عمل منحة إلى رئيس أساقفة كانتبري، بوجوب إعطائه جميع موارد ومنتجات المنافع التي من الممكن أن تصبح شاغرة في مقاطعة كانتبري، أي إلى رئيس أساقفة كانتبري المذكور، لمدة سنة».

كيف تعافت الأرض المقدسة قليلاً من مظالم المصريين

وفي هذه الآونة، كان الخوارزمية الممقوتين قد أكملوا أعمالهم الشريرة في الأرض المقدسة، ولذلك طالبوا بصلف وبإلحاح أن يقوم سلطان مصر بالوفاء بالوعود المحددة والاتفاقات التي عقدها معهم مقابل خدماتهم بالحرب، وذلك من دون تأخير أو معارضة، غير أن السلطان المذكور رفض بقسوة الاستجابة إلى مطالبهم والإذعان لهم، وأوضح أنهم استغنوا بما فيه الكفاية وصاروا أثرياء من أسلاب المهزومين، وقالت الخوارزمية، صحيح أنهم نالوا بعض الغنائم، لكن مع ذلك قد سلموا إلى السلطان أشخاص النبلاء الأسرى، الذين سوف يفادى بهم بأسعار عالية، ومن هنا نشبت خلافات تبادل للملامة، وتحلوا عن السلطان وتركوه وهم مغضيين، مع تهديدات غاضبة، وعملوا على الفور اتفاقاً مع سلطان دمشق، ودخلوا في حلف معه ودعموه، وقام هذا السلطان، في سبيل إيذاء المصريين وتدميرهم، فأعطى ابنته بالزواج إلى مقدم الخوارزمية، ومنذ ذلك الوقت استردت دمشق أنفاسها، واعتماداً منها على مساعدة الخوارزمية المذكورين، قامت بهجوم حاد على المصريين، الذين هم أعظم أعداء الصليبيين، ولدى سماع الصليبيين بهذه الظروف المستجدة، شعروا بنوع من الآمال والمواساة من الخلاف فيما

بين المسلمين، ولا سيما من الانقسام فيما بين أعدائهم.

كيف برأ الإمبراطور فردريك نفسه من تهمة الهرطقة

وفي حوالي الوقت نفسه، قام الإمبراطور فردريك الذي لم تسمح الكنيسة له بأن يعدّ امبراطوراً، وفي سبيل استرداد سمعته، التي شعر بأنها تضررت كثيراً بتهمة الهرطقة، بإرسال الرسالة التالية إلى نبلاء انكلترا، الذين أمل بأن يقفوا جميعاً مع الملك، بجرأة ضد إلخاف البلاط الروماني.

رسالة الإمبراطور

«من فردريك، إلخ، إلخ، إلى أساقفة الكنيسة، وإلى الايرلات، والبارونات، والنبلاء بشكل عام، في جميع أرجاء انكلترا، وإلى جميع الذين سوف تصل إليهم هذه العروض، بحكم أنهم أصدقاءه المخلصين، صحة مع كل التمنيات الطيبة: مع أننا نعتقد أنه قبل التفوه بالاعلان عن السمعة العامة، وقبل حمل الشهادة الصادقة لرسل مختلف البلدان إلى علم جماعتكم، عن عدالة قضيتنا، بسبب — مع أن الأذى الذي يصل إلى الأذن أبطأ في إثارة العقل، من الذي يصل إلى أعين المسيحيين — أننا نحن نضع أمامكم الحقيقة النقية والمجردة، حول الاجراءات، التي قام بها حتى الآن، الحبر الأعظم، ضدنا، لأن بحثاً كاملاً ودقيقاً لها — مع أن أشخاصاً قد جرى تعيينهم في كثير من الأوقات، للبحث والتقصي في شؤوننا — نحن نثق بأن عواطفكم يمكن أن تعطي وقتاً ثابتاً وكافياً، يمكنكم خلاله أن تقدروا بآرائكم، فيما إذا كان لدى حبرنا تقدير صحيح للنزاهة الحبرية، وفيما إذا كان يجوز حرماننا من دفاع محق عن أنفسنا، نحن الذين أثّرنا من قبل كثير من الأذى الكبير كثيراً، وفي الحقيقة فيما إذا كان نائب المسيح قد قام حقاً بواجبات المسيح، وفيما إذا كان هؤلاء الخلفاء لسلفهم بطرس، قد اتبعوا

المثل الذي ضربه، وعليكم أيضاً أن تقدروا تحت أي عنوان، ينبغي وضع هذا النوع من الاجراءات ضدنا، أو بأي اسم يمكن تسمية القرار —إذا كان من الممكن تسميته كذلك— الذي سوف يعلن من قبل قاض غير كفء، لأنه مع أننا —على الرغم من تقديرنا الصحيح للإيمان الكاثوليكي— نقترح ونعترف بشكل واضح تماماً ونعتقد بأن سلطة كاملة في القضايا الروحية قد منحت من قبل الرب للكهنة الأعلى للكرسي الروماني المقدس، فمهما كان هذا الكاهن مذنباً كبيراً (لاسمح الرب) يمكن لما سوف يربطه على الأرض أن يربط أيضاً في السماء، ولكل مايجله أيضاً سوف يحل، ومع هذا نحن لم نقرأ في أي مكان بأن السلطة قد منحت له، في القانون اللاهوتي أو البشري، لأن يقوم بتحويل الامبراطوريات كما يشاء، أو أن يقرر إلقاء عقوبات دنيوية على الملوك أو الأمراء، بتجريدهم من ممالكهم أو أراضيهم، ومع أن واجب تكريسنا عائد إليه بعرف وعادات أجدادنا، فإن واجب حرماننا من الشيء نفسه، أو خلعنا ليس عائد إليه، أكثر من عودته إلى بعض أساقفة الممالك، الذين وفقاً للعادات يكرسون ملوكهم ويمسحونهم، ولنفترض أنه من دون موقف عدواني مسبق، هو مستحوذ على مثل هذه السلطة، فهل انطلاقاً من تمام سلطته، يمكنه أن يعاقب كل الذين يعلن أنهم خاضعين لسلطته، من دون مراعاة أو تقدير مطلق للقانون والنظام؟، لأنه قام مؤخراً، كما ذكر، بإجراءات ضدنا، ليس بوساطة وسائل نظامية بتوجيه الاتهام، لأن ما من اتهام أو متهم صحيح قد ظهر، وما من إجراء كتابي تقدم على ذلك، كما لم تكن هناك إجراءات استدعاء وفقاً للقانون، ولا بوساطة طريق الاستجواب، ولا بوضع الإدعاءات وعرضها مسبقاً، وبما أنه لم تكن هناك نسخة عن إجراءات الاستجواب قد عملت لنا وقدمت، وبما أنه لم يكن هناك شيئاً من هذا القبيل قد عيّن للاستجواب من قبل قاض مثل هذا، فقد أعلن أن كل شيء كان واضحاً، وهو ماننكر بشكل معلن أنه كذلك، كما لم يتبرهن

أنه واضح من قبل أي عدد قانوني من الشهود، لأنه بموجب هذه الطريقة أي قاض يمكنه — بوضعه جانباً كل المراعاة للقانون — أن يدين بنفسه أي واحد بموجب إعلانه فقط أن الجريمة واضحة، وقد قام هناك ضدنا (كما أخبرنا) في المجمع بعض العدد القليل من الشهود غير المستقيمين، كان واحداً منهم أسقف كالفي Calvi، الذي كان لديه سبب مسوغ لشعوره بالكراهية ضدنا، بسبب بعض قراباته، أي بسبب أخيه وحفيده، اللذان أدينا بشكل قانوني، وقضي عليهما من قبلنا بالشنق، بسبب جريمة الخيانة، والذي شهادته ينبغي أن ترفض بشكل صحيح، بناء على هذا الأساس، وآخرين قدما من أقصى مناطق اسبانيا، وهما أسقفي تاراغونا Taragona، وكومبوستيلا Compostella، اللذان هما معاديان لقضيتنا بسبب بعد بلدهما المحلي، وهو ايطاليا، وبسبب التأثير المسم الذي مورس عليهما، وعلى أتباعهما، وعلاوة على ذلك، إذا كان المدعي والقاضي قد تصرفا بشكل قانوني بالنسبة لما أدلى به الشهود، هناك فريق ثالث مازال مطلوباً، كان من الممكن أن يدان لو أنه كان موجوداً، وأن يدان إذا كان غائباً من خلال التمرد، لأنه مع أننا قد استدعينا أثناء وعظه في ليون — كما سمعنا — مع أن ذلك كان بشكل غير رسمي، أي كان علينا أن نظهر إما بشخصنا، أو من خلال آخرين أكفاء للإجابة عنا، ولتقديم العدالة للذي استدعانا، أو لآخرين لم تكن هناك عبارة واضحة حول الشخص أو القضية، وحاضرين لم تكن هناك بشكل مؤكد، لكن غيابنا قام على أسس جيدة، ولنبرهن أياً كان وكلاء القانونيين، لم يسمح لنا بذلك، كما أننا لم تكن غائبين صدوراً عن التمرد، بقدر ما كان هناك إلى جانب ذلك، أي استدعاء إلى أي واحد، لأنه كما ذكرنا من قبل، لم يحدد الاستدعاء أي وقت محدد، حسبما تتطلب الاجراءات القانونية، كما أن صيغ الاستدعاءات التي ترسل إلى الأمراء والأساقفة، تظهر بوضوح الذي يتكون منه تمردنا، بالاضافة إلى هذا كنا بريئين تماماً بوساطة رسالة

المعلم ثاديوس دي سوسا، الذي هو من رعيتنا المحبوبين، كما أنه القاضي المخلص في محكمتنا العليا، والذي لم تضعف سلطاته بأي حال من الأحوال بوساطة الاجراءات ضدنا، لأنها لم تكن مدنية، بل ذات صفة إجرامية، وفي هذا النوع الأخير لا يمكن لوكيل أن يعمل، بما أن فحوى الاستدعاءات التي وجهت إلينا أو إلى وكيلنا سوف تبرهن العكس، أي كان من المتوجب القيام بالاجراءات ضدنا ليس بطريقة تجريبية، بل في قضية مدنية، محدودة بكل الخصوصيات المتقدمة الذكر، من دون مواقف عدوانية مسبقة لحقنا العادل، وعلى افتراض أننا كنا متمردين بشكل مكشوف، إنه لايجوز قانونياً إصدار عقوبة بالتمرد، على شخص أخبر أنه متمرد، أو اتهم بالتمرد، وادانته بحكم محدد، قبل محاكمته بشكل إجرائي صحيح، ومن دون البحث في قضيته في محاكمة خاصة أو عامة، لأن لمثل هذه القضايا هناك عقوبات أخرى، تصدر بحق الأشخاص المتمردين، حسبما جاء في الأحكام المدنية والقانونية، وأخيراً لنفترض أن جميع الاحتياطات العدلية المتقدم ذكرها قد اتخذت، فذلك بلا جدوى، مع أنهم قد يكونوا قد استخرجوا من قضيتنا، ذلك أن فحوى ذلك الاعلان، بأن الحكم لم يصدر ضد وكيلنا الذي كان حاضراً، بل صدرت الإدانة ضدنا مع أننا كنا غائباً، وهو حكم تعلن بعض القوانين والحقوق أنه باطل وفارغ، والدليل على الظلم في جميع مسار الإجراءات قد ظهر أيضاً، في الأسباب التي أدخلت في قرار الحكم، والتي ضدها قد جرى الدفاع عنا بموجب حقيقة نقية، وبموجب وثائق معلنة، مثل الرواية الصحيحة لحملة هذه العروض، ومثل ذلك ماتظهره بكل وضوح محتويات تلك الوثائق، علماً بأن جميع القضايا المتقدم ذكرها، غير كافية لإصدار قرار حكم ضدنا بمثل هذه العقوبة القاسية (وذلك إذا كان من الممكن تسميته قرار حكم) وهو القرار الذي قد قذف ضدنا، نحن الامبراطور الروماني، ومن الواضح تهوره، ومن عقله المليء بمشاعر الكراهية أظهر أنه عمل وفقاً لذلك في

القضايا المتقدمة الذكر، لأنه لم ينتظر حتى لمدة ثلاثة أيام لوصول أسقفنا
المحبوب كثيراً، المبجل أسقف فريزنغيو Frisingue, وهـ . H
رئيس دير استارية الثيوتون، والمعلم ب. P دي فينيا، قاضي
المحكمة العليا، وهم من رعايانا المحبوبين كثيراً لدينا، كنا قد أرسلناهم
مؤخراً إلى المجمع لإكمال بنود مفاوضات السلام، كما أنه لم ينتظر
وصول المعلم وولتر دي أوكرا، الذي هو قسيسنا، والكاتب بالعدل
لدينا، ومن رعايانا المخلصين، وكان قد أرسل من قبلنا، وذلك بمعرفة
من الخبر الأعظم ومن بعض الكرادلة، وكان من المتوجب انتظار
وصوله لمدة عشرين يوماً، أي إلى ما قبل يومين فقط، قبل أن تأخذ
الإجراءات المتقدم ذكرها مكانها وتحدث في ليون، مع أن النبلاء
والأساقفة كانوا يتطلعون إلى وصوله وينتظرونه، هذا وهناك عدوانية
كبيرة واضحة في شدة القرار الذي أنزل على غلطتنا، والذي بموجبه
تمت إدانة الامبراطور الروماني، الحاكم الامبراطوري، والسيد المعلن لها،
بجريمة الخيانة، وبذلك جعل بشكل مضحك خاضعاً للقانون، وهو
الذي بموجب مرتبته الامبراطورية متحرر من القانون كله، ذلك أن
العقوبات الدنيوية لا يجوز أن تنزل عليه من قبل الانسان، بل من قبل
الرب، لأنه لا يوجد رئيس له بين البشر، ثم إن العقوبات الروحية التي
نحكم بها، ينبغي أن تكون بمثابة أعمال توبة يتم تحديدها لنا من قبل
الكهنة، ونحن بالنسبة لرفض المفاتيح، ومثل ذلك التجاوزات البشرية
الأخرى، سوف نستقبل باحترام، وسنطبق باخلاص العقوبات التي
ليس فقط يجري فرضها من قبل الخبر الأعظم (الذي بالنسبة للقضايا
الروحية نحن نعترف به على أنه أبانا ومولانا، وذلك مادام راعياً لرأي
تجاهنا بمثابة ابنه)، لابل حتى من قبل كاهن من الكهنة، ومن هذه
الأشياء كلها، إنه واضح تماماً، أنه قال بأننا ينبغي أن نكون موضع شك
في ابتعادنا عن الإيمان الكاثوليكي، منطلقاً من رغبة في توجيه الإهانة،
وليس انطلاقاً من أرضيات عادلة، وفي هذا الشأن، نحن نؤمن بأن

الذي هو في عشرين هو قاضينا، ونحن بفكر واحد نطبق معتقدين كل قراراته، وفقاً للنظام العام، وللأعراف المقررة للكنيسة الرومانية، ونحن نترك إلى حكمتكم حتى تقرروا فيما إذا كان الحكم المتقدم الذكر —الذي هو ملغى في ذاته— وفيما إذا كانت الإجراءات —التي هي من وجهة نظر القانون لاغية— من المتوجب رعايتها، ليس فقط لزيادة إلحاق الضرر بنا، بل وبجميع الملوك، والأمراء، وبجميع الأعيان الدينيين، والذي هو قرار حكم، ما من واحد من أمرائنا في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد حملنا لمرتبتنا، ووظيفتنا نفسها، والذي عليهم يعتمد خلعتنا، قد قام بتثيته بحضوره أو برأيه، وقدروا أيضاً أمراً آخر، وهو ماهي النتيجة المتوقعة من مثل هذه البدايات، إنها بدأت بالفعل معنا، لكن البقية من المؤكد أنها سوف تنتهي مع بعض الملوك والأمراء الآخرين، حيث أنهم يتفاخرون أنهم لا يخشون منهم أية مقاومة، وذلك إذا (لاسمح الرب) ما تمكنوا من وضع سلطتنا تحت أقدامهم ووطئوها في المقام الأول، وبناء عليه، أيها الملوك، دافعوا عن عدالة قضاياكم من خلال الدفاع عن قضيتنا، وتزودوا وأعدوا من أجل شعوبكم ومن أجل ورثتكم، ونحن لن نتردد، بكل ثقة، اعتماداً على رابط علاقتنا، في أن نطلب دعم تماسككم الملكي، بداية بعدم الإصغاء إلى أي شيء يمكن أن يكون مفيداً إلى خصمنا، من الممكن أن يذكره بوساطة رسله أو نوابه البابويين، سواء بشكل معلن، أو بشكل سري، بل الذي عليكم بالبحري هو أن تقوموا، بكل جرأة وقوة، مستخدمين كل الوسائل المتوفرة لديكم، بتقديم المساعدة لنا، وبعدم قبول أي رسول أو نائب بابوي يمكن أن يحاول نشر أي شيء لإلحاق الضرر بنا بين الناس، الموضوعين تحت إدارته، وكونوا متأكدين، أنه بموجب الشروع بمثل هذا العمل الطائش ضدنا، تستهدف السلطات البابوية من ذلك حرماننا، لتمد آفاق عملها، ومع ذلك إذا كانت اليد اليمنى للملك الملوك، التي تعين دوماً العدالة، سوف تقدم العون لنا، إننا سوف نواجه

هذه البدايات، شرط أن لا يقوم الملوك والأمراء المهتمين بقضيتنا، بمعارضتنا، لأنكم أنتم مع أشخاص كبار آخرين على الأرض، يمكن أن يشعروا محقين بالخوف من مثل هذه المحاولات المتخذة ضدنا، ونحن نفعل هذا غير راغبين، والرب هو شاهدنا، غير أننا مكرهين على ذلك، عندما نرى بأن المسيحية مداس عليها في أيامنا هذه، ونحن نأمل، حسبنا كتبنا مؤخراً إلى جلالة الملك، بالتعاون معكم في الحفاظ على قضيتها، نرجو أن يقوم الرب فيقضي بيده على هذا الذي يقدم الوقود إلى دمار المنفعة المسيحية العامة، وعلاوة على ذلك إن كل الذي سوف يقوله لكم هوغ كابوشي Cabuche فارسنا المحبوب كثيراً ورسولنا المخلص، يقوله لكم باسمنا حول مايتعلق بالقضايا المتقدمة الذكر، يمكنكم عدّه أصيلاً. صدر في تورين Turin في اليوم قبل... من آب، في الإشارة الثالثة.

كيف نأت عواطف مختلف الأمراء وابتعدت عن البابا

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى علم كثير من الأمراء، نأت تماماً بعواطفهم عن البابا، فهم قد خافوا من تشامخ البلاط الروماني، إذا ما رضح فردريك له.

البابا يتدبر انتخاب لاندغريف أوف

ثورونجيا إلى المنصب الإمبراطوري

ثم إن البابا في جهوده المتواصلة ومساعيه المستمرة للرفع من شأن قضيته، سوغ موقفه من القضية، ورغبته في سحق فردريك المذكور بشكل ماحق، فحصل على انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المرتبة الامبراطورية، والاعتراف بانتخابه من جميع الكنائس، ولهذه الغاية وعد اللاندغريف المذكور بمساعدة وافرة في كل من المال والعساكر، وبناء عليه كتب رسالة إلى رئيس أساقفة كولون، وإلى الأساقفة الآخرين،

وإلى نبلاء ألمانيا، لجلب هذا العمل إلى نهاية سريعة، وإلى هذا استجاب كثيرون، وبشكل خاص رئيس الأساقفة، كما أنه أرسل إلى امبراطوره — اللاندغريف — مبلغاً كبيراً من المال ليتمكن من شن الحرب بنشاط وفعالية ضد فردريك، وقام الأخير بنصب كمين إلى الأشخاص الذين كانوا جالين لذلك المال مع بعض الهدايا الملكية، في سبيل تحويل ذلك لصالح استخداماته، وإلحاق الأذى باللاندغريف، الذي هو منافسه، وكذلك بالبابا.

كيف أرسل الإمبراطور كونراد ضد الإمبراطور المنتخب حديثاً

ثم وجد الإمبراطور، أن خصمه، اللاندغريف المذكور، قد جرى الاعلان عنه في ألمانيا، بفضل امكانيات البابا، وذلك للحط من شأنه ولتدميره، وأنه قد سمن تماماً اعتماداً على أموال البابا، وأيضاً أن كثيراً من نبلاء ألمانيا قد ارتبطوا به بقوة، ولذلك أصيب بالدهشة والحزن، وبناء عليه أرسل ابنه كونراد مع قوة كبيرة للقتال ضده، لكن حدث في يوم القتال، أن الذين كانوا ملتزمين بمساعدة كونراد المذكور، قد انتشرت الأخبار، بأنهم أفسدوا بوساطة أموال البابا، وبدناءة تخلوا عن سيدهم في ميدان القتال، وانهمزوا، أو بالحرى انضموا إلى جانب أعدائهم، ونتيجة لذلك عاد كونراد المذكور إلى أبيه مهزوماً يحمل العار.

زواج شارل الأخ الأصغر لملك فرنسا

من الابنة الصغرى لكونت بروفانس

وفي هذا العام، جرى تحرير الابنة الصغرى لريموند كونت بروفانس المتوفى، من وصاية الملك الفرنسي، بوساطة تدخل أمها بيترايس، وبإرادة من الملك المذكور وترتيب، جرى إعطاء كونتيه بروفانس إلى أخيه الأصغر شارل، واقرنت الابنة المذكورة للكونت به بالزواج، لكن في هذا لم يكن هناك كثيراً من السرور قد ظهر بين النبلاء، ولذلك بات

شارل المذكور غاضباً ويقال بأنه قال لأمه وهو غاضب ومنزعج: «لماذا لم يكن في هذا الاحتفال العام كثيراً من مظاهر الفرح بين النبلاء، مثلما كان أثناء زواج أخي الملك، وذلك في حين أنني ابن ملك وملكة، بينما هو لم يكن كذلك؟»، وقد قال هذا لأن شارل المذكور، قد ولد بعد وفاة فيليب الملك الفرنسي الأخير، وتتويج لويس ملكاً، وغدوه ملكاً على الفرنسيين، في حين كان فيليب حياً قبل زواج لويس، ويتوافق هذا الكلام مع مقاله هنري الأصغر، ملك انكلترا، وذلك عندما قام والده هنري الثاني بخدمته، أي بخدمة هنري الأصغر، حيث قال له: «إنك لست مهاناً بخدمتك لي، لأنك أنت ابن إيرل، بينما أنا ابن ملك وملكة»، لكن دعونا ننتقل من هذا الاستطراد، ونكمل حكايتنا، فقد قام الملك الفرنسي، في سبيل أن لا يمتلك فردريك القدرة على إلحاق أي ضرر به، أثناء غيابه في حجه، وأن لا يمنعه من الوصول الحر إلى مينائها، قام ببناء ميناء موافق جداً في بروفانس، مقابل نفقات كبيرة، على البحر المتوسط، وبحكمة بنى من حوله قلاعاً قوية.

البابا يأمر بصنع شراريب ذهبية مثل

الشراريب التي يرتديها الإنكليز حتى ترسل إليه

وحدث في هذه الآونة أن رأى البابا الشراريب الذهبية الجميلة بين الزينة اللاهوتية التي ارتداها بعض الأشخاص الإنكليز فوق أرديتهم وفوق ألبسة الرأس، فسأل عن مكان صنعها، ولدى إجابته: «في انكلترا» قال متعجباً: «حقاً إن انكلترا هي حديقة بهجتنا، وصدقاً هي بئر لا ينضب، فيها أشياء كثيرة وافرة، ومن أشياءها الكثيرة، كثير هو الذي يمكن استخراجها»، وبناء عليه أرسل على الفور رسائله المقدسة المختومة بختمه إلى جميع ديرة طائفة السسترشيان المقيمين في انكلترا، الذين إلى صلواتهم عهد بنفسه مؤخراً، في الهيئة الرهبانية للسسترشيان، أمراً إياهم، أن يقوموا من دون تأخير — وكأنهم سوف يحصلون

عليهم مقابل لاشيء — بارسال بعض الشراريب الذهبية المنتقا ليزين بها ثيابه وأرديته للقداسات ولجوقة الانشاد، وهو أمر لم يرض المرتزقة اللندنيين، لأنهم قد أعدوهم للبيع، وقد باعوهم بالأسعار التي ارتضوها، غير أنها أصابت كثيرين بالقرف، بمثابة بينة على شره الكنيسة الرومانية.

الحملات التي قام بها التتار على المسيحيين

قام في هذا العام التتار، ذوي الذكرى المقيمة جداً بحملة مرعبة داخل المناطق المسيحية، فبعدما أخضعوا كثيراً من الأمراء المسلمين — لأن الرب كان معادياً لبني البشر — جعلوا ملك أرمينيا، وأمير انطاكية، وعدداً كبيراً آخر من النبلاء المسيحيين، يدفعون الجزية إليهم، وبعد ذلك باتوا يأملون بمزيد من حسن الحظ، فتجروأوا مجدداً على غزو مقاطعات هنغاريا، وقد بدت إليهم، وكأنهم لم يخضعوها من قبل، مع أنها كانت قد هجرت بشكل مشين من قبل سكانها، وارتعب ملك تلك البلاد لدى وصولهم، فانسحب مع السكان من الأماكن الضعيفة من أراضيه، وهرب إلى الأماكن الأكثر حصانة (وهذه الأماكن بدت حتى بالنسبة له غير آمنة تماماً)، وانتظر هناك نشوب معركة دموية، كما أنه أرسل رسالة إلى البابا كي يستخدم غاية مساعيه لحمايته وحماية جميع المسيحيين، من مثل هذا الوباء الجارف، لكن حتى بهذا لم ينصرف البابا عن إدمانه وتشوقه واستخدام كل جهوده لجمع المال، كما سنرى في الصفحات التالية.

تعيين روجر بيغود مارشالاً

في هذا العام، وبعد وساطات متوالية، جرى منح مرتبة المارشال، مع المنصب والتشريفات العائدة إليه، إلى الايرل روجر بيغود، بسبب أن الكونتيسة زوجته، كانت الابنة الكبرى لوليم الكبير، ايرل مارشال.

كيف تفجرت حروب متنوعة في جميع أرجاء ألمانيا

وفي العام نفسه أيضاً تفجرت الحرب في كثير من الأماكن من ألمانيا، وفي كثير من المناطق المجاورة لها، لأن كثيراً من النبلاء، ولا سيما من العلمانيين، تبنا قضية فردريك، في حين وقف إلى جانب البابا، رئيس أساقفة كولون مع كثير من الأساقفة، ومثل ذلك بعض العلمانيين، الذين نعموا، أو بالحري أتحموا بأعطيات الكنيسة، وبالإضافة إلى هذا، نشب خلاف بين أبناء كونتيسة فلاندرز، قاد إلى حرب مدمرة، تفجرت فيما بينهم، وذلك بسبب الابن الأكبر لـ «بوكارد Buchard» الذي لم يكن شرعياً، ولكن منح الشرعية من قبل البابا، فطالب بتملك بعض الميراث، غير أن الابن الثاني، الذي كان شرعياً، أعلن عن نفسه بحق أنه الوريث، وأعلن أن كل شيء هو عائد له، بموجب حق الوراثة، لذلك تورط في أعمال سلب ونهب واغتصاب، واكتسب الآن عرفاً جديداً أرضيته لدى البلاط الروماني، قضى أنه عندما تنشب الحرب بين أي نبلاء، يتبنى البلاط الروماني قضية الطرف الذي التجأ إليه طالباً المساعدة، محلاً هذا الطرف، ومصدراً حكم الحرمان الكنسي على الطرف الآخر، وعلى هذا فإن الطرف الذي استعان بوسائله، عدّ في جميع مستقبل الأيام مرتبطاً به، وقد تبرهن هذا بوضوح في قضية داود أمير شمالي ويلز، كما أدخلت عادة أخرى مقيتة، وهي أن أي كاهن كانت لديه وفرة من الموارد الغنية، وانتخب أسقفاً، قد سمح له بحرية — بموجب غفران بابوي جاء الحصول عليه عن طريق الوساطات والهدايا — بممارسة نهمة للاحتفاظ بالموارد التي كانت من قبل بين يديه، وكذلك بالأسقفية، وهذا واضح وقد تمثل بقضية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، كما أن هناك أعرافاً أخرى شقت طريقها إلى البلاط المذكور، بذكرها شعرت قلوب رجال مقدسين بالحزن العميق.

كونت سافوي يقدم الولاء إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، قام أماديوس Amadeus، كونت سافوي، الذي شعر عن حق بتقدير كبير نحو ملك إنكلترا، بحضور بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وبطرس أسقف هيرفورد، ونبلاء آخرين، وأصدقاء وأقرباء الكونت المذكور، وكذلك الملك، بتقديم الولاء إلى الملك المذكور، على يدي رئيس الأساقفة، الذي شغل مكان الملك أثناء غيابه، وقام الكونت عن طوعية من ذاته، وبارادة شخصية فتولى تثبيت الولاء الذي عمله فيما يتعلق بورثة الطرفين، بتعهده بإيمانه وباليمين الذي لارجعة فيه، بمراعاة الشيء نفسه، ثم إنه تسلم اقطاعاً من الملك تعلق بسوزا Suza مع قصرها، وفيلانا Veil- Lana والقديس موريس دي شابلي Chablis، وقلعة باردو Bardo، وكان بالامكان عمل هذا الولاء بشكل آمن من دون خرق لمصداقيته، أو تسبب الأذى إلى الامبراطور، أو الامبراطورية، لأنه لم يكن بين يديه شيئاً من الامبراطورية إلا الماء، وحق عبورها.

كيف أن الاستخراجات المعتادة قد خففت شدتها

وفي هذه الآونة، تمّ بوساطة وكلاء ملك إنكلترا في البلاط الروماني عمل ترتيبات قضت أنه مع أن البابا يتولى حسب رغبته ومن دون تمييز في كل مكان إعطاء المنافع الكنسية لفائدة الايطاليين، حتى وإن أدى ذلك إلى إلحاق الضرر الذي لا يحتمل بمملكة إنكلترا، ومع ذلك هدأت — بنعمة الرب — العاصفة في ذلك الطرف، لأنه ترتب انه كلما رغب بإعطاء منفعة هناك إلى أي إنسان، أو إلى أي واحد من أقربائه، أو إلى أقرباء الكرادلة، يتوجب عليه — أي البابا — وكذلك على الكرادلة، أن يطلبوا إذن الملك، وبناء عليه إن كان ما يرضيه سوف يجري تنفيذه.

كيف أصبح الدومينيكان والفرنسيسكان رسل البابا

ووجد فردريك في هذه الآونة أن البابا لديه كميات وافرة من المال الانكليزي، ولذلك مركز حرساً وكماثن، على الطرقات، وعلى الجسور، وفي الموانئ، لمنع أي واحد من جلب المساعدة من البابا إلى خصمه اللاندغريف، وبناء عليه أرسل البابا رسائل مواساة ومساعدات أخرى إليه بوساطة الدومينيكان والفرنسيسكان وهم متخفين، ومن جانب آخر تدبر فردريك إرسال مؤن إلى الأرض المقدسة.

ملك مان يتسلم مرتبة الفروسية

احتفل الملك في هذا العام بعيد الفصح بأبهة عظيمة في لندن، وفي يوم الفصح منح شرف مرتبة الفروسية إلى هارولد Harold ملك مان Man.

وفي تلك الآونة أيضاً، رغب بعض مقدمي النبلاء الويلزيين، بإقامة سلام مع الملك، فأرسلوا سفارة إليه، ورجوه بأكثر الالتماسات تواضعاً، أن يمنحهم بنود سلام.

مغادرة رسل الجماعة في إنكلترا إلى روما

وفي اليوم التالي لعيد الفصح، انطلق النييلان اللذان عهد إليهما بواجب حمل الرسالة المهمة المتقدم ذكرها إلى البابا، وهما: المعلم وليم دي بوويرك Poweric، وكان رجلاً بارعاً في القانون، وهنري دي لى مير Mare، وكان فارساً، انطلقا برحلتهم إلى روما، يحملان الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل، وقد ألقى ثقل الأعمال — على كل حال — على كتفي رئيس رهبان وينلوك Wenlock، الذي كان قد ذهب إلى البلاط الروماني ضد أسقف روكستر، بسبب بعض الأذى الذي لحق به من قبل ذلك الأسقف.

حول الأضرار التي تسبب بها الصقيع والثلج

في نهار وخلال ليلة عيد القديس مرقص الانجيلي، غطى الصقيع والثلج الأرض وربطها ببرد ثقيل جداً، وبذلك أضعف نمو أغصان الأشجار مع أوراقها، ولهذا زوت الأوراق وكذلك النباتات بشكل لا يمكن تعويضه.

إعادة بارونيته إلى أسقف شيلستر

وفي تلك الآونة لان جانب الملك بوساطة توسلات الأصدقاء، وبلفظ أعاد بسلام إلى روجر أسقف شيلستر تملك بارونيته، لأنه كان رجلاً لطيفاً في مسلكه، وكان يحظى برعاية جميع الأطراف.

مرسوم جديد وغير اعتيادي للبابا

وسمع البابا في هذه الآونة بأن بعض الكهنة في انكلترا، قد ماتوا أغنياء ومن دون وصية، وكان من بينهم المعلم روبرت هيل Hales، رئيس شمامسة لنكولن، الذي مات قبل عدة سنوات مضت، من دون وصية، وخلف عدة آلاف من الماركات، وبعض الكؤوس من الفضة، آلت إلى ملكية علمانيين، وكذلك أماريك Almaric، رئيس شمامسة بدفورد، الذي مات مخلفاً مبلغاً كبيراً من المال، بطريقة غير معتادة، وأخيراً المعلم جون دي هوتوفب Hotofp، رئيس شمامسة نورثامبتون، الذي أصيب بمرض مفاجيء، وبشكل غير حكيم، وغير معتاد، مات من دون وصية، مخلفاً حوالي خمسة آلاف مارك، وثلاثين كأساً من الذهب والفضة، وكميات ضخمة جداً من الجواهر، ولذلك أصدر قداسته مرسوماً جديداً، لم يسمع بمثله في انكلترا، إنما ليس من دون نيل تهمة الشره، وقضى هذا المرسوم، أنه من ذلك الوقت فصاعداً، إذا مات أي كاهن من دون وصية، فإن ممتلكاته ينبغي تحويلها إلى استخدامات البابا، وأصدر أوامر إلى رهبان

الدومينيكان والفرنسيين كان بتنفيذ هذا المرسوم، لكن عندما سمع الملك بهذا، وفي مقتله لمضاعفة شره البلاط الروماني، منع من تطبيق المرسوم، مشاهداً أنه يزيد من أذى المملكة، وذلك إضافة إلى الأضرار به.

وفي هذه الآونة تحرر المعلم روبرت أوف آرونديل Arundel، الذي كان رجلاً بارعاً تماماً باللغة العبرية، والذي قام بصدق بترجمة كثير من الكتابات من اللغة العبرية إلى اللاتينية، تحرر من المشاكل البشرية، وقام بوداع العالم.

إصابة معلم أبناء الملك بالسكتة الدماغية

في أسبوع الابتهالات أمر الملك باتخاذ المزيد من الإجراءات الأمنية بشأن شعب المقاطعات القائمة على ساحل البحر، وفي سبيل ذلك ذهب إلى دوفر، ومن هناك إلى كانتربري، ولدى عودته من هناك، أصيب نبيل من حاشية بيته اسمه هوغ غيفارد Giffard، وكان معلماً لأبناء جلالته، فجأة بسكتة دماغية، وسقط على الأرض، ولفظ أنفاسه، وفي حالة ألم كبير، وقد قال بعضهم بأن هذه الحادثة قد وقعت انتقاماً من القديس ادموند المعترف، الذي كان رئيس أساقفة كانتربري، ذلك أنه بالموت المفاجيء لواحد من جانب الملك، يمكن أن ينذره، ويدفع به للقيام بعمل ترضية لكثير الأذى الذي أنزل بكنيسة كانتربري، وبشكل رئيسي بسبب أنه أسرع بشكل طائش بترقية بونيفيس إلى مرتبة رئيس الأساقفة، دون أن يسمح لرهبان كانتربري —بموجب حقهم— بامتلاك سلطة حرة بانتخاب الذي يختارونه، لأن بونيفيس المذكور، بتوريطه نفسه بطرق غير معتادة وغير موثقة في الحروب في القارة، دونما ضبط، بل القيام فقط بأفكار كنيسة، قد تولى بشكل مهين الانحراف عن طرق أسلافه.

كيف منع ملك إنكلترا دفع الضريبة إلى البابا

وفي هذه الآونة أيضاً، أصدر الملك رسائله الملكية، محظراً على الأساقفة دفع الضريبة إلى البابا.

وكتب إلى السيد راعي دير القديس ألبان، وإلى الآخرين كذلك، الرسائل التالية: «من هنري، الذي هو بفضل الرب ملك إنكلترا، إلى المحبوب لديه كثيراً في المسيح راعي دير القديس ألبان، تحيات: لقد سمعنا بأن الأب المبجل فولك Fulk، أسقف لندن، يرغمكم على دفع ضرائب من أجل استخدام البابا، وقد دهشنا لذلك كثيراً وانزعجنا، لأنه كان قد تقرر بشكل جماعي أثناء الاجتماع المتقدم ذكره، من قبل الأساقفة المذكورين، والنبلاء، عدم فعل أي شيء يتعلق بتلك الضريبة، قبل عودة الرسل من البلاط الروماني، الذين إليه قد أرسلوا، كما تعلمون، بمهمة خاصة تتعلق بمملكتنا كلها، وبناء عليه نحن نأمركم، وبكل دقة نمنعكم من محاولة القيام بأي شيء معاكس لما تقدم الأمر به، أي بناء على أمر الأسقف المذكور، أو أي واحد آخر، مادتم تؤثرون المحافظة بسلام على امتلاككم لبارونيتكم، التي هي بحوزتكم منا، لأننا لن ولايمكننا أن نتحمل أية محاولة من هذا النوع. شهدت بنفسني في ويستمنستر، في هذا اليوم الأول من نيسان، في السنة الثلاثين من حكمنا».

رسائل بابوية لاستخراج الأموال أرسلت إلى أساقفة إنكلترا

وحوالي الوقت نفسه، ولكي لا تتوقف جباية الضرائب المزعجة من الانكليز، عمل البابا أكثر الطلبات سرعة وإلحاحاً، من أجل مبلغ كبير جداً، واضعاً ثقته في الذهب والفضة، معاملاً بازدراء كل محاولات التذمر والشكوى الصادرة عن ملك إنكلترا والجماعة كلها في تلك المملكة، والذين كانوا يكتبون ويتشكون، ولم يصنع إلى القول الصحيح

والسليم: «بورك الرجل الذي لم يخرج عن طريقه سعيًا وراء الذهب، والذي لم يضع ثقته في مخازن المال»، وقد عيّن بمثابة وكلاء لاستخراج هذه الضريبة وجمعها، وولتر أسقف نورويك، مع بعض الآخرين، قد أنابهم ليكونوا رسلاً خاصين لهذه الغاية، وبناء عليه كتب أسقف نورويك إلى راعي دير القديس ألبان، ومثل ذلك فعل أيضاً بالنسبة لبعض الآخرين بالعبارات التالية الحاوية لما جاء في رسالة البابا:

«من وولتر، الذي هو بنعمة الرب أسقف نورويك إلى راعي الدير المبجل والمجمع الرهباني لدير القديس ألبان، صحة دائمة: لقد تلقينا وصاية من مولانا البابا محتواها هو كما يلي»:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أخويه المبجلين أسقفي وينكستر ونورويك، صحة ومباركات رسولية: كنا من قبل، كما نذكر جيداً، قد كتبنا إلى إخواننا المبجلين، أساقفة لنكولن، وووركستر، ولندن، وكوفنتري، بما يلي: بما أنه تم مؤخراً، قبل عودتكم إلى انكلترا من عند حضرتنا، قد رتبنا معكم، أنه بالنسبة لتقديم مبلغ الستة آلاف مارك، الذي هو مطلوب من الكنائس الانكليزية، لصالح الكرسي الرسولي، يتوجب جمعه، تحت توجيهكم، من بين أسقفيات انكلترا، ونحن في هذه الكتابات الرسولية نأمر اخوتكم، أن تخبرونا بأقصى سرعة ممكنة في رسائلكم، حتى نعهد إلى حاملي هذه العروض، بالذي من الممكن أن تفعلوه، أو ربما بالذي قد فعلتموه، حول هذه القضية، وأن تذكروا لنا أيضاً، وقت ومكان الدفع، وإذا كان من غير الممكن أن لا تكونوا جميعاً حاضرين أثناء تنفيذ هذه القضايا، ليقم على الأقل ثلاثة أو اثنين منكم، بدون تقاعس، بالاشراف على تنفيذ هذه القضايا، وبما أنه لم يصل إلينا منذ ذلك الحين أي شيء حول هذه المسألة، نحن نحذركم باخلاص، وبهذه الكتابات الرسولية نأمر اخوتكم، أنه فور تسلم هذه الرسائل، بإعطاء انذار إلى الأساقفة المذكورين، الذين سوف

يكونوا موجودين في انكلترا، وأن تأمروهم بموجب سلطانتنا، بالالتقاء بكم في اليوم العشرين بعد استلام هذه العروض، في أي مكان محدد، ترون من المناسب إقراره، من أجل ترتيب قضية ذلك الاسهام، وعليكم في ذلك اليوم، وقبل مغادرتكم من هناك، أن تعدوا خطة تقسيم مع الأساقفة الذين يحدث أن يكونوا موجودين هناك، وإذا حدث على كل حال أنه لم يكن أي واحد منهم حاضراً، وحول تلك القضية ما من إجراء تمّ اتخاذه، يتوجب عليكم خلال إطار شهر واحد من ذلك الوقت، أن تستدبروا أن يدفع إليكم شخصياً، أو إلى رسلكم، في أي مكان ترونه مناسباً لاختياره لتلك الغاية، دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره، من أجل استخدامات الكرسي الرسولي، وفقاً للترتيبات التي عملت من قبل في تلك البلاد، اعتماداً على سلطة ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، وهو الأمر الذي أرسلناه الآن إليكم تحت ختمنا، واضبطوا جميع المعارضين بوساطة الروادع الكنسية، وضعوا جانباً كل التماس، وأي غفران، وأي امتياز، أو المرسوم المتعلق برحلة اليومين، الذي صدر في المجمع العام، فهذا لا تولوه الاهتمام، وعليكم أن ترسلوا إيصالاً إلينا من دون تأخير، وأن تخبرونا بالذي عمل، أو الذي من الممكن عمله حول هذه القضية، وليكن ذلك بوساطة ولدنا المحبوب كثيراً ليناسيوس Linasius، كاتبنا والحامل لهذه العروض، وأظهروا أنفسكم بالنسبة للقضايا المتقدم ذكرها، أنكم على درجة عالية من اليقظة، حتى لا تتهموا بالاهمال بالنسبة لها، لابل بالحري أن يثنى عليكم بالنسبة ليقظتكم، وإذا لم يكن من الممكن حضور اثنين أثناء هذا العمل، واحد منكم، مع هذا يمكنه القيام به».

«وعلى هذا إنه بموجب سلطة هذه الوصاية، نحن نذكركم ونحثكم، باسم المولى، ونفرض عليكم بكل دقة، وبموجب فضيلة الطاعة التي أنتم مرتبطون بها إلى الكرسي الرسولي، وأنه بالنسبة لما يتعلق بحصة

البابا المحددة لكم، فإن رسلنا سيجلبون إليكم رسائل موثقة تتعلق بدفع هذه الحصة، وسوف يتلقون ترضية منكم خلال ثلاثة أسابيع، تحسب من بعد عيد الفصح، وعليكم إظهار كل يقظة حول هذه القضية الحالية، حتى نمتلك سبباً بأن نشني على اخلاصكم إلى الحبر الأعظم، وحصتكم هي ثمانية ماركات استيرلينية، وداعاً في الرب. صدر في لندن في الرابع والعشرين من آذار سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين، ونحن قد كتبنا إليكم وحدكم، لأن أختنا المبجل وزميلنا أسقف وينكستر، قد اعتذر لبعض الوقت».

الملك يمنع دفع الضريبة إلى البابا

ولدى وصول خبر هذه الوصاية إلى مسامع الأساقفة والنبلاء، سببت إثارة كبيرة، وقلقاً في قلوب الذين سمعوا بها، وبشكل خاص أن رسل الجماعة الانكليزية قد اشتكوا من مثل هذه المظالم في مجمع ليون، وبعد ذلك في البرلمان الذي عقده من قبل ملك انكلترا، الذي اجتمعت فيه كل جماعة رجال الدين، ومثل ذلك كتلة الفرسان، حيث تقرر آنذاك — بصرف النظر عن احترام البابا — وجوب بعث رسل آخرين من الجماعة إليه، لإقناعه باستخدام يد التصحيح لمثل هذه المضار، وليس اليد المثقلة بالمظالم، ولذلك غلبتهم الدهشة، ففي الوقت الذي كانوا فيه متوقعين إنهاءً لاضطراباتهم، أعيقت آمالهم، ونالوا المزيد من الظلم، ولذلك عندما وصل خبر الرسالة المتقدم ذكرها إلى علم الملك، انفجر غاضباً بعنف، وكان مندهشاً، فكتب إلى أساقفة انكلترا بما يلي: «من هنري الذي بنعمة الرب، إلخ، إلى الأب المبجل بالمسيح، الأسقف كذا وكذا، تحيات: مع أننا كنا قد كتبنا إليكم في أوقات متقدمة، مرة أولى، ثم مرة ثانية، ومرة ثالثة، بوساطة رسائل خاصة، وكذلك بوساطة رسائل موثقة، نأمركم بعدم الاستخراج، لاستخدام البابا، أو أي انسان آخر، أية ضرائب أو أموال مساعدة من

الرهبان، أو الكهنة أو الرجال العلمانيين، لأنه ما من ضريبة أو فريضة من هذا النوع، قد كانت عادة قط، كما أنها لا يمكن فرضها من دون إلحاق أضرار كبيرة بكرامتنا الملكية، الأمر الذي لا يمكن احتماله ولن نتحملة، ومع ذلك لقد استخفيت بأمرنا في هذه القضية، وعملت بشكل معاكس للمرسوم الذي عمل في مؤتمرنا في لندن، ومن قبل نبلائنا، وأساقفتنا، وكذلك من قبل إيرلاتنا، وباروناتنا، وتابعت مع ذلك تقوم بمثل هذه الجبايات، كما تقدم الذكر، وبشأن هذا التصرف نحن مندهشون كثيراً، وغاضبون، خاصة بما أنك لم تتجمل من الاقدام على الوقوف ضد عملك، حيث أنك بالموافقة مع الأساقفة الآخرين، قد وافقت في المؤتمر الأخير، بأنك لن تعمل شيئاً في مسألة هذه الضرائب، حتى يتمكن رسلنا، الذين هم رسلك، وأيضاً رسل النبلاء الآخرين، وجماعة المملكة كلها، من العودة من البلاط الروماني، إلى حيث كانوا قد أرسلوا بشكل خاص، كما تعرف، لتخليصنا من مظالمنا، ولذلك نحن نفرض عليكم أوامرنا، ونمنعكم بكل دقة من السير في أية طريق من أجل استخراج الضريبة المذكورة، أو فرضها، طالما أنك ترغب بالتمتع بملكك لبارونيتك، والممتلكات الأخرى التي هي بين يديك في مملكتنا، وإذا كنت قد تسلمت أي شيء هنا، إنه غير مسموح لك، ولا بأي شكل من الأشكال بحمل ذلك إلى خارج المملكة، بل الذي عليك حفظ ذلك في مكان أمين حتى عودة الرسل المذكورين، ونودك أن تعرف بشكل مؤكد، أنك إذا تصرفت بشكل معاكس، لسوف نلقي بيدنا الثقيلة على ممتلكاتك، إلى مدى أبعد مما تتصوره، ونحن نفرض عليك أن تتولى نشر هذا الحظر على رؤساء شمامستك والموظفين الآخرين، وإن هذا الحظر، الرب يعلم، أننا عملناه لضمان حرية رجال الدين، ومثل ذلك الناس، إلخ».

المصاعب والاضطرابات التي نجمت

عن الخلاف بين الملك والبابا

وبناء عليه وضعت الكنيسة الانكليزية في وضع حرج، وقد سحقت بشكل مخيف، لأنها وقعت بين حجري رحا، دار كل منهما بالاتجاه المعاكس للآخر، فقد كان على الجانب الأول صخرة سيلا Scylla المخافة، وعلى الجانب الآخر دوامات الماء المرعبة، فقد كان الملك في هذه القضية مدعوماً ومؤيداً من قبل الرأي العام، الذي ناضل في سبيل الحفاظ على المملكة وعلى اصلاحها، في حين استهدف البابا إفقارها، وكانت الفئتان متواجهتان إحداهن مع الأخرى عن بعد، وخاف كثير من الأساقفة من عدم استقرار الملك في هذا الشأن، فيما يتعلق بنواياه المتصورة، ومن جبن المستشارين الملكيين، المرتبطين بقضية البابا، مع أنهم ربما قد رأوا بأن الكنيسة لن تتلقى المزيد من التقدم بوساطة انفاق مثل هذه الأموال، بل لربما سوف تجني الأذى والمعاداة.

الأخبار المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه أخبار محزنة من الأرض المقدسة، في البلدان المسيحية، وتحديث عن أن الأرض المقدسة المذكورة باتت كلها تقريباً محتلة من قبل الخوارزمية والمصريين، وبات سكان عكا أيضاً، الآن إما خائفين، أو لاختيارات أمامهم، أو غير قادرين على مغادرة مدينتهم، وكانوا متوقعين إما بأن يحاصروا، أو أن يرغموا على تسليم مدينتهم، لأنهم عانوا من نقص كبير في المؤن، إلى حد أنهم أخذوا يتلاشون بين أنفسهم، كما أنه لم تبق لديهم أية آمال بالخلاص، وكان فردريك قد أصبح الآن مطرقة رعب للكنيسة، ولم يعد يسمح بأية مؤن أو مساعدات على شكل عساكر، بأن تنقل إلى أهل عكا، معلناً بأن الكنيسة الرومانية لم تمتلك قط مثل هذه الأرضيات الفعالة لاستخراج

المال من المسيحيين، التي عليها استغنت وغدت متشاخمة، وفعلت ذلك اعتماداً على الاستجداء من أجل الأرض المقدسة، وعلى التبشير المجرب من أجل حملة صليبية، في سبيل تحريرها، وعسقلان التي أنفق في سبيل تحصينها الايرل شارل أموالاً كثيرة، وجهوداً عظيمة، خلال وقت طويل، وعمل متواصل ومخلص، وذلك بالتعاون مع كثير من النبلاء الآخرين، عسقلان هذه كانت الآن تعاني من أقسى الحملات ضدها وأشدها، من قبل الأعداء، وبصعوبة متناهية كان بإمكانها الدفاع ضدهم، وبدت قلاع أخرى، كانت قد ظهرت من قبل أنها لاترام، من ذلك على سبيل المثال الكرك وعثليت، وبعض المدن والحصون، بدت لخوف السكان بهم، وقد انعدمت لديهم آمال النجدة، أنها أصبحت سجوناً لهم، ولم تعد أماكن للحماية، وكان هذا مصدراً للخوف ولانعدام الثقة، وكان الصليبيون من كل جانب محاصرون من قبل أعدائهم، الذين تجولوا من حولهم حسبما رغبوا وشاءوا، وانخرطوا في النهب، وتمتعوا بالنصر بسرور، حتى أنهم اعتقدوا أنه سوف يكون من الأفضل لهم الموت بدلاً من الاستمرار في هذا الوجود التعيس أية مدة أطول، ولذلك تذبذبوا في إيمانهم، لابل بالحري باتوا محبطين كلياً فيه، وهجروا القديسات المسيحية، وأصبحوا مرتدين، وهكذا أصبح أصدقاءنا أعداء لنا، مؤذنين لنا أكثر من الآخرين.

حول البارلمان الذي عقد في وينكستر

في يوم موت القديس توماس الشهيد، عقد مؤتمر كبير بين الملك وبين نبلاء المملكة في وينكستر، حول الوضع التعيس للمملكة كلها، وخاصة الكنيسة، لأن الرسل الذي كانوا قد أرسلوا إلى البلاط الروماني قد عادوا، وهما المعلمان: وليم دي باوريك، وهنري دي لى مير، اللذان جلبا رسالة من البابا، تضمنت لاشيء حول الرفع، بل تضمنت بالحري كلمات غضب، وأعلننا أنها لم يستطيعا أن يريا في سلوك (البابا) أو

كلامه أية علامة على التواضع أو الاعتدال، بالنسبة لقضية المظالم، التي أغرقت بها مملكة انكلترا وكذلك الكنيسة، والتي من أجلها عملت الشكوى، لأن البابا كان قد قال لهما، وهو يبحث عن جواب ما مرضياً لهما: «إن ملك انكلترا، الذي يتحرك الآن ضدي، وحاذياً حذو فردريك، لديه خططه، وأنا لدي خططي التي سوف أتبعها»، وبات من ذلك الوقت من الصعب جداً أن يستطيع الانكليزي ترتيب أي عمل في ذلك البلاط، بل طرد الانكليز جميعاً وعمولوا كمنشقين، وأثيروا بوساطة الاهانات، وأثارت هذه الأخبار، مع سبب جيد، غضب الملك، وغضب نبلائه، وأمر الملك على الفور الإعلان العام بوساطة المنادين، في جميع الكونتيات، وفي جميع أرجاء القرى، وكذلك خلال الأسواق، وأماكن تجمعات الناس، أنه لا يجوز لأي واحد الموافقة على أية اسهامات مالية لصالح البابا، أو تحويل أية أموال لمساعدته، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، ولدى سماع البابا بهذا، أثر بوساطة غضب عنيف، وكتب مجدداً بطريقة أكثر حدة إلى الأساقفة الانكليز، آمراً إياهم، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والتعليق، بإرضاء رسوله، الذي كان مقيماً آنذاك في المعبد الجديد في لندن، حول قضية المساعدة المالية المتقدم ذكرها قبل عيد الصعود، ومع أن الملك كان قد استعد من قبل للصمود في سبيل حرية المملكة والكنيسة، غير أنه أذعن الآن، وخرق قراره، وأصبح خائفاً من التهديدات الصادرة عن أخيه رتشارد، وعن بعض الأساقفة، الذين كان المقدم بينهم أسقف ووركستر، الذي إليه — كما يقال — عهد البابا بسلطات إلقاء عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين على البلاد جميعاً، وبذلك باتت مساعي جميع النبلاء، ومثل ذلك الأساقفة، بلا فائدة، وقد تلاشت جميع الآمال بتخليص المملكة الانكليزية والكنيسة، وماتت، مما سبب المرارة وشعور الأسى في القلب إلى كثيرين، وأرضى لهاث النهم الروماني، مع تهمة الشره حول مسألة الاسهامات المالية المذكورة.

كيف استخرج الملك الفرنسي والبابا العشر مع جزء من عشرين من جميع ممتلكات المملكة الفرنسية

وفي سبيل أن لا تظهر هذه الفريضة فريدة بين المسيحيين، ولكي لا تظهر يد الرب أنها توفر أحداً، أو بطيئة في معاقبة ذنوب شعبه، أفقرت المملكة الفرنسية الآن بشكل مدهش ومؤلم بوساطة استخراجات بارعة الاختراع من قبل البابا، لأن الملك الفرنسي، الذي كما تقدم ذكره، قد أعاده الرب إلى الحياة، أو على الأقل أعاده من بوابات الموت بشكل اعجازي، قام الآن ببناء على إذن من البابا، ومبادرة منه، بظلم مملكته بعدة طرق مضاعفة باستخراج مبالغ كبيرة من المال، بحجة الوفاء بحجه بطريقة توائم مرتبته، فقد أخذ عشر موارد جميع كنائس مملكته، وبالإضافة إلى هذا، أخذ البابا جزءاً من عشرين، وكان ذلك قام ببناء على اتفاق بينهما، أخذه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، ولكل واحد منهما لمدة ثلاث سنوات، وطلب البابا اسهاماً آخر من أجل الامبراطور الجديد، الذي عرف من قبل باسم اللاندغريف، وهو الذي أوجده البابا لاختضاع فردريك، وقد بدا هذا الأخير لكثيرين غير ممكن قهره، ولقد قيل بأنه كان عبثاً محاولات البابا خلع فردريك المذكور من منصبه الامبراطوري، ذلك أنه ربح طريقاً مدهشاً، ووعد بكل نوع من أنواع الترضيات، في حين لم يتنازل البابا بقبول التواضع، ونال مشاعر الكراهية ضده من كثيرين، ونصب فردريك المذكور في الوقت نفسه كمائن، للاستيلاء على الأموال، التي جمعها البابا بنشاط من جميع الجهات، ولإضافتها إلى خزائن أمواله.

تكريس الدير الذي اسمه بوليو

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، جرى تكريس كنيسة تابعة لطائفة رهبان السسترشيان، اسمها بوليو Beaulieu، وذلك في الدير الرعوي الذي كان الملك جون قد

أسسه، وجرت عملية التكريس بشكل مهيب مناسب، وفي أثناء الاحتفال، كان الملك حاضراً والملكة، والاييرل رتشارد، أخو الملك، وأساقفة المملكة ونبلائها، وبعد اكتمال أعمال التكريس المهيبة، أخذ الايرل رتشارد من صدر تلك الكنيسة، حوالي الثلاثين راهباً، ليسكنوا في بيت ديني تابعاً لطائفة السسترشيان، كان هو — أي الايرل المذكور — قد أسسه وبناه على حسابه، في سبيل تخليص روحه، في مكان مناسب قرب دير وايشيكومب Wychecombe، والذي منحه منحاً وافرة وأغناه، تمايشاً مع العهد الذي كان قد قطعه عندما كان في خطر في البحر.

موت إيزابيلا أم ملك إنكلترا

من المعتقد أن الحادثة التي تقدم ذكرها أعلاه، لم تقع من دون تدخل الحكمة الإلهية، لأن كونتيسة التخوم، أم ملك إنكلترا، والاييرل الذي تقدم الآن ذكره، والتي اسمها إيزابيلا، أذعنّت في هذه الآونة للموت، وهي في حاجة ماسة للمنفعة الروحية الصادرة عن أعمال إحسان الأتقياء.

موت كونتيسة ألبيمرل

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، تحررت كونتيسة ألبيمرل Albemarle، وابنة ألان أوف غالوي Galway، وأخت كونتيسة وينكستر، تحررت من جميع الاضطرابات الدنيوية، وبهذا الموت فإن شطراً كبيراً من غالوي، الذي كان عائداً إليها، آل الآن، بسبب موتها من دون أطفال، إلى روجر دي قوينسي Quincy، الذي كان ايرل وينكستر، وكان متزوجاً من اختها الكبرى.

موت جون دي نيفيل

وفي السنة نفسها، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، غادر جون دي نيفيل Neville طريق الجسد المطروق كله كثيراً، وكان هذا النبيل من قبل

له أهمية كبيرة بين نبلاء انكلترا، واتباعه لخط سير أبيه خطوة خطوة، وصل إلى ذروة الكرامة الأرضية، وقد ترك الآن مثلاً واضحاً إلى سكان هذا العالم، بعدم الثقة بحظوة الملوك، وأن يتجنب تقلبات البلاط، لأنه في مطلع رجولته، عندما كان المسؤول الأعلى عن الغابات في جميع انكلترا، تم تقديم عدد كبير من التهم الثقيلة ضده، تولى تقديمها روبرت باسلو Passlow، باحتلالات غير شرعية للغابات، وتجاوزات أخرى، ولأنه أخفق في أجوبته، وفي تبرئة نفسه، أدين بناء على شهادة أبناء منطقته وتقدير المحكمين، وسقط إلى وضع مهين كثيراً، حيث غدت حياته من ذلك الوقت قطعة من الموت، لأنه أدين قضائياً بدفع ألفي مارك، وذلك بالإضافة للدين الكبير لأبيه الذي سقط فوق كتفه، وبالإضافة إلى هذا جرى تجريده بشكل مذل ولاعودة فيه، من بارونيته، ولذلك أنك، وتلاشى خلال الحزن، وفي حوالي منتصف الصيف لفظ أنفاس روحه التعيسة، في عزبته في ويلبيرفيلد Welperfield، وقد دفن بشكل محترم إلى جانب ضريح أبيه في الكنيسة الديرية ليوولتهام Waltham.

كيف لبس أسقف كارآيل رداء رهبان الدومينيكان

في يوم عيد القديسين بطرس وبولص، قام وولتر أسقف كارآيل، بالتخلي عن العالم الذي تعلق به طويلاً، كما تخلى عن الشؤون الدنيوية، ولبس في اكسفورد رداء طائفة رهبان الدومينيكان، لأنه خاف من أن قبوله في تلك الأسقفية لم يكن قانونياً، وقد هرب تاركاً رداءه بين يدي امرأة مصرية.

رسائل بابوية أرسلت إلى الرهبان الفرنسيين

وفي العام نفسه، بعدما أصدر البابا المرسوم الذي سلف ذكره، أي المرسوم حول ممتلكات الذين ماتوا من دون وصية، بأنها يتوجب أن تؤول إلى استخدامهم، وكان قد عين رهباناً دومينيكان لوضعه موضع

التنفيذ، وقد صار قلقاً حول امبراطورية القسطنطينية، وانزعج بسبب صلف الاغريق في انشقاتهم، وبناء على ذلك أرسل رسائل تحتوي على وصاية بابوية مع بنود أخرى، إلى الرئيس الاقليمي للفرنسيين في انكلترا، جاعلاً بشكل قانوني الرهبان الفرنسيين والدومينيكان نوابه، وبذلك نأى بهم عن طريق التواضع والفقر التطوعي، وهو ماكانوا قد اتخذوه عقيدة لأنفسهم ولأتباعهم، وكان فحوى هذه الرسائل: «هو أنه هو أو رهبانه عليهم البحث فيما يتعلق بممارسي الربا، الذين كانوا يعيشون، وحول مرابحهم بوساطة ذنب الربا، وأن يجمعهم من أجل منفعة امبراطورية القسطنطينية، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وحول مقصد آخر، كان أن كتب بأن «الذين سوف يحملون عن طواعية الصليب من أجل تحرير تلك الامبراطورية، أو سوف يرسلون كمية كافية من ممتلكاتهم، سوف يكون هناك تحليل من ذنوبهم»، وأمر آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا وصايا الأشخاص الموتى، والتي حصلوا عليها بوساطة الربا، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وكان فحوى واحد آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، الممتلكات التي تركت بموجب وصية من الأشخاص الموتى، أو الذين سوف يتركون لمدة ثلاثة أعوام من أجل استرداد ممتلكاتهم، وهي التي استحوذ عليها الأشخاص الموتى بوساطة الآثام أو سوء التصرف، وضبط جميع المتذمرين والمعارضين»، وكان آخر من أجل أن «الممتلكات التي تركت حتى يجري توزيعها في سبيل مقاصد خيرية، وفقاً لقرار أوصياء الميت، وهي لم يجري تحديدها من قبل الأوصياء أنفسهم لأشخاص محددين أو أماكن، أو أشياء مثل التي هي حق متوجب لآخرين، أو جرى تحويلها من قبل الأوصياء إلى مثل هذه الاستخدامات، يتوجب جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، ووجوب اعطاء ملاحظة حول كمية المبالغ، وضبط» إلخ، إلخ، وأمر آخر استهدف أن «عليهم القيام بالبحث في

ممتلكات الأحياء، التي تم الحصول عليها بشكل شرير، ومن ثم عليهم جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المذكورة، شرط عدم وجود أشخاص يمكن أن تقدم إليهم ترصيات من أجل مثل هذه الممتلكات التي تم الحصول عليها بشكل شرير، وعليهم ارسال إيصال إلى البابا، وضبط، إلخ، إلخ، وأوردت محتويات آخر أن «الرئيس المذكور لديه سلطة تحليل أشخاص من الحرمان الكنسي، لأنه معروف بممارستهم الغش في مسألة الممتلكات، التي سوف تجمع لمساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، شرط تقديمهم ترصية موائمة إلى الرئيس المذكور، أو إلى رهبانه، الذين يتوجب إنابتهم لهذا الغرض».

كيف سأل البابا إقامة سلام بين الصليبيين والمسلمين

وفي حوالي الوقت نفسه سأل البابا سلطان مصر أن يمنح سلماً (أو على الأقل هدنة) بين الصليبيين والمسلمين، حتى يتحقق أمل أن ييتسم الحظ ثانية ويحل على الصليبيين بوساطة عون المملكة الفرنسية، وعلى هذا الطلب كتب رداً بما يلي:

الرسالة التي أرسلت من سلطان مصر إلى البابا

وترجمت من قبل كاردينال من العربية إلى اللاتينية

«إلى حضرة البابا» — عنوان الرسالة — «النبيل، العظيم، الروحاني، الكريم، المقدس، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للمسيحيين، قائد أبناء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، منحه ربي القوة وأعطاء السعادة.

من السلطان الأعظم، المتسلط على رقاب الشعوب، الممتلك للفضيلتين: فضيلة السيف، وفضيلة القلم، وليزتي العلم والقضاء، ملك البحرين، وسيد الشمال والجنوب، ملك بلدان مصر والشام، والجزيرة، وميديا، وأدوم، وأوفير، الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان

الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبو بكر ابن أيوب، حفظ الله مملكته.

بسم الله الرحمن الرحيم: لقد قدمت إلينا رسائل من البابا، النبيل، والعظيم، والروحاني، والكريم، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عباد الصليب، القاضي للشعوب المسيحية، قائد أبناء العباد، الحبر الأعظم للمسيحيين، جعله الرب واحداً من الذين يرغبون بالخير، ويعملون به، ومن الذين يريدون السلام، واتباع طريقه، أعانه الله، في هذه المسائل التي هي نافعة للذين يعبدونه ومن أهل دينه، وللآخرين.

ولقد رأينا الرسائل المذكورة، وفهمنا البنود التي أدخلت فيها، ومحتوياتها، ولقد فرحنا، وابتهجت آذاننا بسماعهم، ووصل إلينا رسول أرسل من قبل قداسة البابا، ولقد استقبلناه بالتشريف، والتقدير، والاحترام، واستدعينا للمثول بحضرتنا، وأصغينا لسماع كلامه، ووثقنا بما قاله، عندما حدثنا عن المسيح، عليه السلام، وبالنسبة للمسيح المذكور، نحن نعرف عنه أكثر مما نعرفون، ونحن نمجده أكثر مما تفعلون، وفيما يتعلق بالذي قلته، من أنك ترغب بالسكون والسلام والهدوء، وأن تمتلك الوسائل لدعوة الناس إلى السلام، نحن مثل هذا نرغب بالشيء نفسه، كما أننا لانرغب في معارضة رغبتك، لأن تلك دوماً رغبتنا ومبتغانا، وليعلم البابا، حفظه الله ووقاه، بأن صداقة وتقديراً متبادلاً، وحسن نوايا، قد تأسس منذ زمن طويل، فيما بيننا وبين الامبراطور، وذلك منذ أيام أبينا السلطان، الذي يحيطه الله برحمته في كنفه، وبينك وبين الامبراطور، أنت تعلم كيف هي الأحوال قائمة، وبناء عليه نحن لانمتلك الحرية في عمل أية اتفاقيات مع الصليبيين من دون أن نعرف رأيه أولاً ونأخذ موافقته حول المسألة، وقد كتبنا إلى مبعوثنا، الموجود الآن في بلاط الامبراطور، من أجل الأسباب التي

ذكرت إلى رسل البابا، ومبعوثنا هذا سوف يأتي إليكم، وسوف يتكلم معكم، ويجلب الجواب إلينا، وعندما يفعل هذا، سوف نتصرف بناء على فحوى ذلك الجواب، ولسوف لن نتمنع عن الموافقة لما سوف يبدو أنه لمصلحة الجميع بشكل عام، حتى نتلقى الثواب من الله، ورسولنا هذا إليكم، بإذن الله، سوف يكون صالحاً للجائنين. وكتب هذا في اليوم السابع من شهر محرم، الموافق لليوم السابع من شهر آب، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وعسى أن يكون (صلى الله عليه وسلم) شفيعنا».

شكوك حامت حول وثائق الرسالة المتقدمة ذكرها

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا، أعلن أن كثيراً من أشكال الخداع، قد تدبرها فردريك بمكره في أن تفعل، في سبيل أن يجري اقناع البابا بسهولة أكبر، حتى يعيد تأسيس السلام معه، لكن كما يبدو هذا غير صحيح، لأن البابا كان قد أرسل رسوله، وكان رجلاً موثقاً، ومعروفاً تماماً من قبله، ليحمل رسالته، لي جلب إليه الجواب، وقد عاد مخلصاً إليه سليماً ومعافى.

عواصف رعديّة غير معتادة

وفي سبيل أن تكون العناصر متوائمة مع أحداث العالم، حدث في هذه الأيام، أي في اليوم الذي تقدم على عيد القديسة مرغريت، أن ثارت عاصفة هوجاء مخيفة، ترافقت مع رعد وبرق، وبسقوط برد، كانت حباته ذوات زوايا حادة، وكل منها أكبر من حبة اللوز، وقد دمرت الطيور، لابل حتى بعض الحيوانات، وأزعجت المنطقة كلها في جميع الأرجاء، وأتلفت أشجار السنديان، وأطاحت بالأبنية، وأحرقت الناس، ودمرت المواشي والسائمة، وحطمت الجسور بالمياه المتدفقة وقد استمر هذا كله لمدة ست عشرة ساعة، أي طوال الليل وبعض النهار.

ولادة صبي للإيرل رتشارد توفي بعد ذلك فوراً وأيضاً ادخال مجموعة من الرهبان إلى بيت طائفة السسترشيان في وايشيكومب

في الوقت الذي كانت أحداث العالم هكذا عاصفة متنوعة بالنسبة للفاينين، قام فردريك الذي خلعه البلاط الروماني من منصبه الامبراطوري، فأرسل الرسالة التالية إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه الايرل رتشارد اللذين عدّهما بين أصدقائه المقربين:

«من فردريك، إلى ملك انكلترا، إلخ، تحيات: خشية من أن تبعد السمعة — التي هي متنوعة مختلفة باختلاف آراء الناس الكثيرين، والمتأثرة بميوههم المتنوعة — أحياناً بكثرة عن الحقيقة، وأن تؤذي أذنك، وتزعج قلوب الأصدقاء، وتدغدغ مسامع ومشاعر أعدائنا، إننا سوف نخبركم باختصار في هذه العروض بالحقيقة النقية والمجردة، حول الأحداث التي وقعت مؤخراً، فلقد جرى التخطيط لمؤامرة ضد حياتنا من قبل بعض رعايا جلالتنا، أو بالحري من قبل بعض حاشيتنا، والمعتمدين لدينا، وهم: ثيوبولد فرانسيس، وجيمس دي مورا Morra، وباندولف Pan-dulph دي فاسانيلا Fasanella، ووليم دي سينت سيفيرينو Severino، وبعض أتباعهم، وقد كشفت المؤامرة الشريرة إلينا، من قبل بعض المتآمرين من ذلك الحزب، وهكذا أنقذنا الرب من بين أيديهم وحفظ حياتنا من دون أذى بشكل مدهش، لكن مع أننا عددنا مثل هذه الجريمة جريمة لاتصدق، كانت هي بالفعل غير جائزة قمنا بإجراءات فحص أبعد حول حقيقة القضية، وبناء عليه تبين أن باندولف دي فاسانيلا، وجيمس دي مورا، اللذان تقدم ذكرهما، كانا الرئيسين في جريمة هذه المؤامرة العميقة، وحرصا على ذلك من قبل ضمير مجرم، مع عدد آخر من المشاركين، والمشايعين في جريمتهم، الذين كانوا حاضرين في بلاطنا، ثم إنهم هربوا بشكل مفاجئ، وعلى كل حال، بقي ثيوبولد، ووليم دي سينت سيفيرينو في المملكة، وقد انتظروا هناك موتنا كواقعة

مؤكددة، لكنهما سمعا العكس بشكل غير متوقع، وقد استولى عليهما رعب مخيف، وكأنهما ضربا بصاعقة من السماء، فارتديا ثياب خدامنا المخلصين، وكانا قد حصلا عليها خلسة، وهربا بشكل خيائي، إلى اثنتين من قلاعنا، هما قلعتا: كاباكيو Capaccio، وسكالا Scala، وكان ذلك قبل أن يتمكننا من الحصول على المؤن الضرورية، وقبل تحصينهما بالرجال، وقد هوجما من قبل السكان البارعين والمخلصين للمملكة، وطوقا من قبل القوات التي تجمعت من جميع الجهات، وكنا نحن أيضاً في ذلك الوقت في غروسيتو Grosseto، في مملكة صقلية التي هي ميراثنا، وقبل ذلك لم نكن قد اتخذنا أية احتياطات ضد المخاطر التي كان شخصنا عرضة لها، لكن بما أننا لانسمح لنفسنا بأي حال من الأحوال أن تكون عرضة للعدوان، وحيث أن الأمور كانت وكأنها أمام ناظرينا، اتخذنا الإجراءات للذهاب بكل سرعة، ومع قوة زاحفة، إلى مملكتنا، وبعد دخولنا السعيد إليها، كان عدد من رعايانا المخلصين، قد قاموا بناء على مبادرة، واقتراحات زائفة من هؤلاء الخونة ضدنا، قد انضموا إلى المتآمرين، حيث كان قد انتشر تقرير زائف عن موتنا، لكن ما ان انتشر ضوء الحقيقة، وشاهدوا أن القضية، كانت على العكس لما كانوا قد توقعوه، حتى رفضوا أن يكون لهم أية شراكة في خططهم الماكرة، وتخلوا عنهم، وبما أنهم وجدوا فقط ملجئاً في قلعتين، كما ذكرنا من قبل، وهما قلعتا سكالا، وكاباكيو، وفي سبيل تمتين اخلاص رعايانا المخلصين، بوساطة هجوم فعال ومباشر، استرجعنا واحدة من هاتين القلعتين، وهي قلعة سكالا، إلى سلطتنا، وأودع توماس دي سينت سيفيرينو، وابنه، الخائنين والمتآمرين ضدنا، في السجن، وهكذا بقيت قلعة واحدة من القلعتين المتقدمتي الذكر، وهي قلعة كاباكيو، للقيام بانتقام ضدها، وتدبرنا وضع تلك القلعة تحت الحصار من قبل رعايانا المخلصين، وهكذا فإن الخونة المتقدم ذكرهم، الذين من الواضح أن لامورد لديهم، والذين كانت الآن إحدى قلعتيها قد جرى الاستيلاء عليها، ومن غير الممكن لهم تحصين واحدة

أخرى، كما لم يعد بإمكانهم النجاة منا في أي سبيل، وهكذا جرى،
بوساطة القضاء، وبكل سرعة بقدر ما كان الأمر عادلاً، ايقاع الانتقام
ضد الخونة المتقدم ذكرهم، وضد مشاركيهم، ونحن نشعر الآن بالثقة
بترتيب الأمور في وقت قصير، لضمان الأمن المستمر لمملكتنا، وبذلك لن
يبقى بالنسبة للمستقبل أية شكوك في أذهاننا، أو في أذهان خلفائنا، أو
وكلائنا خارج المملكة، وعليك — على كل حال — أن لاتظن أننا نخلينا
عن مقصدنا في متابعة الثوار اللومبارد، ولاحتي تركنا ذلك لبعض
الوقت، بل بوساطة ولدينا المحبوبين: هنري، الملك اللامع لسردينيا،
والنائب العام للامبراطورية المقدسة لاطاليا، وفردريك صاحب أنطاكية،
الذي يرأس مقاطعة ايتروريا Etruria، وذلك إلى أن نتمكن من
العودة إلى إيطاليا، بعد صنع ترتيبات موائمة لقضايا مملكتنا، أقول
بوساطتيهما سحقتنا آثار الثوار المتقدم ذكرهم، بمطرقة قدرتنا غير المتوقفة،
إلى حد أنهم لم يحصلوا على أدنى منفعة من غيابنا، الأمر الذي اكتشفنا
بشكل مؤكد أنهم حاولوا الحصول عليه بوساطة خطة طويلة سرية
وخيائية، وهم الآن حزينون بسبب قوتنا الحالية، أكثر من تفاخرهم
بغايابنا، لأن ما من واحدة من الحوادث التي وقعت مؤخراً، قد سببت أي
نقص لعظمتنا، كما أن أموالنا لم تتناقص بما حدث، بل ازدادت سلطتنا،
وأصبحت أعظم، فبسبب ضخامة هذه الجريمة العميقة التخطيط، التي
هددت برعب الحرب بين الشعوب، بعدما ذاقت حلاوة السلام، أصبح
وفاء رعايانا المخلصين، لاسيما من الطبقات الدنيا، أكثر حرارة نحونا،
وثقتهم أكثر قوة، وأيضاً من اضافة موارد تمرد هؤلاء الخونة، التي جردوا
منها طواعية بسبب عدوانهم، وهي موارد قد نالوا الثروة منها من خلال
كرمنا بالطول وبالعرض، إنها الآن كونت زيادة أساسية لثروتنا، مع أننا لم
نرغب بذلك، ومن هذا يمكن الاستخلاص بوضوح، بأن الوعود الكبيرة
التي عملت من قبل عدونا المعلن إلى الخونة المتقدم ذكرهم كان لها تأثيرها
— مع أن ذلك كان من دون محصلة — بإثارتهم لاقتراف هذا الإثم،

وبالنسبة لاسم هذا العدو، وللقبه، كنا نرغب تماماً بالمرور به صامتين، لولا أن الصوت العام قد كشفه، مع أننا نرغب بإخفائه بصمتنا، أو تقديم العذر له بوساطة لغة غامضة، لأن المحرضين على الجريمة المتقدم ذكرها، من الذين هربوا، والذين تحت الحصار، كانوا مرافقين ببعض الرهبان الفرنسيين الذين منهم تسلموا الصليب، وقد تظاهروا بأن لديهم تفويضاً من الخبر الأعظم، على شكل رسائل رسولية، وذلك من أجل العمل ضدنا، وأعلنوا بشكل مكشوف بأنهم كانوا يعملون في القضية، لصالح الكنيسة الرومانية، التي هي أهمهم، وهكذا أعلنوا أن الخبر الأعظم، كان هو المحرض على المحاولة المتقدم ذكرها ضد حياتنا، ومثل ذلك ضد ميراثنا، وبهذه الحقيقة اعترف الأسرى، الذين جرى أسرهم في قلعة سكال، بفضل مبادرة رعايانا المخلصين، وجعلهم سجناء، فهذا ما بينوه بشكل تلقائي، وباعتراف حر، عندما كانوا يموتون بحضرتنا، ذلك أنهم اعتقدوا أن عدم الاعتراف سوف يكون كذباً شريراً، وكذلك فإن أسقف بامبيرغ Bamberg، عندما صدف أنه بعد حصوله على التكريس والمباركة، أو بالحري على اللعنة، كان عائداً وقد لبس التاج الأسقفي من البلاط الروماني، وذلك قبل اعتقاله من قبل رعايانا في ألمانيا، إنه قد أعلن بشكل مكشوف أنه لا بد من حدوث اعتقالنا خلال وقت قصير، وموتنا بشكل مهين جداً، على أيدي أصدقائنا المقربين وحاشيتنا، ونحن نتحدث عن هذه الأشياء بحياء، بحكم أن القاضي الأعلى هو شاهدنا، لأننا نعتقد بأننا لم نسمع قط أو رأينا مثل هذه الجريمة أثناء حياتنا، وذلك بأن يقوم قومنا وحبرنا الأعظم، بالرغبة بدناءة بالقضاء على أي إنسان يمثل هذه الميثة الشنيعة، لأن العلي الأعلى يعلم بأن العقيدة القبيحة كانت دوماً نائية عن تفكيرنا، حتى بعد الإجراءات التلقائية الذاتية، وغير العادلة، التي قام بها البابا ضدنا في مجمع ليون، وما كنا لنوافق قط على أية محاولة على حياته، أو على حياة أي واحد من إخوانه، مع أنه غالباً ما طلب منا حول القضية من قبل بعض الأشخاص

المخلصين والغيورين بشكل سري، لكننا تابعنا دوماً قانعين بتحمل أضرارنا، وعددنا أنه يكفي أن ندافع عن أنفسنا بشكل عادل، من دون القيام بالانتقام، لأنه من الواضح تماماً بأن الرب يقاتل من أجلنا، لأنه لم يكتف بانقاذ حياتنا من أيدي أعدائنا، بل ناولنا قوتهم وأشخاصهم ووضعهم بين أيدينا، لأنه عندما قام مؤخراً الكاردينال رينير Regnier، العدو لاسمنا ولكرامتنا، بالالتحاق بالـ Perusies، وبالـ Assisemates، من رعايانا العصاة، بناء على إثارة جيمس دي مورا، الخائن المتقدم ذكره، من أجل إيذاء رعايانا المخلصين، وذلك في اليوم الأخير من آذار الأخير، قرب قلعة أسكولي، وقد قام مارينوس دي إيبولي Marinus de Eboli، الذي هو من رعايا الامبراطورية المقدسة، والقائد الأعلى لدينا، بمساعدة قوات مأجورة مع آخرين من رعايانا المخلصين، الذين أمكن جمعهم في تلك الساعة، وكان مؤيداً بفضيلة اسمنا، وحظنا الجيد المعتاد، قام بنشاط بمهاجمة أعداءها هؤلاء، وبالثقة أكثر من الاعتماد على عدد عساكره، فهزموهم جميعاً، مع خسائر كبيرة أيضاً، ذلك أنه بالإضافة إلى الذين سقطوا بوساطة سيوف قومنا المخلصين، جرى أسر أكثر من خمسة آلاف من الثوار من قبل رجالنا، ومن ثم أودعوا في سجننا، ونحن نخبرك بهذه الأشياء جميعاً، لمنحك السرور، كما نعتقد، لابل، نحن نعلم أنك متعاطف معنا أثناء الاضطرابات، وأنت تفرح معنا أثناء تقدم النجاح، كما أن وافر حظنا الجيد، والعدل الذي نستحقه لم يسمح لسرونا ولفرحكم بالانغلاق مع هذه الأحداث، لأنه حدث في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر، الذي هو شهر نيسان، أن مدينة كاباكيو، التي على هذا الطرف نحو الياسة، والتي كانت محاصرة، قد خرقت بسرعة من قبل رعايانا المخلصين، الذين التهبوا بنوع من أنواع الجنون لقتل الخونة، وللانتقام لأنفسهم، وليس أقل من ذلك لما لحقنا من أذى، والذي حدث هو أن المحاصرين قد شعروا بقدرتنا في كل من القريب والبعيد، وعندما أصبحوا غير قادرين على النجاة من

انزال انتقامنا العادل بهم، قاموا بقتل أنفسهم بسيوفهم، أو برمي أنفسهم من أعالي الصخور على جانب البحر في ذلك المكان. صدر في ساليرنو في اليوم الخامس عشر [اقرأ: ٢٥] من نيسان، في العلامة الرابعة».

وولتر دي أوكرا يكتب إلى ملك إنكلترا حول الموضوع نفسه

وكان وولتر دي أوكرا Odra، الذي كان كاهن فردريك، يعتقد، مثلما فعل سيده بأن ملك إنكلترا سوف يبقى ثابتاً على موقفه، يقاوم بجرأة وقاحة البلاط الروماني، فبعث بالرسالة التالية إليه، لمواساته، ولإزالة جميع أسباب الخوف:

«إلى الملك اللامع لانكلترا، تحيات من المعلم وولتر: لأنني أعلم أنك تبتهج في ازدهار مولاي، يطيب لي أن أخبر جلالتك، بأن مولانا المذكور، قد قام قبل حوالي ثمانية أيام، قبل نهاية تموز الأخير، بإلقاء الحصار على قلعة كاباكيو، التي كان فيها ثيوبولد فرنسيس، ووليم دي مان Mann، ووليم دي سينت سيفرينو Severino، وغيوفري دي مورا Morra، وروبرت، ورتشارد دي فاسانيلا Fasanella، الخونة له، والذين حاولوا قتله، مع مائة وخمسين آخرين، بما في ذلك فرسان، ورماة قسي زيارة، مع أصدقاء آخرين لهم، وكان بينهم أربعين من الرهائن اللومبارد، قد قام باطلاق سراحهم، ثيوبولد المذكور، في أيام المؤامرة، وقام مولانا المذكور برماية هؤلاء بالقذائف ليلاً ونهاراً من دون انقطاع، من سبعة مجانيق أعدت بشكل جيد، وبوساطة حملات متتابة أيضاً عملت ليلاً ونهاراً، تحولوا إلى حالة ميثوس منها، وبلا قدرة، إلى حد أنهم لم يعودوا قادرين على مساعدة بعضهم بعضاً، سواء في قضايا أشخاصهم أو أطرافهم، وتم أخيراً، بوساطة الحملات المذكورة، الاستيلاء على القلعة، مع الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، فهؤلاء قبل أخذهم إلى ربنا — باستثناء وصاية البابا — كانوا قد حرموا من عيونهم، وكل واحد منهم أيضاً، من يد، وأنف،

ورجل، ثم قرر مولانا إرسال ثيوبولد المتقدم ذكره، والخمسة الآخرين الذين حاولوا قتله إلى جميع الملوك والأمراء في أرجاء مختلف البلدان في العالم، مع طبعة ختم البابا — التي وجدت هناك — مختومة على جبين كل واحد منهم، لجعل الجمهور يدركون خيانتهم، وتمّ العثور في هذه القلعة على إحدى وعشرين سيدة نبيلة — متزوجات، وأرامل، وفتيات — وقد وضعوا بناء على أمر من مولانا تحت وصاية آمنة، أما القلعة نفسها، فجرى تدميرها إلى حجر الأساس، وكل الذي وجد فيها — باستثناء الكائنات الحية — جرى تحويله إلى رماد في البقعة نفسها، ثم قام مولانا المذكور بترتيب جميع القضايا، وأقام سلاماً مع الرومان، والبنادقة، وبعد الفراغ من ذلك أقسم أنه سوف يسير من دون شك مع كتلة كبيرة من الفرسان إلى ألمانيا، وعمل الاستعدادات للقيام بمثل هذا العمل، ففي تلك البلاد كان الملك ابنه قد اشتبك من دون حذر بمعركة مع أعدائه، يوم عيد القديس جيمس الماضي، وقد أخفق بسبب خيانة اثنين من الكونتات السوابيين، واسمهما: ويرتبيرغ Wirttemberg، وغروننغن Grnighen، اللذان تلقيا من الحبر الأعظم سبعة آلاف مارك من الفضة، بالإضافة إلى وعد — وعمل وتأكد ذلك بوساطة رسائل رسولية — بحصة من دوقية سافوي Savoy، على أن يقوموا باستدراج الملك إلى ساحة المعركة والتخلي عنه هناك في ساعة المعركة، أي أن يتخلوا عن الجيش من دون قتال، وبناء على ما توافقا عليه، قاما مع أول حملة بانزال علميهما، وخاضا نهراً هناك، وهربا وتخليا عن الجيش، مع حوالي ألفي فارس ورماة قسي زيارة، وصار الملك نفسه في خطر عظيم، وبقي في وسط الأعداء مع حوالي ألف فقط من الفرسان، غير أنه تابع مع الذين بقيوا معه القتال بشجاعة، لكنه أخيراً بعدما فقد مائتين من أتباعه، التجأ إلى مدينة فرانكفورت، وحدث على كل حال، بعد عدة أيام أن جرى إطلاق سراح الأسرى الذين تقدم ذكرهم، بضمانة، أو برهائن، أو بفدية، فاسترد شجاعته، وتابع بنشاط القتال ضد

أعدائه، وإلى هناك سوف يذهب إليه من مملكة فرنسا، ومن منطقة بيرغندي، على هذا الجانب من السون Saone، خمسمائة فارس من بين أقرباء وأصدقاء مولانا الامبراطور، ومعهم أيضاً زحف دوقا بيرغندي واللورين، وكونتنا: شالون Chalon وباررميا Barremia.

الملك يسمح مجدداً إلى الرومان بجمع المال من إنكلترا كما يريدون

وفي هذه الآونة، أصبح الموقف الصلب، الذي اتخذته الملك بشجاعة، في ضبط توجهات البلاط الروماني بالقوة، هذا الموقف الذي كان من المأمول والمعتقد أنه سيحافظ عليه، صار أضعف، وحدث هذا، حسبما ذكر حقيقة، قد جاء نتيجة تأثيره بآراء الذين كانوا خائفين كثيراً، بأنهم سوف يخسرون مواردهم من خلال غضب البابا، لأن الأشياء التي أحبوها في قلوبهم، خافوا من أنها ستضيع من بين أيديهم، وفقاً لكلمات الشاعر:

الحب مع الخوف دوماً مليء

ثم إن الملك مع عينين مغمضتين، واذنين مغلقين، وفي سبيل افقار بلادنا كلها، سمح بأن تُسلب الكنيسة الانكليزية، وأن يسرق منها ستة آلاف مارك، وذلك حسب ارادة الرومان ورغبتهم، وهم أعداء مملكته وأعداء المصلحة العامة، وهو مبلغ حمله رسل البابا وتجاره لمساعدة اللاندغريف، لكنهم لم يتمكنوا تماماً من النجاة من مصائد فردريك، وقد انتقد هذا الأخير بحدة الانكليز الضعفاء، من أجل سماحهم لكل نوع من الناس بالاثراء على حساب فقرهم، كما أنه تقدم بشكوى ثقيلة أمام رفاقه بالسلاح، بشأن ضعف الايرل رتشارد، وتراخيه، في اعطائه الموافقة على هذا، لأنه ظهر وكأنه مترابط مع حزب البابا من أجل دمار المملكة

الانكليزية، وانحذار الامبراطورية، لأنه من خلال الثروات الصغيرة للصليبيين، زاد ثرواته كثيراً، وجاء ذلك بوساطة إذن البابا، وعلى هذا ازدادت مطالب الرومان جرأة، ذلك أنهم لم يواجهوا أحداً اعترض سبيلهم في أعمال سلبهم، فاللاجئون أرغموا على الفرار، والذين أرغموهم على الفرار، هربوا بدورهم، وآمال الانكليز، الذين اتخذوا أعداءهم قضاتهم، قد ديس عليها تحت الأقدام.

كيف قطع ملك أراغون لسان أحد الأساقفة

في الوقت الذي كان الحظ فيه، يتلاعب هكذا مع العالم، قام ملك أراغون بشكل وحشي بقطع لسان واحد من الأساقفة، لأنه ربما نقده بشكل محق، لهذا السبب، أو لأنه كان هناك عدداً مسؤولين عن جريمة قتل، ويتوجب التساهل بعض الشيء في حدة معاقبتهم، ولقد استحق الملك المذكور أن يعاقب بشدة، وأن توضع مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن بإرساله بعض رسله الخاصين الذين استحقوا الرعاية، حصل على مصالحه مع الكنيسة، لأنه قاتل بإخلاص في سبيل الرب ضد الاسبان والمسلمين، وانتصر بشكل مجيد عليهم.

توجيه اللوم إلى البابا من قبل جون

الذي هو كاردينال من أصل إنكليزي

في الوقت الذي كانت فيه عواصف بحر هذا العالم هائجة على هذه الصورة، سمع البابا بأن ملك انكلترا قد استعد بجرأة لمعارضة استخراجاته (لأن الرسل لم يكونوا قد وصلوا بعد لإخباره عن خوف الملك وتراخيه ومرونته)، فعند ذلك انفجر بانفعال شديد، وعزم على الانتقام بوضع مملكة انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان بانفعالاته المجنونة يعد هذا القرار، عارضه المعلم جون، وكان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان راهباً من طائفة السسترشيان،

وكان دينا لاً، وقال له: «مولاي، من أجل خاطر الرب، وفر غضبك، الذي هو — إذا أمكنني القول — غير مستقيم، واضبط هذه الضغوط التطوعية، باللجوء إلى الاعتدال، مقدراً كم هي سيئة هذه الأيام، فالأرض المقدسة عرضة للخطر، وقد انفصلت الكنيسة الاغريقية عنا، وفردريك معادي لنا، وهو الذي ليس هناك من هو أقوى منه، لابل في الحقيقة ليس هناك من يوازيه بين الأمراء المسيحيين، وأنت ونحن الذين نشكل رأس الكنيسة، قد طردنا من الكرسي الرسولي، لابل في الحقيقة من المدينة، ونحن نعيش في المنفى، فهنغاريا مع أراضيها الحدودية، تتوقع شيئاً ليس أقل من الدمار من قبل التتار، وألمانيا ترتجف بسبب حروبها الداخلية، وأظهرت اسبانيا الجنون، إلى حد قطع السنة الأساقفة، وفرنسا التي هي أيضاً قد تأمرت ضدنا، قد غدت فقيرة من خلالنا، وانكلترا أيضاً التي أوديت مراراً بالأضرار التي صدرت عنا، هي مثل أتان بلعام، قد جرحت بالنخس، وبضربات العصا، وقد تكلمت أخيراً، ولامتنا، واشتكت أنها أنهكت بشكل لا يمكن الخلاص منه، وجرحت بشكل لا يمكن الشفاء منه، وباتت على هذا مثل الاسماعيليين، مكروهة من قبل الجميع، ونحن قد أثّرنا الجميع لكراهيتنا»، ولم يتحرك عقل البابا — على كل حال — نحو الرحمة، أو التواضع، بوساطة هذه الكلمات، بل ظل يتحرق للانتقام وانزال العقوبات، وبينما هو في هذه الحالة، وصل رسل من انكلترا، قاموا بتليين عقل البابا المتيبس، بتوقعات الريح، وأكدوا أنه من خلال أصدقائه الخاصين في انكلترا (أنا المعد لهذا العمل غير مسموح لي بذكر أسمائهم) قد لوي قرار الملك، وبناء عليه فإن رغباته سوف يجري بسرعة تنفيذها، ولدى سماعه هذا هدأ السرور عقله وملاحظه.

الملك يمنع التفتيش الذي أقامه أسقف وينكستر

وفي هذه الآونة، كان أسقف وينكستر، قد مارس، بناء على اقتراح الدومينيكان والفرنسيسكان — كما ذكرنا — المظالم على الرعايا التابعين

له، وكان ذلك أكثر مما هو معتاد أو موائم، إلى حد أنه أقام تفتيشاً دقيقاً، يجري في أسقفيته من قبل رؤساء شمامسته وعمدائه، وذلك فيما يتعلق بكبح النفس والأخلاق لدى النبلاء، وكذلك غير النبلاء، مما سبب ضرراً عظيماً للسمعة الصالحة، وفضائح لكثيرين، لأن مثل هذا لم تجر العادة به من قبل، وبناء عليه، لدى سماع الملك الشكاوي الثقيلة للناس، وبناء على نصيحة بلاطه، كتب إلى عمدة هيرفورد كما يلي:

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلخ: نحن نأمرك، حيث أنك تقدر نفسك وجميع ممتلكاتك، أن لا تسمح إلى أي رجل علماني من وكلائك، بناء على رغبة أسقف لنكولن، ورؤساء الشمامسة، والرسميين الآخرين، أو العمداء الريفين، منذ الآن فصاعداً، بالتجمع في أي مكان، للقيام بإعادة تقدير في اليمين، أو في أية شهادة، مالم يكن في شؤون الزواج أو شهادات القضايا»، ولدى سماع الأسقف بهذا، أعلن بأن الملك مقبل على اتباع خطوات بعض المتأمرين، الذين خرجوا بوقاحة مشابهة في فرنسا (الذين أعطي عنهم بيان مفصل في صفحة مقبلة من هذا العمل).

طغيان البابا في استخراج المال

وازدادت جرأة البابا، من النجاح في اخضاع الانكليز التعساء وإفقارهم، فقام الآن بشكل متعطر، لا بل أكثر غطرسة مما هو معتاد، فطالب جميع الأشخاص المنتفعين في انكلترا، القاطنين في منافعهم، بوجوب اعطاء حصة ثلث من ممتلكاتهم إلى البابا، وأن يعطي الذين غير قاطنين، النصف، مع إضافة شروط أخرى قاسية جداً، رابطاً الوصاية المتقدم ذكرها، بتلك العبارة المقيتة: «دون الاهتمام والتقدير»، وهي الاضافة التي أخذت جميع العدالة، التي مضت من قبل، ولكي يضع هذا المرسوم موضع التنفيذ، عيّن على الفور أسقف لندن.

الملك يمنع الاستخراج المتقدم ذكره

ثم إن الأسقف المذكور أعلاه، قام بعدما جعل هذه القضية معلنة ومعلومة في كنيسة القديس بولص في لندن، برفقة بعض الآخرين الذين كان قد جمعهم مع بعضهم لهذا الغرض، فقرر أن يبحث في مسألة هذا الاسهام المرعب، في يوم عيد القديس أندرو، وبينما كانوا متألين من أنه أمر بما بدا — لابل بالحقية كان — غير ممكن، وصل إلى ما بينهم جون أوف ليكسنتون Lexington، وهو فارس، والمعلم لورانس دي سينت مارتين، وكان واحداً من كهنة الملك، وكان قد أرسل إلىهم من قبل الملك، حيث منعاهم بكل دقة، بعدم الموافقة، ولا يشكل من الأشكال من الاسهام المتقدم ذكره، الذي جرت المطالبة به، لاضراره بالمملكة كلها، ثم بعد عدد من الالتماسات من جميع الذين احتشدوا، أنهم المؤتمرون وهم مسرورين، ولكي لانمر صامتين بالكلمات المؤثرة للذين عارضوا هذا المرسوم، رأينا أنه من المناسب إقحامهم في هذا العمل، ومع أنهم لم يجيبوا بجرأة، لعله كان بإمكانهم أن يكونوا أكثر جرأة، وأكثر فعالية، لو توفرت لديهم أية ثقة في الكلام المتقلب للملك وبأفعاله.

رد رجال الدين بشأن استخراجات البابا غير المعقولة

«لو أن أحوال وأوضاع مملكة انكلترا، كانت معروفة من قبل البابا وإخوانه في أيام المجمع، لما أقدم بأي حال من الأحوال على إعلان ذلك القانون، ولو أن المخاطر والأضرار التي كان من الممكن أن تحيق بالكنيسة الانكليزية بسبب ذلك القانون، قد شرحت له، لما أمكن بأي حال من الأحوال، اقناعه بعمل ذلك المرسوم، لأنه كانت هناك عادة قائمة في الكنائس الكاتدرائية ومرعية، قضت بأن يدفع للكهنة المقيمين فيهن، والذين هناك عدد صغير منهم في بعض الكنائس وكهنة صغار، وقساوسة للكنيسة، من موارد المنافع اللاهوتية، التي هي بأيدي الكهنة

المذكورين في مناطق مختلفة، وإذا كانت حصتهم غير كافية، وصلت إلى نصف المبلغ، فإن خدمات الكنيسة سوف تهجر، بسبب أن الكهنة غير قادرين على الدفع لهم، ولأن الكهنة أنفسهم يعانون من نقص كبير، هم لن يكونوا قادرين على الإقامة في الكنائس، وإذا رأوا أن من الموائم الإقامة بهم، فإنهم لن يتمكنوا من الإنفاق على الآخرين، لابل حتى الانفاق على أنفسهم، من خلال الحصة المتبقية من منافعهم، وخاصة بما أن البابا يقصد أخذ نصيب من حصص المتوفين من دون وصية، حتى يجري استخدامها في أراضي رومانيا (بيزنطة)، وبما أن حصة غير المقيم، قد عدت وكأنه لم يتم شخصياً، ولا حتى اقتطاع التكاليف أو النفقات التي وقعت على جمع الأرباح، ومسائل أخرى كثيرة، وإذا لم تقطع، من الصعب بقاء جزء من أربعة في حوزة الرهبان».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً بما أن الأماكن الدينية قد أسست في جميع أرجاء انكلترا، وتأسست بناء على إجراءات الكنائس الأبرشية، وفي هذه الحالة، فإن المنافع التي منحت هكذا مع الممتلكات الأخرى بالكاد تكون كافية لهم، وإذا ما جرى أخذ جزء من منافعهم، فإن القسم الأول سوف يكون مرغماً على العيش على الصدقات، أو أن الضيافة، ربما سيجري التخلي عنها، أو أن الأمرين سوف من الممكن حدوثهما في بعض الأماكن، وهذا من غير الممكن حدوثه من دون فضيحة كبيرة، وخطر على الأرواح، قد يبلغ حداً أن بعضهم سوف يأخذ بالتجول في أنحاء العالم، وبسبب حالة التشرد هذه، سوف يسقطون في كثير من الذنوب المضاعفة، بعدم مراعاتهم لأحكام الآباء المقدسين، التي هم مرتبطون بها».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن عادة كانت قد سيطرت، وقد جرت مراعاتها في

انكلترا، بأن قساوسة الكنائس الأبرشية، كانوا دوماً مشهورين بضيافتهم، وأقاموا ممارسة تقديم الطعام إلى المحتاجين من أهل أبرشياتهم، وبهذه الوسائل، سعوا ليس فقط لإرضاء الخالق الأعظم، بل الناس العلمانيين من كل نوع، والذين بوساطتهم اضطرب كهنة البلدة، وإذا ما جرى انتزاع حصة من منافعهم منهم، فإنهم سوف يكونون تحت ضرورة رفض ضيافتهم والتخلي عن وظائفهم المعتادة بالتقوى، وإذا ما انسحب هؤلاء، فإنهم سوف يحصلون على كراهية أولئك الرعايا التابعين لهم، وسوف يفقدون عرفان العابرين مع جيرانهم، ولسوف يجري حرمان قساوسة الكنائس من حقوقهم، بحيث يصبحون غير قادرين على الدفاع عنهم، وبسبب فقرهم سوف يظلمون من قبل هؤلاء العلمانيين أنفسهم، مما سوف يجلب العار والخسارة على الكنيسة العالمية، وبعضهم الذين منافعهم غير كافية لإقامة مدة ستة أشهر، والذين نادراً ما يجدون طعاماً في الأماكن الأخرى، إن هؤلاء إذا ما جرى اقتطاع جزء من منافعهم منهم، سوف يرغمون على التسول، ولسوف تتوقف القداسات في كنائسهم، وإذا ماتوقفوا، فإن أهل أبرشياتهم سوف يعجزون عن دفع عشورهم، ومواردهم، ولن يكون هناك أحد يتولى متابعة مطالب تلك الكنيسة، بسبب الحاجة، وسوف تصبح كرامة الكنيسة منحلة، وستسقط جماعة الكهنة في حالة الإزدراء، وسوف يتوقف الوعظ، وسيترك علاج الأرواح من دون من يقوم به، وبذلك سوف يكون الإيمان في خطر، بمعاملة الناس للعقائد، وسيقابل إصلاح الأساقفة بالإزدراء».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن الفقراء، الذين هناك أعداد منهم بلا نهاية، يعيشون أثناء السنة على ممتلكات الأشخاص اللاهوتيين، ويتسلم عدد كبير من السادة، وأقربائهم مع آخرين يقيمون في خدمتهم الطعام والدفع المالي

من ممتلكاتهم، فإذا ما جرى أخذ حصة من مرباحهم منهم، فإن الصدقات سوف تتوقف عن المنح، وسوف تصبح أسر فاسقة، وإذا ما حدثت هذه الأمور، فلسوف يموت الفقير من الجوع، وبعضهم بما أنهم لا يستطيعون الحفر، وأن يتسولوا عار عليهم، لسوف يجدون أنه من الضروري — بدلاً من الهلاك جوعاً — الانخراط في السرقة، والاغتصاب، والسلب، وعن ذلك سوف ينجم قتل الكثيرين، وسوف تثار الفوضى بين الناس، ولا شك ان اضطراب مملكة انكلترا كلها سوف يتلو ذلك بالضرورة».

قضية أخرى وسبب :

«ومجدداً، بما أن هناك كثيراً من الكهنة في انكلترا مثقلين بحمل الديون، إذا لم يجر اقتطاع الدين والنفقات، التي قدرها يفوق السدس من مواردهم، فإن ذلك الاقتطاع لن تجري بالنادر معارضته في أية قضية، ولكن إذا كان من دون اقتطاع، فإن الأثقال على الكنيسة، المؤلفة من المعاشات التقاعدية، ووكالات الأساقفة، واصلاح الكنائس وترميمها، وتزيينها، سوف تستهلك حصة أرباحهم وستنزعهما منهم، وبما أنهم لا يمكنهم العيش على ما ترك لهم، سوف يتحولون إلى حالة العوز، ثم إنه في حال الاعتناء بمثل هؤلاء الأشخاص، وأن لا يكونوا في عوز، خاصة حيث من المتوقع التقول على الكنيسة العالمية، والفضيحة من الممكن أن تنتج».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، إنه بالإضافة لما جرى جمعه تحت اسم جزء من عشرين، جرى مؤخراً دفع ستة آلاف مارك إلى البابا، ولدى مقارنة كمية الجزء من عشرين مع المبلغ المطلوب، سوف يتجاوز المبلغ المطلوب ستين ألف مارك، بما في ذلك الجزء من ستة من الموارد، الذي يعاد دفعه لدى جمع

المرايح، وبما أنه لم ينقص ذلك الجزء، وبما أنه —بالإضافة إلى هؤلاء— يسعى للحصول من الأشخاص المتوقعين في الوصاية الأولى، ومن الذين يتسلمون موارد مائة مارك، والجزء من عشرين، ومن الذين لديهم موارد أكبر، جزء الثلث، سوف يكون محتماً أن يجمع من موارد الكهنة، مبلغ ثمانين ألف مارك، وهو مبلغ سوف يكون من الصعب كثيراً على مملكة انكلترا أن تقدر على دفعه، فكم على هذا، عندها ستكون خسائر الكهنة، الذين تتألف ممتلكاتهم في المرايح فقط، التي —مع أنها معروضة بشكل عام سنوياً للبيع— تقود إلى كثير من أعمال الشراء المعمولة من المبلغ المذكور، وبما أن المال ينتقل من يد إلى يد، ويبقى في المملكة؟ وإذا ما حذف المال من كل بيع، وحمل إلى خارج المملكة، سوف تكون عمليات الشراء عاجزة، ومن الممكن أن يحدث أن مثل ذلك المبلغ من المال، من الممكن عدم توفره في المملكة، الأمر الذي تبرهن في حالة طورايء ضاغطة، في زمن مضى، أي عندما حدث أن كان رتشارد، ملك انكلترا، صاحب الذكرى اللامعة، أسيراً ومحبوساً في بلد أجنبي، فوقتها تم طلب ستين ألف مارك من أجل إطلاق سراحه، ومع أن المملكة كلها أسهمت، لم يكن بإمكانها أن تدفع المبلغ جميعه، لولا أنه عدّ صلبان وأواني الكنائس جزءاً من المبلغ المسدد، وهكذا إن إمكانية جمع مثل هذا المبلغ الكبير الآن ضئيلة، وإلى أن يجمع هذا من مقتنيات الكهنة فقط سوف يحتاج إلى ثلاثة أضعاف المدة، أي سوف يحتاج إلى مدة ثلاث سنوات، وبما أنه، على هذا، تعارض الكنيسة الانكليزية بوساطة حمايتها هذا الاستخراج، سوف يكون من المفيد إعلام البابا بهذه المعارضة العامة باسم الكنيسة كلها، وهي تدعو إلى حضور يسوع المسيح، وأن يجري عقد مجمع عام، في أي وقت، بنعمة الرب».

كيف جرى إرسال اثنين من القتلة إلى روما

وفي هذه الآونة جرى إرسال اثنين من القتلة الجريئين، من قبل

الامبراطور فردريك إلى البلاط الروماني، بقصد قتل البابا في مؤامرة سرية، حسب طريقة الحشيشية، وقد جرى اعتقالهما بحادثة غير متوقعة، وأودعا السجن، لانتظار صدور حكم على جريمة تأمرهما، وكان هناك بعض من قال، بأن هذا الخبر قد جرى اختراعه بدهاء، ورتب بشكل زائف، في سبيل أن فردريك الذي كان قد أعلن، أنه قد تعرض لمحاولة مشابهة بتأمر من البابا، منذ وقت ليس ببعيد، يمكن أن يتعرض الآن للاساءة إلى سمعته، باتهامه بجريمة مماثلة.

موت أسقف سالسبري

وفي حوالي الوقت نفسه من العام، أي في اليوم التالي لعيد جميع الأرواح، مات المعلم روبرت رنغهام Ringham صاحب الذكرى التقية، وأسقف سالسبري، وكان رجلاً أحيط بالفضائل، مليئاً بالسنوات، وكان مليئاً بالانجاز الأدبي، وقد ترك —على كل حال— بيته الرهباني مداناً بألف وسبعمائة مارك.

وفاة راعي دير ويستمنستر

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، أي أن تقول في الأول من كانون الأول، مات رتشارد دي بيركنغ Berking راعي دير ويستمنستر، وكان رجلاً حكيماً، ومتعلماً، ومتديناً، وهو الذي زاد أثناء حياته موارد بيته الرهباني، بحوالي ثلاثمائة مارك.

تطويب إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في يوم الأحد، التالي قبل عيد الميلاد، عندما يغنى بمزمور «ابتهج بالرب»، قام البابا بشكل مهيب بتطويب إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، وأدرج اسمه في لائحة القديسين لأنه خشي من أن يقوم القديس المذكور بمعاقبته من أجل إهمال تطويبه، ذلك أنه أجل ذلك يوماً بعد يوم، بسبب النائم وأعمال التآمر، وعندما

سمع الملك بهذا، سرّ سروراً كبيراً، وما أن أعلم بذلك، حتى أعطى أوامراً بأن يقوم جميع كهنة البيعة الملكية، بارتداء ثيابهم الاحتفالية، وأن يتولوا، مع عدد من حوامل الشموع المضاءة، أداء قداس، يبدأونه بمزمور «دعونا نبتهج» إلخ، إلخ، ولسوف تكون الوثيقة الأصلية لتطويبه في نهاية الكتاب.

كيف توقف البحر عن المدّ والتدفق لمدة ثلاثة أشهر (أيام؟)

لقد روي من قبل أشخاص موثوقين، أن البحر لم يتدفق على شاطئ البحر، كما هي العادة، وذلك لمدة أربعة أيام أو خمسة، وهي واقعة، شهد الذين يسكنون على الساحل، والبحارة الذين يسافرون فوق المياه العظيمة، أنهم لم يروا مثلها من قبل بشكل مطلق.

انتخاب وليم أوف يورك أسقفاً لسالسبري

وفي حوالي الوقت نفسه، أيضاً، وجد كهنة سالسبري، أنه من الصعب جداً إيجاد واحد يكون مقبولاً من الملك، ما لم يكن شخصاً عائداً إلى بلاطه، وفي سبيل الاحتراز ضد تعريض كنيستهم إلى المخاطر، ولكي يربحوا رضا الملك، انتخبوا بالاجماع وليم أوف يورك، وكان كاهناً مقرباً كثيراً من الملك، وقسيس بيفيرلي Beverley، وكان رجلاً بارعاً تماماً في القانون، انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وكما كان معتقداً، كان هذا الانتخاب مرضياً للرب، وموافقاً للملك، وقد جرى تثبيته من دون تأخير، وجرى أيضاً، انتخاب المعلم سيلفستر Sylvester لكرسي كارآيل، لأنه مع أنه قد فكر من قبل، بنفسه، أنه غير أهل بهذا المنصب، ونتيجة لذلك لم يرض بالقبول به، وبما أن الرب قد دعاه لتسلم رداء الأسقفية، استولى عليه رعب مقدس، وقبل بكل تواضع بالانتخاب المذكور، خشية من التحرك ضد الرب، ولكي لا يعد خارجياً.

موت بعض النبلاء الإنكليز

مات في هذا العام بعض النبلاء الإنكليز، الذي عدّ موتهم خسارة كبيرة للمملكة، وكان من بين هؤلاء رتشارد دي أرغنتان Argentan، وكان فارساً شجاعاً، قاتل مخلصاً لمدة طويلة في سبيل الرب، في الأرض المقدسة، وفي المناطق الشمالية، وهنري دي بالأويل Baliol، ولامبرت دي ميولتون Lambert de Muleton، وكذلك الاسكندر سويرفورد Sewerford، وكان خازن كنيسة القديس بولص في لندن، وقد دفن بشكل مشرف في كنيسة القديس بولص، وهو لم يترك مثيلاً له في انكلترا، ذلك أنه كان شخصاً بهياً، جميل الوجه، وموهوباً في المعرفة في كثير من الفروع، وكان لامبرت دي ميولتون المذكور أعلاه فارساً، وقد حاز مؤخرًا، بوساطة هدايا كبيرة، على امتياز مدهش من البابا، وهو أن ما من واحد يحق له حرمانه كنسياً لأي ذنب من الذنوب، مالم يكن ذلك بوصاية خاصة من البابا، وكأن ذلك أنه كان مسموحاً له باقتراف الذنوب مع حصانة، وبعدما آذى كثيرين، وظلم أكثر، استحق أخيراً ضربة تفقدية من الرب، لأنه عندما كان عائداً، بعد حضوره إحدى الدعاوى، وكان لابساً بشكل متشامخ، وقد ترجل، أو بالحري لدى ترجله من على ظهر حصانه، اشتكى بأنه أصيب بمرض خطير، وبادر مسرعاً إلى مضجعه، وقبل أن يخلع مهمازيه، صار لونه شاحباً بسبب الموت، وكذلك رالف بريتون Briton، الذي كان من قبل صديقاً مقرباً جداً من الملك والمملكة، ومفضلاً على كثير من النبلاء، كما كان مستشار الملك، وقد سقط على الأرض، وعاش مع ضربة غير متوقعة لسكتة دماغية، وجاء ذلك أثناء مشاهدته لبعض اللاعبين بالنرد، أثناء لعبهم، وجاء ذلك بعد مشاركته بوجبة طعام، وهكذا فإن الذي أفقر كثيراً من الأشخاص، وخاصة كهنة مسيديا Messedia، في سبيل أن يجمع ثروة كبيرة، ويتملكها لنفسه، فقد

فجأة حياته وما حصل عليه أيضاً، وكذلك نيقولا دين Danne, (عليه اللعنة)، وكان كاهناً، وخازناً، ومستشاراً خاصاً للايرل رتشارد، فهو كان مع صديقه وشريكه جون بريتاشي Bretasche, الذي كان فارساً، (والذي أصيب بانتقام مماثل) قد مارس أعمال الاستيلاء على المال من كل الاتجاهات، وتكديسه من أجل استخدام الايرل، ففي إحدى الليالي المظلمة، عندما كان مخموراً، ومتخماً من إحدى الحفلات، وكان ممتطياً من دون حذر لحصان حرون، سقط على الأرض سكراناً، فاصطدم بجذع شجرة على الطريق، فدق عنقه، وتمدد على ظهره، ولفظ أنفاسه، وتقيأ الخمرة التي كان قد شرب منها كثيراً، ولقد كتبت هذه الأشياء، من أجل أي واحد، قد يعهد الرب إليه بمقاليد أية سلطة مدنية، أن يقوم، بوساطة وضع قدميه في مكان واسع، ويتذكره قول النبي: «إنه أمر مرعب أن تقع بين يدي الرب»، يمكنه بذلك أن يخاف من العقاب في النهاية، إذا ما خان قضيته.

انتخاب رتشارد دي كروكسل راعياً لدير ويستمنستر

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى بالاجماع انتخاب المعلم رتشارد دي كروكسل Crokele, رئيس شمامسة ويستمنستر، والذي كان رجلاً فصيحاً، وعالماً بالقانون، وصديقاً قريباً جداً من الملك، انتخابه راعياً لدير تلك الكنيسة من قبل جميع الرهبان، لأن الرهبان خافوا أنهم إذا تصرفوا بشكل معاكس، من أن يقوم الملك، الذي كان حاميههم الخاص، بترك نصف الكنيسة التي شرع ببنائها بشكل جميل، غير مكتملة العمارة، وقد جرى على هذا انتخاب رتشارد المتقدم ذكره، وقد كان دوماً معجباً بالقديس ادموند المعترف، ورئيس الأساقفة، لأنه في يوم تطويب ذلك القديس، أي في يوم الأحد ما قبل عيد الميلاد، كما تقدم الذكر أعلاه، استدعي إلى الاحتفال التكريمي لهذا التجمع الأسقفي السامي، وأمر على الفور ببناء بيعة تشريفاً للقديس المذكور،

حيث تقام فيها صلوات فخمة، حسبما هو لائق، وتقدم في مستقبل الأيام إلى الرب، وإلى المعترف المذكور، وبمبادرة من الملك أيضاً، عملت إضافة لتكريم راعي الدير المذكور، سمح له بموجبها بأداء القداس في أثواب حبرية، وأن يقدم مباركات مهيبة إلى الناس أثناء انشاد «حمل الرب».

خاتمة أحداث السنة كلها

كانت هذه السنة خلالها كلها منتجة للشكوك إلى الأرض المقدسة، والأذى للكنيسة بشكل عام، والعدوانية للإمبراطورية، والسلب لمملكتي فرنسا وانكلترا، والعار والاضطراب للبلاط الروماني.

احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر

كان عام ١٢٤٧، هو العام الحادي والثلاثين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه في وينكستر، بحضور عدد كبير من نخبة نبلاء المملكة، ولدى وصوله إلى هناك، استقبل بالسرور من قبل أسقف وينكستر، الذي رجاء بحرارة بأن يتناول طعام الافطار معه، في الصباح التالي الذي هو صباح يوم عيد الميلاد، فقد اعتقد الأسقف أنه بعمله هذا، يمكن أن يعطي برهاناً إلى الجميع بأن مولاه الملك، قد نسي تماماً، جميع ذنوبه السالفة، ولكي يتمكن من أن يظهر أمام جميع الضيوف بأنه —أي الملك— أعاده —أي الأسقف— إلى صداقته الماضية، ولسرور الأسقف، تمت الموافقة على طلبه، وتمت تلبية رغباته.

عقد مؤتمر في لندن

وفي هذه الآونة، وبناء على وصاية مستعجلة من البابا، تتعلق بالمساهمة التي تقدم ذكرها والتي لا يمكن التساهل نحوها، وهي المساهمة التي قام الأساقفة بالمؤتمر العام، لسوء الحظ فربطوا رجال الدين بها، بناء على ذلك قام الملك بموجب أمره الملكي، باستدعاء

نبلائه، وكذلك رؤساء الشمامسة في انكلترا، للقدوم إلى لندن، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا جميعاً، أي الأساقفة، قبل اليوم المتفق عليه، فغيبوا أنفسهم عن عمد، في سبيل أن يظهروا أنهم كانوا معارضين لأعمالهم، لأنهم كانوا يعرفون بأن قلوب الجميع كانت مليئة بالألم، ولم يكن هذا من دون سبب مسوغ.

حول مؤامرة بعض نبلاء فرنسا ضد البابا

في الوقت الذي كان فيه نهر الوقت يتدفق هكذا نحو الأمام، ضعفت التقوى لدى المسيحيين، وكذلك عواطف البنوة، التي من المتوجب على كل مسيحي أن يرعاها نحو أبينا الروحي، البابا، ذلك أنها كانت قد أصيبت بجراحة وماتت، ولم يكن هذا بلا تعريض أرواحنا للخطر، لابل في الحقيقة، تحولت هذه العواطف إلى كراهية شديدة، ولعنات خفية، لأن الجميع قد شاهدوا، ومع المشاهدة شعروا بأن البابا المذكور، استمر عازماً، على إلحاق الضرر والفقير بكثيرين، وعلى نهب المال، واعتقد كثيرون الآن، أنه يأمسكه للسلطات التي منحت من السماء إلى القديس بطرس، أي سلطة الحل والربط، قد برهن عن نفسه، بأنه لا يشبه القديس بطرس بشكل مطلق، وانفتح فم المتحدثين بالشر والذم في كل مكان، وبشكل خاص في فرنسا، البلاد التي تأمر فيها كثير من النبلاء ضد البابا والكنيسة، وهي حالة لا نتذكر قط أنها وقعت من قبل، ومن الممكن مشاهدة خصائص هذه المؤامرة في العرض الكتابي التالي، وقد وصلني باللغة الفرنسية، وفيه جاء:

«إلى جميع الذين سوف يرون هذه الكتابات، نحن الذين أختامنا مثبتة على الرسالة الحالية نعلن أننا نقسم بحق أجسادنا، بأننا قد تعهدنا، وتعاهدنا مع بعضنا، وذلك بالنسبة لأنفسنا، ولورثتنا بشكل أبدي، بأننا سوف نساعد أحداً الآخر، وجميع الذين في بلادنا، وفي البلدان الأخرى، الذين يودون أن يكونوا في هذه الجماعة، وذلك في أن نستحوذ

على حقوقنا، وأن نحصل عليها، وندافع عنها، وعن ماهو خاص بهم،
باخلاص صالح، ضد رجال الدين، وحيث أننا رأينا أنه سوف يكون
عبثاً ثقيلاً علينا، أن نواجه هذا، اخترنا نيابة عنا ولصالحنا، بموافقة
عامة، وبرضا منا جميعاً: دوق بيرغندي، وكونت بيريوم Perrum
أوف بريتاني، وكونت أنغوليم، وكونت القديس بولص، وذلك من
أجل أنه إذا ما أقدم أي واحد من جماعتهم على تقديم شيء إلى رجال
الدين، مثل أية مساعدة، يقوم الرجال الأربعة المتقدم ذكرهم بتقدير
الذي ينبغي أن ينزل به، ونحن علينا أن نفعل ذلك وننزل به، ونود أن
يعلم الجميع، أننا في سبيل الدفاع والاستحواذ، والحصول على ماتقدم
ذكره أعلاه، إن كل واحد من هذه الجماعة سوف يخصص مائة بالمائة،
بموجب يمينه، مما يكسبه لمدة سنة، من الأراضي التي يمتلكها آنذاك،
وسوف يقوم كل رجل غني من هذه الجماعة بجباية المفروض لكل سنة
حسب أقصى قدرته، في عيد طهارة سيدتنا، وسوف يرسل هذا المال إلى
أي مكان يحدد له بوساطة رسائل تحمل أختام الأربعة الذين تقدم
ذكرهم، أو مواقع اثنين منهم، وإذا ما اقترف أي واحد خطيئة، ولم يكن
من الممكن جعله يتخلى عن ذلك من قبل هؤلاء الأربعة الذين وردت
أسمائهم أعلاه، هو سوف لن ينال المساعدة من الجماعة، وإذا تعرض
واحد من هذه الجماعة إلى الحرمان الكنسي، بوساطة ذنب معروف لدى
هؤلاء الأربعة، وكان هذا الحرمان قد أنزل به من قبل رجال الدين، هو
لن يتنازل عن حقه، وصراعه من أجل الحرمان الكنسي، ومن أجل أي
شيء آخر من الممكن أن يعملوه له، ما لم يكن ذلك بموافقة هؤلاء
الأربعة، أو اثنين منهم، وهو سوف يتابع العمل في سبيل حقوقه، وإذا
ما مات اثنان من هؤلاء الأربعة، أو سافرا إلى خارج البلاد، على الاثنين
اللذين بقيا، وضع اثنين آخرين، وتعيينهما مكان هذين الاثنين، ولسوف
يكون لهذين السلطة نفسها، حسبما كان قد تقرر أعلاه، وإذا ما حدث
أن ثلاثة، أو الأربعة غادروا البلاد، أو ماتوا، يتوجب على عشرة أو اثني

عشر من أغنياء هذه الجماعة، انتخاب أربعة آخرين، وسيكون هؤلاء السلطات نفسها، مثلما كانت للأربعة الذين ذكرت أسماؤهم أعلاه، وإذا ما قام هؤلاء الأربعة، أو أي واحد من الجماعة، بأي عمل، بناء على أوامر هؤلاء الأربعة، وكان ذلك مما يخص هذه الجماعة، سوف تقوم الجماعة بتخليصهم منه».

كتابة أخرى ضد رجال الدين

«بما أن أوامر رجال الدين، غير متنبهة إلى أنه بوساطة الحروب وسفك دماء بعض الناس في أيام شارلمان وآخرين، جرى تحويل مملكة فرنسا من آثام الأمم إلى الإيمان الكاثوليكي، وأنه بوساطة نوع من التذلل ضللنا رجال الدين، ونأوا بنا، ورجال الدين هؤلاء يقفون ضدنا مثل ثعالب، فمن خارج بقايا هذه القلاع نفسها التي تعود بتأسيسها ووجودها إلينا، قاموا بخرق سلطات أحكام الأمراء العلمانيين، حتى صار أولاد الأرقاء، يقضون على الرجال الأحرار، وعلى أبناء الرجال الأحرار، تبعاً لشرائعهم، مع أنهم ينبغي بالحرى، أن يحكموا من قبلنا وفقاً لشرائع المتغلبين الماضين عليهم، ولا يجوز الانحراف عن ذلك، بوساطة مراسيم جديدة، ولا عن أعراف وعادات أجدادنا، ذلك أنهم يريدون أن يضعونا في حال أسوأ، مما أراده الرب، حتى بالنسبة للأمم، عندما قال: «أعط لقيصر ما لقيصر، وأعط للرب ما للرب»، ونرى نحن، أعيان الناس في هذه المملكة، ونقدر بتيقظ، بأن المملكة، لم يتم الحصول عليها بالشرعية المكتوبة، ولا برعونة رجال الدين، بل بجهود الحرب وعرقها، وبهذا المرسوم الحالي، الذي أصدرناه بناء على قسم من الجميع نقضي ونقرر، بأنه لن يقوم من الآن فصاعداً أي رجل دين أو أي علماني، بسحب شخص آخر إلى أمام قاض عادي أو قاض مناب، ما لم يكن ذلك في قضية هرطقة، أو زواج، أو ربا، وفقدان جميع مناصبهم الشرفية، والحرمان من واحد من أعضائهم، ينتظر جميع

المعتدين، ولقد جرى تعيين بعض الناس ليكونوا وكلاء لنا، لمتابعة تنفيذ هذه القضية، وذلك في سبيل استرداد سلطاتنا القضائية، ولكي نتمكن من التنفس بحرية، ومن أجل أن هؤلاء الذين صاروا أغنياء على حساب افقارنا، والذين اختار الرب كشف نواياهم الخبيثة، بسبب عجرفتهم، من أجل أن يعادوا إلى أوضاعهم كما كانت في الكنيسة الأولى، ولكي يصبح ممكناً بعيشهم حياة تأمل، أن نشاهد نحن الذين نمارس الحياة الفعلية، من خلالهم، المعجزات التي غادرت هذا العالم، منذ زمن طويل».

وعندما سمع البابا بهذا، تنهد بروح قلقة، وبما أنه كان راغباً في ترضية نفوسهم، واضعاف ثبات مقاصدهم، قام أولاً بانذارهم، وسعى إلى تحذيرهم بالتهديدات، لكنه وجد أن هذا كان بلا فعالية، لذلك قام باضفاء عدد من المنافع اللاهوتية على عدد من أقربائهم، ومنحهم إذن بالاستحواذ على عدد من المنافع، مع كثير من الأعمال الأخرى، كما قدم كثيراً من الهدايا إلى النبلاء أنفسهم وتمكن بهذه الوسائط من استرداد بعض الذين تقدم ذكرهم، ومن ثم اقلاعهم عن اجراءات مطالباتهم، وخاف — على كل حال — كثيرون من محتويات الرسالة، حيث ساد اعتقاد بأنها صدرت عن واحد ما، بموافقة فردريك، لاسيما وأن الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة تتوافق مع الرسالة التي كان قد أرسلها إلى كثير من الأمراء، وهي الرسالة التي قال في نهايتها: «لقد كانت نوايانا دوماً ورغبائنا، في أن نقنع الكهنة من كل طائفة، وبشكل خاص أصحاب المراتب العليا منهم، في أن يستهدفوا الوصول إلى غاية، تتماثل مع الذي كانوا عليه في الكنيسة في أحوالها الأولى، وأن يمارسوا حياة رسولية، وأن يقلدوا الرب في تواضعه، لأنه كان من عادة أولئك الكهنة ممارسة النظر إلى الملائكة، وأن يشعوا بالمعجزات»، إلخ، إلخ، وعد إلى الرسالة التي كان الامبراطور قد أرسلها إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين في عام ١٢٤٥.

حول البارلمان الذي عقد في لندن وفيه تكدست الشكايات فوق الشكايات حول استخراجات البابا

وفي اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، عقد الملك محادثات دقيقة مع نبلائه، ومدد المؤتمر لعدة أيام، لأنه كانت هناك مسائل مستعجلة، حيث كان هناك خوف كبير، من أن يقوم الملك الفرنسي بجعل غسكوني خاضعة له، فهذا ما روي إلى الملك على أنه أمراً حقيقياً، وكان فقدان تلك المقاطعة كما هو ظاهر بشكل واضح، فيه إهانة كبيرة للملك الانكليزي، كما يشكل خسارة كبيرة له، لأنه يتلقى بالعادة سنوياً ألف مارك من بورديو وحدها، وكان قد اجتمع هناك أيضاً، كما ذكرنا من قبل رؤساء شماسية إنكلترا، وذلك إلى جانب شطر كبير من رجال الدين والنبلاء، وهؤلاء اشتكوا بشكل جماعي من الاستخراجات البابوية التي لا يمكن تحملها، وقد تعاطف الملك معهم حول هذه الشكايات وشارك في أساهم، لأن الدولة كلها كانت في حالة خطر، وكانت القضية تهم المملكة كلها، وكان لهذا هناك يأس وأسى لم يسمع بمثله من قبل، ووضحاً بين رجال الدين، ولذلك جرى عرض شكاية مبكية أمام الملك، الذي كان واجبه حماية الصالح العام، ومنع مثل هذا الأذى وهذه المخاطر، وأخيراً توفر رأي جماعي قضى بإعداد رسالة مستقيمة، حتى يجري إرسالها إلى البلاط الروماني، لتبيان المظالم الجادة إلى البابا، وتقرر إرسال الرسالة التالية باسم جماعة الناس كلها ورجال الدين إلى البابا والكرادلة.

الرسالة التي أرسلت إلى البابا باسم جماعة إنكلترا كلها

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح والرب، والذي هو بموجب الحكمة الربانية الخبر الأعظم ترسل جماعة رجال الدين والناس في مقاطعة كانتربري، قبلات تقوية إلى قدميه المقدستين:

بما أن الكنيسة الانكليزية، منذ التاريخ الذي جرى فيه منحها الإيمان الكاثوليكي للمرة الأولى، قد سعت لإرضاء الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، والتزمت دوماً بعبادة الرب باخلاص، من دون محاولة التخلي عن الواجب الذي حملته، واستفادت دوماً من مزيد من الرعاية، وهي الآن تلقي بنفسها عند قدمي قداستك، وترجو باخلاص، أنه بالنسبة لمطلب المال، الذي طلب منها، بطرق مختلفة، وبضغط شديد من أجل مساعدة شعوب متنوعة، بأن تتفضل بعواطفك وتتنازل بإبداء الرحمة نحوها، لأن العبء المطلوب لا يمكن حمله، وبسبب عدم كفاية الممتلكات، غير ممكن، لأنه وإن كانت بلادنا تنتج أحياناً محاصيل، لكن هذه يجري تخصيصها وصرفها لمعيشة شعبها، ثم إنها لا تنتج وفرة من المال، كما أنها منذ وقت طويل لم تنتج ما يكفي لتلبية المطلوب منها في الوقت الحالي، يضاف الى هذا أنه قد ضغط عليها، وأثقلت فيما مضى بعبء مشابه، لكنه لم يكن ثقيلاً جداً بالنسبة لما مضى من أيام، ولم يعد الآن بإمكانها تحمل هذه الاستخراجات، وبالإضافة الى هذا، إنه بناء على أوامر قداستك، المساعدة مطلوبة في اللحظة الحالية، من رجال الدين الى مولانا وملكنا الدنيوي (الذي لا ينبغي لنا ولا يمكننا لكرامته أن نتخلى عنه في ضيقه)، من أجل أن نمكنه من صد هجمات الأعداء (نجانا الرب منها) وللدفاع عن ميراثه، ولاسترداد الذي انتزع منه.

ونحن بناء عليه، نرسل حاملي هذه العروض، مع التماسات الى حضرة قداستك، بأن تقدر مدى المخاطر والأضرار التي سوف تنجم عن مثل هذه الاستخراجات، كما تقدم الذكر أعلاه، والتي لا يمكننا تحملها بأي حال من الأحوال، مع أننا مرتبطون بكم بكل رباط عاطفي، ولأن جماعتنا ليس لديها ختمها، نرسل هذه العروض إلى قداستكم، موقعة بعلامة جماعة مدينة لندن».

الرسالة التي أرسلت بإسم الجماعة نفسها إلى الكرادلة

«إلى أكثر الآباء تبجيلاً في المسيح والرب، كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من عبيدهم المخلصين، إلخ، صحة، واحترام صحيح لائق، وتشريف:

إلى أخوتكم، بحكم كونكم القواعد المستندة عليها كنيسة الرب، قد طرنا إليكم بالتماسات متذلة، ونحن نرجوكم بحرارة، أن تمنحوا الاهتمام، وأن تصغوا إلى المظالم التي نتألم في ظلها، وأن تعطونا العون، في سبيل أن تتمكن الكنيسة الانكليزية من أن تسترد أنفاسها، بعد اضطرابات متوالية واجهتها في الأيام الماضية، ونحن مقابل هذا ملزمون بأن نرد إليكم شكرنا المتوجب، فمنذ أيام مجمع اللاتيران الأخير، تعرضت الكنيسة الانكليزية إلى ضيق شديد، بسبب أوامر الكرسي الرسولي، التي قضت بدفع الأموال، بداية الجزء من عشرين من أجل عون الأرض المقدسة، وبعد ذلك الجزء من عشرة، من أجل مساعدة البابا، وفيما بعد أوامر متنوعة حول هدايا وأعطيات مختلفة، بطرائق متباينة، ولاستخدامات متنوعة، ومع ذلك صبت كل الذي تمكنت من جمعه بيدها، وبالإضافة إلى هذا، قدمت أيضاً بناء على أوامر الكرسي الرسولي، مراراً وتكراراً المساعدات إلى ملكنا وإلى الرعاية الديسوين، وذلك بقدر ما توفر لديها من قدرات، والآن في هذه اللحظة الحالية، قد طلب منها، بناء على التماساتكم، تقديم مساعدة إلى الملك المذكور (الذي لايمكننا، ولايجوز لنا عدم تلبية مطالبه وقت الحاجة) في سبيل أن نمكنه من صد غارات أعدائه، ومن أجل حماية حقوق المملكة، ولاسترداد الذي حرمت منه، وأخيراً هناك مطلب جديد، قد عمل الآن، وفرض على الكنيسة نفسها، وهذا ما لايمكنها تحمله، لأن ممتلكاتها القليلة جداً لا تسمع لها بالاستجابة لهذا الطلب، وتلبية، ولقد طلب من بعضهم نصف الممتلكات التي بحوزتهم، ومن آخرين الثلث،

ومن البقية جزئاً من عشرين، وسوف يخصص شطر من هذا كله لاستخدامات الفرنسيين، الذين يقومون دوماً باضطهادنا وتعذيبنا وإلحاق الأذى بدولتنا، وذلك من أجل الاستيلاء على امبراطورية الاغريق، وشطر آخر لمساعدة الأرض المقدسة، التي من الممكن — حسبما أعلن العالم بصوت مرتفع — استردادها من العدو، بمخاطرة أقل، وشطر ثالث إلى الاستخدامات الأخرى وفق ما قد يراه الكرسي الرسولي ويأمر به، ويبدو في الحقيقة أنه صعب ومتناقض أن يكون هناك آخرون يمتلكون الكثير من مقتنياتنا وجهودنا، وأن يتوجب على رجال بلادنا، وفقراء مملكتنا — الذين الأعطية عائدة إليهم — الصوم وأن يكونوا بلا مقتنيات، كما أن ملكنا وجنوده أيضاً، لن يكون، وهم معه، قادرين على صد الغارات، والدفاع ضد الأعمال العدوانية لأعدائنا، لاسمح الرب بذلك، كما أنه لن يكون من الممكن تقديم أية مساعدة إلى الذين يعانون من العوز والحاجة، وذلك إذا ما جرى استهلاك جميع أموال المملكة، وفي الحقيقة، إن كل شيء يمتلكه رجال الدين، سوف يكون عرضة للبيع، ذلك أن مبلغ المال المطلوب حالياً، لا يمكن توفيره بيننا، ولسوف ينجم العديد من المصائب عن هذا الطريق، مثلما ينجم عن أعمال النهب والسلب، وذلك إذا — لاسمح الرب — تم الاصرار على ذلك، وفي سبيل ايضاح هذه الأمور إليكم، نرسل إليكم الحاملين لهذه العروض، بمثابة رسلنا بشكل عام، ليمثلوا بحضرتكم، ولكي يلتمسوا منكم بحرارة، ومن أجل خاطر الرب، والكرسي الرسولي، حتى تتولوا تذكير البابا، ولكي توقفوا أيديكم وآراءكم عن مثل هذا الظلم، وأن تتعطفوا، إذا كان يرضيكم، بأن تتذكروا تلك المدهشات والتمزقات الحاصلة في الخارج، بالابتعاد عن صدر الكنيسة الأم، وعن طاعتها، بطريقة لاتتفرقوا أنتم فيها في الخارج، ولكي لاتبعدوا عنها الذين تجمعوا من قبل مع بعضهم بموجب عاطفة الحب والاخلاص، وبما أن جماعتنا ليس لديها ختمها الخاص، أرسلنا هذه العروض إلى

اخوتكم المقدسة، ماهرة بختم جماعة مدينة لندن».

حصول الملك على إمتياز غامض من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، وقع الملك، دون أن يعرف بمصائد الربمان الخفية، بوساطة دهائهم وكلامهم المخادع، وحصل بوساطة بعض رجال بلاطه، الذين رغبوا في ارضائه، على امتياز ما، له شخصياً، من البلاط الروماني، جاءت صيغته كما يلي:

«مع أن البابا قد قام بناء على إرادته وبرغبة منه، في سبيل تخفيف مظالم الكنيسة الانكليزية، فأصدر مراسيم، في كل مكان، وقام من دون تمييز بتوزيع المنافع في انكلترا، لصالح الايطاليين، قد قام مع ذلك الآن، وقد هدأت العاصفة كثيراً، فأصدر أمراً قضى أنه إذا ما جرى إعطاء أي واحد من أقربائه، أو من أقرباء الكرادلة، عليه أن يحصل على إذن الملك وعلى رضاه على المنحة التي تم عملها»، وحصل أنه بموجب هذا الامتياز الغامض والمخادع، أن تمكن الأصدقاء الطفيلون للملك من تهدئة مشاعره، وربطوه بقوة أكثر بأدواتهم، لأن الموثقين والكتّاب العائدين للبلاط الروماني يستجيبون مثل الشمع للرشوى والاكتراء، وإذا ما قاموا بناء على أوامر البابا بكتابة رسائل مليئة بالعبارات الرنانة من أجل إرسالها إلى مولانا الملك، فعلوا ذلك لإغناء أنفسهم وللتلاعب به، فهل يمكن للمرء أن يتوقع إلاّ الأسوأ منهم؟ ولذلك نظرت أنا إلى الامتياز المتقدم ذكره، وعددته كلا شيء، غير أنه تعلق به وتأمل.

كيف جرى إحضار سيدات أجنيات للزواج من نبلاء إنكلترا

قبل ارفضاض المؤتمر المذكور، وصل إلى بلاط الملك في لندن بطرس أوف سافوي، إيرل رتشموند محضراً معه من مناطق نائية بعض السيدات غير المعروفات، من أجل تقديمهن زوجات إلى نبلاء انكلترا، الذين رباهم الملك في حراسته، وهو عمل كان مغضباً بوضوح وغير

مرض لكثير من النبلاء المحليين في انكلترا، الذين أنفسهم قد أهملوا.

إرسال راهبين فرنسيسكان إنكليز

من قبل البابا إلى إنكلترا لاستخراج المال

في الوقت الذي كانت فيه تقلبات الحظ تخدع العالم بمثل هذه المغالطات، جرى إرسال راهبين، من طائفة الفرنسيسكان إلى انكلترا، كان اسمهما: جون، والاسكندر، وكانا من أصل إنكليزي، كما كانا قد حصلوا من البابا على سلطة استخراج المال، من أجل الاستخدام من قبل قداسته، فلقد جرى بعثهما إلى انكلترا من قبل البابا نفسه، مسلحين بعدد من الرسائل، موهورة بالختم البابوي، ومخفية نهم الذئب تحت صوف الشاة، وقد مثلا أمام الملك، بنظرات ساذجة، وبعينين تنظران نحو الأسفل، ورجواه بكلام لطيف، والتمسا اذنه ليتجولا في أرجاء المملكة، يطلبان الاحسان من أجل منفعة البابا، وقد أعلنوا أنها سوف لن يقوموا بأي ضغط، وما أن حصلوا على هذا الاذن من الملك، الذي لم ير أية نية شريرة في هذا الاجراء، حتى تحول الراهبان المذكوران فأصبحا نائبين بابويين خيرين، وقد تشجعا بأعطيات كهنة الملك، لذلك انطلقا من البلاط الملكي، وقد امتطيا على مهرين أصيلين، مزينين بسرجين صليين بالذهب، وهما شخصياً قد ارتديا ثوبين جميلين جداً، وكان في أقدامهما أحذية مما يليسه الفرسان مع مهاميز، من النوع الذي يعرف عادة باسم heuses (hose?)، وذلك في سبيل إيذاء طائفتهم، وإلحاق العار بمهنتيهما، وقد توليا وظائف النواب البابويين، ومارسا طغيانهم، وطالبا بالأموال، واستخرجوا الأتاوات، وتظروا باستخفاف إلى مبلغ حشرين شلناً طالبا به كل واحد ممن سنذكره، فقد ذهبوا في المقام الأول إلى أساقفة أعلى الطوائف في انكلترا، وطالبا بشكل مهيب بالمال لاستخدامات البابا، تحت تهديد العقوبة، وسمحوا بوقت قصير جداً للاجابة، أو من أجل الدفع، وعرضوا عليهم رسائل تهديد اليابا، التي

قدماها وكأنها قرون تخويف، ولدى قدومها إلى أسقف لنكولن، الذي كان دوماً محباً خاصاً وتابعاً لطائفتها، وذلك إلى حد أنه تصور مرة فكرة الدخول بطائفتها، ولقد استولت عليه الدهشة لدى مشاهدته هذا التغير الذي ألم بالرهبان الفرنسيين وذلك بالنسبة لكل من الملبس والسلوك، والوظيفة، لأنه بات الآن من الصعب اكتشاف إلى أي طائفة أو وضع كانا ينتميان، وعندما أقسما حول مايتعلق بمحتويات الولاية البابوية، بنجاسة من أجل تصديقهما من قبل كثيرين، ثم طالبا بإلحاح وسرعة بمبلغ صغير، هو ستة آلاف مارك من أسقفيته، وقتها رد عليهما، وهو على درجة عالية من الدهشة والحزن، حيث قال: «حضرة الراهبين، إن هذه الأناوة — مع احترامي للسلطة البابوية — مهينة وغير صحيحة، ولا يمكن الاصغاء إليهما، لأنه من غير الممكن تنفيذ مطلبكما، ثم إن المسألة لا تعنيني أنا وحدي فقط، بل تعني جميع جماعة رجال الدين، والشعب، والمملكة بشكل عام، وأنا أرى أنني سوف أكون طائشاً ومتهوراً ومتناقضاً، باعطاءكما جواباً إيجابياً حول هذه المسألة، أو منحكما موافقة مؤكدة حول مثل هذا الإجراء الخطير، من دون التشاور مع جماعة المملكة بشكل عام»، وقاما بعد هذا الجواب بالمغادرة، وسارا وهما قد تحولا إلى رجلي بلاط وتغيرا (كما ذكرنا أعلاه) ومضيا إلى كنيسة القديس ألبان، ولم يباليا بالخط من كرامتهما إلى حد الذهاب إلى موضع الإقامة، مع الغرفة التي بنيت في داخل باب الساحة للاستخدام الخاص من قبل الدومينيكان والفرنسيين، ثم انحرفا وخرجا عن طريقهما وتوجها إلى المكان الأكثر سمواً المخصص لإقامة الأساقفة ولاستراحة الرجال أصحاب المراتب العليا، ولقد استقبلا باحترام هناك، ثم إنهما بالطريقة نفسها التي طالبا بها بمبلغ الستة آلاف مارك من الأسقف المتقدم ذكره، طالبا الآن بمبلغ أربعمئة مارك من راعي الدير، من أجل الاستعمال البابوي، وبكل غطرسة طالبا بوجوب الدفع في وقت قصير، تحت طائلة التهديد بأقسي العقوبات، لكن لدى

اجابتهما والرد عليهما من قبل الراعي، وفق الطريقة التي قام بها الأسقف المذكور، إنما بشيء من التواضع أكبر، ارتدى هذان الراهبان ثياباً علمانية ومع حركات علمانية، امتطيا فرسيهما الأصيلين، وغادرا وهما يتمتتان ويزجران، ويهددان.

البابا يسأل أساقفة فرنسا اقراضه مالا

أرسل البابا في هذه الآونة رسله الخاصين من الدومينيكان والفرنسيسكان، وهم يحملون رسائله الأصيلة إلى جميع أساقفة فرنسا، واحداً، واحداً، يرجو كل واحد منهم، أن يقرضه مبلغاً من المال، وفقاً لإمكاناته، واعدأ أنه عندما سيسترد أنفاسه، سوف يدفع من دون شك لكل واحد استحقاقاته، وعندما أصبح هذا معروفاً لدى الملك الفرنسي، الذي كانت لديه شكوكه حول شره البلاط الروماني، منع كل واحد من الأساقفة في مملكته، تحت طائلة عقوبة فقدان ممتلكاته، إذا ما قام بافكار أراضيه وفق هذه الطريقة، وهكذا حدث أن غادر النواب البابويون البارعون الذين أُلقي على عواتقهم عبء هذا الواجب، المملكة وهم خالين الوفاض، وسط اشمئزاز وازدراء جميع الفرقاء.

حول ترقية ورفع شأن جون مانسيل

عندما كان الوقت يشع هكذا وسط هذه الأحداث غير المرئية، تولى جون مانسيل Mansel مستشار كنيسة القديس بولص في لندن، بناء على رغبة الملك وطلبه (الملك الذي طلباته لاترد وهي مهيبة) واجبات المسؤولية عن ختم الملك، في سبيل أن يتولى مسؤولية وظيفة المستشار، وبالإضافة إلى هذا أضيفت عليه مرتبة رئاسة كنيسة بيفرلي Beverley من قبل رئيس أساقفة يورك، ومع أن الملك كان أسفاً لأن هذا المنصب لم يمنح إلى أخيه من أمه، لكن لأنه وجد جون

المذكور مخلصاً، ومحتاجاً إليه كثيراً في دعم عناياته واهتماماته، لم يرغب أن يتعرض للحزن أو أن يفقد أياً من المناصب التي أضفيت عليه.

إرسال قسيس اسمه مارتن إلى إنكلترا

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يقوم باستمرار برفع المتدني إلى الأعلى، اعتقد مولانا البابا، أن جامعي الأموال المتنوعين الذين جرى إرسالهم، غير كافين لجمع المال، فأرسل إلى إنكلترا رجلاً اسمه المعلم مارين Marin (هو مارتن آخر)، وكان قسيسه، والذي توحى أهمية اسمه بأنه قد اختير ليكون صياداً، لكن ليس للرجال، إنما لمقتنياتهم، في بحر العالم هذا، وقد جاء مع نية، أنه في الوقت الذي كان فيه الآخرون يصطادون، أن يقوم باقتناص الانكليز من على بعد، أو أن يتمكن بخداعه لهم برميهم في شبكته بمهارة وحذر، وهو وإن لم يكن قد منح رسمياً شارات نائب بابوي، مع ذلك تسليح بقوة بسلطات نائب بابوي، في سبيل التخلص من امتياز الملك.

إرسال غودفري الأسقف المنتخب لبيت لحم

بمثابة نائب بابوي إلى سكوتلندا

وجرى في هذه الآونة أيضاً، إرسال غودفري، ابن مفتش السوق في روما، والأسقف المنتخب لبيت لحم، نائباً بابوياً إلى سكوتلندا، وذلك من قبل البابا، لكن من أجل أي غرض، هذا غير معروف، لأن العقيدة الكاثوليكية كانت مزدهرة باستمرار، وكان السلام مؤسساً بشكل راسخ بين رجال الدين والناس، ولذلك من المعتقد، أنه بناء على ماهو معروف عن العادات الرومانية، أن مهمة غودفري المتقدم الذكر، الذي كان قاسياً ولديه قدرة حديدية على الجذب، سوف يجذب إلى نفسه الموارد المالية الوفيرة لاسكوتلنديين، والمرغوب بها كثيراً.

إرسال المعلم جون إلى إيرلاندا

وجرى في الوقت نفسه إرسال المعلم جون الأحمر إلى إيرلاندا، لجمع المال، مع صلاحيات كاملة، وكأنه كان نائباً بابوياً، مع أنه لم يمنح شارات تلك الوظيفة، وذلك خشية من أن يظهر البابا وكأنه يقدم سبباً للإساءة إلى ملك انكلترا، الذي كان فرحاً بأنه كان محمياً — عبثاً كما خيل إليه — بامتياز، أنه ما من نائب بابوي يجوز أن يقدم إلى أراضيه، ما لم يكن قد سئل من أجله، وعلى هذا قام جون المذكور بنشاط بتنفيذ أوامر البابا، وصرف نفسه نحو منفعه وكسبه، إلى حد أنه استخرج ستة آلاف مارك من إيرلاندا، وقد أرسل هذا المبلغ إلى لندن يوم عيد القديس ميكائيل، بعهدة بعض رجال الدين، وذلك لاضافته إلى خزانة البابا وأمواله، لكن جميع هذه الإجراءات لم تنج من المعرفة بها من قبل فردريك.

هزة أرضية في إنكلترا

في الثالث عشر من شباط لهذا العام، أي في يوم عيد القديس فالتاين Valentine كانت هناك هزة أرضية في عدة أماكن من انكلترا، خاصة في لندن، وأكثر شيء على شواطئ نهر التيمز، وقد هزت الأبنية، وكانت مؤذية جداً ومرعبة بتتائجها وتأثيراتها، هذا ومن المعتقد أن مثل هذه الواقعة كانت خطيرة، لأنها غير عادية، وغير طبيعية في هذه البلدان الغربية، لأن الكتلة القوية المتناسكة لانكلترا متحررة من الكهوف الموجودة تحت الأرض، والمغائر العميقة (التي فيها، تبعاً للفلاسفة يجري بالعادة انتاج الهزات الأرضية)، كما أنه من غير الممكن كشف أي سبب آخر لقيامها، ولذلك كان من المتوقع، وفقاً لتهديدات الانجيل، بأن نهاية الدنيا وشيكة، وأن حركة الأرض هذه تشير إلى أنها جاءت تجاوباً مع التحركات في هذا العالم، وبذلك من الممكن تحريك العناصر وازعاجها بواسطة تحركات متوالية، لأنه قبل عدة أيام مضت، كان المد

والجزر قليلاً جداً، إن لم نقل انعدم كلياً، وكان هذا قد حدث على طول مسافة طويلة من الساحل، وقد وقع خلال ثلاثة أشهر، وهي واقعة ما من أحد يتذكر أنه شاهد مثلها من قبل، كما أنه لم يكن هناك زلزال في انكلترا منذ عام ١١٨٦، [بالأصل ١١٣٣] وهي السنة الثالثة، قبل وفاة الملك هنري الثاني، وكان قد أعقب وقوع هذا الزلزال عواصف مديدة من الأنواء، وبقسوة شتوية جاءت في غير وقتها، وبرد مزعج، وأمطار، إلى حد أن الفلاحين والبساتنة قد اشتكوا من أن الربيع قد تحرك عائداً نحو الخلف وتغير إلى شتاء، وشعروا بخوف عظيم بأن أمالهم بموسم جيد، وبوفرة لثمار الأشجار، وللحبوب، سوف تحبط، واستمرت هذه الحالة المزعجة للمناخ بدون انقطاع، لو لاستراحة هدوء يوم واحد، حتى عيد انتقال القديس بندكت Benedict.

موت الفارس فولك

حدث في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، أن مات في لندن فولك أوف نيوكاسل، الذي كان فارساً متميزاً، وهو ابن عم للملك، وبسبب أصله النبيل، جرى دفن جسده بشكل مهيب ومشرف في كنيسة ويستمنستر، وكان ذلك بناء على أوامر الملك، الذي صدف وجوده هناك في أعقاب عقد البرلمان الذي تقدم ذكره أعلاه.

إلغاء المرسوم المتعلق بالأشخاص الذين يموتون من دون وصية

وتواترت الأخبار في هذه الآونة، وتحديث عن فضيحة لم يسمع بمثلها، انتشرت في الخارج خلال مختلف البلدان، حول قيام الكرادلة بفرض المرسوم الذي ألغي، وهو المرسوم الذي كان قبل وقت قصير قد عمل من قبل البابا، بموجب محرض من الشره كان واضحاً تماماً، والذي حتى يضعه موضع التنفيذ، قد كلف الرهبان الفرنسيين أن يكونوا وكلاءه، وذلك في سبيل خسارتهم وفضيحتهم وإلحاق الأذى

بطائفتهم، وهذا المرسوم هو الذي ادعى البابا بموجبه المطالبة بممتلكات الأشخاص الذين كانوا يموتون من دون وصية، لاستخداماته الخاصة، ونجم عن هذا المرسوم إلحاق الضرر وتسبب الأذى لكثير من النبلاء، وفي سبيل زيادة ذلك الظلم، أضيفت إليه فقرة جديدة، مضادة لجميع الشرائع، وللتقوى كلها، وجاء نص هذه الفقرة الإضافية كما يلي: «إنما إذا كان هناك رجلاً مريضاً، وكان على وشك عمل وصيته، وصدف أن منع من ذلك بوساطة ضعف مفاجيء، حيث صار بشكل واضح غير قادر على التعبير عن وصيته، وتوجب عليه تعيين واحداً من أصدقائه ليقوم بالتعبير عنها له، وليعمل بمثابة وكيل له، فإن مثل هذه الوصية لاتعدّ قائمة، بل ينبغي عدّها لاغية، ومثل تلك الشهادة تعدّ شهادة انسان غير أهل»، وعلى زبانية البابا ابتلاع جميع ممتلكاته.

اكتشاف مؤامرة خيانية ضد حياة البابا

في الوقت الذي كانت فيه ثورات الأيام تتقدم وتسير هكذا نحو الأمام، قام واحد من الفرسان الذين كانوا في خدمة فردريك، واسمه رالف، وقد كان في حالة غضب، لعدم تسلمه أجره من الامبراطور في وقت الاستحقاق، فتخلى عن خدمة سيده مع تهديدات، وكان هذا الرجل صاحب عقل صلب، وقوة جسدية عظيمة، وبارعاً في الحرب، وبما أنه امتلك الرغبة في إلحاق الأذى بسيده الأخير فردريك، ذهب إلى ليون بحثاً عن سيد آخر، يمكنه أن يخدم تحته مأجوراً في سبيل تحقيق فائدة أعظم، وذلك بحكم أنه لم يكن لديه مكاناً ثابتاً للإقامة، ولدى وصوله اتخذ مكان إقامة له مع مضيف اسمه رينالد، وصدف أنه بعد عدة أيام كان المعلم وولتر دي أوكرا، الكاهن الخاص والمستشار لدى فردريك، عابراً لذلك الطريق، وقد اتخذ مكان إقامة لنفسه في البيت نفسه، ولدى رؤيته للفارس المذكور رالف هناك، سلم عليه بحكم كونه

واحداً من معارفه المقربين، وناداه لقربه منه ولمعرفته به بالاسم، وسأله عما كان يفعل هناك، ولماذا تخلّى هكذا عن سيده، الذي خدمه لمدة طويلة، ولدى معرفته بكامل تفاصيل القضية، سأله المعلم وولتر عما إذا كان قد وجد سيّداً آخر، وعلى سؤاله أجاب قائلاً: «لا، لأنني غير معروف»، وعندها قال له المعلم وولتر «عد يا صديقي إلى ولائك، وإلى خدمة مولاي، الذي هو بحاجة ماسة لمثلك من الرجال، وأنا سوف أعيّد لك جميع مستحقّاتك، لابل إنني سوف أضيف إلى ذلك المزيد»، وعلى هذا وافق رالف وهو مبتهج، ووقتها قال له وولتر: «إن مولاي سوف يعد نفسه سيّداً، لولا أنه أزعج، لابل بالحري هوجم من قبل عدوه المميت، ومضطهده الذي لا يعرف الكلل، أي البابا، وإذا كنت ترغب، وكان بإمكانك أن تنهي حياته المجرمة، أنا سوف أهيل الجوائز عليك، والذي وعدتك به سوف أفي به من دون احباط، وسوف أضيف ثلاثمائة تالين Talents [وحدة نقد قديمة] إلى الموارد الكثيرة التي وعدت بإعادتها إليك، كل ذلك مع خطوة مولاي، التي سوف تكون مصدراً لكثير من المرباح لك، لأنه بهذا سوف تنتهي مشاكل مولاي، لابل هيجان العالم كله سوف يهدأ، ولا تظن أن هناك أي ذنب في هذا العمل، بحكم أن البابا الذي ينبغي أن يكون أساس الدين كله، والمثل الأعلى له، أصبح ممارساً للربا بشكل مكشوف، وهو أتون للسيمونية، ومتعطش بسعيه وراء المال وسلبه، وبلاطه هو سوق للدعارة، أو بالحري وكر للدعارات والبغايا»، وعلى هذا أجابه رالف: «إذا ما برهنت على كلامك بأفعالك، وسوف تعوض علي، أنا سوف أعمل الذي طلبته مني»، وبناء على وعود المعلم وولتر، وتقييد نفسه باليمين، وافق على اقتراح الجريمة، حيث تمّ الاستيلاء عليه والتحكم به بوساطة الهدايا التي قدمت الآن إليه، والوعد بالزيادة، وتمكنا بوساطة مغريات ماثلة، بعد لأي من جعل مضيفهما رينالد، يوافق على هذه الخطة السرية، وكان رينالد هذا معروفاً من قبل الخبر الأعظم،

ومن قبل خدمه، ولكي يقدم موافقته ومساعدته، قيده بأن يكتشف، بوساطة الاختباء متخفياً في مكان ما، الوقت والمكان الذي من الممكن قتل البابا به، وأن يتولى تقديم القاتل، وبعد هذا غادر المعلم وولتر، وبعد مضي عدة أيام، أصيب رينالد المذكور بمرض شديد، ووصل إلى حافة الموت، ولدى ادراكه أنه بات على حافة الموت، قام أثناء اعترافه بإباحة هذه الأمور كلها إلى كاهنه، وبعد هذا تاب، وأعد نفسه لمواجهة منيته، وقام الكاهن عى الفور باخبار البابا بهذا الخطر العظيم، وبسرعة جرى بعث رسل، ومن ثم جرى اعتقال رالف المذكور، وقد قام في البداية بانكار كل شيء متعلق بهذا، بكل اصرار، لكن بعدما تعرض إلى أشد أنواع العذاب، تقياً بسم الخيانة التي تقدم ذكرها أعلاه، وكشف الحقيقة عن القضية إلى البلاط البابوي كله، وأودعت هذه الأشياء كلها كتابة، وختمت بالختم البابوي، لإلحاق الضرر بفردريك، ولكي يفتضح أمره بشدة أكبر، ويدان.

كيف جرى اعتقال اثنين آخرين للجريمة نفسها

وجرى في حوالي الوقت نفسه أيضاً، اعتقال اثنين من الفرسان الايطاليين، في ليون للذنب نفسه، وقد اعترفا بعد اعتقالهما، بوجود حوالي الأربعين فارساً جريئاً، قد تأمروا فيما بينهم وأقسموا على إنهاء حياة البابا، وكان هؤلاء قد قرروا أنه حتى لو كان فردريك ميتاً، لن يقلعوا خوفاً من أية عقوبة، حتى وإن كانت الموت، ولن يتوقعوا عن تقطيع البابا إلى قطع، لأنه مثير الاضطراب للعالم، والملوث للكنيسة، وقد آمنوا من دون أي تردد، أنهم إذا ما نجحوا بقطع عنق مثل هذا الانسان، فإنهم يكونوا قد أنجزوا عملاً مرضياً إلى كل من الرب والانسان، ومنذ ذلك الوقت حافظ البابا على الالتزام بغرفته، وأبقاها محروسة بخمسين رجلاً مسلحاً نهاراً وليلاً، ولم يتجرأ على الخروج من غرفته أو قلعته، أو قصره، ولا حتى لمسافة قصيرة للقيام بقداس، لأنه

بات من الضروري أن يخشى من كثيرين، يخشاهم الكثيرون، وأن المثير المتاعب لكثيرين لا بد من أن تثار له المتاعب بطرائق كثيرة مضاعفة.

حول البرلمان العظيم الذي عقد بفرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي منتصف الصوم الكبير، دعا الملك الفرنسي، بوساطة صك ملكي نبلاء مملكته بشكل عام، ورجال الدين والعلمانيين للاجتماع في برلمان، ليقوموا بكل دقة بالبحث ببعض القضايا الصعبة، التي تتعلق بحالة المملكة، لأنه كان قلقاً حول حملته الصليب بنفسه ومن قبل نبلائه، وواجب ذلك العهد المهم الذي لا يمكن خرقه، وقد أعلن أيضاً أنه تلقى أمراً من ملك التتار، لأن يخضع له، وقد تجرأ ذلك الملك المذكور، على دعوة نفسه، بفم مدنس، في رسالته «بالخالد»، وأنه قد أعلن أنه هو وأتباعه كانوا هم الذين قد كتب عنهم بأن «الرب قد أعطى الأرض لأبناء الناس»، وترك الملك الفرنسي — على كل حال — هذه القضية كلها إلى القدر الرباني، وقام بعد ذلك. في المقام الأول، بشكل حكيم وعقلاني، بترتيب جميع القضايا المستحقة والتي تستاهل الاهتمام، وهي القضايا التي أبدعها الخصوم بمكر الشيطان، أو بمكر الانسان، فقد توجب احباطها، وتقرر بشكل قاطع وترتب أنه مع نهاية عام من عيد القديس يوحنا المعمدان، ثم في العيد المقبل، سوف — إذا بقي حياً — ينطلق إلى حجه، مع أتباعه الصليبيين، حيث سيقوم باخلاص بالوفاء بنذره، وليقوم في الأرض المقدسة بعبادة آثار أقدام المصلوب، الذي أعاد إليه الحياة، وقد أقسم بشكل علني أنه سوف يفعل هذا، وجعل نبلاءه يؤدون القسم نفسه، وذلك مالم يقع حادث غير مرئي، لا يمكن للضعف البشري تجنبه، بإعاقته وتأخيرته، وقد أعلن أن كل من يعارض هذا المرسوم الصحيح، ينبغي أن يعدّ محروماً كنسياً، وعدواً معلناً، وعندما وصل هذا إلى علم الخوارزمية والمسلمين الآخرين المعادين للصليبيين في الأرض المقدسة،

وفي حالة حرب معهم، وإلى الذين خضعوا مؤخراً لطاعة المسلمين، قاموا بتحسين قلاعهم ومدنهم بقوة.

وقام الملك أيضاً، بعدما وجد أن المال الانكليزي، كان مفيداً جداً إلى التجار، بعدة طرق من العمل، وبسبب أن المعدن قد تناقص كثيراً في القيمة، وأنه أفسد كثيراً من قبل السماسرة المزيفين الذين اسمهم «قصاص - المال»، بسبب هذا كله أصدر أمراً، أن أي نقد سوف يتم العثور عليه، من الآن فصاعداً، في مملكته، ليس له وزن قانوني، تتوجب على الفور إذايته، وذلك في سبيل أن لاتعاني التجارة ولاالتجار أنفسهم أية مشاكل بعد الآن، بسبب مثل تلك النقود المغشوشة، وكانت هذه أيضاً مسألة مخشي منها في انكلترا، بسبب التناقص الحاد في قيمة الأموال، ولقد قيل أيضاً، وتبين أن هذا كان صحيحاً، أن النقود كانت قد تعرضت للقص من حولها من قبل المختونين، واليهود الكفار، الذين انحدروا الآن - بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم من قبل الملك - إلى حالة التسول، وقد قيل بأن جرائم أخرى أيضاً، قد صدرت عنهم.

قيام سلام بين كنيسة درم وسينت ألبان

وتمّ في هذا العام أيضاً إعداد سلام بين كنيسة درم Durham، والقديس ألبان، حول مايتعلق بالزيارات التفقدية للكنيسة الأبرشية في دير الثانياوث، التي حولها نشب خلاف، في أيام نيقولا، أسقف درم، وجون الثاني راعي دير القديس ألبان، وهي مسألة جرى عرضها بشكل أوفى، وشرحت في كتاب Additaments، وسوف يتم أيضاً تقديم مثل آخر عنها، سوف تجده بعد عدة صفحات.

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وجد فردريك أن العالم يتشكى منه ويشور ضده، فقام بموجب مشورة حكيمة، فتلطف بمنح السلام إلى

الميلانيين، السلام الذي طلبوه منه مع خضوع حقيقي واحترام، فقد أرغم سكان المدينة بشكل ملح وعاجل على التماس ذلك بتذلل، بسبب المعركة الأخيرة، التي حورت بينهم وبين كونراد بن فردريك، فقد نالوا الخسارة الجسيمة في هذه المعركة، وسقط عدد كبير منهم، وذلك إلى جانب الكثيرين الذين أخذوا أسرى، بوساطة الهجوم على ساقاتهم من قبل كتلة من الرجال كانوا جالسين في كمين، وعندما وقعوا بالأسر، وكانوا على وشك وضعهم بالسجن، قام فردريك بحكم أصالته التي فطر عليها، فأظهر الصبر نحوهم، ودعاهم إلى الخضوع بالإحسان، بعدما أخفق في إخضاعهم بالقوة، وأصدر أوامر، عندما دخلوا إلى مدينتهم، بوجوب إغلاق جميع الطرق ضدهم، وبذلك أصبح سكان المدينة، بناء على ذلك، وهم الذين أسباب عيشتهم تصدر عن التجارة، مطوقين، وكأنهم محاصرين، أو سجناء، لأنه لم يعد بإمكانهم المرور بحرية إلى الأسواق، أو الموانئ، أو إلى المدن المجاورة، دون التعرض إلى الخطر بأشخاصهم أو بمواشيهم، أو بمقتنياتهم، وبما أن كثيراً منهم قد عادوا الآن إلى ولائهم إلى مولاهم القديم والصحيح، فتح فردريك لهم صدر الرحمة، وهكذا بعد صراع طويل، وأضرار جسيمة، تمكن بالحكمة من استعادتهم، حتى وإن كان ذلك ضد إرادتهم، إلى وحدة الامبراطورية، وإلى سلام نافع لهم وكذلك له نفسه، ولم يعد الميلانيون منذ ذلك الوقت فصاعداً يزعمون أنفسهم، بالوقوف إلى جانب البابا، الذي خدعهم بوساطة وعود كاذبة.

موت اللاندغريف الذي انتخب ملكاً لروما

وخلال الصوم الكبير نفسه، ولكي لا يخفق الزلزال الذي تقدم ذكره في تهديداته المهمة، فكر البابا، الذي عبثاً وثق بمبالغ الأموال الكبيرة جداً، التي سلبها من كل اتجاه، وكان قد اقترح ورغب في ترقية صديقه اللاندغريف إلى المرتبة الامبراطورية، وفكر الآن بترقيته إلى مرتبة ملك

ألمانيا، والقيام بشكل مهيب بتتويجه، من دون معارضة من أي واحد، غير أن كونراد بن فردريك، كان قد علم بهذا من قبل جواسيسه، وقد عرف بجميع التفاصيل والخصوصيات، فقدم فجأة مع جيش كبير، جمعه من جميع الأرجاء، ووصل إلى مكان ترتيبات البابا، حيث كان اللاندغريف على وشك التسويج، وحيث كانت جميع الإعدادات الضرورية قد عملت من أجل هذا الاحتفال العظيم، وخشية من كونراد المذكور من أن يدخل في صراع مشكوك به، وضع خمسة عشر ألفاً من جنوده في كمين، في مكان ليس بعيداً جداً، حيث يمكنهم وقت الضرورة، القدوم إلى مساعدته في الوقت المناسب، على صوت البوق، ومن دون توقع انقطع سرور الاحتفال، وأعقب ذلك معركة كانت الأكثر عنفاً ودموية، وفي بدايتها فقد كونراد كثيراً من أعظم النبلاء من أتباعه، لأن ثقل القتال تحول ضده، لكن عندما بات الخطر عظيماً بتعرضه إلى الاضطراب، أعطيت الإشارة على سرعة، وجاء الجنود المتشوقين الذين كانوا ينتظرونها في موضع الكمين، وقدموا «مسرعين مثل سرعة الريح»، وبرجولة دخلوا إلى المعترك، وقاتلوا العدو الذي كان على وشك الحصول على النصر، وقتلوا كل الذين تصدوا لهم بحد السيف، ولدى وصولهم تنفس كونراد الصعداء بحرية:

وبسرعة هدأت روح

الذي بحرية شرب الإناء

وتجدد صراع الحرب الآن، وبدا أن الهواء نفسه قد انزعج بقرع السلاح، وبطعنات الرماح، وبضربات السيوف، وبصهيل الخيول، وبصراخ المتصارعين يحثون بعضهم بعضاً، وبكاء الجرحى، وأنين الذين كانوا يموتون، وتصاعدت سحب من الرمال، وانصبغ النهر من الأجساد النازفة، ومن جداول الدماء، وكان القتال شديداً وقاسياً إلى حد أن الألمان الذين كانوا مع اللاندغريف، لم يعد بإمكانهم الصمود،

وتخلوا عن القتال، وهربوا بشكل مهين، أو أصيبوا بجراحات مميتة، ووقع كثير منهم بالأسر، حيث ألقي بهم بالسجن حسب رغبة أعدائهم، وأعقب ذلك مذبحة مريعة، وذلك بعد خسارة لاتعوض من الدماء المسيحية، وقام اللاندغريف بالفرار، وحمل نفسه إلى مكان آمن، حيث تلاشى هناك حزناً، وتحقق الآن إلى أبعد الحدود كلام ثاديوس نائب فردريك، الذي قاله في مجمع ليون، عندما زجر البابا بقرار الحرمان الكنسي ضد موله حيث قال: «والأسفاه، والأسفاه، حقاً إن هذا اليوم هو يوم الغضب، يوم التعاسة، ويوم المأساة»، فاللاندغريف الذي كان حسب تقديراته سوف يتوج في الغد ملكاً على ألمانيا، قد شاهد الآن كيف تبدل مجده إلى اضطراب وغار، فقد انهزم أقرباؤه وأصدقاءه مع أتباعهم وقتلوا، والمال الذي سلف وأرسل إليه من قبل البابا، قد أخذ منه من قبل أعدائه، وقد أصيب بالحزن حتى القلب، ففقد شجاعته، وأصيب ليس بضربة غريبة، بل فقط بوساطة أساه، ولفظ روحه، دون أن يبيكه أحد، وامتلك كونراد الآن الرغبة بعمل انتقام كامل للأذى والخسارة التي عانى منها في قتاله الأخير، بعدما هزم في ألمانيا، فقام إما بشنق جميع الأسرى بشكل شائن، الأسرى الذين نجوا من السيف، وبشكل خاص أقرباء وأصدقاء اللاندغريف، أو أمر بهم بالسجن بالأغلال، في سبيل فدائهم مقابل مبلغ كبير.

البابا يرسل أربعة كرادلة نواباً بابويين إلى جميع مناطق أوروبا

ولدى سماع البابا بهذه الحوادث استولى عليه الحزن، وقهره الأسى، فأرسل أربعة من الكرادلة، بمثابة نواب بابويين للتجول في جميع أرجاء العالم المسيحي، من أجل الإساءة إلى فردريك المذكور، والتشهير به، وبأنه كونراد، لأنه تجراً فأقدم على تلك الإجراءات، ومن أجل تشجيع جميع المسيحيين، بوساطة التحليل من الذنوب، بمهاجمة فردريك المذكور، ومضايقته، وإذا أمكن سحقه، وأيضاً لكي يسعوا بوساطة جميع

الطرق التي كان فيها البلاط الروماني بارعاً تماماً، وبدهاء الشره، وبشراهة الدهاء، لاستخراج المال، من أجل اخضاع فردريك الممقوت، وبناء على هذا، أرسل واحداً منهم إلى ألمانيا، وأرسل الثاني إلى إيطاليا، وأرسل الثالث إلى إسبانيا، وأرسل الرابع إلى النرويج، كل هذا بالإضافة إلى الآخرين من النواب البابويين البارعين، المزودين بصلاحيات كبيرة، الذين أرسلهم بشكل سري إلى انكلترا من دون شاراتهم الرسمية، حتى لا يبدو أنه كان يتجاوز امتياز الملك، وكان مع هؤلاء وبينهم الرهبان الفرنسيون والدومينيكان، الذين عملهم لم يكن من دون إلحاق الأذى والفضيحة بطائفتهم، جباة للضرائب، ورجال مراسم، وكان النائب البابوي الذي أرسل إلى النرويج، هو أسقف ساينا Sabina، وقد أرسل أيضاً ليمسح وليتوج هاكو Haco ملك النرويج، وليمارس أعمال النائب البابوي في تلك البلاد، وفي بلاد السويد، ولإلحاق الأذى بفردريك المتقدم ذكره، لكن ليس من دون توقعات كبيرة للربح.

كيف جعل فردريك الأبولين والصقليين والكليريين

يقدمون الولاء لابنه هنري من إيزابيلا

وفي الوقت نفسه، قام فردريك صاحب الذكرى المشكوك بها، والذي محظور علينا أن ندعوه امبراطوراً، بجعل جميع الأبولين، والصقليين، والكليريين، يقدمون الولاء إلى ابنه هنري، من زوجته المحبوبة، الامبراطورة إيزابيلا، أخت ملك انكلترا، وعندما سمع بذلك الأخير، أي خال الصبي، كان مسروراً كثيراً، ولم يكن ذلك من دون سبب جيد.

وعندما سمع فردريك، بأن النواب البابويين المذكورين، قد أرسلوا إلى مختلف أرجاء العالم، لإلحاق الأذى بسمعته وبمكانته، أرسل رسالة إلى ابنه هنسيوس Hensius، ملك سردينيا، بأن ينصب المصائد

للجنوبيين، لابل حتى أن يقدم على قتلهم، ولا سيما آل البابا، وأقربائه، وأصدقائه، وقام هذا بتنفيذ ذلك بشكل فعال، وذلك حتى يظهر نفسه مطيعاً لوالده، ونتيجة لذلك اعتقل وشنق أقرباء البابا المقربين، وكان واحداً منهم، قد أحبه — مع أنه أحب الجميع بلا حدود — قداسته، وقدره بعاطفة أعظم من البقية، وعندما سمع البابا بهذا الإجراء كان غضبه بلا حدود، فقام في يوم الإعداد، فحرم كنسياً فردريك وابنه هنري، مع شجب مرعب، إلى حد أنه ألقى الرعب في قلوب جميع الذين رأوه وسمعوه، وعندما سمع فردريك بذلك تنهد وقال: «هكذا فعل اليهود الذين صلبوا المسيح، فبعدما تعرض للصلب، طعنوه برمح».

قوانين جديدة عملها ملك إنكلترا

حذا في هذا العام الملك الانكليزي حذو البارونات، الذين سنوا قوانين في فرنسا، وكان ملك تلك البلاد، قد أعطى موافقته عليها، ووضع عليها ختمه، فعمل القوانين التالية، التي توجبت مراعاتها من دون إحباط، في جميع أرجاء انكلترا، في سبيل وضع بعض الضوابط لشره البلاط الروماني المستمر.

فقد منع الملك النظر في جميع قضايا نقض الوعود والحنث بالعهود، عندما يجري دعوة العلماني للمثول بمثل هذه القضايا أمام قاض لاهوتي، وتمّ منع القضاة اللاهوتيين من إجراء أية محاكمة ضد علماني، إلا في قضايا الزواج أو الوصايا، وكانت إحدى المواد التي وضعها الملك حديثاً، للأساقفة، هي صيغة تتعلق بالأبناء غير الشرعيين، سواء أولد الطفل قبل الزواج أو بعده، وجرى منع الكهنة، بموجب مذكرة ملكية، من عرض أعمالهم المتعلقة بالعشور، أمام قاض لاهوتي، ووضع في تلك المذكرة تعريفاً يتعلق بالأيان التي تؤخذ من الكهنة، بالآ تؤخذ أمام رجال العدالة الملكيين، لأن من المفهوم أنهم يسرون بإجراءات

قضاياهم بشكل معاكس لتحريم الملك، وكذلك لأن الكهنة غير ملزمين بحلف أيمان، إلا أمام قاض لاهوتي، ولا سيما في القضايا الروحية، وكان هناك بند يتعلق بقضية الكهنة، الذين تولى موظفو الملك وضعهم بالسجن، على أساس تقرير جلب ضدهم من قبل رجل علماني.

كيف أقيم السلام بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان
وأنتهي في هذا العام الخلاف الذي كان قائماً بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان، وفق الشروط التالية:

«إلى أبناء الكنيسة الأم العالمية والمقدسة، إلى جميع من سوف تصلهم هذه العروض، من مايكل رئيس شمامسة ستو Stow، وهو قاض مناب من قبل مولانا البابا، ومن نيقولا مستشار لنكولن، الذي هو نائب مفوض لرئيس شمامسة نورثامبتون، وقاضي وزميل لرئيس الشمامسة المذكور، صحة في الرب: ليكن معلوماً من قبل الجماعة كلها، بأن قضية عرضت أمامنا من قبل السلطات الرسولية — خازن لنكولن، واحد منا القضية الثلاثة، قد قبل عذره تماماً — بين الأب المبجل نيقولا، الذي هو بنعمة الرب أسقف درم، باسم كنيسته في درم، من الجهة الأولى، وبين جون، الذي هو بالنعمة نفسها راعي دير القديس ألبان، ورهبان المكان نفسه، ورئيس التجمع الرهباني في التايناوث، باسم دير التايناوث، من الجهة الثانية، وذلك فيما يتعلق بالزيارات التفقدية للكنيسة الأسقفية للتايناوث، والطاعة المفروضة من قبل الأسقف نفسه، والمستخرجة من رئيس رهبان التايناوث، والكنائس الأسقفية الأخرى في أبرشيته، والتي هي بأيدي رهبان التايناوث، أخيراً بناء على موافقة الهيئة الكهنوتية لكنيسة درم، وجلب الصراع إلى صيغة مصالحة أبدية كما يلي: أن تقول بأن أسقف درم المتقدم ذكره، وخلفائه، إما بأنفسهم، أو بوساطة موظفيهم، سوف يمارس تلك الوظيفة، في ذلك الجزء من كنيسة

التاينهاوث، التي تقام بها القداسات، لصالح الأبرشيات، من دون فرض لأتاوات، وعلى شرط أن لا يقحموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال، بين الرهبان، أو في أي جزء آخر من الكنيسة، ولا حتى في الخلوة نفسها، باستثناء في جميع الحالات، الامتيازات الأخرى والغفرانات الممنوحة إلى الرهبان المتقدم ذكرهم، لكن تعيين رئيس خلوة التاينهاوث وعزله هو من قبل الراعي المتقدم ذكره، أو إذا كان كرسي راعي الدير شاغراً، يجري ذلك من قبل رئيس رهبان دير القديس ألبان، مع موافقة هيئته الرهبانية، وفقاً لفحوى امتيازاتهم، وعلى الذين سوف يجري تعيينهم الذهاب إلى الأسقف، وأن يقدموا له، وأن يتعهدوا بالوقت نفسه بطاعة قانونية له، مع الاحترام للكنائس الأبرشية، وبقدر ما تسمح الامتيازات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، على شرط هو أن رؤساء رهبان التاينهاوث، سوف لن يجري —بحجة تلك الطاعة— استدعاءهم من قبل أي مجمع، أو هيئة كهنوتية، أو أي تجمع لاهوتي، بما يتعارض مع فحوى امتيازاتهم، ولسوف يجري تعيين القساوسة في كنيسة التاينهاوث بالتوالي من قبل رئيس الدير، والتجمع الرهباني للتاينهاوث، مع موافقة راعي ديرهم، وسوف يقدمون إلى الأسقف المتقدم ذكره وإلى خلفائه، والذين جرى قبولهم سوف يجيبون الأسقف المتقدم ذكره في المسائل الروحية، ويجيبون الرهبان المذكورين في المسائل الدنيوية، وكشهادة على ماتقدم، وعلى هذه الوثيقة، التي كتبت بشكل قانوني صحيح، أي أن تقول، بالنسبة للحصة التي تركت مع راعي الدير المتقدم ذكره ورهبان دير القديس ألبان، ورئيس ورهبان التاينهاوث، وبالنسبة للحصة التي تركت بأيدي كنيسة درم، قام الأسقف المتقدم ذكره، والهيئة الكهنوتية لدرم، وراعي دير القديس ألبان، ورهبان هذا الدير نفسه، ورئيس رهبان، ورهبان التاينهاوث، قام كل واحد منهم بدوره فوضعوا أختامهم، مع أختامنا. أبرم في عام ألف ومائتين وسبعة وأربعين لتجسيد ربنا، بحضور الأسقف المتقدم ذكره

أعلاه، وكذلك راعي الدير، وكان أيضاً حاضراً: رعاة النيومنستر، ورؤساء شمامسة نونتغهام، والقديس ألبان،، وشروبري، والمعلم هونغ دي ستانبريدج Stanbridge، والمعلم وليم دي بورغ Bourg، والمعلم أودو أوف كيلكني Kilknny، والمعلم جون الذي كان فرنسياً، وعدد كبير آخر.

فرض الأتاوة البابوية من قبل إنكليزي فرنسيسكاني اسمه جون

في العام نفسه، عند بداية الصوم الكبير، أي أن تقول بعد عيد إعداد القديس يوحنا المعمدان، وصل إلى لندن، واحد من طائفة الفرنسيكان، اسمه جون، وهو الذي تقدم ذكره في الصفحات الماضية، وهو الذي استخرج مائة مارك من راعي دير القديس ألبان، بموجب السلطة الرسولية، وبسبب أن الراعي المذكور تقدم بالتماس إلى الكرسي الرسولي، وإلى الكرادلة، حول ذلك الظلم الذي لا يمكن تحمله، صار الآن الحامل لولايات جديدة، تم الحصول عليها من ذلك الكرسي الرسولي، وذلك وفقاً لرغباته، وبناء على سلطات الولاية الجديدة هذه، استدعى الراعي المذكور، وطلب منه القدوم إلى لندن، في اليوم الثالث من ذلك التاريخ، أي في اليوم التالي لعيد القديس جايل، أو أن يرسل نائباً قديراً، لديه تعليقات كاملة حول القضية، ليتولى ترضيته، أي ترضية جون المذكور، حول قضية إعانة مالية، جرى طلبها من قبل البابا، منذ زمن طويل مضى، وبناء عليه، أرسل راعي الدير، في اليوم المحدد، رئيس شمامسته بمثابة نائب له، والذي طلب على الفور نسخة عن الولاية الجديدة، وقد حصل عليها بعد بعض المصاعب، وتولى نسخها، حيث جاء نصها كما يلي:

«من أنوسنت، أسقف، إلخ، إلى ابنه المحبوب، جون راعي دير القديس ألبان، في أسقفية لنكولن، صحة ومباركات رسولية: إن حوادث الاضطهاد اليومي ترغمنا بقسوتها، وفي مقاومتنا لها، على

اللجوء إلى عون الذين هم رعية لنا، لنجدة الكرسي الرسولي، وبناء عليه، إننا بموجب نصيحة إخواننا نسألكم، وننذركم، ونحثكم، وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمركم، بأن تمنحوا ثقة كاملة إلى ولدنا المحبوب كثيراً جون، الذي هو انكليزي، وهو المسؤول الاقليمي للرهبان الفرنسيين في بروفانس، وهو الحامل لهذه العروض، ورسولنا، وهو الذي سيدين لكم باسمنا مايتعلق بالمساعدة المالية المطلوبة إلى الكرسي الرسولي، وانتبهوا إلى أن الكنيسة بهذه المقاومة، تدافع عن المصلحة العامة لجميع الكنائس، ولرجال الكنيسة، وعليكم أن تفعلوا كل الذي سوف يبينه لكم، فبذلك يمكن اعطاء الرضا لنا وإلى إخواننا، ويمكن أيضاً أن يظهر إخلاصكم بهذا العمل، الذي هو أفضل وسيلة للبرهنة على الصدق. صدر في ليون في هذا الثاني عشر من تشرين الأول، في السنة الرابعة من حبريتنا، وبوساطة سلطات هذا الراهب جون، التي فرضها على أولئك الوكلاء بالظهور في اليوم الثامن من ذلك الموعد، طلب منهم في المكان الذي ظهروا فيه بشكل رسمي أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائة مارك، وإلا فهو سوف يتولى تنفيذ أمر البابا بحرمانهم كنسياً، وبتعليق كنائسهم من شراكة المؤمنين، فأجابه الوكلاء بأن راعي الدير كان على وشك ارسال رسله الخاصين إلى البابا، بغية أن يوضحوا له المظالم، ولكي يرضوه وفقاً لإمكانات كنيسته، والذين خاضعين له، دون التنازل — على كل حال — عن الالتماسات التي صنعت من قبل، ووقعت هذه الأحداث عندما كانت السنة قد تقدمت كثيراً، وبذلك فإن عرضنا المنظم للأحداث قد اضطرب بعض الشيء، لكن كنا مكرهين على ذلك، لأنه حيث يكن هناك ألم، من المؤكد أن تقوم الاصبع بالاشارة إليه.

ازدياد سلطة الراهب جون بسبب التفويض البابوي

مع ازدياد يأس الانكليز وأذاهم، ازدادت سلطات الراهب جون

المذكور، وقد جرى حثه من قبل البابا على القيام بضغوط أكبر لدفع الأتاوات، بوساطة الرسالة التالية:

«من أنوسنت، إلخ: تقديرأ منا للمسائل التي أبلغتني عنها برسائلك، نحن نأمرك بوساطة سلطة هذه العروض، حول مسألة تزويد الكنيسة الرومانية بالمساعدة المالية، التي تم طلبها من قبلك بموجب سلطاتنا، لوحظ من ردود أكثرية الأساقفة اللاهوتيين الانكليز بأنهم معفين ومحررين منها، عليك أن تجعلهم يدفعون لك الذي سوف تختاره، وفي مدة موائمة، أي أن يدفعوا المبالغ الأكبر من المال من أجل المساعدات التي طلبتها منهم من قبل، واضبط جميع المتمردين بوساطة الروادع الكنسية، مع إلغاء جميع الالتماسات، وبدون الاهتمام بأي من الامتيازات، أو الاعفاءات، مع أن هذه العروض لم تقم بذكرهم. صدر في ليون، في اليوم السابع من تموز، في السنة الرابعة من حبريتنا».

وكل من يرغب أن يرى السلطات السالفة الذكر التي منحت للراهب جون، يمكنه أن يعثر عليهم في كتاب الرسائل [من تصنيفنا].

خوف رجال اللاهوت وخشيتهم من فقدان ممتلكاتهم

عندما بلغ العلم إلى كثيرين، بأن هذه الاستخراجات الاجبارية المتوالية قد مورست من قبل البابا ومن قبل نوابه المجريين والمنحرفين، وأن امتيازات وغفرانات واعفاءات الآباء المقدسين كانت بلا فائدة للدفاع عنهم، باتوا في خوف عظيم، لأنهم خشوا من أن يقوم العلمانيون والأمراء المديون والنبلاء، الذين تولى أجدادهم تقديم عطاءات إلى الكنائس وأغنوها، حيث كانوا قد أنقصوا ممتلكاتهم، وأعطوا صكوكهم حول ذلك، من أن يقوموا الآن بسبب ما أقدم عليه البابا، باسترداد امتلاك مقتنيات الكنائس، ذلك أن البابا قد قام هو وأتباعه الذين اختارهم، باللامبالاة، بفحوى الامتيازات، ولا سيما

سلوكه المخالف لنوايا المؤسسين، ولقد استعان البابا بالاطاليين وبالأجانب الآخرين الذين سمنوا على منح المؤسسين، في حين بات أهل البلاد جائعين.

ظلم لم يسمع بمثله

وعندما رأى أعضاء التجمع الكهنوتي للكنيسة المذكورة، أي كنيسة القديس ألبان، أنهم معارضون من جميع الجهات، تقدموا — بناء على نصيحة راعي الدير — بالتماس إلى الكرسي الرسولي، الذي كان واجبه تحرير المظلومين من أعبائهم، وأرسلوا واحداً من رهبانهم، واسمه جون بولوم Bulum والمعلم آدم دي بيرن Bern، إلى الكرسي الرسولي، أي إلى ليسون، لكن قبل أن يعودوا، سلم الراهب جون المذكور، ولاية إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«إلى جون المبجل، الذي هو بنعمة الرب، راعي دير القديس ألبان، يرسل جون، رسول مولانا البابا في انكلترا، تمنيات الصحة في الرب: مع أننا كتبنا الآن إليكم مراراً، لقد تلقينا أمراً حتمياً بأن نفعل ذلك، ولذلك قررنا أن نكتب إليكم مرة أخرى، وبناء عليه، نحن نطلب منكم، وننصحكم، وبموجب سلطات مولانا البابا نأمركم، أن تقوموا بموجب فضيلة طاعتكم، بإزالة جميع الاعتذارات وأن تقدموا في يوم الثلاثاء المقبل، قبل عيد القديس توما الرسول، إلى بدفورد Bedford، إلى بيت الفرنسي سكان هناك، لتقديم ترضية كاملة، من أجل المساعدة المالية إلى الكنيسة الرومانية ويتوجب عليك العمل بطريقة لانجد معها أنفسنا أنه من الضروري اتخاذ إجراءات، نحن غير راغبين بها، متماشية مع محتويات الولاية المتقدم ذكرها، وعليك عدم التفكير بأن لا تقدم، على أساس الالتماس الذي عملتموه، لأننا تلقينا أمراً خاصاً، فيما يتعلق بذلك. وداعاً. إن الذي تنوي فعله بالنسبة لهذه القضية، أرسله برسالة ايضاً لنا، لإخبارنا، بواسطة حامل هذه العروض».

الالتماس المرفوع إلى البابا

وبناء عليه تم عمل التماس لرفعه إلى البابا، لأن راعي الدير، وكذلك التجمع الرهباني، فضلوا سلوك طريق الاحتكام إلى أفضل رجال البابا، على الرضوخ والوقوع تحت قبضة التذلل والفقر المخفية لمثل هذه القسوة الحادة، لكن خلال الوقت الذي أرسل فيه الرسل إلى البلاط الروماني، في أسبوعي عيد القديس ميكايل، تهددهم المعلم جون، وضغط عليهم بشدة أعظم، وبناء عليه أرسل إليه رئيس شمامسة القديس ألبان مع بعض الرهبان، لتلطيف قسوته، لكنه أجاب بأنه سوف يمارس أشد أنواع العدالة، وأقصى ماتسمح له سلطاته، لأنه عندما كان في دير القديس ألبان، لم يقدم له الرهبان الاحترام اللائق به كنائب بابوي، أو حتى رسول بابوي، لابل إنه بالحقيقة تعرض للملامة بعضهم، لأنه خرق أحكام طائفته، ولأنه غير زيه، مع أنه استقبل باحترام وأدب بما فيه الكفاية، فيما يتعلق بمأكله ومشربه، مع كلام ناعم ومستقيم، ثم إنه مع شيء من الصعوبة، وعلى ركب جائئة، وبكلام استعطاف، حصلوا أخيراً على فرصة، إلى أن يتم سماع ما هو مؤكد من الرسل الذين أرسلوا إلى روما، وفيما يتعلق، بمسألة نجاح عملهم هناك، أكد الراهب جون لهم بأنهم لن يحصلوا على أي شيء مفيد أو نافع، لأنه قد كتب إلى البابا مثيراً غضبه، ومعلنًا بأن راعي دير القديس ألبان، كان الوحيد بين جميع رعاة الدير في انكلترا، الذي تحرك ضد الولاية البابوية وهو سوف لن يطيعها، وهذا أمر واضح وجلي بوساطة ارساله رسله إلى البابا، ولهذا السبب واجه الرسل الذين بعثوا إلى بلاط روما كثيراً من المثبطات، والمعوقات التي رميت على طريقهم، وتأخروا كثيراً في البلاط، ووجدوا المزيد من المصاعب في انجاز أعمالهم، وتمكنوا أخيراً عن طريق وساطة بعض الأصدقاء المرتزقة والمستأنفين في ذلك البلاط، من الوصول إلى تسوية للقضية، ودفعوا غرامة مائتي مارك إلى البابا،

وهكذا إذا حسبنا الهدايا والتنفقات التي ابتلعها نهم ذلك البلاط الذي لا يعرف الشعب، نجد أن الجميع صار ثلاثمائة مارك، لكن حدث أن كنيسة القديس ألبان التي كان من المتوجب أن تتنفس الآن بحرية أكبر وبسلامة أعظم، تحت الحماية الخاصة للجناحين البابويين، أكثر من الكنائس الأخرى، حدث أن تعرضت لمزيد من المضايقة، وبحدة أكبر، بوساطة مظالم مستمرة، صدرت عن الأساقفة، الذين كانت ديرتنا موجودة في أسقفياتهم، فهم لم يروا أن الرسائل البابوية لها فعالية، وقاموا بمضايقة رؤساء رهبان الدير، حيث لم يقدرُوا، أو بالحري تعاموا وأظهروا أنهم لا يعرفون محتويات الرسائل، التي عبرت بكل وضوح، أنهم كانوا معفين من دفع ضريبة الأحد عشر مارك، المتقدم ذكرها، واحتفظوا كذلك بثلاثة محاسبين، ليقوم البابا وحده بافقارهم، ولقد جرى تقديم محتويات هذه الرسائل في كتاب الـ Additaments، وأخيراً أمكن ضبطهم بمحتويات تلك الرسائل، ورسائل من الراهب جون المذكور، فأقْلَع الأساقفة، وتوقفوا مكرهين، عن الاستمرار عن ظلم الدير، لكنهم — على كل حال — لم يعيدوا الذي سلبوه منهم من قبل.

حول دعوة نبلاء إنكلترا إلى برلمان

وفي هذه الآونة، عندما وجد الملك أن مملكته كانت عرضه إلى خطر عظيم، أمر باجتماع جميع نبلاء المملكة في اكسفورد، في اليوم الذي ينشد فيه Quasinodo geniti، لبحث أحوال القضايا في وضعها الخطير الحالي، ودعا إلى هذا البرلمان بشكل خاص وبدقة الأساقفة، بسبب أنه رأى أنهم تعرضوا للافقار بشكل مستمر بوساطة أتاوات البابا، ولأن أموال إنكلترا غالباً ماُنقلت منها إلى الخارج، في حين لم تتحقق أية منافع للكنيسة من جراء ذلك، بل إنها كانت مصدر خسارة وإضرار، ولهذا السبب فإنهم عن حق اعتقدوا بأن تلك

الأتاوات قد سببت أعظم الازعاج الممكن إلى الخالق الأعظم، وقد أملوا مع أعظم الثقة بأن يكون من الممكن في هذا البرلمان التوصل إلى بعض المقررات، لكن الذي حدث هو أنه مع أن بعض الأساقفة، كانوا قد قرروا من قبل معارضة الاسهام المتقدم الذكر، قاموا كلهم، باستثناء رعاة الديرة المعفين، والمحاسبين الثلاثة، في هذا المؤتمر، فوافقوا على الاسهام بأحد عشر ألف مارك، وبهذا الامتياز جعل المحاسبون أنفسهم هنا عرضة للشك والريبة من قبل المملكة كلها، ثم جرى دفع المال المذكور، وقد تسلمه أسقفها وينكستر ونورويك، اللذان كانا مسلحين بالسلطة البابوية، وأرغم رجال الدين على دفع الشيء نفسه كاملاً، وبات رعاة الديرة المعفين عرضة لإرادة البابا، الذي أظهر قليلاً من الرحمة نحوهم، بل أنهكهم بخسائر متوالية، وبأضرار مستمرة، بوساطة نيابة الراهب جون، حسبما تقدم الذكر، كما أنه لم يظهر أي لطف زائد نحو راعي دير القديس ألبان، نتيجة لإرساله له ثمانين ماركاً في العام الأخير المنصرم، وروعت أيضاً مخاوف من أن يقوم الملك نتيجة الاذن المتبادل، والتوافق بينه وبين البابا، بارغام الكنيسة والمملكة بالأذعان لهذه الأتاوة، حيث أن البابا قد كتب مؤخراً إلى نبلاء انكلترا لصالح الملك، ليرفع من شأن قضيته في جمع المال.

إرسال رسل إلى برابانت

وجرى في هذه الآونة إرسال راعي دير ويستمنستر، والمعلم جون مونسيل Maunsell بمثابة رسولين من قبل الملك إلى ألمانيا، ليقوما بترتيبات أولية مع دوق برابانت، لعقد زواج بين ادوارد ابن الملك، وبين ابنة الدوق المذكور، وبسبب بعض المعوقات السرية عادة آسفين، وخالي الوفاض، وكان كل واحد منهما حزينا، لأنه تعب من دون فائدة، وكذلك لما أنفق.

البابا يتدبر انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً لألمانيا

اشترى البابا في هذه الآونة، بوساطة مبلغ المال الكبير الموعود، الذي استخرجه من جميع الأرجاء، وجمعه من أجل تدمير فردريك، انتخاب وليم كونت هولاندا، وكان رجلاً في مطلع حياته وقوته، ومن أصل مشهور، إلى منصب ملك ألمانيا، وكان الكونت المذكور وأسقف ليبج أبناء عم (خال؟)، وكان دوق برابانت عمه (خاله؟)، وكان رئيس أساقفة كولون صديقه القريب كثيراً، ومتحالفاً معه بوساطة بعض المصاهرة، هذا وكان البابا قد قدر، انه بانتخابه لاندغريف ثورينجيا، الذي مات فجأة، كما ذكرنا من قبل، قد فقد مبلغاً كبيراً جداً من المال، وكان بالحقيقة مدهشاً إلى درجة أنه يسبب العجب إلى عقول الذين سمعوا به (لأنه لم يكن بالحقيقة أقل من خمسين ألف رطلاً من بنسات البندقية، التي كل واحد منها يساوي ثلاثة أرباع بنس استرليني، وجميع هذه الأموال وقعت تحت سلطة أعدائه)، ولذلك سعى الآن لتدبر القضايا بحذر أكبر، وبناء عليه أرسل المال الذي وعد به إلى الملك المنتخب حديثاً، أي الكونت وليم على أيدي رسل عقلاء، لم يشك بهم ولم يرتب، وقد عيّن الكاردينال أوكتافيانوس Octavianus لمتابعة تنفيذ هذه الأعمال، وأرسل أيضاً رسلاً استشاريين إلى الميلانيين، والبارميين Parmese، وإلى آخرين اعتقد أن قلوبهم متقلبة، وحرصهم على التخلي عن جميع مشاعر الثقة والأمل، ولكن بما أن بهجة هذه الدنيا لا يمكن أن تأتي غير مزيجة بالأحزان، كان هناك كونت سافوي، الذي كان عدواً مكشوفاً للكنيسة، وكان منتظراً تحت خداع التظاهر بالسلم، حتى قضي على رسل البابا، الذين كانوا مرافقين بجنود، بالمرور خلال الوديان وأن يجتازوا الممرات الصعبة للجبال، وقد سمح لهم بفعل ذلك دونما أذى، ولكن عندما بات تراجعهم ووسائل نجاتهم قد قطعت، حدث هكذا بشكل خياني، أن تم فقدان أموال

البابوي، والجنود الذين تسلموا إلى جانب متأخرات مدفوعاتهم، مبلغاً كبيراً من المال مقابل عطاء شهرين سلفاً، هؤلاء الجنود تفرقوا، وأرغموا على الفرار، وهكذا حدث ثانية، وبشكل مهين بما فيه الكفاية، أن جميع الموارد جرى تحويلها لصالح استخدامات العدو.

وفي العام نفسه حصل الرهبان الدومينيكان على امتياز من البابا، قضى بعدم السماح إلى أي واحد من رهبانهم بالانتقال من طائفتهم إلى أية طائفة أخرى، وأنه لا يجوز لأي راعي دير أو رئيس رهبان استقبال أي من هؤلاء الرهبان، مع أنهم أنفسهم استقبلوا رهباناً متخليين عن طوائفهم، وهذا الإجراء — كما هو واضح — لا يتماشى مع المنطق، ومخالف لنظام القديس بندكت، وكذلك إلى القاعدة الطبيعية التي تقول: «لا تعمل مالا تتمناه أن يعمل لك»، وحدث أيضاً أن كثيراً من الأشخاص، كانوا متميزين لأخلاقهم ولعلمهم، ولأصلهم الطيب، كانوا قد انسحبوا من هذه الدنيا، إلى طائفتهم، لكنهم وجدوا أن ذلك ليس شكل الدين الذي أملوه، بل وجدوا العالم بطوله وعرضه، عوضاً عن الدير (خاصة وأن القديس بندكت قد شجب في مطلع أحكام نظامه ذلك النوع من الرهبان الذين قاموا يتجولون حول البلاد) ولذلك بدأوا يأسفون ويحزنون لأنهم دخلوا إلى مثل هذه الطائفة، وبحثوا عن ذريعة تمكنهم من التحول إلى اتجاه معاكس، ولهذا السبب، فإن الأشخاص الذين يعدّون الأعظم في طائفتهم، هم الذين يرعون الطريق الوسط والمعتدل.

كيف جاء بعض النبلاء إلى إنكلترا لطلب هدايا من الملك

ووصل في هذه الآونة إلى إنكلترا أيضاً بعض النبلاء الأجانب المفلسين والجياع، فاتحين أفواههم لالتهام أموال الملك، وكان من بينهم بلدوين، الذي يعرف باسم امبراطور القسطنطينية، ومعه بعض المؤيدين الذين طردوا بالقوة من الأراضي الاغريقية، وكان قبل عدة سنوات

مضت، بلدوين هذا المذكور، قد باع جميع الآثار المقدسة التي أمكنه أن يستولي عليها، واقترض من حيثما استطاع، ثم بعد ذلك هرب بشكل معيب من تلك البلاد، وهو رجل فقير، ومنفي، ومجرد من جميع ممتلكاته، مع أن البابا قد تبنى قضيته، وقدم إليه مساعدة فعالة، عندما شن الحرب ضد بتاكيوس، زوج ابنة الامبراطور فردريك، وظهر الآن أنه محتاج فعلياً، وقد طلب مساعدة مالية من ملك انكلترا، الذي عرف عظمته من قبل، ولكي يحصل على خطوة أكبر منه، أعلن بأن الملك كان قريباً له.

وصول أسقف سابينا إلى إنكلترا بمثابة كاردينال — نائب بابوي

وصل أيضاً إلى انكلترا أسقف سابينا Sabina، الذي هو كاردينال للكنيسة الرومانية، وقد كان على طريقه إلى البلدان الشمالية: النروج، والدانمارك، والسويد، وقد قدم بمثابة نائب بابوي، ومن أجل مسح وتتويج هاكو Haco ملك النروج، وعندما كان على وشك القدوم إلى انكلترا، واجه في البداية بعض المصاعب في الحصول على إذن من الملك، بسبب أن جميع النواب البابويين مهما كانت مراتبهم، وجميع الرسل البابويين، مارسوا دوماً سياسة افقار المملكة التي مروا في طريقهم بها، أو اثاروا الاضطراب بها، بطريقة أو بأخرى، ولم يسمح له حتى حلف أخيراً بروحه أنه قادم إلى انكلترا، وليس في نيته تسبب الأذى إلى الملك، أو المملكة، أو الكنيسة، بل ليمر بسلام فقط من خلال البلاد، من ميناء دوفر إلى لين Lynn، وأنه سوف يغادر إلى الممالك النائية، التي كان قاصداً إليها، عندما يواجه مناخاً موائماً، وريحاً مناسباً، وبعدما حصل على الاذن وفق هذه الطريقة، دخل إلى المملكة من دون خوف، وبعدما قدم احتراماته إلى الملك، وتلقى بعض الهدايا منه، أسرع برحلته إلى لين، حيث أقام لمدة ثلاثة أشهر، وفي أثناء اقامته لم يستطع التمتع عن ممارسة الشره الروماني، بل أرسل بشكل سري، رسلاً إلى

الأساقفة وإلى رعاية الدير، وإلى رؤساء الرهبان، يطلب مبالغ مالية كبيرة، وهدايا ثمينة، وكان بين البيوت والعزب العائدة إلى أسقف النروج مكاناً اسمه غيوود Gaywood، وكان غنياً إلى درجة كانت مرابحه تصل — كما قيل — إلى أربعة آلاف مارك، ومع ذلك وفي سبيل أن يغطي جميع إجراءاته بمظهر من القداسة، غالباً ماتولى وعظ الناس، وعندما كان على وشك المغادرة في سفينة، كان قد شحنها بشراء بكمية كبيرة من القمح، وعدد كبير من الدنان كانت مملوءة بأفضل أنواع الخمرة، وبالمؤن الأخرى، أمر راهباً من طائفة الدومينيكان، بأن يقيم قداساً فيها، وهذا ماحدث، مما أثار دهشة كبيرة بين كثيرين، حيث أنهم لم يشاهدوا من قبل قداساً من هذا النوع، وكان على ظهر تلك السفينة — كما قرأنا في قضية سفينة نوح — ممرات، وسقف فوق آخر، وحجر، وغرف طعام، بنيت خصيصاً من أجله، وبناء عليه، ووفق هذه الحالة، وبعدما أصبح غنياً، عهد بنفسه إلى بحر الشمال مع هبوب ربح طيبة، وذلك بعدما ألقى المباركة على انكلترا، وعلى الانكليز الأسخياء.

وصول ثلاثة أخوة وأخت للملك من أمه إلى إنكلترا

ووصل بالوقت نفسه إلى انكلترا، وبصبحه النائب البابوي المذكور، ثلاثة أخوة للملك انكلترا من أمه، وذلك بناء على دعوته، وذلك في سبيل اغنائهم من مباحج انكلترا وثرواتها، وكان هؤلاء هم: غي دي لوزنغان، وهو الأكبر سنّاً، وكان فارساً، ووليم دي بلنسية، وكان هو الأخ الأصغر، ولم يكن قد عمل فارساً بعد، وإيثيلمار Ethelmar، وكان كاهناً، وبالإضافة إلى هؤلاء جاءت أخت لهم وللملك اسمها ايليزا Eliza، وكانت ابنة ايزابيلا، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكونتيسة بروفانس بوساطة هوغ برن Hugh Brun إيرل التخوم، لأنهم كانوا قد تعبوا وأهينوا في الإقامة في بواتو، التي شرع الفرنسيون يدوسون عليها بطريقة تعيسة، وبازدراء السكان، الذين كانوا

من قبل تحت حماية ملك انكلترا، ولقد أرادوا العيش بحرية، وأن يتمتعوا بجميع صنوف الازدهار، وقد دعاهم الفرنسيون باسم خونة، وأشاروا إليهم بالأصابع، وسط الضحك والاستخفاف، ولدى وصول إخوته وأخته، ذهب الملك إلى استقبالهم، مع كل مظاهر الفرح، وأسرع لمنحهم العناق والقبلة الأخوية، ووعدهم بهدايا رقيقة، وبممتلكات وافرة، وقد وفى بهذا الوعد باخلاص، لابل أعطاهم أكثر مما وعدهم به، حسبما توضح الرواية التالية بشكل كامل:

كيف تزوجت بعض السيدات البروفانسيات من نبلاء إنكليز

في بداية شهر أيار، كان الملك مقيماً في وودستوك Woodstock، واستمرت إقامته من عيد القديس فيتال Vitalis حتى اليوم التالي لعيد الرسولين: فيليب، وجيمس، وأنداك جرى بتدبير وترتيب من بطرس أوف سافوي، زواج سيدتين من بروفانس من شاين نبيلين، كانا هما: ادموند إيرل أوف لنكولن، ورتشارد دي بورغ Bourg، الذي كان الملك قبل عدة سنوات قد رباه في قصره، وبسبب هذا الزواج سمعت أصوات بعدم الرضا والغضب وانتشرت في جميع أرجاء المملكة، لأنهم قالوا بأن هاتين المرأتين، قد تزوجتا — على الرغم من كونها ليستا معروفتين — من نبيلين، ضد ارادتهما.

زواج جوهانا ابنة وارين من وليم أخي الملك لأمه

وفي العام نفسه، وفي الثالث عشر من آب، وبناء على رغبة الملك واقتراحه، تزوجت جوهانا Johanna ابنة وارين دي مونتشيزنيل Warin de Muntchenil، من وليم دي بلنسية، أخي الملك لأمه، ولأن الابن الأكبر والوريث لوارين المذكور كان متوفى، فإن ميراثاً غنياً جداً كان ينتظر جوهانا هذه، التي كانت ابنته الوحيدة الباقية، وبذلك شعر النبلاء الانكليز إلى درجة كبيرة بأنهم

أصبحوا من حصة الأجانب، مع أشخاص غير معروفين، وتزوجت ايليزا أخت الملك لأمه، أيضاً من الشاب جون ايرل وارني Warrenne.

وفاة أودو رئيس أساقفة روان

وفي الوقت نفسه من العام مات أودو Odo رئيس أساقفة روان Rouen، الذي كان من قبل راعي دير القديس دينس Denies، وجاءت وفاته فجأة، لأنه ضرب — كما قيل — بحكم رباني، لأنه بالكاد قد ترأس على كرسي رئاسة أساقفته لمدة سنة، حيث اغتصب لنفسه الاسم فقط والمنصب وأحال جميع إجراءات رئاسة الأسقفية إلى سلفه بطرس، وقد كان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان من قبل راعي دير القديس دينس، لكنه تخلى عن ذلك وابتعد لرغبته بالحصول على منصب رئاسة الأساقفة، وقد ترك ديره تحت دين لا يمكن سداذه، ولدمار نفسه حصل على المنصب المتقدم ذكره من خلال السيمونية.

حمل الصليب من قبل وليم لونغييسي وبعض النبلاء الآخرين

في حوالي أسبوع الابتهلات من هذا العام، حمل الصليب أسقف ووركستر مع وليم لونغييسي Longuespee، وغودفري دي لوسي من أسقفية ووركستر، مع كثير من نبلاء مملكة انكلترا، فقد تشجعوا على هذا بوساطة المثل الذي ضربه ملك فرنسا مع نبلائه، وجمع وليم لونغييسي المال من الذين حملوا الصليب، مثلما فعل الايرل رتشارد، وبعقلانية ذهب إلى البلاط الروماني، وخاطب البابا حول مسألة الحملة الصليبية، وقال له: «مولاي، إنك كما ترى، إنني قد حملت شارة الصليب، وأنا على استعداد للسفر، والالتحاق بملك فرنسا في حجه، وأن أقاتل في سبيل الرب، وأنا أحمل اسماً عظيماً، وهو معروف

بشكل جيد، أي وليم لونغييسبي، غير أن ممتلكاتي صغيرة، فقد أخذ ملك انكلترا، الذي هو قريبي، وهو مولاي، مني لقب إيرل، مع جميع ثروتي، وهو — على كل حال — فعل هذا بشكل عادل، وليس بوساطة غضبه، أو بوساطة أي عنف أملاه عليّ، ولذلك إنني لألومه، وأنا مرغم على الالتجاء إلى الصدر الأبوي لعطفكم، لأطلب العون منكم في حالة الضرورة هذه، ونحن نفعل هذا اقتداءً بقضية النبيل الايرل رتشارد، الذي، مع أنه لم يحمل الصليب، قد نال الحماية من فضلكم، وهو فضل كان وافراً، وخصباً في قضيته، حيث جمع مبلغاً كبيراً من المال في انكلترا، من الناس الذين حملوا الصليب، وأنا الذي حملت الصليب، وفي حاجة، استمد الأمل من قضيته، وأسأل أن يجري منح الفضل نفسه لي، وبناء عليه، قدر البابا فصاحة المتكلم، وقوة المنطق لديه، ولياقة شخصه، فأظهر نفسه متعاطفاً مع الملتمس، ومنحه جزئياً الذي طلبه، يعني أن تقول شوكة من جلد رجل آخر.

تعيين وليم بويلي حاكماً على غسكوني

وعهد في هذا العام بالمسؤولية عن غسكوني إلى وليم دي بويلي Buales، وهو فارس كان من قبل مارشال البيت الملكي، وقد كان تبعاً لعادة بلاده — كونه من نوستريا Neustrian — عظيماً بالكلام، بطيئاً بالفعل، وجباناً، ولذلك فإن المقاطعة بدأت في ظل عنايته تتعرض إلى الخطر، وقد اضطربت كثيراً بالحروب، وكان أكثر أعداء ملك انكلترا نشاطاً هو غوستو Guasto ابن كونتيسة ييارد Biard الذي كان أكثر الناس عقوقاً، بين الذين أعطاهم الملك الكثير وأغناهم.

حول نقل القديس إدموند المعترف

وجرى خلال هذا العام نقل القديس إدموند المعترف، الذي كان من

قبل رئيس أساقفة كانتربري، وقد جرى نقله في بونتغنك Pontignac، مع تشریف عظیم، في الكنيسة الديرية لرهبان طائفة السسترشيان، بحضور لويس الملك المسيحي العظیم الايمان، لفرنسا، مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة، وكذلك بحضور آخرين، كان بينهم من الجنسين الحضور، السيدة بلانشي، أم ملك فرنسا، ولقد كانت الأكثر وضوحاً في اخلاصها للرب، ولذلك القديس، فقد داومت على السهر مع الصيام والصلاة، مع كميات وافرة من الشموع المضاءة، وغالباً مارددت في صلواتها الكلمات التالية: «أيها الأب المعترف والأعظم قداسة، عندما كنت حياً وفي المنفى، قمت بناء على رجائي بمباركتي ومباركة أولادي، وبناء على طلبي عبرت إلى فرنسا، وأكملت فينا، الذي كنت قد بدأت فيه، وأسست مملكة فرنسا على سلام ثابت، وعلى النصر»، وكان اليوم التالي، الذي كان السابع من حزيران، متوافقاً مع اليوم نفسه، الذي كان قد جرى فيه نقل جسد الأسقف الأعظم مباركة، والمعترف: وولستان Wulstan أوف ووركستر (وأنا أعتقد أن هذا قد حدث الآن بموجب ارادة ربانية)، والآن جرى نقل جسد ادموند الممجد في بونتغنك، وذلك على الرغم من عدد السنين التي مرت بين الحادثتين، وينبغي أيضاً أن يكون معلوماً، لا بل بالحقيقة أن ينشر في جميع أنحاء العالم، بأن جسده قد وجد كاملاً، غير متفسخ، وله رائحة جميلة، والذي هو أكثر ادهاشاً بالنسبة لجسد ميت هو الليونة في كل أطرافه، مثلما هو الحال مع شخص نائم، وكان شعره وثيابه غير متغيرين باللون والتكوين، وقد تقرر أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً —وذلك بناء على اقتراح أول من ملك فرنسا— وجوب اعطاء الانكليز، الحرية أكثر من الشعوب الأخرى، بالقدوم لزيارة جسده، ولتقديم صلواتهم هناك، وتقرر أيضاً تشریف المكان بحوامل شموع مضاءة، ومع صور معمولة بشكل محكم، وبشأن تفاصيل إجراءات هذه المسألة، قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

كيف نذر الإيرل رتشارد بناء

الجزء الرابع من مزار القديس إدموند

وعندما غدت هذه الوقائع معروفة من قبل الإيرل رتشارد، من خلال تقرير موثوق، وعن طريق أشخاص صادقين، قال وهو يتنهد: «وأسفاه، أنه لم تجر مباركته بشكل عال من أجلنا، أي أن يكون الملك أخي وأنا شخصياً، حضوراً أثناء هذا النقل المجيد والمهيّب، لأنه كان قديسنا بالمولد، والتعليم، والترقية، على الرغم من أنه — بسبب ذنوبنا — قد انسحب من انكلترا، وعلى كل حال إن الذي كنتُ سأفعله لو كنت حاضراً هناك، سوف أفعله وأنا غائب، إنني سوف أقدم له الاحترام المتوجب، والتشريف اللائق له»، وبدأ منذ ذلك الحين يحب القديس باخلاص أعظم، وبتشريف أكبر، وبتقوى أعمق، فقد حدث أنه أصيب بمرض سري وحاد، هدّد حياته، فطلب مساعدته مع الثقة، وبسعادة تحرر من مرضه، وامتناناً منه للرب وللقدّيس أخذ على نفسه عهداً بأن يبني المزار، أي واجهته.

كيف فسدت النقود الإنكليزية

وفي العام نفسه نقصت قيمة النقود الاستيرلينية، فبسبب جودة المعدن الذي تألفت منه، قطعت أطرافها من حولها بوساطة عمل ممقوت، ولذلك لحقها الزيف، ومرد ذلك إلى مزيفي المال والنقود الذين ندعوهم «القصاصين»، وقد قصوا النقود كثيراً إلى حد أن الذي بقي منها الدائرة الداخلية فقط، ذلك أن الدائرة الخارجية قد قصت كلياً، وكان الذين تولوا عملية التزييف هذه هم تجار البلدان المجاورة لانكلترا، وبشكل خاص الفلمنكيين حيث جرى الاكتشاف بشكل واضح أنهم يمارسون هذا في القارة أكثر من فعلهم ذلك على هذا الجانب من القنال، ولذلك قام الملك الفرنسي بمعاينة هؤلاء الناس

بقسوة أعظم في أراضيه مما فعله الملك الانكليزي في بلاده، ولكن بما أن النقود قد تشوهت الآن وتزيفت إلى أبعد الحدود بدأ الملك يبحث عن مخرج لهذا، وفيما إذا كان من الممكن والأمنع تغيير النقود بالشكل أم بالمعدن، وقد بدا لكثير من الناس العقلاء أنه سوف يكون مفيداً أكثر تغيير المعدن، من تغيير الشكل، لأنه من أجل المعدن، وليس من أجل الشكل، كانت تلك النقود قد خضعت لذلك الإفساد والأذى، ومصدراً على هذا، فإن النقود الفرنسية، ونقود كثير من الأمراء الأجانب تقدم شهادة واضحة وبرهانا.

مبارزة بين إيرل غلوستر وبين غي أخى الملك

وفي حوالي الوقت نفسه جرى الترتيب لمبارزة، مع أنها كانت رياضة دموية جداً، تجري في بقعة بين دنستيل وليوتون، وذلك بين رتشارد إيرل غلوستر، وغي دي لوزنغان ابن كونت التخوم، وكان الملك الذي أظهر المزيد من الحظوة نحو أخيه ونحو البواتيين الآخرين من الأتباع، وكان ذلك أكثر مما أظهره نحو رعاياه الانكليز الطبيعيين، قد بدأ —الملك— يشعر بخوف كبير خشية أنه إذا جرت هذه المبارزة، فإن أخاه وأتباعه سوف يقطعون إلى قطع، ولذلك منع المبارزة تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وقد تحمل الانكليز هذا المنع بصبر، لأن كثيرين قد أحبوا غي المذكور باخلاص، فقد قيل بأنه كان هو الذي حذر ملك انكلترا عندما كان في سانتونج Santonge، وطلب منه القيام بالفرار على الفور في ذلك الوقت، لأن والد غي، كونت التخوم كان قد باع الملك المذكور إلى ملك فرنسا، وهكذا فإن هذا الاضطراب، الذي كان في البداية خطيراً جداً، قد أنهى بإرادة الرب، واستقر.

تدمير الخوارزمية

في هذا العام نفسه أيضاً، تعرض شعب الخوارزمية الممقوت كله إلى

الضعف، وكان ذلك بعدما نشر النار والقتل، وجلب عدة أنواع من الدمار المضاعف للأرض المقدسة، وبعدها أنزل عكا إلى حالة الفقر، بعد هذا تعرض الشعب كله — أقول بفضل انتقام الرب — إلى وهن شديد وضعف عظيم حتى أنهم أنهكوا أنفسهم، وكان ذلك بسبب أنهم شرعوا بالعمل ضد سلطان مصر، وبذلك حرموا من معونته، فأخفقوا في الحصول على الذي احتاجوا إليه، فقهروا وهزموا من قبل أعدائهم، الذين تضاعفوا وتكاثروا من كل اتجاه، ولذلك حصل أخيراً أن اسمهم محق تماماً من على وجه الأرض، ولم يعد هناك أثر منهم مرئياً، سوى أنهم لو ثوا الأرض المقدسة بشكل لا يمكن جبره، برائحتهم القدرة وبآثار أقدامهم.

حول فرار كونراد من ألمانيا

وهرب في هذه الآونة أيضاً كونراد بن فردريك — الذي كان ابناً شريراً لأب شرير — من ألمانيا إلى أبيه في إيطاليا، لأنه لم يستطع الصمود أمام هجمات أعدائه، والزيادة اليومية في قوة الكنيسة، لأن نائباً بابوياً، اعتمد على مساعدة رئيس أساقفة كولون، قام بعدما جى مبلغاً كبيراً جداً من المال من الكنيسة من ألمانيا، فجلب معه جيشاً مؤلفاً من حوالي عشرة آلاف جندي، وواصل بدون توقف مهاجمة أعوان فردريك المذكور، وانخرط في أعمال النار والقتل، وتمكن هذا النائب البابوي بوساطة انزال عقوبة الحرمان الكنسي الآن ضد بعضهم، ثم الآن ضد آخرين، من جمع المال لتزويد الجيش الكبير العائد إلى رئيس الأساقفة، وجاء استخراجهم للمال من حيثما استطاع: من الأساقفة، ومن رعاة الدير، ومن رؤساء الرهبان، ومن رجال الدين الآخرين، إلى درجة أنهم أرغموا فيها على دفع فدية حتى عن أجراسهم، وعندما سمع فردريك بهذا انزعج كثيراً، إلى درجة المرارة بالقلب، وشعر بالخوف حتى الناس العقلاء الذين وزنوا مخاطر المستقبل بميزان العقل، وقدروا:

أن يرغم فردريك فيقوم بسبب الغضب والدفاع عن نفسه، باللجوء إلى الردة، أو أنه سيطلب عون التتار من روسيا، أو سيقوم بشكل خياني فيسمح لسلطان مصر، الذي كان معه على وفاق تام، بالقدوم إلى الامبراطورية، مع جيشه وأتباعه من المسلمين، مما سيسبب اضطراباً مخيفاً إلى المسيحية كلها، وكان من الممكن أن يرى بوضوح التعاسة المخبأة لهم، لأن الفضائح تكدست فوق الفضائح، وتوجت الشرور فوق الشرور، إلى حد أن بعضهم وقف إلى جانب فردريك، وكأن ذلك في سبيل صالح الامبراطورية وازدهارها، ووقف آخرون إلى جانب البابا، وكأن ذلك لصالح الكنيسة، وبما أنهم أثاروا الآن حروباً بغیضة ودموية، نشبت حتى في ألمانيا، وكذلك في صقلية وكالبريا، وجميع إيطاليا، فإن الأساقفة والرجال المقدسين الآخرين، الذين سلف للكنيسة أن رعتهم بحنان أمومتها، قد أرغموا بشكل مهين على التسول وعلى طلب ضروريات الحياة بوساطة الوعظ في بلدان أجنبية ونائية، لكن حتى آنذاك أهانهم الناس، ورفضوا الاستجابة لمطالبهم قائلين:

«اذهبوا إلى باباكم، اذهبوا إليه فهو الذي يمتلك وفرة هائلة من مبالغ الأموال التي نهبها»، وفي الحقيقة لم يتوقف البابا عن جمع المال، سواء في بلاطه أو في البلدان النائية، جاعلاً من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان — على الرغم من عدم رغبتهم — صيادين، ليس للرجال، بل للمال، لكن كيف راوغوا في أداء هذه الأعمال، إن هذا مايمكن الوقوف عليه في كتاب الـ Additaments.

كيف جمع الإيرل رتشارد المال من الذين حملوا الصليب

وجمع في هذه الآونة الإيرل رتشارد، بموجب سلطات البابا — الذي كان قد لبي مطالبه وأرضاه بشكل سري وعقلاني — مبلغاً ضخماً من المال، من الذين حملوا الصليب، وفي الحقيقة حمل — كما قيل — من رئاسة شمامسة واحدة، وجبى ستمائة باوند، معتمداً على سلطات رسائل

البابا، وفي ظل الحماية نفسها، حسبما تقدم الذكر، جمع وليم لونغيبي ألف مارك، لا بل أكثر من الصليبيين.

حول استخراج المال من قبل بونيفيس رئيس أساقفة كانتبري

وفي هذا الوقت نفسه، علق بونيفيس، رئيس أساقفة كانتبري، بموجب سلطات الكرسي الرسولي، بعض أساقفة منطقة كانتبري، لأنهم رفضوا الخضوع لتقديم اسهام جديد، لم يسمع به من قبل، حيث كان قد حصل على امتياز جبايته من البابا، وتعلق ذلك بمرايح موارد الكنائس الشاغرة، المتوجبة خلال السنة الأولى من شغورها، فقد توجب الآن تقديم هذه المراح إلى رئاسة الأساقفة المذكورة، لتحريرها من ديونها، وهي الديون التي كان أسلافه قد حملوها لكنيسة كانتبري مع فوائدها، وكان هذا الكلام زائفاً بشكل واضح موثق، وقد قيل لاحقاً الأذى بسلفه المباشر ادموند، وبرجال مقدسين آخرين، وقام الأساقفة، بناء عليه مرغمين، لأنهم كانوا غير قادرين على التمرد ضد ولاية البابا وسلطته، قاموا بعد لأي فوافقوا، وهم غير راضين، ومع مرارة بالقلب، وجاء ذلك في سبيل التمكن من التحرر من تعليقهم، وتسلموا فيما بعد، مرة أخرى، ولاية من خلال عمدة بوفيا Beauvais، الذي كان الوكيل في هذه القضية، وقضت أوامر هذه الولاية بأن يتم الحرمان كنسياً من قبل البابا لجميع الذين انتقدوا، وكل الذين ضلوا، ولأي واحد مارس الغش في قضية الامتياز المتقدم ذكره الذي منح بفضل من البابا، وأعلن الحرمان الكنسي على جميع أرجاء منطقة كانتبري، باستثناء الملك وزوجته وأولاده، والنبيل رتشارد أوف كورنول.

حصار بارما من قبل الإمبراطور

عندما كانت الشمس تسير نحو الاعتدال الخريفي، عبر فردريك

جبال الألب، وبادر مسرعاً مع جيش كبير نحو ليون حيث كان البابا مقيماً، ومن هذا التحرك خيف كثيراً من قيامه بهجوم عدواني على أشخاص: البابا، والكرادلة، واللاهوتيين الآخرين، لكن حدث بفضل الإدارة الحكيمة للبابا، الذي شجع أهل بارما Parma، ووعدهم بمبلغ كبير من المال، وبمساعدة فعالة، أن دخلت هذه الدولة بمجملها فجأة بتحالف مع الميلانيين والآخرين الذين كرهوا الامبراطور، وبجراحة عملت الترتيبات لمقاومته، وذلك بعدما كانت من قبل واقفة بثبات إلى جانب فردريك.

ولدى سماع فردريك بهذا، بات من الصعب عليه ضبط نفسه، واستبد به الغضب لأنه صرف عن مقاصده بوساطة هؤلاء العصاة، فعاد مع جيشه من أجل حصار البارمين، ولكي ينزل بهم أقسى انتقام، وتحرر البابا بعض الشيء من الخوف العظيم الذي استولى عليه، ووضعت مدينة بارما تحت الحصار، وقام الامبراطور بالشروع ببناء مدينة واسعة ومكتظة بالسكان خارجها، حتى أنها بدت معادلة لمدينة بارما نفسها، وقد منحها اسم «فيتوريا» "Vittoria"، [المنصورة] كما أنه أقسم أنه سوف لن يغادر من هناك حتى يتمكن من اخضاع المحاصرين، ويستولي على مدينتهم، وتمكن خلال وقت قصير من منعهم من الافادة من النهر، كما لم يتمكن الميلانيون أو أية جماعة أخرى، وضعوا ثقتهم بها، من تقديم أية مساعدة إلى المحاصرين، وفي ظل هذه الظروف، باتوا راغبين خلال ثلاثة أشهر بإعطاء يد المصالحة إلى فردريك، وطلبوا منه المصالحة، ولكن بما أنه كان غير واثق من سكان المدينة، رفض القبول بتدليلهم، ثم إنهم بدأوا يشعرون بحراجه وضعهم، وقالوا فيما بينهم، «هذه النوازل وقعت علينا بشكل عادل، لهجومنا الخياني ضد مولانا الذي وثق بنا، ولقد عوقبنا، ولكن ليس من دون سبب مسوغ صحيح، فمدينتنا في خطر

عظيم، وهي المدينة التي سلب فيها بشكل وحشي روجر المقدس، أسقف لندن، الذي قيل بأن الرب قد شرفه الآن بعمل معجزات له، وجاء سلبه من حاجاته الضرورية لرحلته، ومن المقتنيات التي كانت ذات قيمة لديه، عندما كان متوجهاً في حجه إلى البلاط الروماني، ولم ترد إليه مقتنياته، لذلك قام لدى مغادرته في اليوم التالي بانزال اللعنة على المدينة وعلى سكانها.

كيف أعطى ملك فرنسا ترضية إلى جميع الذين عانوا من الأذى

خلال الخريف نفسه، أرسل لويس التقي، ملك فرنسا، رهباناً من الدومينيكان والفرنسيسكان ليجولوا في جميع أرجاء مملكته، وليقوموا بأبحاث يقطعة، كما أنه أمر بإجراء فحص يقوم به نوابه، من أجل أنه إذا كان هناك أي تاجر أو شخص آخر قد عانى من الضرر بوساطة سلف إجبارية، أو استخراج للمال، أو مصادرة للمقتنيات، الأمر الذي غالباً ما وضع قيد الممارسة من قبل الوكلاء الملكيين، وأمكنه تقديم تصريح مكتوب، أو لائحة بما تعرض له من أضرار، أو قدم بينة على ذلك، وإذا ما حلف على صدق ذلك، أو قدم أي برهان قانوني حول ذلك، فإن الملك كان جاهزاً لتقديم تعويض كامل حول كل شيء، وهذا ما جرى تنفيذه.

مرض إدوارد الابن الأسن للملك

في عشية عيد القديس متى، وقع الابن الأسن للملك، ووريثه ادوارد مريضاً، فكتب الملك إلى جميع رجال الدين المقيمين في لندن وبقرها، أن يصلوا من أجل حفظ ابنه، وكان من الذين كتب إليهم بشكل خاص راعي دير القديس ألبان والرهبان فيه، يرجوهم بأن يخصصوا صلوات لصالحه، وأن يقوم جميع الرهبان بانشاد مزموّر «القدير والرب الدائم، هو الأمل الباقي للذين يؤمنون» إلخ، بشكل

مهيّب، وأن يكون الشطر الأول من هذا لصالح القديس ألبان، وأن يكون الشطر الثاني لصالح الشاب المريض، وبفضل الرب، عاد الشاب إلى الصحة، وقد قلت كثيراً حول هذا، بسبب إشاعة راجت بين الناس، الذين أبدوا دهشتهم قائلين: «انظروا لقد صلى رجال علمانيون إلى الرب، وقد استجيب إلى صلواتهم، فلماذا على هذا لا يقوم البابا بالصلاة، والعمل لصالحه، لابل لصالحنا، ولصالح الكنيسة العالمية؟ لكن بدلاً عن هذا هو متشوق من دون كلل بالسعي وراء المال»، ولقد قيل أيضاً، وتؤكد الذي قيل، الأمر الذي كتبه ليس من دون دموع، بأنه وضع ثقته في مخازن المال أكثر من وضعها في الصلوات وتقديم الصدقات إلى المسيحيين.

كيف جرى انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً للرومان

في اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل، انتخبت أكثرية نبلاء ألمانيا الذين لهم يعود حق الانتخاب، ملكاً لألمانيا، هو وليم كونت هولاندا، وكان شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، كما كان وسيماً في مظهره، ومن أصل نبيل، وبعد انتخابه قدموا الولاء له، ولم يوافق دوق سكسوني وبعض النبلاء الآخرين على هذا الانتخاب، ونتيجة لذلك حدث انشقاق عظيم بين الناس، الذين وجدوا متنفساً للتعبير عن مشاعرهم بهذه الكلمات: «انظروا الفرسان واقفون ضد الكهنة بسبب التجبر، وللسبب نفسه الكهنة مخاصمون للفرسان».

جلب بعض دم المسيح إلى لندن

وفي تلك الآونة، كتب ملك انكلترا إلى جميع نبلاء المملكة، يأمرهم بالاجتماع [في لندن] في يوم عيد القديس ادوارد، أي في يوم عيد تحويله، الذي يحتفل به خلال الأربعاء عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، لسماع أعظم الأخبار، حول منفعة مقدسة، أضفيت من قبل

السماء مؤخراً على الانكليز، وثانياً من أجل تقديم التشریف إلى تحويل ذلك الملك المجيد والشهيد، وثالثاً حتى يتمكنوا من أن يكونوا حاضرين احتفال أخيه لأمه، ولیم دي بلنسية، الذي سوف يصفى عليه في ذلك اليوم شرف الفروسية، وكذلك على بعض الشباب النبلاء الآخرين، ولكي يكون هذا العيد المضاعف أكثر قبولاً، أفعم بحضور النبلاء والأساقفة مع آخرين كذلك، في سبيل تشریف الملك والمملكة.

وبناء عليه، اجتمع النبلاء في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، في ويستمنستر، وبعدما أخبروا بأن ذلك اليوم كان يوم عيد القديس ادوارد، والاحتفال بولیم المذكور، سألوا عن الأخبار المرضية، التي جاءوا إلى هناك من أجل سماعها، والتي قيل بأنها صحيحة وجديرة بالقبول كله: لأنه بشهادة مقدمي الداوية والاستبارية، مع شهادة أختام كثيرة، وبشكل خاص أختام: بطريرك القدس، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين الآخرين، ونبلاء الأرض المقدسة، جرى ارسال بعضاً من دم ربنا، الذي سفحه على الصليب من أجل خلاص العالم، وكان محفوظاً في وعاء جميل من الزجاج الصافي (الكريستال) وقد عهد به إلى عناية راهب معروف بشكل جيد، من رهبان الداوية، وأن الملك، بحكم كونه أعظم أمير مسيحي، قد حصل عليه من الأغسطس هرقل، أعظم الأباطرة انتصارات وقوة، وبذلك سار على منوال الملك الفرنسي الذي كان حياً آنذاك، والذي كان يبدي كل تشریف في باريس، نحو صليب الرب نفسه، كما ذكرنا من قبل، وقام بروح تقية وتأبّة بالبقاء ساهراً ليلة عيد القديس ادموند [اقرأ: ادوارد]، وكان صائماً على الخبز والماء، وذلك مع شموع مضاءة، وصلوات خالصة، وقد أعد نفسه من أجل مهابة اليوم التالي.

كيف حمل الملك دم المسيح إلى كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر

ثم أصدر الملك أوامر، قضت بوجوب اجتماع جميع الكهنة في لندن، في نظام لائق واحترام في كنيسة القديس بطرس، في الصباح الباكر لليوم التالي، الذي كان يوم عيد القديس ادوارد، وأن يرددوا ثياهم الاحتفالية مع أرديتهم الكهنوتية وأغطية الرؤوس، وأن يكونوا محاطين بأتباعهم من رجال الدين، الذين عليهم أن يكونوا مرتدين لملايهم ولشاراتهم، وللصلبان، والشموع مضاءة، وإلى هناك ذهب الملك أيضاً، ولدى تسلمه للوعاء الحاوي للكنز المتقدم ذكره، قام بتشريف عظيم، واحترام، ومهابة، فحمله فوق رأسه، وسار على قدميه وهو لابس لثياب متواضعة، مؤلفة من رداء بسيط من دون غطاء رأس، وسار مع الكهنة اللابسين كما قلنا من قبل، وقد سار من دون توقف إلى كنيسة ويستمنستر، التي كانت على بعد حوالي الميل عن كنيسة القديس بولص، ويتوجب علينا عدم اسقاط ذكر، أنه حمل الوعاء بيديه معاً، وعندما كان يصل إلى أي مكان وعمر، أو جزء غير مستو من الطريق، بقي دوماً مثبتاً عينيه نحو السماء، أو على الاناء نفسه، وجرى حمل الطيلسان على أربعة رماح، وتولى مساعدان دعم ذراعي الملك، خشية أن تتهاوى قوته، أثناء هذا الجهد الكبير، ولدى وصوله إلى باب ساحة أسقف درم، استقبل من قبل التجمع الديري لويسمنستر، مرافقين من قبل جميع الأساقفة، ورعاة الدير، والرهبان الذين احتشدوا (والذين أحصى عددهم فتيين أنهم كانوا أكثر من مائة)، وهم يغنون، بفرح وسرور في الروح القدس، وذلك مع الدموع، ثم إنهم عادوا بمسيرة كما قدموا، إلى كنيسة ويستمنستر، التي تمكنت بصعوبة من استيعابهم جميعاً، بسبب الجماهير التي احتشدت، ولم يتوقف، بل حمل الوعاء من دون تعب، كما فعل من قبل، وقام بطواف في الكنيسة، وفي القصر، وفي غرفه الخاصة، وأخيراً

قدم الوعاء، وأهداه، كهدية لا تقدر بثمن، وهي هدية جعلت انكلترا مشهورة، وجاء التقديم إلى: الرب، لكنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وإلى حبيبه ادوارد، وإلى الرهبان المقدسين في ذلك المكان المكرسين للرب ولقديسيه.

أسقف نورويك يعظ بقداس إلى الناس حول فضائل دم المسيح

وأقام أسقف نورويك قداساً في ذلك اليوم، وهو نفسه قدم قداساً للناس، فيه ذكر أنه بين الأشياء التي نظر الناس إليها أنها مقدسة، يعد دم المسيح هو الأكثر قداسة، لأنه كان ثمن العالم، وسفكه كان الخلاص للعالم، ولكي يظهر عظمة الواقعة أكثر، أضاف قول الفيلسوف التالي:

كل نهاية أعلى من وسائلها

وفي الحقيقة إن الصليب هو أكثر الأشياء قداسة، بسبب دم المسيح الذي سفك عليه، الذي هو الأكثر قداسة، وليس سفك الدم مقدساً بالنسبة لعملية الصليب، وقال: إن هذه الأشياء، كما نعتقد يمكن أن تجعل انكلترا تشعر بكثير من السرور والفخر، وذلك نظراً لتملكها لهذا الكنز العظيم، مثلما شعرت فرنسا في امتلاكها للصليب المقدس، الذي يجعله ملك فرنسا — وليس ذلك من دون سبب صالح — وأحبه أكثر من الذهب والجواهر، وأضاف أنه نظراً للاحترام العظيم، ولقداسة ملك انكلترا، المعروف بأنه أعظم المسيحيين، بين جميع الأمراء المسيحيين، أرسل إليه هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن، من قبل بطريك القدس (والذي تبرهن على حقيقته وتأكده بما فيه الكفاية)، من أجل إمكانية تقديم الاحترام إليه في انكلترا أكثر منه في سورية، التي تركت الآن مهجورة تقريباً، لأنه في انكلترا، كما يعلم العالم، الإيمان والقداسة مزدهران أكثر من أي بلد آخر في جميع أرجاء العالم، وبالنسبة لفحصه، لأن كثيرين كانوا مايزالون بطيئين بالتصديق، ولكون ذلك قد جرى

الدخول به، قام ثيودورك، رئيس الاسبتارية في القدس بمخاطبة الأساقفة والآخرين الذين كانوا جالسين هناك، بالكلمات التالية: «لماذا ماتزالون مترددين ياسادتي؟ هل طالب أي واحد منا، نحن الداوية، أو الاسبتارية، أو حتى الراهب الذي جلبه، بأية منفعة من أجله؟ هل سأل أي مكافأة بالذهب أو الفضة من الملك، أو من أي واحد آخر، أو حتى لو بجائزة صغيرة جداً؟» وعلى هذا أجاب الملك: «لامطلقاً»، ثم أضاف الراهب: «لماذا يعرض عدد كبير من الناس من ذوي المراتب العالية أنفسهم إلى ادانة، أرواحهم، ويقدمون شهادة على صحة هذا الأمر، ويشبتون أختامهم على الشهادة، التي هي واضحة، ويقسمون على ذلك بإيمان صالح؟»، ومع أن هذه الكلمات قد تفوه بهن رجل علماني، قد قبل بهن الأساقفة وكذلك قبلن من الآخرين.

لكن دعونا نعود الآن إلى سياق روايتنا، فبعدما فرغ الأسقف المتقدم ذكره من قداسه الفصيح، أعلن — لسرور الناس — بأن كل من يأتي لتعبد الدم الأعظم قداسة، والمحفوظ هناك، سوف يحصل، بموجب اذن مفضل من جميع الأساقفة، على اعفاء حر من العقوبات المفروضة عليهم، لمدة ستة أعوام، ومائة وأربعين يوماً، وبعد مناقشات جرت هناك، ثابر بعض الجالسين هناك على التمسك باصرار بعناد بشكوكهم، وطرحوا السؤال التالي: «كيف أتيح للرب، عندما قام ثانية تاماً وكاملاً في الجسم، وذلك في اليوم الثالث بعد آلامه، ترك دمه على الأرض؟» وهو سؤال أحكم الإجابة عليه على الفور أسقف لنكولن، وجرى تدوين المناقشات في كتاب الـ Additaments، وذلك كما سمعها كاتب هذا العمل، فقد دونها كلمة كلمة بكل دقة.

كيف عمل وليم دي بلنسية فارساً بحزام

أثناء القيام بهذه الإجراءات المهيبة في كنيسة ويستمنستر، كان الملك مرتدياً ثوباً مصنوعاً من أغلى أقمشة القطيفة، وكان منسوجاً بالذهب،

وكان مرتدياً تاجاً صغيراً، يعرف عادة باسم إكليل، وقد جلس على عرشه الملكي، حيث أمر بمثل أخيه لأمه أمامه، وقد حضر على الفور برفقة عدد كبير من معاونيه، الذين جاءوا معه لتسلم أسلحته ودروعه بأبهة عظيمة، وبشكل مهيب، ومنحه الملك وقتها مرتبة الفروسية، كما منحها لبعض رفاقه.

الملك يأمر بإيداع جميع هذه الإجراءات كتابة

عندما كان الملك جالساً على عرشه الملكي، شاهد كاتب هذا العمل، فدعاه إليه، وجعله يجلس على الدرجة الوسطى بين عرشه وقاعة البناء، وقال له: «لقد شاهدت جميع هذه الأشياء، فهل مارأيت قد انطبع بثبات في عقلك؟»، وعلى هذا أجبت: «نعم يامولاي، لأنهم جديرين بالحفظ، فإجراءات هذا اليوم هي بالفعل رائعة»، وقد أضاف قائلاً: «إنني أؤكد كحقيقة بأن الرب قدم عربوناً على لطفه الوافر، وعلى أعماله المستقبلية الجيدة، تفضل بلطفه فعمل معجزة هذا اليوم، فقد حدث هذا في الصباح الباكر، وأتمنى أنك سررت في هذه القضية، ولذلك ألتبس منك وأمرك أن تكتب رواية واضحة وكاملة حول جميع هذه الإجراءات، وأن تدخلهم بشكل لطيف السمات في كتاب، حتى يمكن تذكركم من قبل كثيرين، ولكي لاتضيع فائدتهم وليكونوا نافعين في كل عصر في المستقبل»، ثم دعا الملك الشخص الذي تحدث إليه إلى تناول طعام الافطار، مع ثلاثة من رفاقه، وأمر أيضاً في اليوم نفسه بضيافة جميع الرهبان الذين جاءوا إلى هناك بشكل غني في مطعم الدير، على حسابه، وذلك مع رهبان دير ويستمنستر، وبعض الآخرين.

تكريس سيلفستر أسقف كارايل

وجرى في هذا العام تكريس سيلفستر Sylvester الأسقف المنتخب لكارايل، كأسقف في يوم عيد القديسة أغاثا.

ووصل في يوم عيد القديس ادوارد ايرل أوف ليستر من القارة، إلى حيث كان قد ذهب للقيام بعمل سري من أعمال الملك.

إرسال سفراء من قبل الملك إلى برابانت

وفي هذه الآونة جرى إرسال راعي دير ويستمنستر، وجون مونسل Mauncell نائب أسقف ييفرلي، إلى القارة، حول العمل السري نفسه، الذي كان عائداً إلى الملك، وكان هناك سبباً للتخمين، أن الإرسال كان من أجل القضايا المرتبطة بحديث الزواج بين ابنه وولي عهده ادوارد، وابنة دوق برابانت، وهو حديث لم يتوصل بعد إلى الترتيب النهائي.

عودة الإيرل رتشارد من القارة

وفي يوم عيد القديسين: سمعان، وجود، عاد الإيرل رتشارد من القارة، مرافقاً بابنه هنري الذي كان قد أخذه إلى هناك معه، وقد قيل بأنه عقد مؤتمراً طويلاً وودي مع الملك الفرنسي، فقد عقد الأخير العزم بشكل أكيد على الانطلاق إلى حجه، في عيد الفصح المقبل، وقام بشكل عقلائي بصنع جميع الترتيبات بشأن كل من القضايا الروحية والدينية، وأعاد الحقوق إلى كل واحد توفر لديه إدعاء صحيح، وبناء عليه طلب الإيرل إعادة جميع حقوق ملك انكلترا، بما أنه جاهز ولديه الرغبة بفعل الذي ينبغي أن يفعله، وكان من الممكن أن يستجيب الملك الفرنسي بسهولة لهذه المطالب، لولا بعض العوائق التي ألقيت على الطريق، من قبل بعض الحاسدين والشهين من النبلاء الفرنسيين، الذين كانوا مستشاريه وكانوا مفطورين على التجبر، ولذلك جرى إخبار الرسل الانكليز بمواجهة، خاصة حول قضية نورماندي، بأن ملك فرنسا قد استمر بتملكها بشكل متواصل وسلام لمدة طويلة من الزمن، هي حوالي الأربعين عاماً، لم تتوفر خلالها مطالبة بإعادتها بشكل فعال

لصالح ملك انكلترا، كما لم يتوفر أي استدعاء حولها إلى البلاط الروماني، حيث يجري بالعادة اقرار القضايا الصعبة والشائكة، ولذلك وضح إلى الملك الفرنسي، أن الملك الانكليزي يتوجب تجريده من ادعائه، وعلى كل حال لم يكن الضمير الصافي للملك الفرنسي راضياً بهذه الأسباب، لذلك أحالها إلى أساقفة نورماندي، حتى يمكن التوصل إلى الحقيقة بوساطة البحث في هذه القضية المشكوك بها، وقد أعلنوا أن اعتقادهم المؤكد، هو أن الملك الفرنسي يمتلك الادعاء الأقوى بنورماندي، وليس ملك انكلترا، لاسيما وأن الأخير قد جرى خلعه من قبل نظرائه، وهذا — على كل حال — واضح التناقض ولايتوافق مع أية عدالة ومنطق، فكيف يمكن لملك انكلترا أن يحكم عليه ويدان من قبل أعدائه، خاصة وأن الرب يقول: «إذا لم يقلد الابن أباه، ينبغي أن لايعاني من أجل ذنوب أبيه»، وعندما وجد الايرل المذكور القضايا على هذه الصورة، ارتدى زي حاج، وذهب إلى بونتغناك ليصلي للقديس ادموند، وليكرم مزاره بأعطيات وهدايا، وليقدم له الشكر من أجل تحسين صحته الجسدية، ولدى وصوله إلى هناك، قدم بالاضافة إلى الهدايا التي عملها من قبل، وللذي وعد به، ونذر أنه سوف يفعله في وقت ما في المستقبل، أهدى ياقة جميلة جداً، عرضها أكثر من كف إنسان، ومرصعة بجواهر ثمينة، مثلها لايمكن العثور عليه في خزائن الملوك.

حول الأحوال البائسة التي ضغطت على الويلزيين

كانت ويلز في هذه الآونة في أحوال تعيسة جداً، بسبب توقف الأعمال الزراعية، والتجارة، وتربية المواشي، وبدأ السكان يتلاشون بسبب العوز، فقاموا — غير راغبين — بالانحناء لنير الشرائع الانكليزية، فقد بهت جبروت نبالتهم القديمة، وبلغت الأمور حداً أن قيشارة اللاهوتيين تحولت إلى حزن ونحيب، ومات أسقف ميناي

Menai, أو القديس داود، ذلك أنه تلاشى حزناً، وأصيب وليم أسقف للانداڤ Llandaff بالعمى، ونظراً لتعرض أسقفتي أسقفي القديس أساف Aasaf وبانغور Bangor للدمار بالنار والقتل، أرغما على التسول حتى يعيشا على ممتلكات الآخرين.

انتخاب توماس وهو ويلزي إلى أسقفية القديس داود

وهكذا بات كرسي ميناي شاغراً، وبعد عدد لا يحصى من الآلام عانى منها الويلزيون، وذلك بسبب الحرب وموت زعمائهم، جرى انتخاب المعلم توماس، الذي يلقب بالويلزي، والذي كان رئيس شمامسة كنيسة لنكولن، جرى انتخابه لذلك الكرسي، لأنه كان من أبناء ويلز، وقد وافق على هذا الانتخاب لسبب أول هو أن أسقف لنكولن امتلك السلطة العليا على رهبانه، وكان السبب الثاني هو أنه دعي لشفاء الأرواح في موطنه الأصلي، بحكم أن كل واحد منجذب إلى الذكريات الحلوة لمسقط رأسه، وأيضاً أنه بحضوره، ونصائحه، ومساعدته، يمكنه أن يواسي أبناء بلده التعساء، وقد قبل بهذا الانتخاب الأسقفي دون أن يثير كثيراً من المتاعب في القضية، لأنه رأى أنها أسقفية ضعيفة فقيرة.

آلام البارمين

خلال هذا الوقت كله حوصرت مدينة بارما من جميع الجهات، وكانت تعاني بشكل ممت من المجاعة والعوز بشكل مضاعف، لأن سكانها لم يكن بإمكانهم مغادرة المدينة من الجانب، حيث بنى المحاصرون مدينة كبيرة وذلك بدلاً من نصب معسكر، وهي المدينة التي أعطاها فردريك اسم فيتوريا [المنصورة]، كما لم يمكنهم الخروج بوساطة النهر، لأن فردريك قد حرسه بكل دقة، كما لم يمكنهم الحصول على أية مساعدة، أو مشورة تصلهم من البابا، الذي شجعهم على العصيان لأن الطرقات كانت محروسة بكل شدة، ولأن فردريك قد استعد لتمضية الشتاء هناك،

ولإطالة إقامته حتى ينتصر على أعدائه، فإن آمال المحاصرين قد ماتت، وقرروا في أحد الأيام، وقد أرغموا بالعوز، على القيام بهجوم مفاجيء على جيش الامبراطور، حتى لا يظن أنهم كسالى، وبناء عليه قام مائة وأربعون من أعلى المراتب من السكان بتسليح أنفسهم، وحملوا بشكل مفاجيء، ولكنهم جعلوا هجومهم من دون حذر، ولذا تم استقبالهم بحد السيف من قبل الجيش، الذي كان محذراً من الهجوم من قبل، ولدى سعيهم إلى العودة إلى مدينتهم، تم قطع طريق تراجعهم من قبل الأعداء، ووقع بعضهم بالأسر، وجرى قتل البقية، وإثر ذلك تقرر بشكل اجماعي في بلاط فردريك — بناء على رغبة القاضي ثاديوس ونصيحته — أنه في المستقبل ينبغي عدم ابقاء أي أسير بالسجن من أجل فديته، بل ينبغي على الفور اعدامه، واشتعل غضب فردريك الآن أكثر، وبحدة أعظم، لأنه جرى انتخاب ملك جديد في ألمانيا، ورأى سكان المدينة المرهقين — بناء عليه — أنفسهم، قد تم التخلي عنهم من كل جانب، وأحبطت آمالهم كلياً، بعدم وصول النجدة التي وعدهم بها البابا، فأرسلوا سفارة إلى الامبراطور، يطلبون القبول بمنحهم السلام، ويسألون الرحمة وليس الحكم القضائي، وكان فردريك — على كل حال — قد اشتعل غضباً، وامتلاً عجرفة، فأغلق أوعية الرحمة ضد التماساتهم، ورفض منح إذن اللطف والاحسان إلى هؤلاء القوم التعساء، وبذلك أثار عدم رضا الرب، ذلك أنه تصرف بناء على نصيحة سرية وقاسية، فأرسل إليهم رسالة متعجرفة، بأن عليهم استخدام قمحهم باقتصاد وعقلانية، لأنهم سوف لن يحصلوا على أي مزيد ليأكلوه مادام هو — فردريك — حياً، ومن المعتقد أن هذه الرسالة القاسية قد صدرت عن ثاديوس.

الاستعدادات للمبارزة التي جرى منعها من قبل الملك

في حوالي عيد القديس مارتين من هذا العام، قام ر. R. ايرل أوف غلوستر، اعتماداً منه على الموافقة التي كان قد حصل عليها من

الملك، وعلى ما أعلنه في اليوم الذي جعل فيه من أخيه وليم فارساً، أي السماح الكامل والحر في عقد مبارزة عامة، تحدى فيها وليم المذكور، في أن يقابله في الحلبات في نورثامبتون، في الأسبوع الذي يأتي قبل الميلاد، من أجل أن يتمكن وليم المذكور وأتباعه الجدد من الحصول على الخبرة في الفروسية، لأن البواتيين، الذين استمدوا شجاعتهم من صلاتهم الوشيعة بالملك، واعتمدوا بالتالي على حمايته، بدأوا يضعون أنفسهم على قدم المساواة مع الانكليز، لابل قاموا حتى بالاستخفاف ببعضهم، وعلى كل حال بما أن مخاوف قد انتشرت المشاعر بها، من أن يقوم هؤلاء الرجال المتفاحرون المتجبرون مع بعض الآخرين من القارة باثارة صراع وقتال، وأنه بعد قصف الرماح، يمكن أن تشاهد بارقة السيوف الدموية، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة المستشارين العقلاء، بتحريم المبارزة، مع الإعلان بأن وراث الخارقين لهذا المنع، يمكن أن يجردوا من التمتع بموارث آبائهم، ولذلك عندما قدموا إلى المكان المحدد من أجل المبارزة، وجدوا أنفسهم أنهم قد خدعوا بتوقعاتهم، وأنهم أنفقوا الكثير من الأموال من دون محصلة، ولذا انصرفوا وهم غاضبين، وقد ازدروا ضعف الملك وتقلبه بكلامه، ثم إن هذا التحريم لم يكن ضرورياً، لأن تجبر وعجرفة هؤلاء الأجانب قد أثارت الكراهية الانكليزية، وسببت تأكيدها.

زواج توماس أوف سافوي من ابنة فردريك

وفي هذه الآونة، أعطى فردريك ابنته بالزواج إلى توماس أوف سافوي، أخو رئيس أساقفة كانتبري، وقد أعطاه أيضاً فيرسيلي Ver-cellì وتورين Turin مع المناطق المجاورة، وعهد إليه بالحواجز التي أعدت لمنع البابا وأعوانه، الذين يمكن أن يمروا في هذه المقاطعات.

كيف أغنى الملك إخوته جميعاً

عندما قام غي دي لوزنغان، أخو الملك، بمغادرة انكلترا، ملأ الملك حقائب خيوله بكميات ثقيلة من المال، إلى حد أنه كان مرغماً على زيادة عدد خيوله، وأعطى إلى أخيه الآخر، وليم دي بلنسية، قلعة هارتفورد مع المناصب الشرفية المتعلقة بها، ومبلغاً كبيراً من المال، ولذلك بدا الملك نفسه أنه بات بحاجة، ولأن يقوم بسلب طعامه أو استجدائه، ولذلك فإن الذين أحبوا الملك عن صدق، ومن دون تظاهر، كانوا خائفين كثيراً، خشية أن تكون صدقاته من دون تأثير، لأن الفقير كدس اللعنات على رأسه، وخشية من أن تكون صلواته في الكنيسة سوف تحسب — لاسمح الرب — بمثابة ذنوب، وبالنسبة إلى ايثيلمار، الذي كان الأخ الثالث له، فقد زوده بموارد ثرية ووافرة مما امتلكه، وبوساطة التماسات ملكية مهيبة، استخرج له من كل أسقف وراعي دير، واحداً بعد الآخر، حتى أنه بدا الآن قد تفوق على الرومان في الجشع، وبذلك جعل من ايثيلمار المذكور متفوقاً على الأساقفة بثروته.

تتويج هاكو ملك النروج

في هذا العام، وفي التاسع والعشرين من تموز، الذي هو عيد أولافوس Olavus الشهيد، وأعظم الملوك قداسة، وأعلى القديسين تميزاً بين مناطق النروج وجزرها، في هذا اليوم جرى تتويج ومسح هاكو بشكل مهيب في بيرجن Bergen، من قبل أسقف سابينا، الذي كان آنذاك نائب الكرسي الرسولي في تلك المناطق، ومن أجل هذا التكريم واللطف دفع هذا الملك خمسة عشر ألف مارك من النقود الاستيرلينية، أما بالنسبة إلى النائب البابوي، فإنه بالاضافة إلى حصوله على كثير من الهدايا الثمينة، استخرج خمسمائة مارك من كنائس تلك المملكة، وحمل الملك المذكور الصليب، وحصل على تفويض من البابا بأخذ ثلث الموارد من اللاهوتيين في مملكته، لتأمين حاجاته

الضرورة من أجل حجه، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة — بواسطة تقرير — إلى علم الملك الفرنسي، كتب رسالة بصيغة ودودة إلى الملك هاكو، رجاه فيها بعطف، وتمنى عليه من أجل تقدم مصالح الكنيسة، وتشريفاً للصليب المقدس، الرمز الذي حمّله، أن يسير من دون تأخر إلى الأرض المقدسة، وأن يكون ذلك برفقته — أي الملك الفرنسي — وذلك من أجل أن يسند إليه تدير وإمرة الاسطول الفرنسي كله، بحكم أنه أمير بارع في المسائل الروحية، وأيضاً أنه بذلك سوف يكون الجيش الفرنسي من ذلك الحين ميالاً إلى حد كبير لتقديم الطاعة لإرادته، وعندما وصل المكتوب الحاوي لهذه الرسالة إلى ملك النروج، والذي كان كاتب هذا الكتاب هو الحامل له، قام الملك النروجي بعد قراءة المحتويات، بالرد على الشخص الذي سلمه إياه، لأن روحه وثقت به، وتفوه بهذه الكلمات: «أرسل شكري الوافر إلى الملك التقي، ملك فرنسا لرغبته في أن أكون برفقته في هذا الحج، لكنني مدرك إلى حد كبير طبيعة الفرنسيين، كما قال الشاعر:

كل واحد في السلطة يغار من تابعه

لكنني قلت:

كل متكبر يغار من تابعه

ثم استطرد يقول: قومي متهورين، وطائشين، لا يعرفون الصبر تحت أي نوع من الأذى، وكذلك لا يصبرون على الضوابط، ولذلك إذا ما نشب أي صراع بين مثل هؤلاء الناس وبين شعبه، فإننا معاً سوف نجني ضرراً لا يمكن رتقه، لذلك دع كل واحد منا يذهب لوحده، وليعمل ما قسمه الرب له، وإنني على كل حال قد كتبتُ إلى الملك المذكور، أرجوه بموجب لطفه أن يمنحني امتيازاً، برسائله المعتمدة، هو أن يسمح لي أثناء ابجاري على طول شاطئ مملكته، أثناء حجتي، أنه إذا مامرضت أنا أو أي واحد

من قومي، أو إذا ما كنتُ أنا بحاجة إلى امدادات أو أية أشياء ضرورية أخرى، أن أرسو بسلام في أراضيه، لتزويد نفسي بالذي أنا بحاجة إليه»، وبناء عليه، فإن الشخص الذي كان عاقداً للمقابلة معه، أي كاتب هذا العمل الحالي، أعطاه الرسائل المعتمدة التالية:

رسالة الملك الفرنسي إلى ملك النروج

«من لويس الذي هو بنعمة الرب ملك فرنسا، إلى جميع أصدقائه، ورعاياه المخلصين، والنواب الملكيين، والعمد، والقساوسة، وإلى كل من تصل إليه هذه الرسائل الحالية، تحيات:

بما أن صديقنا المشهور هاكو، ملك النروج اقترح — حسبما بعث إلينا يلتمس منا برسالة — أن يبحر إلى مساعدة الأرض المقدسة، نأمركم، أنه إذا ما حدث وقام الملك المذكور أو أسطوله، بأخذ طريقهم فوق البحر على مقربة من سواحل أراضينا، أو حدث ووصل إلى أي مكان من ممتلكاتنا، عليكم استقباله واستقبال قومه بلطف وتشريف، والسماح لهم بشراء الامدادات في أراضينا، وتزويد أنفسهم بالضروريات بموجب ابتياع مشروع.

صنع في سينت جيرمين Germaines في سنة ربنا ألف ومائتين وثمان وأربعين».

وعندما قرأ ملك النروج، الذي كان لبيباً، ومعتدلاً، ورجلاً متعلماً، هذه الرسالة، كان مسروراً جداً، فكرر الشكر لحاملها، وذلك بالإضافة إلى مكافأته بجوائز ملكية وغنية.

الخطر الذي تعرض إليه إيرل وينكستر

وفي هذه الآونة، عندما كان روجر، إيرل وينكستر مترئساً في أراضيه في غالوي Galway التي عادت ملكيتها إليه بموجب حق زوجته

ابنة آلان Alan صاحب غالوي، وأثناء ممارسته طغياناً أكثر من المعتاد ضد نبلاء تلك البلاد، وقع فجأة تحت الحصار في إحدى قلاع، عندما لم يكن مستعداً لذلك، ومن دون امدادات، أو وسائل للدفاع، وعندما رأى آنذاك أنه كان معرضاً لموت مهين، أثر أن يقتل في المعركة على أن يتلاشى من الجوع، فامتطى فرساً ثميناً، مسلحاً تمام التسليح، وفتح فجأة أبواب القلعة، واندفع مع عدد قليل من الأتباع الجريئين، وتابع انقضاضه على وسط الأعداء، حيث فتح طريقه بالسيف، وسقط عدد من حول يديه، ونجح أخيراً في شق طريقه، وفرق الأعداء، وبصعوبة نجا بحياته، وقد تابع سيره دون أن يرخي عنانه، حتى وصل إلى ملك سكوتلندا، الذي إليه قدم الشكاوي، وبناء عليه قام الأخير بمعاقة العصاة، وبسلام أعاد الايرل إلى ممتلكاته.

كيف لم يسمح لوليم الملك المنتخب بالدخول إلى اكس لي شابيل وجرى في هذه الآونة منع ولیم كونت هولاندا، الذي انتخب مؤخراً ملكاً لألمانيا من الدخول إلى مدينة اكس لي شابيل (آخن)، حيث كان سيجري تنويجه، وحيث كان متوقعاً أن يستقبل، ويشرف بالتاج الملكي، وفقاً لعادات الألمان، لأن كونراد ابن فردريك، ملك ألمانيا المخلوع، قد عارضه بفعالية، وكان — على كل حال — قد تلقى رسالة ودودة، أرسلت إليه من قبل أوكتافيان، النائب البابوي هناك، ومن رئيس أساقفة كولون، ومن بعض آخر من نبلاء ألمانيا، نصحوه فيها بأن لايسير مقلداً لأبيه، وأن لايتبع طريق رجل محروم كنسياً ومخلوع، حتى لايتورط بعقوبة مماثلة، وردّ كونراد على هذه الرسالة قائلاً: «إنني سوف لن أتخلّى عن أبي من أجلكم، ذلك أنكم خونة»، ولذلك وضعت المدينة تحت الحصار، وبدأت معركة هي الأكثر دموية بين مؤيدي الحزبين، وقد ازدادت — على كل حال — قوة الكنيسة بفضل جهود الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، والمال الذي جمع، وأرسل من قبل البابا،

ومن المناطق الألمانية، والمناطق المجاورة لها، وتناقصت قوة جيش كونراد يومياً، لأن الملك المنتخب المتقدم ذكره كان متحالفاً بصفة النسب والقربة مع كثير من أعلى النبلاء مرتبة في ألمانيا، فقد كان هو وأسقف ليبج أبناء عم (خال) وكان دوق بربانت خاله (عمه)، وكان نبلاء آخرون مرتبطون به بروابط متنوعة، وكذلك بوساطة الهدايا.

حول طاعون انتشر في هذه الآونة

في أيام برج الكلب، وعندما كانت الشمس مائلة في دائرة البروج، خاصة في شهر أيلول، بدأ طاعون واستعر مع موتان بين الناس، واستمر ذلك لمدة ثلاثة أشهر، وكان شديداً إلى حد أن تسعة جثث أو عشرة دفنت في يوم واحد في مقبرة كنيسة واحدة، هي كنيسة القديس بطرس في بلدة القديس ألبان.

موت إيرل فيرار مع بعض النبلاء الآخرين

مات في هذا العام بعض النبلاء في انكلترا، وكان من بينهم وليم إيرل فيرار Ferrers، وكان رجلاً مسالماً وصالحاً، وقد مات عن عمر متقدم، وكان ذلك في حوالي عيد القديسة كاترين، بعدما عانى طويلاً من آلام الأمعاء، وجرى زواجه من زوجته الكونتيسة، بشكل مهيب على يدي القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري، وماتت في الشهر نفسه زوجته م. M كونتيسة فيرار، بالعمر نفسه وبشهرة مساوية وصالح، وبناء عليه خلف الايرل المذكور في ايرليته من قبل ابنه وليم، الذي كان أسن أولاده ووريثه، وكان رجلاً صالحاً وليبياً، لكنه كان مصاباً بشكل تعيس بالمرض نفسه الذي عانى منه والده، ومات أيضاً أسقف كنيسة القديس داود، وكان رجلاً مقدساً وتقياً، وكان من قبل راهباً في طائفة الفرنسيسكان، وكان كريماً جداً، لابل الأكثر كرماً بين جميع نبلاء ويلز، حيث ولد، كما كان شخصاً جميلاً، وقد هلك

بعدما أنهك بوساطة الاضطراب، والحزن لدى مشاهدته نهب موطنه الأصلي ودماره، وبالإضافة إلى هؤلاء مات نبلاء آخرون، كان من بينهم الفارسان: رتشارد دي بورغ، ووليم فتز — هام.

وصف مختصر للعام كله

هذا العام مع أنه كان وافراً جداً بالحبوب، كان جدياً بالفواكه، وكان عاماً أنتج الأذى لانكلترا، والطغيان لويلز، والعدوان للأرض المقدسة، والاضطراب والفوضى للكنيسة، وكان مصدراً للدماء في إيطاليا، والحروب والعدوان إلى الامبراطورية وإلى البلاط الروماني، وبشكل خاص لمملكة ألمانيا، والشعور بالكراهية في القلوب لدى الأساقفة ولدى عدد كبير آخر، ضد البابا، بسبب أنه أفقر بالقوة حماهم، وعلقهم مانعاً إياهم من جباية منافعهم، وهي واقعة لم يسمع بمثلها من قبل، وضد الملك لأنه تساهل تجاه مثل هذه الإجراءات.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٤٨، هو العام الثاني والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، وكان الملك المذكور في وينكستر في أيام عيد الميلاد، وفي ذلك المكان تولى الاحتفالات لذلك الموسم، برفقة عدد كبير جداً من النبلاء، وتناول في اليوم التالي لعيد الميلاد، طعام الافطار مع وليم أسقف تلك المدينة.

كيف حمل إيرل ليستر مع كثير من النبلاء الآخرين الصليب

وحمل في هذه الآونة نفسها إيرل ليستر شارة الصليب المقدس، في سبيل أن يتحرر من ذنوبه، وينال الدخول إلى الجنة، فنتيجة التفكير بنفسه، كان خائفاً جداً، حول مايتعلق بالزواج الذي عقده مع زوجته، التي كانت من قبل، قد نذرت نفسها، بحضور القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، للرهبنة، قامت الكونتيسة التي وقعت، أيضاً تحت

التأثير نفسه، فاعتقدت بالروح نفسها وآمنت، لذلك ما أن رأت زوجها يحمل شارة الصليب، حتى طارت بكل سرعة لحملها أيضاً، وتسلم كثير من الفرسان مع آخرين أيضاً من حواشيهم الشارة المقدسة نفسها، للحصول على مكافأة الخلاص الأبدي، وبالإضافة إلى هؤلاء فعل عدد من النبلاء الشيء نفسه، واقترحوا بأن ينطلقوا برحلتهم مع أعظم المسيحيين، الملك الفرنسي، الذي تنازل الرب من أجله بشكل اعجازي، وأعادته من أبواب الموت، أو بالحري من الموت نفسه، الأمر الذي عمل ليس من دون قصد، لأنه قد قيل من خلال الكهانة، لابل بالحري من خلال روح التنبؤ، وتأكد ذلك في كل مكان بمثابة حقيقة، بأن الرب قد أعاد الملك المذكور إلى الحياة، حتى يتمكن بالقوة من انتزاع ميراثه من أيدي أعداء الصليب.

فرار أسقف بانغور إلى راعي دير القديس ألبان

وفي حوالي الوقت نفسه، وصل رتشارد أسقف بانغور Bangor، إلى راعي دير القديس ألبان، يرجو ذلك الراعي أن يفتح صدر الرحمة إليه في فقره، وأن يتمكن من الإقامة معه حتى تتمكن أسقفيته، التي تدمرت في الحرب من استرداد عافيتها قليلاً، ومن أجل أن يتمكن هو وكهنته من استرداد أنفاسهم، بعد الاضطرابات والمظالم التي أحاطت بهم، وذلك وفق الطريقة نفسها مثلما فعل أسقف هيرفورد، الذي مكث هناك، وأنفق عليه بكرامة لحوالي العشرين عاماً.

مرض رتشارد سيوارد الخطير

وفي تلك الآونة نفسها أصيب رتشارد سيوارد Seward، الذي كان فارساً متميزاً، والذي تقدم ذكره كثيراً من قبل في هذا الكتاب، بشلل غير قابل للشفاء، وحمل إلى فراشه في حالة ميؤوس منها، وكان يأمل أن يتمكن أثناء مرضه الطويل، من التحرر من ذنوبه

الماضية، ومن ثم أن يطير إلى الحياة السرمدية.

وصول بيترايس كونتيسة بروفانس إلى إنكلترا

ووصلت في هذا العام أيضاً بيترايس، أرملة ريموند كونت بروفانس المتوفى، إلى إنكلترا، مرافقة بتوماس أوف سافوي، الذي كان كونت فلاندرز من قبل، وتظاهرت أنها أرادت زيارة أصدقائها وأقربائها، أما السبب الحقيقي لقدمهما، فمن الممكن تبياناه إلى الذين يرغبون في معرفته، فهي قدمت مع توماس، لأنها كانا متعطشين، ويريدان اللجوء إلى النبع نفسه، على أمل الارتواء من ثروات الملك الوافرة، وأن يملأ من سخائه حقائب خيولهما الفارغة والفارغة، أثناء مغادرتها.

وفاة روبرت أسقف باث

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في حوالي عيد القديسة هيلاري، غادر روبرت أسقف باث طريق الجسد، وبناء عليه، وضع الملك — كما جرت العادة — يديه الجشعتين على ممتلكات تلك الأسقفية، حتى ينهب منها كل ما يستطيع جرفه وجمعه.

قيام الملك الفرنسي بإعادة حمل الصليب

وتعرض الملك الفرنسي في هذه الآونة إلى ملامة حادة ونقد شديد من نبلائه، فهو كما معروف بشكل جيد قد حمل الصليب، وجاء توجيه النقد إليه، لأنه — بناء على نصائحهم — لم يحرر نفسه وينقذها من نذره بأية طريقة من الطرق، وكان بين الذين لاموه أمه السيدة بلانشي، وأسقف باريس الذي كان مدركاً لسذاجته، لذلك أصبح أكثر إلحاحاً، وقد ثابراً معاً على مناقشته، حيث قال الأسقف له: «تذكر أنك عندما حملت الصليب، عملت نذرك فجأة ومن دون مشورة، فلقد كنت مريضاً، وإذا أردت الحقيقة، كنت محروماً من مداركك، فقد انتقل دمك إلى عقلك، ولم تكن بذني عقل سليم، ولذلك فإن الكلمات التي تفوهت

بها، كانت فارغة من وزن الحقيقة والتأثير، وقد استه سوف يمنحنا بلطفه تجليلاً، عندما سيعرف أوضاع المملكة الضرورية، والوضع الضعيف صحيحاً لجسدك، ونحن في الجانب الأول نخشى من قوى فردريك المنشق، ومن الجانب الثاني دهاء ومكر ملك انكلترا الغني، ونخشى هنا من خداع الخونة البواتيين، علماً بأنهم قد قهروا مؤخرأ فقط، وهناك اعتراضات الألبينيين، التي هي مسألة ذات ريبة، وألمانيا في حالة اضطراب، وإيطاليا غير مستقرة، وسبل الوصول إلى الأرض المقدسة صعبة، ومن الصعب إيجاد مكان لاستقبالك فيه، وأنت أيضاً تترك وراءك الكراهية الشديدة، والعداء المميت بين البابا والامبراطور فردريك، فإلى من تتركنا معزولين؟ وضغطت عليه أمه أيضاً بفعالية أكبر، وتعاملت معه بعاطفتها، فقالت له: «ولدي العزيز، استمع، وأصغ إلى نصائح أصدقائك العقلاء، ولا تكافح ضد حكمتك، وتذكر فضيلة اطاعة أمك والاستجابة لرغباتها وكم هذا يرضي الرب، امكث في مملكتك، فالأرض المقدسة سوف لن تعاني ولن تتدهور من عدم ذهابك، ومن الممكن إرسال جيش كبير، يكون أكبر مما لو ذهبت إلى هناك شخصياً، فالرب ليس مفترى، أو مثير للاعتراضات التافهة، فأنت ولدي، وأنت معذور لفقدانك لعقلك، وعانيت من بلادة جميع مشاعرك أثناء مرضك، لابل أثناء ذلك حتى الموت أو ضلال العقل»، وانزعج الملك من هذه الحجج كثيراً، وأجابها قائلاً: «لقد احتججتما بأن فقلداني لمداركي كان السبب في حملي الصليب، وبناء عليه، وأخذاً بنصيحتكما وتماشياً مع رغبتكما، سوف ألقى الصليب جانباً، وأتخلى عنه لكما»، ثم رفع يده نحو كتفه، ونزع الصليب من عليه قائلاً: «مولاي الأسقف، هاكم الصليب الذي حملته، إنني عن طواعة أتخلى عنه لك»، ولدى فعله ذلك استولى سرور لا يمكن وصفه على جميع الذين كانوا جالسين هناك، إنما فجأة قال الملك وقد تغيرت ملامحه ولهجته: «أصدقائي. إنني الآن لست مفرغاً من العقل أو الادراك، وأنا لست

ضعيفاً وبلا قوى، وبناء عليه إنني أطلب الآن صليبي حتى يعاد إليّ، لأن الذي ليس بجاهل بأي شيء، يعرف أن ما من شيء يؤكل يمكن أن يدخل إلى فمي، حتى أقوم ثانية بحمل شارة الصليب»، وأعلن الذين كانوا جالسين هناك، لدى رؤيتهم هذا، أن اصبع الرب كانت في هذه الاجراءات، وأن القدرة اللاهوتية، قد تولت صنع هذا من السماء، ولذلك ما من واحد تجرأ على إثارة المزيد من النقاش حول القضايا التي تقدم ذكرها، ولقد قمنا بتدوين كل شيء، وذكرنا جميع الأشياء، حتى يكون كل واحد مدركاً لمثابرة أعظم المسيحيين، أي الملك الفرنسي في استمراره في خدمة المسيح.

حول البارلمان العام الذي عقد في لندن

في حوالي بداية العام، وفي ثمانية عيد الطهارة، جرت دعوة جميع نبلاء انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث مع الملك، حول شؤون المملكة، التي كانت الآن مضطربة كثيراً، وفقيرة، ومتضررة، وتماشياً مع هذه الدعوة، قدم إلى هناك تسعة أساقفة، وتسعة إيرلات، بالإضافة إلى عدد كبير من البارونات والفرسان، ونبلاء آخرين، وكذلك رعاة ديرة، ورؤساء رهبان، وكهنة، وكان من بينهم رئيس أساقفة يورك، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، ونورويك، وووركستر، وشيستر، وإيلاي، وروكستر، وكارآيل، والايمل رتشارد، وايرلات: غلوستر، وليستر، وووينكستر، وهيرفورد، وروجريغود، والايمل مارشال، وايرل اكسفورد، وبالإضافة إليهم: ايرل لنكولن، وايرل فيرار، وايرل وارني، وب. P أوف سافوي، وايرل رتشموند، أما الأساقفة الذين لم يكونوا حاضرين في هذا الاجتماع الكبير فهم: بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان يقاتل لصالح البابا في القارة، وأسقف درم الذي كان مريضاً في مكان بعيد، وأسقف باث، الذي مات مؤخراً.

نم شرح لهم الملك مقصده، الذي لم يكن في الحقيقة سراً بالنسبة

للجماعة بشكل عام، فقد طلب مساعدة مالية منهم، وبناء عليه نقد بشكل حاد، ووجهت الملامة إليه، فهو لم ينجل من طلب مثل تلك المساعدة في ذلك الوقت، خاصة وأنه أثناء الاستخراج الأخير لمثل هذا النوع، والذي وافق عليه نبلاء انكلترا بصعوبة كبيرة، وقتها أعطى صكه، بأنه لن يقوم ثانية بمثل هذا الاستخراج، كما وجه اللوم إليه بحدة بالغة (ولاعجب) للطريقة غير الحكيمة، التي دعا بها الأجانب إلى المملكة، ولتوزيعه ببذخ وبشكل غير معقول ممتلكات المملكة بينهم، وأيضاً لتزويجه نبلاء المملكة من أجنبيات وضيعات، وبذلك ازدرى أبناء بلده، ورعاياه الطبيعيين، وأقصاهم، وعمل الزواج من دون طلب موافقة الطرفين، الذي هو ضروري لإكمال الزواج، وقد ليم أيضاً — لكن ليس من دون سبب — لأنه استولى بالقوة على كل شيء استخدمه، مثل اللحوم والشراب، ولاسيما الخمرة، لابل حتى على الملابس، ضد إرادة الذين يتولون بيع هذه الأشياء، وكانوا الملاكين الحقيقيين لها، ولذلك انسحب الباعة، وأخفوا أنفسهم، ومثلهم فعل الأجانب، الذين لم يعودوا يجلبون بضائعهم للبيع في تلك البلاد، وهكذا جرى إيقاف التجارة، التي منها حصلت شعوب بشكل متبادل على الثروة والقوة، وبذلك ساءت سمعتنا، ولحقنا الفقر، لأن الباعة والتجار حصلوا على لاشيء من الملك سوى قضايا قانونية وغضب، وبفعله هذا حصل الملك على لعنات رهيبية، من أعداد لا تحصى من الناس، مما ألحق الخطر به والعار، وبكل المملكة، وعلاوة على ذلك، وفي سبيل أن يقوم بإعطاء الصدقات بشكل غير مستقيم، ولكي يحصل على شهرة واسعة، استولى بالقوة على الشمع، والحرير، والأقمشة، وعلى أشياء أخرى، من دون تقديم أية شروط للترضية، وبذلك جلب الفضيحة لنفسه، ولمملكته، وإلى جميع سكانها، ولم يكن ذلك من دون اغصاب للرب بشكل جدي، الذي يعدّ السلب مقروناً مع المقت، عندما يربط بأعطية، وفي ممارسته لهذه الإجراءات اعتمد على الطغيان والظلم إلى درجة بلغ

فيها أنه لم يسمح على شاطئ البحر، بتوزيع سمك الرنكة والأنواع الأخرى من السمك، بناء على رغبة صيادي السمك الفقراء، كما أنهم لم يتجروا على الظهور في أماكن مجاورة لشاطئ البحر، أو في المدن، خشية من أن يتعرضوا للسلب، وعلى هذا عدوا أنه أسلم لهم أن يعهدوا بأنفسهم إلى الأمواج العاتية، وأن يذهبوا إلى الشواطئ النائية، وتعرض التجار التعساء إلى الظلم الوحشي، واسيئت معاملتهم من قبل وكلاء الملك، وبهذا أضيفت العقوبات إلى الخسارة، وتكدست الأضرار فوق الأضرار، فيما يتعلق بكل من أشخاصهم، وكذلك بالنسبة لبضائعهم المحمولة، وانهاك خيولهم، وعلاوة على ذلك استحق الملك الشجب، لأنه تصرف على عكس يمينه الأول والرئيسي الذي أداه عند تنويعه، فقام بافقار الأسقفيات ورعايات الديرة إلى حد الدمار، وعمل الشيء نفسه بالنسبة للأوقاف الشاغرة، التي كانت قد تأسست من قبل النبلاء والآباء المقدسين، حيث احتفظ بها لوقت طويل بين يديه، مع أنه كان من المتوقع عليه أن يكون الحامي لها والمدافع عنها، ولهذا قد قيل إنهم بحكم كونهم بين يديه، هم تحت حمايته، وعملت شكوى أخرى ضده، من قبل كل واحد، ولم تكن شكوى خفيفة، وكانت هذه الشكوى، هو أنه كان على عكس أسلافه النبلاء، هو لم يعين لرجال عدالة، ولا مستشارين، ولا خزنة، لتسير المملكة بالتوافق العام مع نصائحهم، كما ينبغي وحسبها هو موائم، وعيّن فقط أناساً مطيعين لرغباته في كل شيء، شريطة أن يكون ذلك مفيداً له شخصياً، وأن لا يستهدفوا فائدة المصلحة العامة، بل منفعتهم الخاصة بجمع المال، والحصول على الإدارات، والموارد لأنفسهم.

الملك يسعى لتهدئة جماعة إنكلترا بالوعود

وعندما سمع الملك جميع هذه الشكايات اضطرب واستحى بنفسه، لأنه عرف بأن جميع هذه التهم كانت صحيحة، ولذلك وعد باخلاص

شديد، بأنه راغب باصلاح هذه المسائل، وكان يأمل أنه بهذا التواضع —مع أنه ظاهري— سوف يكون أسهل عليه إلانة قلوب الجميع ليوافقوا على طلبه، وعلى هذا، حدث على كل حال، أن الجماعة التي غالباً ما وقعت بمصيدة مثل هذه الوعود، أجابت قائلة: «إن هذا سوف يظهر بشكل واضح بما فيه الكفاية، وخلال وقت قصير، ونحن سوف نتنظر بصبر، وحسبما سيتصرف الملك، ويوجه نفسه نحونا، وعلى هذا نحن سوف نطيعه في جميع المسائل»، وهكذا وضع كل شيء جانباً، وسوف يعاد النظر به وبتقديره، وسوف يمتد الانتظار حتى أربعة عشر يوماً من ميلاد القديس يوحنا المعمدان، وأصبح الملك في الوقت نفسه، إما بمبادرة منه شخصياً، أو بناء على تحريض من رجال بلاطه، الذين لم يرغبوا باضعاف سلطاتهم، أصبح أكثر فظاظاً، وأشد سخطاً ضد رعاياه، واهتم قليلاً بعمل أي تعويض أو اصلاح لهم، مقابل التجاوزات التي تقدم ذكرها أعلاه، وذلك حسبما وعد أن يفعل.

كيف ظلم أسقف درم كنيسة التاينماوث

قام في هذه الآونة، نيقولا، أسقف درم، بطريقة غير مؤاتمة، وبسلوك غير صحيح، لايتماشى مع كرامته، ومع الأخوة التي تأسست بينه، وبين بيت دير القديس ألبان، بعد ترتيبات السلام بينهما، حول مسألة الزيارة التفقدية لكنيسة التاينماوث، قام بالشروع بمضايقة تلك الكنيسة في القضايا الدنيوية، إلى أقصى ما امتلكه من طاقة، مما سبب الأذى، ودفع النفقات من قبل الفئتين، وليضيق امتيازاتها، الممنوحة لها، بموجب صكوك الملوك النبلاء، والتي تمتعت بها لسنوات طوال، ولذلك جرى ارسال واحد من رهبان كنيسة القديس ألبان، ليلتمس منه الاقلاع عن مثل هذه المنغصات، لكنه استخف بكل من الانذار والالتماسات التي تقدم بها الراهب المذكور، وأبدى الشيء نفسه نحو الرسالة التي جلبت إليه من راعي دير القديس ألبان ومن التجمع الديرى، وأعلن أنه

يملك سبباً صحيحاً في مناقشة مثل هذه القضية، التي كانت — على كل حال — مزيفة بشكل واضح، مع أنه أعلن أنها تقرر من قبل اثني عشر فارساً، جرى اختيارهم بالاجماع وبموافقة كلا الفريقين، وبما أن هذا يمكن مشاهدته بكل وضوح من قبل كل واحد يمكنه أن يتفحص بدقة امتيازات كنيسة القديس ألبان، وهي امتيازات أنقصها إلى حد كبير في المسائل الروحية، والتي يقوم الآن بانقاصها وخرقها في المسائل الدنيوية، ولذلك نحن نعتقد أنه من المفيد تقديم عرض مختصر عنهم في هذا الكتاب.

حرية وامتيازات كنيسة القديس ألبان

«سوف تكون كنيسة القديس ألبان، وديرها، وكل شيء عائد إليهم، معفية من دفع جميع الضرائب إلى: الملك، والأسقف، والايمل، والدوق، والقاضي، أو الوكيل، ومن جميع الخدمات التي تفرض بالعادة، وتقضي ارادتنا، بأن لا يكونوا ملزمين بتقديم الإجابة حول أية قضية، إلى أي واحد، باستثناء الحبر الروماني.

بند: نحن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف من الإقدام على عمل أي استخراج أو فرض أتاوة، أو أي ادعاء، أو ممارسة أية أعمال أسقفية في ديركم.

بند: إن الأماكن التي ليس لكم فيها حقوق حبرية، سواء أكانوا بيعاً أو مقابر، وسيكونون معفيين من جميع الاستخراجات، وفي مثل هذا الكنائس أو البيع، لك ولرهبانك الحق في اختيار كهنة، على شرط أنهم سوف يتسلمون مهمة معالجة النفوس من الأساقفة أنفسهم، أو من نوابهم، من دون أي شراء، وبعد أن تقوم بتعيين مايكفي لهؤلاء الكهنة، بتجهيز أنفسهم بالضروريات من الطعام واللباس بشكل لائق، إنك سوف تملك الحرية في تحويل المتبقي لاستخداماتك الخاصة.

وكنا قد بعثنا إليكم، بوساطة رسائلنا الرسولية، وأمر إليكم، وإلى الأساقفة الآخرين، لتقديم المساعدة من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وقد تأثرت أنت — كما سمعنا — بما ذكرناكم به، فأوقفت جزئاً من عشرة من موارد كنيستكم وديرتكم، ومن موارد الخاضعين إليكم، من أجل ذلك الهدف التقوي، وبناء عليه نحن نقدر احسانكم بالرب، ونطريه ونثني عليه، وننظر إلى مقاصدكم الرفيعة نظرة رضا وموافقة، وبموجب سلطات هذه العروض، واعتماداً على هذا العمل الضروري والتقوي، نحن نمنع — تحت طائلة عقوبة التكفير — أي شخص لاهوتي أو مدني من الآن فصاعداً، من القيام بارغامكم أو ارغام كنيستكم، أن يتعرض إليكم بمثل هذا، أو بقضية مماثلة، أو مضايقتكم أو مضايقة كنيستكم أو ديرتكم، في أية طريقة مهما كانت، خشية (لاسمح الرب) أن تجربوا في يوم أو آخر، على الرغم من أنفسكم، أن تكررروا عملاً كنتم قد عملتموه خروجاً عن الحرية المخلصة، أو «الخير الخالص». (وعلى كل حال أرغم الأسقف المذكور كنيسة التاينهاوث على الاسهام في بناء كنيسة درم، وفق الطريقة نفسها، كما فعل جميع اللاهوتيون في جميع أرجاء أسقفيته).

«إلى جميع الأساقفة في جميع أرجاء إنكلترا، إلخ:

«بما أن كنيسة القديس ألبن هي عائدة إلى القديس بطرس، وملكاً له، إلخ، إلخ، إذا ما رفض أي من الناس أو الكهنة العائدين إلى الكنائس الاستجابة إلى راعي الدير المتقدم ذكره أو الرهبان حول مايتعلق بالمسائل الدنيوية، أو أن يدفع لهم المعاش المستحق، نحن نمنح راعي الدير المذكور والرهبان السلطة الكاملة لأن يأخذوا منهم من دون أية معارضة أو إجازة استدعاء، أي شيء عندهم في كنائسهم، أو بيعهم، والذي احتفظوا به وهو عائد لهم، وذلك حتى يتم ارغامهم، ولو كان ذلك دون إرادتهم، على الاستجابة لهم، فيما يتعلق بالقضايا الدنيوية،

وأن يدفعوا لهم معاشاتهم». (منع الأسقف المذكور على كل حال بعض القساوسة من دفع المعاش المستحق إلى كنيسة التاينماوث).

«ونحن عن رغبة وطوعية قابلون لمطالبكم العادلة، وذلك بموجب السلطات الرسولية، وبحماية هذه الوثيقة الحالية، ونؤكد، ونوثق لكم ومن خلالكم لكنيستكم، بحكم أنها جزء من الدير المذكور، الممتلكات التي أضفيت عليكم بكرم تقوي من قبل أهل الإيمان، وأيضاً المنح والامتيازات والمنافع الأخرى التي منحت إلى كنيستكم من قبل الملك رتشارد صاحب الذكرى اللامعة، ومن قبل ولدنا المحبوب في المسيح جون الملك المشهور لانكلترا، حسبما أنت متملك لهم بسلام وعدل، وبشكل كامل تبعاً لما ورد في صكوكهم، وأيضاً هذا فيما يتعلق بالكنائس ومعاشاتها، المؤكدة في رسائل من قبل المطران ومن قبل أسقف المنطقة، وكذلك امتيازاتهم مع الإعفاءات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، ولصالح ديرته، إلخ، إلخ».

لكن بعد إعادة تأسيس السلام وفق البنود التي تقدم ذكرها، بين الأسقف المتقدم ذكره — الذي أقدم بطيش على خرق الامتيازات التي تقدم ذكرها — وبين رئيس رهبان التاينماوث ورهبان الدير، الذين تعرضوا إلى المضايقة والأذى من قبله بطرق مضاعفة كثيرة، قام الأسقف المذكور بالاقدام شخصياً على اغضاب رئيس الرهبان المذكور وايدأته، ومعه رهبانه، في مسائل دنيوية، وفي خرقه للامتيازات الخاصة، التي منحت إليهم من قبل هذين الملكين التقيين، وسوف يظهر مدى ايذاء هذه الممارسات الطائشة في رسالة الملك التالية، الذي وصلت إليه صرخة شكوى الكنيسة.

رسالة ملك إنكلترا إلى أسقف درم

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلخ، إلى أسقف درم: نحن

لا يمكننا إلا أن نعجب، أننا على الرغم من قيامنا بعاطفة كاملة، برجائكم، مرة أولى، ثم مرة ثانية، بالاقلاع عن ايداء رئيس رهبان التاينهاوث، المحبوب كثيراً لدينا في المسيح، والذي — كما أنت تعرف — يقاتل تحت حمايتنا ودفاعنا، وأنت لم تزعج نفسك بالاستجابة لالتماساتنا لصالحه، ونحن مرغمون على أن نعيد إلى ذاكرتكم، أننا صدوراً عن الاحترام لكم قد أحلنا هذه المسألة إليكم، بحكم أننا نعتقد بشكل ثابت، ونأمل بأن تقنعكم حكمتكم ولطفكم بأن تفعلوا طائعين متطوعين، الذي سوف تكونوا مرغمين على فعله بموجب شريعة المملكة، وبموجب السلطات الملكية، وفي سبيل أن تكون الأمور واضحة بيّنة إليك، بأننا قمنا للمرة الثالثة بتحويل هذه القضية إليكم، ولقد قررنا للمرة الثالثة أن نلتمس منكم باخلاص، وصدوراً عن التماساتنا، وللإحترام المتوجب عليك نحو أميرك، أن تتخلى بحرية، ومن دون تأخير، عن الممتلكات العائدة لرئيس الرهبان المذكور التي استوليت عليها، بشكل مضاد لشريعة البلاد، والتي أنت تحتفظ بها بشكل غير عادل، وهو مايمكن البرهنة عليه بوساطة امتيازاته، التي يمتلكها بموجب صكوك من ملوك انكلترا من أسلافنا، وبشكل خاص صك عمنا الملك رتشارد، وهي الامتيازات التي تمتعوا بحرية بها في أيام أسلافنا، وكن على يقين أنك إذا لم تنفذ مطلب التماساتنا تنفيذاً كاملاً قبل ثمانية عيد القديسة هيلاري المقبل، كل الذي أحلناه إليك، ورغبنا الآن باحاليته إليك، سوف نقوم بعد ذلك (دون المبالاة بامتيازك، تحت حجة ماينبغي علينا أن نفعله لك، وفي أن لانسمح بإلحاق الأذى بك من قبل الآخرين، من دون التصحيح بموجب السلطات الملكية) بجعل الممتلكات المتقدم ذكرها تعطى إليك، وبالنسبة للخسائر، التي عانى منها رئيس الرهبان المذكور، بسبب الأذى الذي اقترف بحقه، أن تقوم بالتعويض عنها بشكل صالح، ولسوف نرغمك على تقديم عدالة كاملة له. شهدت بنفسى، إلخ، إلخ».

لقد اتضح تماماً بموجب الرسالة المتقدمة، الأذى الذي اقترف بحق رئيس الرهبان المذكور مع دير، والذي تمتع بالامتيازات والمنح والحقوق نفسها، مثل كنيسة القديس ألبان، وقد جرى منح الكنيسة المذكورة القدر نفسه من الامتيازات، مثلما يمكن قانونياً منحه إلى أي راعي دير، وذلك من قبل الخبر الأعظم، في القضايا الروحية، وفي القضايا الدنيوية، كل الذي يمكن للسلطات الملكية أن تمنحه، وكل الذي جرى منحه لهذه الكنيسة وأضيف عليها من قبل مؤسسها أوفافا Offa التقي، ومن قبل الملوك الآخرين لانكلترا.

الانقضاخ الذي عمله البارميون والنصر الذي نالوه

بينما كان الحظ يتسابق هكذا مع الشؤون الدنيوية، قام البارميون بالدعوة إلى اجتماع حول قضيتهم العامة، وتذللوا بأنفسهم أمام الرب، وأمام روجر المبارك، أسقف لندن، الذي خصه الرب، وميّزه بشكل مجيد بالمعجزات، وكان هذا الأسقف، قد تعرض عندما كان من قبل مقيماً إقامة قصيرة في مدينتهم عندما كان في طريقه إلى البلاط الروماني، فسرق من قبل البارمين في الليل وسلب من ماله كله، ولذلك غادر المدينة، وفي طريق عودته من روما، لعنها بألم شديد في القلب، وعندما قام سكان المدينة بالتقصي حول المسألة، وجدوا أن مبلغ المال، الذي ذكر أنه قد سرق منه، قد وصل إلى عدد كبير جداً من الماركات، ولذلك تعهدوا بأنهم سوف يعطون بكل تذلل ترضية بذلك العدد نفسه إلى الرب، وإلى قديسه، أي بالقيام ببناء كنيسة بلندن، عن طريق الصدقات أو بأية طريقة أخرى سوف ترضي القديس المذكور.

ولقد قلت هذا بمثل هذا التفصيل، لأنهم سمعوا بأن فردريك، الذي ثابر على حصار المدينة، قد غادر منذ بعض الوقت، لقضاء بعض الأشغال، وترك — على كل حال — جيشه كله تقريباً هناك، وبناء عليه، بما أن الجيش قد نقص عدده، وبما أن قائده كان غائباً، بدا أنه مفيداً لهم

القيام بهجوم مفاجيء على أعدائهم، وقاموا بناء عليه، في أحد الأيام، بعدما طلبوا العون من عليين، وبعدهما عملوا التعهد المذكور بكل اخلاص من القلب، استعدوا جميعاً للقتال، وبعدهما جرت تعبئة القوات وصف العساكر بشكل منتظم، فتحوا الأبواب بشكل مفاجيء، واندفعوا بصورة غير متوقعة، وانقضوا مثل البرق على العدو، مفضلين الموت في القتال على الهلاك والتلاشي بوساطة جوع مديد، وعندما شاهد ثاديوس هذا، الذي كان المستشار المقرب من فردريك، والذي بثقة عهد إليه بالمسؤولية عن جيشه وأمواله، صرخ تعجباً لكن بعجرفة واستخفاف قائلاً: «تجراً أخيراً هؤلاء الجرذان على الخروج من جحورهم»، وقام سكان المدينة بهجوم فعال شديد، فتمكنوا في وقت قصير من إلحاق الهزيمة بجيش فردريك كله، وحصلوا على نصر مجيد، وأنزلوا هزيمة مهينة بآلاف الأعداء، وبعد هذا هدموا القلاع التي بناها فردريك حول المدينة، من أجل متابعة الحصار وأحرقوها، وأسروا أيضاً ثاديوس، قاضي القصر الامبراطوري، الذي كان من أكثر الناس فصاحة في مرافعات القضايا الصعبة، وكان حكيماً في تقريرهم، كما استولوا أيضاً على مبلغ كبير من المال، كان قد ترك بعهدته، وقد رفضوا الاصغاء إلى أي من كلماته المعسولة والليئة، خشية الوقوع في أي زيف، فقطعوه إلى قطع، وأنزلوا الهزيمة أيضاً بالكريمونيين Cremonese، الذين وقفوا إلى جانب فردريك أثناء الحصار، ولإلحاق العار والخزي بمدنيتهم استولوا على رايتهم، وبعدهما تمكنوا هكذا من تمزيق جيش فردريك كله وإلحاق الفوضى به، عاد المنتصرون مسرورين إلى مدنيتهم، جالبين معهم أسراهم، وكمية من السلاح، والمال، والامدادات، والخيم، وأشياء أخرى نافعة، وذلك دون أن نتحدث عن الكميات الكبيرة جداً، من الأسلاب الأخرى، واستولى المنتصرون من سكان المدينة على حوالي خمسة عشر ألف رأس من الماشية، بما في ذلك خيولاً ثمينة، ومهرة، وخيول تحميل، وبغال،

وثيران، وكان ذلك كله على عكس ماتوقعوه، فقد امتلأت مدينتهم بجميع الأنواع من الثروات، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى البلاط الروماني، استولى على البابا الفرخ واستبدت به البهجة، وتفوه بالكلمات التالية:

منصورتك، زالت باسم المسيح

لأن فردريك كان قد منح ذلك الاسم لقلاعه حول المدينة، وعندما غدت هذه الواقعة معلومة لدى فردريك، تأوه بروحه، وأخذ يتنهد بشكل متواصل وكأنه أصيب بجرح عميق، لأن موت ثاديوس وإهانة البابا له جرح قلب فردريك، وألمته بحدة أكثر من أي من الحوادث والخسائر الأخرى، لأننا نحن الذين نقرأ حوليات التاريخ ونتفحصها لم نجد مثل الكراهية القاتلة التي وجدت بين البابا وبين فردريك، ثم أعاد فردريك تجميع قواته، ومن ثم شرع بمزيد من التهديدات بالضغط على سكان المدينة بمزيد من الحدة أكثر من المعتادة، وقد جرى وصف هذه الوقائع بتفاصيل وافية أكثر في كتاب الـ Additaments.

إصلاح الأموال الإنكليزية التي فسدت بالنقود المزيفة

وفي هذه الآونة كانت النقود الانكليزية قد فسدت بشكل لا يمكن احتماله، بوساطة قصاصي النقود والمزيفين، حتى صار لا يمكن لأهالي البلاد والأجانب أن ينظروا إليها إلا بعينين غاضبتين وبمشاعر انزعاج، لأنها قد تعرضت للقص من حولها حتى وصل القص إلى الجزء الداخلي من الدائرة، والاطار الذي حمل الكتابات، إما جرى تدميره تماماً، أو تشوه بشكل كبير، وبناء عليه جرى الاعلان بوساطة المنادين، باسم الملك، في جميع المدن، والمناطق، والأسواق، بعدم أخذ أي بنس إذا لم يكن قانوني الوزن، والإطار، ولا يجوز تسلمه، لافي بيع، أو شراء، أو تبديل، وأن جميع الخارقين لهذا الأمر سوف يعاقبون، وصرفت جهود

كبيرة لاكتشاف المتعاملين المزيفين الذين تقدم ذكرهم، حتى إذا وجدوا مذنبين باقتراف هذه الجريمة، سوف يواجهوا العقوبة المستحقة، وفقاً لقرار المحكمة، وجرى بحث دقيق حول هذه المسألة، وبناء عليه تبين أن المجرمين المقتربين لهذه الجريمة هم بعض اليهود، وبعض القراصنة الفاسدي السمعة، وبعض تجار الصوف الفلمنكيين، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بجميع الأشخاص المقتربين لهذه الجريمة، الذين وجدوا في مملكته، فعلقوا على المشانق وصاروا عرضة للرياح.

موت وولتر موكليرك واثنين آخرين من الرهبان الدومينيكان

وفي الوقت نفسه من العام، في حوالي عيد القديسين: سمعان وجود، أكمل وولتر موكليرك Mauclerc، الذي كان من قبل أسقف كارلايل، حياته الدنيوية بشكل موثم ورمى عن عاتقيه أعباء العناية بالحياة الدنيا والثروات، وغادر طريق الجسد، وغادر هذا العالم أيضاً في العام نفسه، في الرب، الراهبان الاثنان اللذان كانا من الطائفة نفسها (الدومينيكان)، واللذان من المعتقد أنه لا مثيل لهما، وفي الحقيقة لا معادل لهما، عندما كانا حين، في اللاهوت، وفي العلوم الأخرى، وهذان الراهبان كانا: روبرت بيكون Bacon، ورتشارد فيشكيللي Fishkele، واللذان كانا يحاضران في الكلية نفسها لسنوات طوال، وكانا متميزين بالتبشير بكلمة الرب إلى الناس.

حول زواج فردريك وابنه كونراد

قام فردريك في هذا العام، في سبيل تقوية قضيته في الصراع الذي كان منشغلاً به ضد البابا، فدخل في تحالف مع بعض الزعماء، وتزوج من سيدة ثرية الأموال، وذات مظهر جميل، وأصل مشهور، وتأثر ابنه أيضاً بنية مماثلة، فاقرن بابنة دوق بافاريا، ولدى معرفة هذا من قبل رئيس أساقفة كولون، والذين وقفوا إلى جانب حزب الملك المنتخب

حديثاً لألمانيا، ألحا أكثر من المعتاد وحرصاً على ضرورة أن يتم تتويج وليم، الملك المنتخب المذكور، بشكل كامل ومهيّب في اكس لى شابيل (آخن)، لكن بسبب معارضة فردريك المذكور، وابنه كونراد حيل بينه وبين إمكانية الوصول إلى تلك المدينة، ولذلك تولى رئيس أساقفة كولون، والنائب البابوي، بالتعاون مع عدد لا يحصى من الأساقفة والنبلاء، الذين أثروا قضية الكنيسة (وكان الشرط الأكبر منهم قد تلقى شارة الصليب على أيدي الدومينيكان والفرنسيسكان) تولى بمزيد من النشاط والفعالية، حصار مدينة اكس لى شابيل المذكورة، حيث جرت معارك كثيرة مع نجاحات مختلفة، بين الفئتين، وسقط كثيرون من على الطرفين، واستمر الحصار وتمت متابعته مع كثير من سفك الدماء والخسائر على الجانبين، وتزايد عدد الذين يتولون الحصار يومياً، مثلما يزداد النهر بالفيضانات، ومع ذلك استمرت ثقة المحاصرين عالية، بوساطة رسائل أرسلت بشكل متواصل من قبل فردريك، وابنه كونراد، يحثونهم على عدم فقدان الشجاعة، لأن خلاصهم — كما أعلنوا — بات وشيكاً.

حول مبارزة عقدت في نيوبوري

عقدت مبارزة كبيرة جداً، يوم أربعاء الرماد، في نيوبوري Newbury. وقد عقدت بين فرسان انكلترا لتجريب قدراتهم في ميدان الفروسية وقوتهم، وبما أن الملك كان مؤثراً لها، فقد بدأت بشكل جيد وانتهت كذلك، وتصرف في هذه المبارزة وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، مبدئياً بشكل جريء جداً، فهكذا قاد نفسه من أجل الحصول على اسم مشهور بالفروسية، ولكن بما أنه كان في عمر غض، وغير قادر على تحمل قوى وشدة وحمالات الفرسان، فقد رمي على الأرض، ومن ذلك عانى من خسائر كبيرة، وضرب بشكل جيد، من أجل أن يتمكن من تلقي احترافه بالفروسية.

حول اضطرابات الناس وآلامهم نتيجة لتبديل النقود

اضطرب الناس كثيراً في هذا العام، بسبب أوامر الملك المتنوعة، فيما يتعلق باستلام النقود، فقد جرى الإعلان بوساطة صوت المنادي، في جميع أرجاء مدن انكلترا بأن معياراً واحداً من القمح سوف يكلف أكثر من عشرين شلناً، لأن التبديل جرت متابعة تنفيذه في عدد قليل فقط من المدن، وعندما جاءوا إلى هناك تسلموا وزناً محدداً من النقود الجديدة، مقابل وزناً محدداً من القديمة، وأرغموا على دفع ثلاثة عشر بنساً لكل باوند، مقابل عمل الصائغ، أو عامل المال، الذي كان يدعى بشكل عام باسم المبيض، واختلف شكل هذه النقود عن القديمة، حيث كان هناك صليباً مضاعفاً مرّ عبر الاطار الخارجي، في المكان الذي كانت هناك فيه كتابات، إنما في المجالات الأخرى، أي بالنسبة للوزن، والطبع، ولشكل الحروف، فقد بقي ذلك، كما كان من قبل، ولذلك آل مال الناس إلى ضيق شديد، وعانوا من أضرار كبيرة، حتى بات من الصعب الحصول على عشرين شلناً من على مائدة مبدل النقود، مقابل ثلاثين، وذلك ليس من دون اضطراب، ونفقات لعدة أيام مستمرة، ومتاعب وتوقعات مزعجة، وبما أن الملك حصل على مبالغ كبيرة من هذه المسائل، جاء إليه أخوه رتشارد، وكان الملك مداناً إليه كثيراً، وكان قدومه مثل يعقوب آخر، وقال له بذكاء وبراعة: «ملكي وأخي ادفع لي الدين المستحق لي عليك»، وتابع باستمرار الضغط بطلبه، فأجابه الملك قائلاً: «أخي الوحيد من الأبوين نفسيهما، أنت ترى حاجتي القصوى من جميع الجوانب، والحصة الصغيرة من الأراضي التي بقيت لي في القارة هي عرضة للمخاطر وللأذى، فغسكوني محمية بترس بوردو وحده، ولتحرير هذه المقاطعة، الأمر الذي وجدته ضرورياً، اقتضى اتفاق مبلغ كبير من المال»، وقام الايرل على كل حال، بالمطالبة بصوت مرتفع ووقح بتقديم ترضية له مقابل ديونه، من الأرباح الناتجة

عن ضرب النقود، وكرر طلباته من دون توقف بوقاحة، ونظراً لذلك، حصل على وعد بأنه سوف يتسلم المرباح الناتجة عن ضرب النقود، والتي سوف تستمر — تبعاً لمبدي النقود — لمدة سبعة أعوام، وسوف تصل الأرباح نفسها إلى عشرين ألف باوند، وحصة الثلث من هذا الإجراء سوف تحفظ للملك، وبذلك تحرر من ديونه إلى الايرل، وبعدها حصل الايرل على هذا، حصل أيضاً على رسائل توصية من الملك، بمنع تداول جميع النقود التي تعرضت للقص في انكلترا، وفي الحقيقة يتوجب ثقب جميع النقود المقصوفة، وإذا ما جرى اكتشاف أي مبدل للنقود في أي مكان، وقد أعطى بنسين مقابل بنس واحد، أو ثلاثة مقابل بنسين، ينبغي اعتقاله، ومعاقبته بحدة، وأن تطال المعاقبة ممتلكاته وشخصه، على أساس أنه آثم ضد الملك، وخارق للأوامر الملكية، ومن المذكرة التي أرسلت إلى عمد المناطق، يمكن أن نجد تفاصيل وافية حول ذلك، وكلها قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

خسوف للقمر

في عيد حزيران لهذا العام، بعد غياب الشمس مباشرة، تعرض القمر لخسوف كامل تقريباً.

حول إجراءات البرلمان الكبير الذي عقد في لندن

في شهر حزيران، ومع اقتراب الأربعة عشر يوماً لعيد القديس يوحنا المعمدان، اجتمع جميع النبلاء الانكليز في لندن، معتقدين بثبات، أنه من خلال الوعود الايجابية للملك، هو سوف يصلح أغلاطه، وأنه بفضل النعمة التي أضفيت عليه من عليين، سوف يميل بأذنيه إلى الاصغاء إلى الآراء الأكثر حكمة، وبناء عليه، بعد اجتماع جميع مقدمي الناس في انكلترا، سمعوا الرد التالي الميء بالنكران يتدفق من فم الملك، على شكاويهم المتقدمة: «أنتم جميعاً زعماء الناس، في انكلترا، تسعون لجعل

مولاكم وملككم ينحني أمام ارادتكم، وأن يكون ذلك أولاً مع شيء من الدمائية، ومن بعد ذلك تفرضون شروط استعباد كاملة، وكل ما سيختاره أي واحد، سوف يستنكره عليه بوقاحة، وكل واحد مسموح له أن يتبنى خططه والخطط التي سوف يختارها، ومجدداً إن كل أب لأسرة مسموح له بأن يعين أي واحد مهما كان لتلك الوظيفة أو هذه، في بيته، أو ليوقفهم ويعلقهم أو حتى يخلعهم، غير أن هذه الحرية — يمكن التنبؤ — أنكم بطيش سوف تقدمون على انكارها على ملككم، ولا سيما أنه لا يجوز للعبيد أن يقضوا، وأن يلزموا سيدهم بشروطهم، مثلما لا يجوز للأتباع أن يفعلوا بأمرهم، بل المتوجب أن الذين يعدون هم الأدنى، ينبغي بالحرى أن يحكموا وأن يداروا بموجب إرادة ورغبة مولاهم، لأن العبد ليس فوق سيده، مثلما ليس التلميذ فوق معلمه، وبناء عليه، إن ملككم سوف لن يبقى ملكاً، بل سوف يكون بطبيعة الحال، عبداً إذا ما مال هكذا للإصغاء لإرادتكم، ولذلك هو لن يعزل للمستشار، ولا المسؤول عن العدالة، ولا الخازن، كما تقترحون، وترتبون، وأيضاً لن يعين آخرين محلهم وعوضاً عنهم».

وبالطريقة نفسها، جرى تقديم رد اعتراضى تافه حول المسائل المفيدة إلى الملك نفسه: «غير أنه طلب معونة مالية منكم لاسترداد حقوقه في القارة، التي هي تتعلق بكم»، ولدى سماع النبلاء لهذه الكلمات، اعتقدوا بشكل واضح وضوح الضوء، بأن هذا مصدره هو المستشارين الحاليين، الذين كانت سلطتهم سوف تضعف، لابل سوف تخمد، لو أنه تم الإصغاء إلى نصيحة جماعة البارونات، وعلى كل حال، عندما رأوا كيف أجبيوا، وأنهم قد عورضوا بمهارة وبدهاء، تأثروا جميعاً بروح واحدة، وأجابوا بشكل واضح، أنهم سوف لن يفقروا أنفسهم ثانية ولا بحال من الأحوال من دون فائدة، وأن يقوم الأجانب بالولوج بكرامتهم فوق ممتلكاتهم، وأن يتقوى أعداء الملك وكذلك أعداء

المملكة، كما حدث مؤخراً في القضية في بواتو، وكذلك في غسكوني، حيث تعجل بطيش ومن دون عقل، على عكس نصيحتهم ورغبتهم، وذلك عندما تمت مواجهته بشكل عدواني، ونحن بصدق نعتقد، أنه بناء على ما ظهر من جشع الملك، ومن حالة عوزه، أنه كان معتقلاً بشكل سري وأسيراً، لكن عندما قام بهدوء بدفع غرامة، وتولى التعهد صادقاً، وحلف يمينه، ومنح صكوكه، من الواضح أنه قد أطلق آنذاك سراحه وبات متحرراً، ثم كان أن تم التخلي عنه بعدما حرم من شرفه وكرامته وماله وأراضيه، وسمح له بالمغادرة بشكل مهين، وسط جميع أنواع الإهانات.

ولذلك ارفض المؤتمر بغضب، وجميعهم هكذا خدعوا بآمالهم، التي تصوروها لوقت طويل وتمنوها من هذا البارلمان، وجاءت متاعبهم ونفقاتهم بالنهاية إلى لاغاية، وربحوا لاشيء سوى إجابات ساخرة وعابثة على شكوايهم.

كيف باع ملك إنكلترا ثروته المخزونة

عندما شاهد الملك هذه النتيجة رداً على إجراءاته، انفجر بغضب عنيف وقال لمستشاريه: «إنه بسببكم نأت عني عواطف نبلائي، وهأنذا الآن على وشك فقدان غسكوني، ولقد انتزعت مني بواتو، وأنا مجرد من المال، ماالذي عليّ فعله؟»، وبعدما عقد مؤتمراً جباناً، تقرر بناء عليه، من دون أية حكمة، وجوب بيعه ثروته بالوزن، دونها مبالاة بالذهب، والفضة، والأعمال الفنية، مع أن الأعمال فاقت على المادة بالقيمة، وذلك في سبيل الحصول على المال بهذه الطريقة وبهذه الوسائل، وعلاوة على ذلك أضاف للمستشارون، الكلام الاستشاري التالي، وذلك في سبيل تهدئة الملك ومواساته: «وكما أن جميع الأنهار تصب عائدة في البحر، هكذا إن كل شيء قد بيع الآن، سوف يعود في وقت ما إليك على شكل هدايا تعويضية، لذلك ينبغي أن لاينزعج مولانا الملك»، وبعدما جرى

بيع الثروة التي تقدم ذكرها أعلاه، سأل الملك أين يبيع ولمن، وكان الجواب الذي أعطي إليه: «في لندن»، فقال: «أنا أعرف، أنه لو عرضت ثروة أوكتافيان Octavian للبيع، فإن مدينة لندن سوف تشتريها، وتبتلعها كلها، لأن هؤلاء الأخساء اللندين، الذين يسمون أنفسهم بارونات، يمتلكون وفرة وافرة حتى التخمّة، فتلك المدينة بئر لا ينضب»، ثم قام على الفور بأبداع خطة، سوف يطبقها مع أول فرصة تقوم، بأن يقوم بتجريد اللندين من ممتلكاتهم، وهي خطة جاءت الحوادث التالية برهاناً وافياً على تطبيقه لها، والرواية المقبلة سوف تروي ما حدث بالتفصيل الكامل.

كيف انطلق الملك الفرنسي في حملته إلى القدس

عندما برهنت تحولات الأنواء أنها موائمة، والمناخ قد بات طيباً، وقدم الخريف كميات وافرة من الحبوب والخمرة، قام الملك الفرنسي بالحصول على إجازة خاصة في كنيسة القديس دينس وفي أماكن أخرى مقدسة في مملكته، وبعدما عمل تعهداً نذرياً، انطلق برحلته إلى القدس، وعبر من خلال ليون، حيث كان البابا مقيماً، فقدم إليه احتراماته بتواضع واخلاص، ورجاه بشكل جاد، أن يقوم ببذل جهوده في سبيل المحافظة على كرامة الكنيسة في جميع القضايا، وذلك بأن يتنازل بقبول تواضع فردريك، الذي طالب بمساحته، وأن يمنحه إحسان المصالحة، وأن يفتح له صدر العاطفة الأبوية نادماً، وقال: «إن ذلك يجعل على الأقل عبوري أكثر أماناً وأنا مسافر إلى حجي»، وعندما شاهد البابا وقد بدت عليه ملامح الرفض، غادر آسفاً قائلاً: «أنا أخشى أنني بعد أن أسافر، سوف يجري التخطيط لمؤامرة عدوانية ضد المملكة الفرنسية، بسبب حدثك التي لاتعرف الهوادة، ولسوف تتحمل المسؤولية، إذا ما تعطلت مسيرة الأحداث في الأرض المقدسة، وإنني على كل حال سوف أحرس فرنسا مثل حراستي لبؤبؤ عيني، لأنه على أوضاع تلك المملكة

يتوقف ازدهارك، وكذلك ازدهار المسيحية كلها»، وعلى هذا رد البابا: «إنني طوال ما أنا حيّ، سوف أقف إلى جانب فرنسا، وضد هذا المنشق فردريك، الذي أدانته الكنيسة، وخلعته من المنصب الامبراطوري بوساطة المجمع العام، وفي الحقيقة إنني سوف أفعل الشيء نفسه ضد ملك انكلترا، الذي هو من أتباعنا، إذا ما أقدم على التحرك العدواني ضد مملكة فرنسا، أو ضد الحقوق العائدة لها، وهذا ماسوف أفعله ضد جميع أعداء المملكة المذكورة»، وهذا الملك بعض الشيء بهذه الكلمات، ثم أجابه: «بما أنك عملت هذه التعهدات، إنني أعهد بمقاليد حكومة مملكتي الفرنسية إليك»، وبناء عليه جرى ترتيب وجوب إرسال مبعوث خاص إلى ملك انكلترا ليمنعه من مهاجمة أي واحد من المتعلقين بالمملكة الفرنسية، أو مضايقتهم بأي شكل من الأشكال، ومن أجل تحقيق هذه الغاية جرى إرسال المعلمين ألبيرت وبولص بشكل خاص، وقد وصلا إلى الملك في ويندسور، يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، ليقدما رسالتها إليه، لكن هذه الواقعة أ بقيت سرية، حتى يتمكن الملك بسهولة من استخراج المال، في سبيل المطالبة بحقوقه واستردادها بقوة السلاح، ثم قام الملك لويس بعمل اعتراف طويل ودقيق إلى البابا، وحصل منه على غفران لذنوبه، واستأذن قداسته، وغادر مع مباركته، وسافر من ليون، متوجهاً مع جيشه نحو مرسيليا، وعندما أخذ يقترب من مدينة أفينون Avignon، لم يختر سكان تلك المدينة تحمل اهانات الفرنسيين المتعجرفين، الذي أطلقوا عليهم اسم: الألبينيين، والخونة، والمسممين، فقاموا بالهجوم عليهم في الممرات الضيقة، التي كانت معروفة بشكل جيد من قبلهم، وقد أثير غضبهم الشديد، وكرهيتهم الكبيرة، بوساطة عداوتهم المستمرة منذ وقت طويل، فنهبوا بعض الجيش الفرنسي، وقتلوا الذين تصدوا لهم، وبناء على ذلك اقترح بعض النبلاء الفرنسيين على الملك وجوب أن يقوم بإلقاء الحصار على مدينتهم، على الأقل لسبب واحد، هو أن ينتقم منهم انتقاماً فاعلاً

وعادلاً، لقتلهم أبيه، الذي جرى دس السم له هناك، أو أنه إذا ما أراد متابعة رحلته، أن يسمح لهم بفعل ذلك تحت موافقته، وتمكن الملك بصعوبة من تهدئة غضبهم، وقال لهم: «إنني مغادر لفرنسا ليس للانتقام لمصائبني، أو لمصائب أبي، أو أمي، بل لأنتقم لمصائب ربي يسوع المسيح»، ثم استأنف ذلك الملك المسيحي العظيم الإيمان، رحلته على الفور، وعانى من خسائر أكبر على أيدي المرسيليين، إلى حد أن النبلاء أثير غضبهم كثيراً، ولولا أنهم ضبطوا بجدية الملك واعتداله المقدس، لقاموا وهم غاضبين بمحاصرة مرسيليا بشكل فعال، فقد قال لهم الملك: «إن الوقت لعبورنا بات وشيكاً، والرب يمنع من سيطرة الشيطان، لأنه حزين لهذا السبب، وهو يسعى لوضع بعض العراقيل لمنع العبور»، وبعدما تمكن بصعوبة من تهدئة مشاعرهم المضطربة، قام في اليوم التالي لعيد القديس بارثليميو، فأخذ معه بعض العساكر النخبة، وترك وراءه أكثر من ألف من رماة القسي الزيارة، وعدداً كبيراً من الفرسان، والأتباع، وعادوا وهم يشعرون بغضب عظيم وبخجل مهين، وبصعوبة ضبطوا أنفسهم، وتمنعوا عن الالتحاق بملك انكلترا، وعن الاقدام متطوعين على إثارة حرب ضد ملك فرنسا، ولكن لدى وزنهم المخاطر المستقبلية بميزان العقل والحكمة، عادوا بسلام إلى البابا، وعرضوا الدخول بخدمته، وأن يقاتلوا من أجله، بناء على أوامره، ضد أي واحد مهما كان، وقد تم اقناعهم بحجج البابا، وبحجج رجال بلاطه، الذين عرفوا أن لديهم كميات وافرة من المال، فقاموا بخلع شارات الصليب، وتخلوا عن امدادات سفرهم إلى البابا، ليحصلوا على اعفاء من القيام بحججهم، ويجيبوهم فارغة، حتى يتمكنوا من العودة والسفر بخفة أكبر، عادوا إلى مواطنهم، مع حصّة صغيرة جداً من ممتلكاتهم، فالذي بقي لهم قد اقتصر على مايكفيهم ويمكنهم من الانفاق على أنفسهم أثناء سفرهم، وكان الملك الفرنسي قد سافر في البحر في ذلك الوقت ذاته، وبأشعة منشورة وجّه طريقه مع ريح طيبة

نحو قبرص، التي كانت مليئة بكل الأشياء الطيبة للعيش برفاهية، وذلك في سبيل امضاء الشتاء هناك بسلام، ولاسترداد أنفاسه.

وفي صيف هذا العام، وصلت الأخبار، بأن مدينة اشبيلية، التي هي مدينة فخمة في اسبانيا، قد تم الاستيلاء عليها من قبل الملك المنتصر لقشتالة، وكانت هذه المدينة تساوي بالنسبة لصاحبها تسعة آلاف طالن Talents في كل يوم من أيام الأسبوع، وفي اليوم السادس، أهدع عشر ألفاً.

الاستيلاء على اكس لى شايل وتوزيع

وليم كونت هولاندا ملكاً على روما

في الوقت الذي كانت فيه قسوة الشتاء معلقة فوق العالم المتجمد، كان المحاصرون من سكان مدينة اكس لى شايل يعانون بحدة بالغة، لأنهم حرموا من جميع سبل الدخول والخروج، ومن جميع أنواع العون والمشورة، ومن جميع امدادات الطعام، حيث لم يعد لديهم طحين، وصار خبزهم قاسياً، ولحمهم نتن، وقد تكسرت أسلحتهم، وتآكلت من الصدأ، وكانت ثيابهم قد اهترأت، وتغيرت طبيعة النساء، وطلب الأطفال الخبز، ولم يكن هناك خبز لتقطيعه واعطائهم إياه، وكان الذين تولوا أعمال الحصار، مؤلفين من نبلاء ألمانيا، مع النائب البابوي، ورئيس أساقفة كولون، وأسقف لياج، فقد جلب هؤلاء معهم حشداً كبيراً جداً، وتابعوا تنفيذ هدفهم بكل نشاط وفعالية، بينما قام الذين حملوا الصليب، بناء على تبشير الرهبان الدومينيكان، بالتدفق يومياً عليهم من مختلف المناطق في العالم، وبناء عليه غطى رجال جيش الأساقفة المنطقة كلها مثل الجراد، ولذلك قاموا ليلاً ونهاراً بشكل متواصل، وعلى نوب، بقصف الأسوار وحصون المدينة، بالمجانيق والعرادات والآلات الأخرى، التي نصبت على كل جانب منها،

وسحقت الناس الذين كانوا معرضين وبلا دفاعات، وقد طعنوهم بنشابهم، وضايقوهم بكل الوسائل التي توفرت لهم، وهكذا فإن المدينة —بناء عليه— أرغمت بوساطة الحاجة على الاستسلام إلى الأعداء، الذين تعاملوا معها، حسبما رغبوا، وهكذا جرى الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعد ذلك تم تتويج الكونت وليم كونت هولاندا، الملك المنتخب لألمانيا، بشكل مهيب هناك، في يوم عيد جميع القديسين، وكان التتويج على يدي كونراد، رئيس أساقفة كولون، وفقاً للعادة القديمة لملوك ألمانيا، وفي الوقت نفسه، هرب كثير من السكان المحليين، وكذلك المرتزقة الذين وضعهم فردريك هناك لحمايتها، هربوا من المدينة المستولى عليها، التي تحولت إلى الدمار والفقر، وكانوا هم أنفسهم منهكين، فقدوا توازنهم من العوز، وعدّ هذا التتويج —على كل حال— غير شرعي، بسبب أن جميع المنتخبين لم يكونوا حاضرين هناك، ولا حتى وافقوا على ذلك، وكان من بين هؤلاء دوق سكسوني، الذي دخل بتحالف مع فردريك، على أساس ابنة الدوق، التي كان سيتزوج منها، إذا ما تمكن من تأمين مصالحة مع الكنيسة، كما لم يوافق دوق بافاريا على التتويج، وهو الذي كانت ابنته قد تزوجت من كونراد بن فردريك، كما رفض كثيرون إعطاء موافقتهم.

كيف هرب كونراد بن فردريك إلى أبيه

عندما تمكن رؤساء الأساقفة، والأساقفة والقساوسة، والنبلاء الآخرون، هكذا من تنفيذ غايتهم، كان كونراد بن فردريك مسرعاً لانقاذ المدينة، فجرى اعتراضه لدى اقترابه، من قبل الجيش الألماني الآخر، الذي حشده النائب البابوي، وكان جيشاً قوياً، وقد اعترضه وهاجمه بحد السيف، وكان هذا الجيش، تحت قيادة رؤساء أساقفة: مينس Mayence، وميتنز Metz، واللورين Lorrain، وستراسبورغ Strasburg، وتآلف من عدد لا يحصى من

الوحدات من مقاطعاتهم ومن فريزلاند، وغوثلاند، وروسيا، وداشيا، ومن مقاطعات ألمانيا، ومن أهل الحدود الذين حملوا الصليب، والذين تأثروا جميعاً بروح واحدة، وكانوا كأنهم رجل واحد، وقاتلوا بجرأة كونراد المذكور، وانتصروا عليه، وأرغموه على الفرار مع جيشه كله، وعند ذلك تراجع الابن مضطرباً، وهرب بكل سرعة، ولم يوفر جنبي فرسه حتى وصل إلى أبيه، من دون مواساة من الروح القدس.

كيف غزيت مطردة كنيسة القديس ألبان لكن أخيراً جرى تحريرها

عانت كنيسة القديس ألبان في هذا العام من كثير من الاضطهاد، والخسارة، والضرر على أيدي فرسان، اعتقدت بثقة أنهم كانوا أصدقاء مخلصين، لأنه مع أن الصيد كان ممنوعاً قضائياً بالنسبة لبعضهم بشكل خاص، تحت طائلة عقوبة عشرة باوندات، بدا لآخرين، لم يتم تسميتهم، أنه كان مسموحاً لهم بإجازة كاملة القيام بصيد أرانب برية في المطردة المذكورة، لأنهم قالوا بأن ما كان مقررًا لمنفعة الآخرين، أو محبوساً لصالحهم، ينبغي عدم رده إلى ضررهم، ونتيجة لهذا جرى اختيار عشرين فارساً بنطاق، بناء على موافقة جميع الفرقاء، لإعطاء قرار صحيح حول هذه القضية، ولوضع نهاية لهذا الخلاف، وكان خمسة من هؤلاء — على كل حال — رجال حمقى، جاهلين بالحقيقة، ومترددون في عقولهم، وبعدها أقسموا، قالوا بأنهم لا يعرفون الحقيقة حول القضية بشكل مؤكد، وقالوا — على كل حال — بأن خصوم راعي الدير لهم الحق في الذي ادعوه وطالبوا به، ما لم يكن راعي الدير قد حصل على صك آخر حول القضية، الأمر الذي لم يكونوا يعرفون بعد أي شيء حوله، بشكل مطلق، وعندما أخبروا بالصك الذي لدى راعي الدير، وكان قد حصل عليه من الملك الحالي، وذلك بالاضافة إلى الصكوك القديمة، اضطرب خصومه وصمتوا، ولولا قيام هنري باث، المسؤول

عن العدالة، بحمايتهم عطفاً منه، لتمت ادانتهم ولصدر قرار بحرمانهم من مواريتهم، لكن المسؤول عن العدالة، تولى —بموافقة راعي الدير— إلغاء هذا القرار، ولقد كان هذا آخر أثر لاضطهاد قديم، كانت الكنيسة المذكورة قد عانت منه في عام ١٢٤٠، حيث جرى تقديم رواية كاملة حولهم في أحداث ذلك العام، إلى الذين يودون قراءتهم.

تأسيس سوق جديد في ويستمنستر

في الثالث عشر من تشرين الأول لهذا العام، وخلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، توجه الملك إلى لندن، للاحتفال بعيد القديس ادوارد، أي بعيد نقل ذلك القديس، وأرسل رسالة إلى عدد كبير من الأساقفة والنبلاء، رجاهم صدوراً عن صداقتهم وإخلاصهم له، بأن يكونوا حاضرين في ويستمنستر، وأن يلتحقوا به ويشاركوه بمهابة وتقوى بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، وبناء على دعوته قدم إلى هناك: الايرل رتشارد، وروجر بيغود، والايرل مارشال، وايرل هيرفورد، وبعض النخبة من البارونات، وبعض الفرسان، وأساقفة: وينكستر، ولندن، وإيلاي، وووركستر، وكارآيل، وعدد كبير من رعاية الدير، ورؤساء الرهبان، ثم أعلن الملك، أنه من دواعي سروره، وأنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادي في جميع أرجاء مدينة لندن كلها، وفي كل مكان آخر، بأنه قد أسس سوقاً جديداً، ليعقد في ويستمنستر، وأن يستمر لمدة أربع عشرة ليلة كاملة، كما أنه أمر بكل دقة، وتحت طائلة غرامة ثقيلة وخسارة، أن تستمر جميع الأسواق التي تعقد في انكلترا لمثل هذه المدة من الزمن، من ذلك على سبيل المثال سوق ايلاي والأماكن الأخرى، كما أنه أمر بجميع السلع التي كانت بالعادة تحمل في لندن، بأن تحمل إلى داخل وخارج أبواب السوق، وذلك في سبيل أن يكون ممكناً بهذه الوسائط، الحضور في سوق ويستمنستر بشكل أكبر من قبل الناس، وأن يكون السوق أفضل تزويداً بالتجارات، ونتيجة لهذا تدفقت

أعداد كبيرة من الناس إلى هناك من جميع الجهات، مثلما كان يجري في الأسواق الكبرى المشهورة، وقد جرى الاحتفال بنقل القديس ادوارد، وتعبد الناس الذين اجتمعوا هناك دم المسيح بدرجة غير متوقعة، لكن جميع التجار، الذين عرضوا بضائعهم هناك للبيع، كانوا عرضة إلى ارباكات كبيرة، لأنهم لم يمتلكوا غطاء باستثناء خيم من قماش القنب، وبسبب تبدل هبات الرياح التي كانت تهاجمهم، كما هي العادة في ذلك الوقت من السنة، كانت هذه الخيم باردة ومبللة، كما أن التجار قد عانوا من الجوع والعطش، وكانت أقدامهم ملوثة بالوحل، وقد تعفنت بضائعهم بزخات المطر، وعندما كانوا يجلسون لتناول طعامهم هناك، كان الذين معتادين على الجلوس لتناول طعامهم مع أسرهم، إلى جانب النار، لم يعرفوا أبداً كيف يتحملون حالة العوز وعدم الراحة، وكان أسقف ايلاي قد خسر سوقه في ايلاي، نتيجة تأجيله بموجب ترخيص ملكي، لذلك تقدم بشكوى ثقيلة إليه حول هذه المسألة، ولأنه أدخل كثيراً من التجديدات، ولكنه حصل على لاشيء سوى كلمات وعود تلطيف حول تعويضات مستقبلية.

حول فيضان للبحر غير اعتيادي

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني لهذا العام، فاض البحر، وتجاوز حدوده وتخطاها إلى مسافة عظيمة، وسبب أضراراً لا يمكن تعويضها، إلى الذين كانوا ساكنين على مقربة من الساحل، لأنه عندما كان القمر، وفقاً لتعداد التقويم، في ربعه الأخير، فاض تيار المد بمياه كثيرة من دون رؤية تيار جزر أو تناقص، ومن المعتقد أن هذا قد حدث نتيجة هبوب رياح قوية من البحر، ولكن كان قد حدث كثيراً من قبل أن الريح هبت قوية من البحر، ومع ذلك فإن البحر نفسه لم يرتفع بالدرجة نفسها، فقد اعترت الدهشة حتى الأشخاص المسنين، لحدوث هذه الواقعة الجديدة وغير المعتادة.

حول هزة أرضية مرعبة في سافوي

وقعت في هذا العام هزة أرضية مخيفة في سافوي، في وديان مورين Maurienne، فيها تم هدم خمس قرى مع حظائر أبقارهم وأغنامهم وطواحينهم، وانتزعت الجبال والصخور في المناطق المجاورة من أماكنها التي وقفت عليها منذ الخليقة، وابتلعت واختفت في بعض كهوفها، وليس معروفاً فيما إذا كان هذا الدمار للجبال قد وقع، وفجرت الهزة الأرضية وأخرجت غضبها على القرى المذكورة بوساطة معجزة، أو أن ذلك جاء طبيعياً، ولكن بحكم أنها دمرت حوالي التسعة آلاف إنسان، وما لا يحصى عدده من الحيوانات، يبدو أنها تسببت بمعجزة وليس خلال المجرى العام للحوادث، ويقال بأن حدة العقوبة اللاهوتية، قد أعطت متنفساً لغضبها بشكل عادل، وأنزلته على سكان تلك المناطق، بهذا الشكل المهين، ودوننا تمييزاً لممارستهم تجارة الربا المعيبة، وكانوا موصومين كثيراً بالجشع، إلى حد أنهم قاموا في سبيل تغطية شرورهم بمظهر من الفضيلة، فلم يترددوا في تسمية أنفسهم تجار المال، وكانوا لا يخافون من السيمونية، وكانوا يتورطون وينغمسون من دون خوف أو رحمة في السلب والنهب، ولم يترددوا في قطع رقاب أو تسميم التجار أو العلماء الذين أرغموا على الذهاب إلى البلاط الروماني، وعبروا بطريقهم بهم، أو أقاموا معهم أثناء سفرهم، ولم يكونوا يدرون أن الانتقام الرباني كلما كان أكثر بطئاً، كلما كان أكثر حدة في ممارسة الغضب، ويشهد على هذا غريغوري المبارك الذي قال: «يسير الغضب الرباني الصارم نحو تنفيذ العقوبة بخطوات بطيئة، لكنه يعوض فيما بعد بطئه بقسوته».

كيف جرى طعن رئيس رهبان ثيتفورد من قبل واحد من رهبانه في سبيل أن يجري تنفيذ ما كتب في الانجيل، بات من الضروري، أو أن نقول أمراً لا بد من حدوثه هو «أن الفضيحة التي تسبب الويل

للدنيا، لابد من أن تصدر عن فضيحة»، فقد حدث في شهر كانون الأول من هذا العام، أن قام رئيس رهبان ثيتفورد Thetford، وكان أصله من سافوي، ومن رهبان دير كلوني، كما كان قد أعلن عن نفسه، أن له علاقة أو قرابة بالملكة، ولذلك تكبر وتجبر لهذا السبب، قام بتوجيه الدعوة إلى أخويه برنارد، وكان فارساً، وغويسكارد Guiscard، وكان كاهناً متوحشاً، للقدوم إلى بيته في ثيتفورد، وقد بقي هنا، تبعاً للعادة الليل كله، حتى صراخ الديك، منشغلاً بالأكل معهما، والشرب بدون اعتدال، ناسياً تعهداته: فهو نادراً ما أزعج نفسه ليكون حاضراً أثناء القداس، حتى القداسات الصغيرة، ونادراً ما ظهر في الساعات القانونية، ولكن في الصباح، كان يتقيأ الذي التهمه وشربه في الليل، لأنه كان يصحو متخماً بالطعام إلى أبعد الحدود، وإذا ما وصلت صرخات الفقير الجائع إلى أذنيه، كان يعير ذلك اهتماماً قليلاً في صدره، وكان كلما غادر برنارد، الذي كان واحداً من أخويه، كان غويسكارد، الأخ الآخر، الذي كان كرشه مثل كيس في المناخ الجليدي، والذي كان جسده يشكل حمولة عربية، كان يقيم معه مدة أطول، حيث كان يتلغ جميع طعام الرهبان في متاهة بطنه، وفيما بعد عندما يكون متخماً تماماً، يزدريهم ويحملهم الالهانات، وعندما كان راعي الدير المذكور يعامل رهبانه على هذه الصورة، وهم الذين تحملوا متاعب النهار وحرارته، وذلك وفق طريقة غير لائقة به، وكان يبدد بشكل مهين موارد هذه الكنيسة الصغيرة العائدة إليه، متجاوزاً — كما قلنا — جميع حدود الاعتدال في نهمة، نشب آنذاك صراع بينه وبين واحد من رهبانه، وكان ويلزي الأصل، وكان هذا الراهب قد استدعاه رئيس الرهبان، منذ وقت قصير، من كلوني، غير أنه أخذ يسعى الآن إلى إعادته إلى هناك، على الرغم من ارادته، وليس من باب الإحسان، بل صدوراً عن الكراهية، وذلك على الرغم من أن الراهب المذكور، عارض الإجراء، واعتذر عن نفسه على أسس منطقية، ولكن أعلن

رئيس الرهبان مقسماً بصوت مرتفع وبشكل مخيف، بأن على الراهب المذكور الذهاب إلى الحج مع جعبة ومحفظة، والتهب هذا الراهب الشيطاني بغضب عنيف، أو بالحري أصيب بالجنون، فسحب سكيناً، وغرسها في أمعاء رئيس الرهبان، من دون أي تردد في تنفيذ مثل هذه الجريمة في داخل الكنيسة وحاول راعي الدير المجروح مع حشجة الموت في حلقومه، أن يدعو الرهبان إلى مساعدته بصراخه، أو على الأقل بايقاظهم، لكنه كان غير قادر على فعل ذلك، نتيجة لتوقف شرايينه، وبناء عليه انقض الراهب المذكور عليه ثانية، وسدّد إليه ضربات ثقيلة أربع مرات أو ثلاث مرات متوالية، ودفن السكين حتى مقبضها في الجسد الهامد، وهكذا قام هذا الشقي، في سبيل زيادة ضرر الطائفة الرهبانية ضرراً كبيراً، وإلحاق العار بها فأرسل رئيس الرهبان التعيس إلى جهنم، في ظل الغضب لرب اقترفت بحقه الآثام، وقد رويت خبر هذه الواقعة بشكل كامل، حتى يحذر الذين سوف يقرأونها، من اقتراف مثل هذه الجريمة، حتى لايقذفوا بغضب من الرب إلى دمار ماثل، وجرى اعتقال منفذ هذه الجريمة من قبل الأشخاص الذين وصلوا إلى المكان، ولأنه كان جيد الحفاظ على نفسه، أودع في السجن، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الملك، انزعج كثيراً، بوساطة الشكاوى المستمرة للملكة، فأمر بالقاتل، فغلّ بالسلاسل، وبعدما حرم من عينيه، ألقي به في أعماق زنزانه في قلعة نورويك، وجاء ذلك دون أن يعبأ بالمبادئ التي قاتل في سبيلها القديس توماس الشهيد، في دفاعه عن واحد من الكهنة كان اقترف جريمة قتل، حتى أنه سفك دمه وبعثر دماغه، فقال بأن رجل الدين، خاصة الكاهن لايمكن أن يدان أمام لجنة حكم مدنية، أو أن يشنق بعدما تنتزع طوائفه منه، وهذا مبدأ في سبيله عانى واستشهد، أي أن الرب لايعاقب مرتين من أجل الذنب نفسه، فهو قد وضع حداً لعقوبة الشرير، وقدم جائزة أكبر بكثير مما استحقه الانسان، وأن خطيئة واحدة كافية ومعقولة

للتكفير عنها بعقوبة واحدة، وأتى على ذكر هذه الوقائع واحد من أعداء الرهبان بمثابة وصمة بحق الرهبان، وقام أحد الأشخاص، وكان صديقاً لهم ومحباً ومدافعاً خاصاً عن الدين، فقال مجيباً: «بين الملائكة أوجد الرب متمرداً، وبين الشمامسة السبعة ضالاً عن الطريق القويم، وبين الرسل خائن، والرب يمنع استخدام ذنب واحد، أو قلة للنيل والتشهير بمثل هذه الجماعة الكبيرة التعداد، وجرى التبشير بهذا الاعتدال من قبل واحد من الشعراء الكفار، الذي قال:

ينبغي أن لاتؤدي جريمة بعضهم إلى الإضرار بالجميع

حول خصام وقتال بين رهبان سيلبي وجون فرانسيس

ونشب في العام نفسه خصام بين رهبان سيلبي Selby وجون فرانسيس Francis وهو محاسب لدى الملك حول جميع التبن والقمح، وجرى قتل واحد من الرهبان، وجرح عدد آخر وتعرضهم للضرب، ومن أجل أن لاتمر هذه الفضيحة لوحدها، حدث في العام نفسه في رئاسة الرهبانية في كانتبري أن تعرض واحد من الرهبان إلى جراحة قاتلة على يد آخر.

الوفاة التعيسة لرئيس رهبان بينيثلي

وفي الشهر غير السعيد نفسه، حدث أن كان رئيس رهبان كنيسة صغيرة قرب دير القديس ألبان، يتفقد كومة من القمح، مما ندعوه بشكل عام الحاصل، ويقدر قيمته، وكانت أوعية هذا الحاصل غير مكدسة فوق بعضها بشكل صحيح، ولذلك اهتزت وتمايلت ووقعت عليه، ولفظ رئيس الرهبان هذا، الذي كان رجلاً بسيط التفكير وصغير الحجم أنفاسه ومات مخنوقاً، قبل أن يمكن رفع الأثقال التي تكدست عليه، ونجا الآخرون الذين كانوا إلى جانبه من خدام ورفاق رئيس الرهبان، لأن كميات صغيرة وقعت عليهم، ولكنها لم تقهرهم.

عقوبة حادة لزاني

أنا أعتقد أن الواقعة التالية، ينبغي عدم تجاوزها، مع أنها قد تبدو مضحكة، ففي هذا الشهر غير السعيد نفسه، ولكي لا يقال بأن الفضيحة قد قامت ضد رجال الدين وحدهم فقد نزلت الالهانة والالهانة التي لاتعوض على واحد من طائفة الفروسية، فقد كان هناك فارس من نورفولك Norfolk اسمه غودفري دي ميللر Millers، وكان من أصل نبيل، كما كان متميزاً في أعمال الفروسية، لكنه ضلل بشكل مهين ومخجل، حيث دخل بشكل سري مساكن جون البريتاني الذي كان فارساً، من أجل الاضطجاع مع ابنته، لكنه اعتقل من قبل بعض الأشخاص المتخفين، بالتوافق مع العاهرة نفسها، التي كانت خائفة من أن يعتقد أنها عشيقة رجل متزوج، وقد رموه بعنف إلى الأرض، وأوسعوه ضرباً بشدة وجرحوه، وبعد هذا جرى تعليقه إلى جذع شجرة، مع ساقيه وقد مددا وأبعدا عن بعضهما، وبعدما أصبح تحت تصرف أعدائه، مثلوا به وشوهوه بشكل مخجل إلى درجة كان يفضل فيها أن يقطع بها رأسه، وهكذا بعدما جرح وشوه، ألقى به خارج البيت نصف ميت، ووصلت شكوى حول هذا الإجراء إلى الملك، وألقي القبض على الذين اقترفوا هذا العمل الوحشي الكبير، وعلى جون البريتاني، حيث وجد مداناً في هذه الجريمة، وقد جرد من ممتلكاته وميراثه، وطرد بصورة أبدية، ولم يمكن العثور على العاهرة، ذلك أنها أخفت نفسها في أماكن سرية لايمكن الوصول إليها، وهكذا نجت مع شيء من المصاعب، من المؤامرات التي حيكت ضد حياتها، وجميع الذين كانوا حضوراً أثناء اقتراف هذه الفعلية الوحشية الكبيرة، جرى إخراجهم إلى المنفى مطاردين بلا مأوى، وهكذا فإن هذه الجريمة اللاانسانية والحالية من الرحمة، قد تورط بها عدد كبير من النبلاء بشكل مأساوي محزن، وحدث في حوالي الوقت نفسه أيضاً، أن كاهناً

وسيمًا، أو بالحري قسيساً لكنيسة غنية، قد تفوق على جميع الفرسان الذين عاشوا من حوله في تقديم الضيافات المتوالية، وأعمال الكرم، فهذا أيضاً قد تورط في مأساة ماثلة، وثارَت عاطفة الملك مع الشفقة، وقد حزن بشكل عميق، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي ما عدَّ بمثابة قانون، أن ما من إنسان يجوز له الاقدام على تشويه آخر من أجل الزنا، إلا في حالة زوجته.

حول وقوع عدة حرائق بالصدفة

ووقعت في هذا العام أيضاً واقعة تستحق التسجيل، لأنها كانت مدهشة، وهي قد رأينا أنها تستحق الادخال في رواية هذا العمل، بحكم أننا لانتذكر مطلقاً أننا رأينا مثلها من قبل، فقد حدث في كثير من المناطق، بسبب غضب الرب، أن استعرت نيران مدمرة، حولت مدناً وبلداناً إلى رماد، مع أنها لم تتسبب بالحرارة ولا بجفاف الأرض، لأنه في ألمانيا —بالإضافة إلى الخسائر الأخرى التي نجمت عن غضب لهب النار المستعرة— تحولت الكنيسة الكاتدرائية للقديس بطرس في كولون (التي هي بالفعل أم الكنائس جميعاً في ألمانيا) إلى مجرد جدران، وكان ذلك بوساطة اللهب، وفي فرنسا أيضاً تعرضت مدن وبلدات للدمار بوساطة النيران، وحدثت في نورماندي خسائر لا يمكن تعويضها بوساطة غضبها الذي تعذر ضبطه، وفي انكلترا —دون أن نذكر القضايا الأخرى— جرى احتراق الجزء الأكبر من منقطة نيوكاسل على التاين، مع جسرهما، بوساطة النيران المستعرة، واستعرت في النروج إلى درجة هائلة في ثلاث مدن رئيسية، مما سبب العجب والدهشة إلى عقول الجميع، وكانت إحدى هذه المدن تدعى بيرجن Bergen، فقد احترقت كلياً وتحولت إلى رماد، باستثناء أربعة بيوت دينية، والقصر، وبيعة، ومساكن الملك، وقد احترقت إحدى عشرة أبرشية في المدينة المذكورة، بالإضافة إلى بعض البيوت التي كانت عائدة إلى الأسقف،

وانتشر لهيب نيران الانتقام للذنوب هذه، مثل نيران قذفها نين، كان يجر ذيله وراءه، فوصلت إلى قلعة الملك، التي كانت تبعد مسافة خمس رميات قوس عن المدينة، وبذلك ما من شيء ظهر أكثر تأكيداً ووضوحاً إلى السكان من أن حدة الانتقام الرباني قد تسببت بهذه الكارثة، فالقلعة التي كانت قد بنيت من أفضل الحجارة وأقساها قد تحولت إلى رماد، وفي اليوم التالي جعل الرب الرعد يدوي فوق موقع المدينة، ومعه برق أصاب سفينة كبيرة كانت قد وصلت من انكلترا أثناء الليل، فقتلت رجلاً واحداً، وجرحت أو تسببت برضوض قاسية إلى جميع الآخرين، وشطرت السارية وحولتها إلى قطع صغيرة، قذفتها إلى البحر، وتعرضت جميع السفن التي كانت في الميناء أيضاً، وكان عددها حوالي المائتين أو أكثر إلى الأذى، ووصل صاحب هذا الكتاب إلى السفينة التي تحطمت ساريتها، لأنه كان وقت الحادث يقوم بتأدية قداس في كنيسة قرب شاطئ البحر، وينشد ترنيمة بحرية، لتقديم الشكر إلى الرب بعد النجاة من مخاطر البحر، وعندما نقلت أخبار هذه الوقائع إلى الملك، قام صدوراً عن تقديره للشخص الذي كان على ظهر تلك السفينة، فأمر له بسارية أكبر وأفضل ليتزود بها.

وبعد عيد القديس ميكائيل، عبر أسقف نورويك البحر، لأسباب سرية محددة.

حول الأوامر غير العادلة لرئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة نفسها، أظهر بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان يقاتل في سبيل البابا في منطقة ليون، قليلاً من القلق نحو الكنيسة، مع أنه كان قد جرى تعيينه من أجل معالجة الأرواح، واعتماداً منه على السلطات الرسولية، استخرج كثيراً من الأموال من الكنائس الشاغرة، في أبرشيته، التي كان غولاً بالاحتفاظ بها بين يديه لمدة سنة واحدة، وهكذا باتت انكلترا غير السعيدة، مثل كرم تم التخلي عنه

كمأكلة إلى الأرانب البرية، ولكل عابر ليقوم بجني عنبه، وفي سبيل أن يجرح قلوب الذين سلبهم، بعمق أكثر، أمر أن يجري الإعلان، بوساطة عميد بوفياس Beauvais، الذي كان نائبه في هذه القضية، بأن جميع الأشخاص — باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والإيرل رتشارد اللامع — سوف يجرمون كنسياً، إذا كانوا قد وجهوا اللوم سراً أو علناً، أو تكلموا من دون احترام، حول المعروف الذي منحه البابا إياه، وأعطاه إليه، أي إلى رئيس الأساقفة المذكور، أو أن يقوم بأي شكل من الأشكال بمعارضته، أو عمل أي تعويق له أو تملص منه، أو أن يمارس أي خداع في مسألة المباح المتقدم ذكرها، وجرى نشر وصية الولاية في كل واحدة من الكنائس في جميع أرجاء انكلترا، فأنتجت غضباً في قلوب الكثيرين، بسبب كل من الأذى الذي لم يسمع بمثله والاستخراجات الجشعة للمال، وأيضاً الاضافات المفتوحة لها، وتفوهوا بلعنات من القلب ضد الملك الذي سمح بهذه الإجراءات ووافق عليها.

كيف قدم رسل إلى عند البابا من لدن التتار

قدم في صيف هذا العام رسولان تتاريان من عند أميرهم إلى البابا، لكن محتوى رسالتهما بقيت سرية مغلقة عن الجميع في ذلك البلاط، ولم يكن ذلك معروفاً لدى الكهنة ولا الأعيان، ولا من قبل الآخرين مهما كانوا مقرين من قداسته، وكانت رسالتهما التي جلباها إلى البابا قد جرت ترجمتها من لغة غير معروفة إلى لغة وافقت الناس أكثر، وكان ذلك لدى اقترابهما من البلدان الغربية، وكان من المخمن من خلال بعض الاشارات، بأن الرسائل قد حوت اقتراحاً، وخطة من التتار المذكورين، في أن يقوموا بحرب فورية ضد بتاكوس الاغريقي زوج ابنة فردريك، وهو منشق وغير مطيع للكنيسة الرومانية، ومن المعتقد أن هذا العرض كان مفرحاً كثيراً للبابا، بدليل أنه أعطاهما بعض الثياب

الشمينة، التي ندعوها بشكل عام ملابس، وكانت مصنوعة من أقمشة أرجوانية مختارة، مع أردية، وفراء من جلود القاقم، وتحدث معها مراراً بشكل مفتوح وبطريقة ودودة بوساطة المترجمين، وقدم لهما بشكل سري هدايا من الذهب والفضة.

حول المظالم التي مورست يومياً ضدّ الإنكليز من قبل البلاط الروماني

في هذا العام نفسه ازدادت المظالم التي أبدعت بطرق مضاعفة، وتدفقت من البلاط الروماني وانصبّت على التعساء الإنكليز، يومياً، وتضاعفت، فبالإضافة إلى المظالم والعبودية غير العادية، بسبب تعليق الأساقفة ومنعهم من استثمار منافعهم حتى يكون لهم الرومان قد أشبع، والتي ضدها لم يصرخ الملك الصغير لجبنه وخوره، جرى في كل يوم ارسال أسراب من المظالم المقيمة وقذفها، ومع أننا لانستطيع ذكر جميع الأضرار (لأن ذلك صعباً، لابل في الحقيقة من المستحيل فعل ذلك) رأينا من الموائم أن نقحم ذكر بعضها في هذا الكتاب، حتى يحزن الذي سوف يقرأ عنهم، ولكي يقوم الحزين بالشكوى إلى الرب، فلعله في بعض مستقبل الأيام أن نتحرر منهم بفضلهم، ومن أجل أن يرى الجميع الحالة المحزنة لانكلترا، التي حرمت من حكامها ومن المدافعين عنها، وتلقى راعي دير أبנגدون Abingdon ولاية من البابا بأن يقوم على الفور بتجهيز وظيفة لواحد من الرومان، لكن هذا الروماني رفض اختيار وقبول أية كنيسة، إلا الكنيسة الغنية، فانتظر بهدوء، وأخفى نواياه، حتى تصبح إحدى الكنائس الفخمة والغنية شاغرة، وكانت أولى الكنائس التي أصبحت كذلك كنيسة القديسة هيلين في بلدة أبנגدون، والتي عدّت أنها تساوي مائة مارك، وكانت مزودة بكل المنافع، لأنها كانت موجودة في منطقة كانت خاضعة للدير المذكور، وطالب الروماني الذي كان هادئاً منذ وقت طويل، بهذه

الكنيسة على الفور، وضغط بإلحاح بالطلب بوجوب أن تعطى إليه، بموجب سلطات الكرسي الرسولي، وفي اليوم الذي أصبحت فيه الكنيسة شاغرة، تلقى راعي الدير أمراً مستعجلاً كثيراً من الملك، ممزوجاً بالتهديدات والالتماسات والوعود، بأن عليه تسليم الكنيسة المذكورة إلى أخيه - الملك - من أمه ايثيلمار، مع أن هذا الأخير كان بين يديه الآن عدداً وافراً من الكنائس والموارد، علينا أن لانعجب إذا كان هو نفسه لم يعرف عددهم ولا قيمتهم، وبناء عليه، بات راعي الدير في حالة حيرة واضطراب، وكأنه قد سحق بين حجري طاحون دائرين، فاستشار الرهبان في ديريه وبعض الأصدقاء الجديين والمخلصين، حول القضية فأجابوه: «من الواضح أنها قضية صعبة من على الجانبين، لكن إذا كان الملك راغب بحمايتك من عنف البابا، نحن نعتقد أنه سوف يكون أفضل إعطاء الكنيسة إلى أخيه هذا، بحكم أنه أميرنا وراعيها، وليس الرومان، الذين سوف يداومون بشكل سيء. التآمر ضدك، وهم بالفعل مضطهدون لا يعرفون التعب، وكأنهم شوكة في عينك»، وجرى إبلاغ الملك بهذا القرار في الوقت المناسب، فأقدم على الفور بوعده راعي الدير المذكور بحمايته الخاصة، ووقايته من الخسارة، وبناء عليه، قام راعي الدير، اعتماداً على هذه الكلمات المخادعة، فأعطى الكنيسة إلى ايثيلمار المذكور، بناء على التماس الملك، وبناء عليه ذهب الروماني المتقدم الذكر على الفور وهو شديد الغضب إلى البابا، مع شكوى ثقيلة، وحكى له اشكاليات الموضوع، مع اضافات من عنده حتى يثير غضب البابا، وبناء عليه استدعى قداسته راعي الدير المذكور للمثول أمامه للاجابة على تهمة عدم الطاعة، وبات راعي الدير محروماً من كل مواساة ومساعدة من الملك، مع أنه غالباً ماطلب ذلك، ومع أنه كان رجلاً عجوزاً وضعيفاً، فقد ذهب إلى البلاط الروماني، وبعدما تعرض هناك إلى كثير من الآلام، وإلى دفع نفقات كبيرة، أرغم على تقديم ترضية إلى الروماني المذكور، تبعاً لقرار

البابا، بأن دفع له خمسين ماركاً سنوياً من حجراته، مما ألحق ضرراً عظيماً بكنيسته.

مظلمة أخرى كبيرة جداً للبابا

في هذا العام نفسه أيضاً أخذ راعي دير القديس ادموند من بيننا، ووضع الملك جانباً كل خوف من الرب واحترام إلى الشهيد، الذي كان مرتبطاً به بشكل خاص، وذلك لأسباب كثيرة، في أن يقدسه، فأخذ مبلغاً كبيراً من المال من ذلك الدير، وذلك عندما أصبح شاغراً، وبأخذه لهذا المبلغ بدا وكأنه قد فقد جميع مشاعر الرحمة، لأنه بالإضافة إلى المدفوعات التي سددت إلى النواب الملكيين، استخرج بوحشية ألفاً ومائتي مارك من الدير، وعندما قام الرهبان بانتخاب راع جديد ليأخذ مكان الراعي الذي توفي مؤخراً، أرسلوا بعضاً من جماعتهم إلى البلاط الروماني للحصول على تثبيت للانتخاب نفسه، وتعرض كل من المنتخبين والمنتخب إلى فحص شديد، وفي النهاية تم رفض الفريقين، وتوجب وضعهما في وضع محزن، لكن هذا الوضع بدا أكثر من محزن من جميع الجوانب، وعندما كان الراهبان على وشك المغادرة أسفين خجلين، استدعاهما البابا وقال: «بما أنكما تعساء فأنتما بحاجة إلى الرحمة، وإننا صدوراً عن عمل الإحسان، ولكي لا تنزعجا نسمح لكما في الوقت الحالي بهذا الراعي المنتخب، وبحرية وإرادة نعطيهِ دير القديس ادموند، لكن عليه أن يدفع ثمانمائة مارك، وعليه تسديد ذلك إلى التاجر الذي سوف نرسله له لهذه الغاية، والذي نحن مدانون له كثيراً»، وهكذا غادر الراهبان، بعدما وقعا في المصيدة، ولكنهما كانا قد أنهكا بسبب كثير من الأذى الذي لحقهما والمظالم، وقد حزنا من دون مواساة، ولذلك مات واحد منهما في ليون، قبل أن يغادرا البلاط الروماني، وتلاشى الآخر من الآلام والانزعاج في القلب، وغادر طريق الجسد كله في دوفر، أثناء عودته من ذلك البلاط القاسي.

وفاة راعي دير وولثام

ومات أيضاً في هذه الآونة راعي دير وولثام Waltham، صاحب الذكرى التقيّة كثيراً، وكان واحداً من رهبان طائفة القديس أوغسطين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته.

موت سيمون لانغتون

ومات في هذا العام المعلم سيمون لانغتون Langton، وهو أخو ستيفن رئيس أساقفة كانتربري وصاحب الذكرى اللامعة، ورئيس شمامسة كنيسة تلك المدينة، وكان هو مضطهداً ومزعجاً لكنيسته، كنيسة كانتربري، ولكن لاجب في ذلك، لأنه كان المثير والمسبب للاضطراب للمملكة الفرنسية، وكذلك بالنسبة لمملكة انكلترا، وكان هذا عندما اضطربت كثيراً بالحرب، وذلك حسبما ذكرنا من قبل في المكان المناسب.

موت جون بلند

ومات في العام نفسه أيضاً المعلم جون بلند Blund، المستشار لكنيسة يورك، وكان لاهوتياً متميزاً، وقد انتخب مرة رئيساً لأساقفة كانتربري، لكن الانتخاب ألغي من قبل سيمون المتقدم ذكره أعلاه، وهكذا ذهب مثير الاضطراب والذي تعرض إلى الاضطراب، للالتحاق بحشود الموتى، ومات الايرل باتريك أيضاً، الذي كان يعدّ الأكثر قوة بين نبلاء سكوتلندا، ومات هذا النبل وهو حامل لشعار الصليب، عندما كان في الحج برفقة الملك الفرنسي، ومن المعتقد أنه حمل الصليب حتى يتمكن من ارضاء الرب، والقديس أوسوين Oswin، لأنه ألحق الضرر والأذى بشكل غير عادل بكنيسة التاينهاوث، وبدير كان مكرساً للقديس ألبان، ومرتبطاً بشكل رباني خاص بالملك أوسوين المبارك والشهيد، وحيث رقد جسد ذلك القديس مدفوناً.

كيف جرى إرسال الراهب متى إلى نورماندي

أحاق في هذا العام خطر عظيم بواحد من الديرة الفخمة في النروج، وهو الذي عرف باسم دير القديس بندكت أوف هولم Holm، وكان قد تأسس من قبل كنوت Cnut الذي كان من أعظم الملوك نبلاً، وهو الذي كان أيضاً قد أسس ديراً آخر بالاسم نفسه وتابع للطائفة نفسها، في انكلترا، ذلك أنه أفقر كثيراً، وكان الرهبان قد تبعثروا، والدير نفسه كان قد تدمر تقريباً، مع متعلقاته، وكان راعي الدير قد تخلى عن الطائفة، وغادر بشكل سري، أخذاً معه ختم الهيئة الرهبانية، تحت مظهر اقطاعي، وكان إما قد باع جميع محتويات الدير، أو رهنها بالضمان بشكل أساسي، وأخذ معه واحداً من الرهبان، كان الحافظ لغرفة المقدسات، وهو الذي كان مسؤولاً عن الختم، كما كان أيضاً مطلعاً على جريمته ومشاركاً بها، وكان الآن مع راعي الدير المذكور مرتدّاً، وطريداً، ونتيجة لهذا، قام رئيس أساقفة درونثيم Drontheim، الذي كان الدير المذكور في أسقفيته، بوضع الدير بين يديه، مع جميع متعلقاته، واتهم الرهبان بأنهم رهباناً بالمظهر فقط، وأنهم كانوا جاهلين بأحكام الطائفة الديرية، وبالقديس بندكت، وظهروا أنهم قد خرقوا النظم الديرية واعتدوا عليها، وأن بعضهم كانوا لصوصاً ومطاردين، لكن الرهبان، الذين مع أنهم بقيوا من دون راعي، ظلوا يقاتلون في سبيل الرب، في بعض السبل، تحت قيادة رئيسهم، ولجأوا إلى تقديم التماس، وطاروا إلى الخبر الأعظم لحماية أنفسهم، لأنه كان ظلماً وبعيداً عن المنطق، أن تطال خطيئة واحد، أو اثنين، أو حتى قلة، الطائفة كلها، واعتماداً على الالتماس، لم يتجرأ رئيس الأساقفة على التهادي في ازعاجهم أو القيام بأية اجراءات جديدة، وبناء عليه تمكن رئيس الرهبان، بشكل حكيم من استرداد بعض ممتلكاتهم، وجمع بعض المال، وذهب إلى البلاط الروماني، لكن راعي الدير المرتد وشريكه كانا

هناك من بعض الوقت قبله، وباعطائهم صكوكاً مختومة بالختم المسروق، وضعا الدير المذكور تحت دين يساوي حوالي الخمسمائة مارك، وبناء عليه عاد رئيس الرهبان إلى الوطن مضطرباً وحزيناً، لكن قبل أن يصل إلى هناك سمع بأن هذا الراعي التعيس قد مات في دير القديس ألبان في ذل Zell في النروج، وبعدهما حصل على هذا الخبر، قام هو والرهبان بانتخاب راعي دير جديد، وعلى هذا أعيد رئيس الرهبان المذكور مع واحد من الرهبان رفيقاً له، ومعهما مبلغ ثلاثمائة مارك، وكان معهما رسائل موجهة إلى الراهب متى باريس، فيها التماس بأن يبذل غاية مساعيه في سبيل تحريرهم من دينهم، وفي النهاية أمكن بسعادة الترتيب بأن يتحرر الدير المذكور من دفع الدين فقط، وبعد الحصول على جميع الكتابات والأدوات التي بموجبها عدّ دير هولم مداناً إلى السماسرة الذين كانوا آنذاك في لندن، عاد الدير خلال سنة سليماً ومتحرراً تماماً، لكن مع أنه تنفس بحرية في ميدان المسائل الدنيوية، ظل الرهبان غارقين في حالة اضطراب بالنسبة للمسؤوليات الروحية، ومكثوا متخفين، ومع بعض الصعوبات، وبوساطة هدايا متوالية حصلوا على استراحة قصيرة خشية من أن يقوم رئيس الأساقفة فيضع بين يديه الجزيرة كلها، التي كانت ملكاً للدير المذكور نفسه، الذي كان مقاماً في الجزيرة مع متعلقاته، وأن يرغب الرهبان على الفرار، وهم الذين قال عنهم بأنهم رهبان بالاسم فقط، وفي تلك الآونة كان أسقف ساينا وكاردينال الكرسي الرسولي، قد وصل — كما ذكرنا من قبل — إلى النروج بمثابة نائب بابوي، وإليه طار على الفور هؤلاء الرهبان، الذين ظلموا بشكل حاد من قبل رئيس أساقفتهم، ليتلقوا منه المواساة في محنتهم، وجواباً منه على شكواهم قال: «أبنائي أنا جاهل تماماً بالأحكام المرعية وبنظام القديس بندكت، غير أنني أنصحكم باخلاص جيد بأن تذهبوا إلى البلاط الروماني، وأن تلتمسوا من قداسة البابا تزويدكم بشخص موثم ليقوم بإصلاح طائفتكم، وليكون لكم موجهاً

مناسباً، وأنا سوف أكتب له ملتمساً لصالحكم، وسوف أرجوه أن يتلطف بالاصغاء إلى طلبكم في هذه القضية، ولا تتحمل هذه القضية التأخير، لأن رئيس أساقفتكم شديد الاصرار في مساعيه على طردكم بحجة جهلكم»، وبناء عليه ذهب راعي الدير إلى البلاط، مرافقاً برئيس الرهبان، وبعدما أبلغاه برغبتهما، حصلا على رسائل التماس من ملكهما ومن النائب البابوي، وجواباً على طلبهما قال البابا: «أبنائي إذا كنتما جاهلين بالأشياء التي ينبغي أن تعرفها، استخدمنا البحث والتقصي، واختارنا شخصاً ما لتعليمكما الأحكام والنظم، وأية بلد أو دير، أو من ستفضلانه وتطلبانه سوف يمنح لكما، وادرسا للحصول على المعلومات، حتى لا يتمكن عدوكما من التغلب عليكما»، وبعدما قاما في اليوم التالي بالتشاور والتباحث مع رجال آخرين جادين ومستقيمين، أعطيا جوابهما إلى البابا كما يلي: «يا صاحب القداسة لقد تعلمنا بالتجربة أن الرهبان في طائفتك ليسوا منظمين تماماً في كل مكان من العالم كله، وذلك كما نعتقد أنه موجود في انكلترا، كما أنه لا يوجد — كما سمعنا من التقارير — هناك أي دير حسن التنظيم في المملكة الانكليزية، مثل دير القديس ألبان، الذي هو الرائد الشهيد لانكلترا، ولذلك نطلب واحداً من رهبان ذلك الدير اسمه متى، الذي جربنا حكمته واخلاصه، ليتولى تعليمنا وتوجيهنا، بالإضافة إلى ذلك هو صديق مقرب من ملكنا، الذي يمكن أن يكون قادراً بوسائطه، إذا ما رأى الأمر ضرورياً، اخضاع أية عصاة ضده»، وبما أن هذا الجواب أَرْضَى البابا، فقد حصل هذان الراهبان منه على الإجازة التالية، لتقديمها إلى راعي دير القديس ألبان.

إجازة البابا إلى راعي دير القديس ألبان

«من أنوسنت، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، الراعي لدير القديس ألبان، من طائفة البندكتيين في انكلترا: إنه بناء على ما ذكر لنا من جانب ولدنا المحبوب كثيراً، راعي دير هولم التابع لطائفة البندكتيين، في

أسقفية درونثيم، إن الدير المذكور، قد سقط بسبب إهمال أسلافه بالفوضى، فيما يتعلق بالقضايا العائدة إلى النظام الرهباني، وبما أنه تعذر الحصول في تلك الجهات على واحد عالم بصورة جيدة بالنظم وبمراعاتها، أي النظم العائدة إلى تلك الطائفة، نحن نرجوكم، بناء على التماس الراعي المذكور، ونحثكم، ونأمركم بوساطة هذه الرسائل الرسولية أن ترسلوا إلى الدير المذكور، ولدنا المحبوب منا كثيراً، متى الذي هو راهب في جماعتكم، والذي يتمتع بسيرة مرضية في الحياة، والذي هو مجرب بالحياة الرهبانية، وذلك من أجل أن يقوم بتعليم وتوجيه الراعي المذكور في مجال الأنظمة المرعية والأحكام العائدة إلى تلك الطائفة، وهذا سوف لن تتأخر بعمله صدوراً عن احترامك للرب، وللكرسي المقدس».

وبناء عليه أطاع راعي دير القديس ألبان البابا، كما كان متوجباً عليه، وقام الراهب المذكور بإطاعة راعيه، وسار العمل على مايرام، وتمت الترتيبات بشكل ناجح، واستمر دير هولم في النروج بسلام وازدهار، واسترد النظام الرهباني، الذي كان عرضة إلى مخاطر كبيرة في تلك البلاد، الآن أنفاسه بفضل الرب، وكذلك فعلت الدير الأخرى هناك.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على مدينة اشبيلية الفخمة في اسبانيا، وكان ذلك من قبل ملك قشتالة المسيحي العظيم، وتميزت كرامة ربنا يسوع المسيح بوساطة عنوان المسيحية.

هزة أرضية في إنكلترا

وفي العام نفسه، في يوم قدوم ربنا، الذي كان اليوم الرابع قبل عيد الميلاد، وقعت هزة أرضية في إنكلترا، بها (حسبما جرى اخبار كاتب هذا العمل من قبل أسقف باث، الذي وقعت الهزة في أسقفيته) تدمرت جدران الأبنية، وانتزعت الحجارة من أماكنها، وظهرت فجوات في

الجدران المدمرة، وكان السقف الجملوني المقنطر الذي وضع على رأس كنيسة ويل Wells بعد بذل جهود كبيرة من قبل البنائين — وكان كتلة كبيرة ذات حجم كبير ووزن عظيم — قد قذف من مكانه، مما سبب كثيراً من الدمار، فقد سقط فوق الكنيسة، محدثاً ضجة مرعبة، لدى سقوطه من ذلك الارتفاع، وبذلك أصابت الضجة بالرعب الشديد كل الذين سمعوها، وأثناء تلك الهزة الأرضية، وقعت واقعة مدهشة، فقد سقطت رؤوس المداخل، والشرافات، والأعمدة من أماكنها، لكن قواعدهم وأسسهم لم تتأثر مطلقاً، مع أن العكس كان من الطبيعي حدوثه، وكانت هذه الهزة الأرضية هي الثالثة بالوقوع خلال ثلاثة أعوام، على هذا الجانب من الألب، حيث وقعت واحدة في سافوي، واثنان في انكلترا، وهي واقعة لم يسمع بمثلها منذ بداية الدنيا، ولذلك كانت الأكثر رعباً وضرراً.

خاتمة العام

عبر هذا العام عادياً وهادئاً، وملاً السنابل بكميات كبيرة من القمح، وجعل المعاصر تتدفق بالخمرة، وكانت وفرة المواسم كبيرة إلى حد أن معيار القمح قد سقط سعره إلى شلنين، وقد بيع دن الخمرة الممتازة بشكل مطلق بباركين، وكانت فواكه الحدائق وافرة كثيراً في بعض الأماكن وقليلة في أماكن أخرى، ولكن ديدان الأرض دمرت كلياً كل شيء أخضر، وقد تسرب المرض إلى الأغصان، وبرهنت أحداث هذا العام، أنها كانت عدوانية بالنسبة إلى الأرض المقدسة، غير مستقرة بالنسبة إلى إيطاليا، ميمتة بالنسبة لألمانيا، وغير موافقة بالنسبة لانكلترا، ومدمرة بالنسبة لفرنسا، ولكي نجمل كثيراً من التفاصيل بكلمات قليلة، كان هذا العام مستهلكاً للمال تقريباً في كل بلد من بلدان المسيحية، وقدم في كثير من الجوانب شارات تدل على أن نهاية الدنيا باتت قريبة، وذلك حسبنا قرأنا «سوف تثور أمم ضد أمم وسوف تكون هناك

هزات أرضية في بعض الأماكن»، كما أن هناك نبوءات أخرى، وكان هذا العام بالنسبة للبلاط الروماني، مصدراً للعار، والشنار، ومن الواضح أن ذلك كان بموجب تهديد الغضب الرباني، وكان المناخ في الشتاء متغيراً كلياً إلى مناخ الربيع، ولذلك لم يغط لالثلج ولاالجليد وجه الأرض ليومين معاً، وكان من الممكن رؤية الأشجار وقد أخذت تورق في شباط، والطيور تغرد وتلعب وكأنها كانت في نيسان.

كيف طلب الملك منحه هدايا من سكان لندن

عام ١٢٤٩، هو العام الثالث والثلاثين لحكم الملك هنري، وقد أمضى عيد الميلاد في لندن، وكان أخوه الايرل رتشارد يحتفل في وولنغفورد Wallingford أثناء هذا الموسم المهيب بأيام القدوم، برفقة عدد كبير من النبلاء، كانوا ضيوفه، وعقد في الوقت نفسه ايرل غلوستر بلاطه بأبهة دنيوية لم تكن أقل، قرب غلوستر، على حدود ويلز، لكن الملك خرق من دون حياء حدود الكرامة الملكية في يوم عيد الختانة، واستخرج من كل واحد من سكان لندن الهدية الأولى، التي اعتاد الناس على تسميتها خرافياً باسم هدايا السنة الجديدة.

الاحتفال الفخم بيوم عيد القديس إدوارد

ومع اقتراب عيد القديس ادوارد، الذي يحل عشية عيد الغطاس، دعا الملك بوساطة رسائله عدداً كبيراً من النبلاء للاحتفال بذلك العيد معه في كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وقام هو نفسه في عشية ذلك العيد، الذي كان يوم اثنين، فصام على الخبز والماء، وفقاً للعادة المتبعة، وارتدى ملابس صوفية، وبناء عليه اجتمع عدد كبير منهم هناك، صدوراً عن الاخلاص والمحبة التي شعروا بها نحو القديس، وكذلك في سبيل تعبد دم المسيح الذي تم الحصول عليه مؤخراً، وأيضاً من أجل العفو عن الذنوب الذي يتم الحصول عليه هناك، مع الاحترام

المتوجب إلى الملك أيضاً، لأنه هو الذي دعاهم، ولقد اجتمعوا الآن هناك مع الملك والملكة، والاييرل رتشارد، وروجر الايرل مارشال، وأربعة آخرين، والعدد نفسه من الأساقفة.

عودة إيرل ليستر

كان الملك مقيماً في ويستمنستر أثناء عيد الميلاد، وعاد آنذاك سيمون إيرل ليستر من غسكوني مع بعض النبلاء الآخرين، والفرسان والأعوان، الذين كانوا يقاتلون هناك باخلاص في سبيل الملك، وأبجج وصولهم الملك والبلاط كله إلى درجة عالية جداً، لأن ذلك الايرل كان قد أرغم غاستون ابن كونتيسة بيارد، الخائن بحق ملك انكلترا، أن يقبل بشروط للهدنة، حتى وإن كان ذلك ضد ارادته، وكان غاستون هذا قد ألحق أضراراً كبيرة في تلك المقاطعة بالتآمر ضد الملك، حتى أنه دمر وأفسد البلاد كلها، وبالحخداع والخيانة أقنع الناس بالتخلي عن ولائهم إلى ملكهم، لأن غاستون المذكور كانت لديه أموالاً كثيرة، هي التي حصل عليها من الملك عندما كان في غسكوني بوساطة وعود خادعة، وكانت أمه مماشية له وموافقة على إجراءات ولدها المخادع، مع أنها كانت في الوقت نفسه، قد حصلت أيضاً بشكل دنيء على مبلغ كبير من المال من الملك المسحور، وذلك من الأموال التي سحبها من انكلترا، من أجل اذلال المملكة وافقارها، ومعها كذلك النبلاء فيها والأساقفة.

وعلاوة على ذلك، قام الايرل المتقدم ذكره، مدعوماً بعون المخلصين إلى الملك، فاعتقل لصاً كبيراً، وخائناً، وأكثر أعداء الملك دموية، واسمه وليم بيرترام أوف ايرمونت Bertram of Aigremont، وكان قد اقترف جرائم كثيرة في غسكوني وفي المناطق المجاورة، وقد وضعه الايرل الآن في سجن مضيق عليه في برج راؤل Reole، وذلك إلى أن يرغب الملك بأن يرجع هذا الايرل إلى غسكوني لسحقه ولسحق الأعداء الآخرين للملك.

الظلم الكبير الذي أنزل بسكان لندن من قبل الملك

ولم يقدم الملك — على كل حال — التمجيد إلى الرب، رب الحشود، على النصر الذي منح له، بل بدأ الآن يفكر بشكل مشاير، كيف يمكنه أن يجفف بثر انكلترا الذي لا ينضب، لأنه لدى مقابلة مع الذين جرى طردهم للتو من جماعة الأمراء، حسبما تقدم الذكر أعلاه، والذين قالوا بأنهم لن يستمروا في تبديد ثرواتهم من أجل تدمير المملكة، درس بوساطة ابداعات بارعة كيف يمكن أن يروي عطشهم، ففور الانتهاء من احتفالات أعياد الفصل المذكور، شرع في تنفيذ الخطة التالية، بالقيام بمضايقة سكان لندن، بتعليق حركة نقل البضائع في تلك المدينة كما جرى الذكر من قبل، وذلك لمدة أربعة عشر يوماً، بوساطة إقامة سوق جديد في ويستمنستر لالحاق الخسارة والأذى بكثيرين، وإثر ذلك على الفور أرسل رسائل إليهم بوساطة وكلائه تحتوي التماسات ذكية، ورجاوات ملكية مهيبة، يطلب منهم مساعدة مالية، ولدى تسلم سكان المدينة هذه الرسالة، حزنوا حتى الأعماق، وقالوا: «الويل لنا، الويل لنا، أين هي حرية لندن، التي غالباً ما بيعت، وغالباً ما منحت، وغالباً ما ضمنت بوساطة كتابات، وغالباً ما أقسم على احترامها؟ لأننا في كل سنة تقريباً أفقرنا مثل عبيد من الحالة الدنيا، وذلك بوساطة ضرائب جديدة، وبالأذى والمضايقة بمحاججات ثعلبية ماهرة، كما لا يمكننا أن نعرف إلى أي قعر عميق آل مآل الأملاك التي سرقت منها وجرى ابتلاعها»، وبعد لأي، ومع أن المبالغ المطلوبة كانت كبيرة، على كل حال، وافق سكان المدينة، وإن كان ذلك بالإكراه ومع آلام بالقلب، وأذعنوا بتقديم الموافقة، على الاسهام بألفي باوند، تدفع إلى الملك خلال وقت قصير، وعلاوة على ذلك فإن مظالمه المعتادة استعرت من دون هوادة، لأن جميع المواد المعروضة للبيع، إن لم تكن مخفية جرى الاستيلاء عليها كما هي، خاصة اللحوم والمشروبات، وقد سلبت لصالح

استخدامات الملك، مع أن بيته لم يتطلب أية زيادة في الضيافة من ذلك، لكنه وقد تخلّى عن كل الحياء، دمع نفسه بزيادة كل يوم بسمه البخل الشنيعة، والمضافة الملكية القديمة طردت من أمام بابه، ومعها المائدة الرومانية المعتادة، فهذه زالت أيضاً، مما أساء إلى سمعته إلى درجة كبيرة ولكرامته كملك.

كيف استجدى الملك المال من نبلائه واحداً واحداً

وفي هذه الآونة، عندما لم يستطع الملك تطويع نبلاء المملكة حتى يوافقوا على طلبه وهم متحدين، لجأ إلى الطرائق الرومانية المعتادة، فأرسل إلى كل من النبلاء، أو كتب إلى كل واحد منهم، وقد خاطبهم بالتماسات مهينة قائلاً: «أنا رجل فقير، أنا مجرد تماماً من المال، وأنا أجد من الضروري أن يقوم كل واحد منكم بإعطائي مساعدة فعالة، ذلك أنني مدان بموجب صكوكي بمبلغ ثلاثين ألف مارك، وأنا لاأفرض شيئاً، إلاّ المعروف، وكل من سيعطيني هذا المعروف أنا سوف أعيده له، عندما تتوفر الفرصة، وكل من سوف لن يعطيني المعروف، أنا سوف لن أعطيه شيئاً»، ولكنه استجدى بسبب مزيف، من أنه كان على وشك شن الحرب ضد ملك فرنسا، بحكم انتهاء الهدنة، وذلك لاسترداد حقوقه بالقوة، فهو قد أثار فقط سخرية وازدراء الحكماء، لأنه كان قد منع مؤخراً من قبل المعلم ألبيرت باسم البابا، من مهاجمة —بأية طريقة من الطرق— أية أراض موجودة تحت سلطة ملك فرنسا، تحت أي عنوان من العناوين، لأن ملك فرنسا كان قد حمل الصليب وكان يقاتل في الأرض المقدسة، في سبيل الرب والكنيسة العالمية، لابل إنه حتى لو لم يكن قد منع من فعل ذلك، كان من المعتقد، بأن براعته العسكرية، أو قوته، أو ماله، مهما كان الذي استخرجه، ما كان كافياً لتجريد الملك الفرنسي، حتى من أصغر ممتلكاته، لأنه توجب عدم الظن بأن فرنسا كانت مجردة من الجنود تماماً ومن المال، وفي سبيل بقاء رسالة المعلم

المذكور مخفية عن الجميع، لم يسمح الملك بنشرها بأية طريقة من الطرق، ولقد قيل أيضاً بأن المعلم ألبيرت المذكور قد تلقى التحويل السلطوي بوضع انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، بموجب الولاية البابوية، لو تبرهن بأن الملك سوف يكون متمرداً، لكن هذه الأشياء كلها قد غطيت بغطاء السرية، حتى يتمكن من الفرض بمهارة على الجهلة.

كيف استجدي الملك المال من الأساقفة ورعاة الديرة

في الوقت الذي كان فيه الملك فاغراً هكذا فمه يسعى وراء الربح المالي، حدث أنه ذهب إلى هنتنغدون Huntingdon، وكان ذلك في حوالي عيد القديسة هيلاري، وعندما كان على طريقه إلى هناك بعث وراء راعي دير رامسي، وخاطبه بسرية كما يلي: «يا صديقي أنا بجد ألتمس منك، تقديم المساعدة لي، باعطائي — أو على الأقل باسلافي — مائة باوند، لأنني أنا بحاجة، وينبغي أن أحصل على هذا المبلغ من دون تأخير، ولم يكن بإمكان راعي الدير شرفياً الاجابة بالرفض، بل أجابه قائلاً: «لقد أعطيت في بعض الأحيان، لكنني لم أسلف، ولن أسلف الآن»، واقترض على الفور ذلك المبلغ من السماسرة، مقابل فائدة ثقيلة، وذلك في سبيل إرضاء مطالب هذا الملك المستجدي.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، شدد الملك وألح على راعي دير بيترבורا Peterborough بالتماسات مشابهة من أجل المال، معلناً بأنه سيكون احساناً أكبر لدى اعطائه مساعدة مالية وأفضل من التصديق على متسول على بابه، ولكن بما أن راعي الدير اعتذر عن نفسه، ولم يدعن بالاستجابة إلى التماساته، أثقله بالملامة والنقد، وبناء عليه غادر سراً بيت الملك، واستخرج في الوقت نفسه بالحجج نفسها ستيناً ماركاً من راعي دير القديس ألبان، مع أنه خدعه بوساطة هذه الحجج الماكرة، وانتزع منه مبلغاً كبيراً من المال، في كل من هذا العام

والعام الأخير، وبناء عليه، عندما رأى الملك أن ما من واحد سوف يعارضه، تصور متأملاً أن ما من واحد من رعاة الديرة أو رؤساء الرهبان سوف يبدي نحوه أية مقاومة، ومع أن النبلاء ألقوا العوائق في سبيله، كتب إلى الأساقفة الذين كانوا منصاعين لإرادته — وإن كان ذلك كرهاً لا طوعاً — كما يلي:

رسالة الملك إلى أساقفة إنكلترا

«من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلى جميع رهبان الديرة وإلى رؤساء الرهبان في كونيتي: اسكس وهارتفورد، نحيات: إذا كنا بكياستنا الملكية نرغب بأن نمتحن صداقة رعايانا المخلصين والأوفياء، فذلك في سبيل الدفاع عن حقوق المملكة، وإذا كانوا قد أظهروا مراراً في أوقات مناسبة، احترامهم لأمرهم، الذي يعيشون تحت حماية جناحيه، ويتنفسون بحرية، أظهروا ذلك بالخدمات الجسدية، أو بتقديم الأعطيات، فذلك ليست واقعة مدهشة، ولهذا، بما أن الهدنة بين ملك فرنسا وبيننا قد انتهت، ونحن في سبيل استرداد وحماية حقوقنا على هذا الطرف من القنال، وكذلك المقاطعات على القارة، التي إليها أرسلنا مؤخراً كتلة من الجنود، فنحن الآن تحت الحاجة لدفع نفقات كبيرة، وأن نفتح يد الكرم إلى كثيرين لأسباب متنوعة، لذلك أرسلنا إليكم سيمون باسلو المخلص لنا، والذي هو من رعيننا، ومحبوب لدينا كثيراً، مع عمد عدة كونتيات، كل واحد بمفرده، ونحن نرجوكم بحرارة، بأن تمنحوهم أذنًا صاغية، وأن تحسنوا إليهم، ومن خلاصهم إلينا، وأن تستمعوا إلى الذي سوف يذكرونه لكم حول هذه القضية، وذلك في سبيل أن نرفع عبء النفقات المتقدم ذكرها، عليكم أن تساعدونا بكرم من أموالكم، هذا ومفروض علينا دين، من الواجب القيام بسداده في وقت قريب».

وعندما وصل هذا إلى علم الأشخاص الحكماء، قدروا بوضوح، مثل

وضوح الضوء، بأنه عندما كان في بواتو، وفي ألمانيا، فإن هؤلاء القوم الذين ألزم نفسه بالأخذ بتوجيهاتهم وبنصائحهم السيئة، قد أثقلوا بالمال فقط، ومن دون حماية رعاياه الانكليز، أوقعوه بشراكمهم، واعتقلوه، وأنزلوه إلى حالة الفقر، وبدناءة استخرجوا منه كل الذي كان قد امتلكه، والذي سوف يمتلكه في مستقبل الأيام، أي أنه ارتبط بشكل لا يمكن الخلاص منه بأيان وصكوك موقعة من قبله، حيث تعهد بأن يرسل إليهم كل الذي جرفه من انكلترا، وهكذا ازداد حزن الانكليز وأسفهم يوماً فيوماً.

كيف استقال أسقف درم من منصبه

مع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم، وجد نيقولا أسقف درم نفسه وقد بات عجوزاً، وضعيفاً، ومريضاً في صحته، فاختار بالبحري أن يتخلى عن ثروته، بدلاً من أن تتخلى عنه، فاستقال من أسقفية درم، وذلك بعدما حصل على إجازة من البابا، وبناء عليه جرى تعيين أوصياء على المسألة، وهم: رئيس أساقفة يورك، وأسقف لندن وووركستر، وجرى تعيين ثلاثة عزب له، هي عزب: هوفيدي Ho-vedey مع متعلقاتها، وستوكتون Stockton وايزنغتون Esington، فغادر المدينة وذهب ليعيش في إحدى العزب المذكورة، وذلك من أجل أن يتخلى عن جميع المسؤوليات الدنيوية، وأن يعيش بسلام متحرراً من مشاكل الشكايات والمحاكمات والمخاضات، وأن يمتلك المزيد من الوقت ليشغل نفسه بالصلوات والتأملات حتى يأتي عليه التغيير الذي كان ينتظره، وعندما علم الملك بذلك لم يكن بطيئاً في تولي المسؤولية عن الممتلكات المتبقية العائدة إلى ذلك الكرسي، حتى يتمكن من ابتلاع المرباح المالية الكبيرة، ذلك أنه كان جائعاً وجشعاً، وفي سبيل جمع هذه الممتلكات، أرسل إلى هناك واحداً من محاسبيه اسمه توماس أوف نيوارك.

كيف جرى منع مبارزة بسقوط ثلج ثقیل

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تعيين موعد لمبارزة عامة تعقد في نورثأمبتون، يوم أربعاء الرماد، لكنها منعت بتحريم من الملك وبتهديد منه، وبوساطة جليد الفصل آنذاك، وحزن الفرسان كثيراً لهذا، وبشكل خاص الجدد منهم، لأنهم رغبوا بالدخول بالمباراة الأولى في مجال نظم انضباط الفروسية، وكان وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، والذي كان جديداً، قد بعث برسالة إليهم، بأن لا يعابوا بحظر الملك وبشكوكه الكبيرة، وأنهم ينبغي ألا يتوقفوا، إذا ابتسم مناخ صالح لهم، وأن يعقدوا المبارزة، لأنه سوف يضع نفسه بمثابة ضمانه بين أخيه الملك وبينهم، ليمنع تفجر غضبه وصبه عليهم، وأعطت هذه الرسالة إلى وليم المذكور كثيراً من الادعاء بالفروسية، وأضافت كثيراً إلى كرامته، وحدث على كل حال أنه في ذلك اليوم، وهو يوم أربعاء الرماد، أن حدث سقوط ثلج ثقیل، وقد استمر لمدة يومين، وكان كثيفاً إلى درجة أنه غطى وجه الأرض إلى عمق قدم، وحطم أغصان الأشجار الثقيلة الأوزان، ثم ذاب، مسبباً أخاديد في الحقول، أصبحت الآن كأنها كهوف امتلأت بالجدال التي صبت فيها، وهكذا جاء تدمير المبارزة المذكورة بوساطة معيق مزدوج.

كيف رغب الملك بانتخاب أخيه ايشيلمار أسقفاً لدرم

وفي الوقت نفسه قام الملك المتيقظ دوماً، والباحث الذي لا يعرف التعب، والساعي وراء المال، فوضع جانباً كل خوف من الرب، بطريقة لاتليق به سوى قليلاً، فمع أن حق الانتخاب عائد إلى التجمع الرهباني في درم، أرسل التماسات تكدست فوق التماسات إلى تلك الجماعة، وكان ذلك بوساطة رسل حكماء ووعاة، وكذلك بارعين في فرض الأمور وترتيبها، حيث نصح، وطلب، وتهدد باعطاء أوامر بوجوب انتخاب أخيه لأمه ايشيلمار بالاجماع من قبل جماعتهم، ليكون أسقفاً لدرم وراعياً

لأرواحهم، وفي سبيل أن ينجح في مقاصده تصرف وفقاً لكلمات
الشاعر:

مزج الأوامر والوعود والالتماسات

وهكذا ظهر على التوالي سيداً ومستجدياً

وعلى هذا الطلب رد الرهبان بتواضع قائلين: «تذكر يا صاحب
الجلالة، يا أعظم الملوك المسيحيين، تذكر، إذا كان يرضيك اليمين الأول
الذي أديته، عندما كنت على وشك التتويج، والذي كان فوق كل شيء
بأن تسمح للكنيسة المقدسة بأن تتمتع بحريتها، على الأقل أحياناً،
بانتخاب — مع فضل الرب — أباً مناسباً وموائماً، وراعياً لأرواحنا،
وأنت تعلم، والعالم يعلم بأن أخاك المذكور غير كفء، في كل مما يتعلق
بالمعرفة والسن، ليقوم بأعباء مثل هذه المهمة الروحية الصعبة»، وعلى
هذا يقال بأن الملك قد أجاب قائلاً: «أنا قادر، وراغب تماماً بالاحتفاظ
بهذه الأسقفية بين يدي لمدة ثمانية أعوام أو تسعة، أو أكثر، حيث
سيكون وقتها في سن ناضج، مقبول لديكم».

شكوى حول السرقات المقترفة في إنكلترا

مع اقتراب الصوم الكبير، كان الملك قد وصل إلى وينكستر، وإليه
وصل إلى هناك تاجران من برابانت لتقديم شكوى، وقد خاطباه
بالكلمات التالية، الممزوجة بالأسى والدموع: «أيها الملك الأكثر سلاماً
وعدلاً، نحن بحكم أننا تاجرين من برابانت، كنا عابرين من خلال
أراضيك، التي اعتقدنا أنها آمنة، لمتابعة تجارتنا، وقتها هوجمنا ونحن
مسافرين، غير محميين، فهكذا كان واقعنا، وجرى الهجوم من قبل
بعض قطاع الطرق واللصوص، الذين نعرفهم من وجوههم، والذين
وجدناهم في بلاطك، فهم قد قاموا بدناءة وبلصوصية، فانتزعوا منا
بالقوة مايساوي مائتي مارك، وإذا ما أقدم هؤلاء الرجال على انكار

التهمة، نحن على استعداد —بعون الرب الذي هو قاضينا— لكشف الحقيقة بمحنة مبارزة واحدة ضدهم»، وجرى اعتقال الفئات المتهمة، وتقرر بعد ذلك اقرار قضيتهم بوساطة إفادة أهل المنطقة، وأطلق يمين حلفته المنطقة سراحهم، وماهو وجه العجب في ذلك؟ فقد كانت المنطقة موائمة لهم، لأنها كلها كانت مصابة بداء السرقة، لكن التاجران المتقدم ذكرهما تابعا الضغط بتهمتهم، وطالبا بجرأة بما لهما على يدي الملك، وبدأ الملك بالانزعاج، فاستدعى مستشاريه، وقال لهم: «مالذي ينبغي صنعه؟ لقد ضاقت أحشائي من بلية هذين الرجلين»، وعلى هذا رد مستشاروه: «ياصاحب الجلالة، لقد سمعنا، ونحن نعرف أن تهماً مماثلة قد راجت في جميع مقاطعات انكلترا، ذلك أنه غالباً ما تعرض المسافرون هنا إلى السرقة، والجراحة، وجعلوا أسرى، وقتلوا، ونحن نعجب كيف أن رجال عدالتكم المتجولين —الذين واجبهـم هو هذا— لم يقوموا بتنظيف هذه البلاد من هذا العار، وبناء عليه، نحن نعتقد بأن لصوص هذه البلاد، المنتشرون هنا بكثرة من دون حدود، قد دخلوا ببراعة وعملوا مؤامرة فيما بينهم أنفسهم، بأن لايقوم أي واحد منهم، مهما كانت المعطيات، باتهام الآخر، وهكذا فإن مؤامرتهم ومكرهم قد نجوا من أن تعرفهما، وكذلك نجوا من رجال عدالتكم ومن نوابكم الآخرين، وقد كان هنري دي مارا Mara، رجل عدالتكم هنا، مع أصحابه، ولم يفعل شيئاً نافعاً، وهؤلاء الأشخاص أيضاً، الذين قمت بتعيينهم مفتشين متحالفين مع اللصوص ومحرضين لهم، ولذلك علينا أن نتصرف بحذر ضد مثل هؤلاء الخونة المتعددي الأشكال، أي أن تتولى البراعة خداع البراعة، لأن عدداً كبيراً من التجار، خاصة الذين هم من القارة، يجيئون ويروحون من هنا بسبب الميناء المجاور، ويحكم أنها المدينة الملكية، ومن أجل السوق، وأيضاً هذان الرجلان اللذان سلبا قد أعلننا، أن المال —الذي من أجل البرهنة على حقيقة أمره هما على استعداد لفعل ذلك بوساطة مبارزة فردية— إذا لم يرد

إليهما، فلسوف يستردانه بالقوة، بالاستيلاء على جميع المقتنيات العائدة إلى التجار من مملكتكم في بلادهم، مما سوف يسبب الخسارة إلى التجار المذكورين ولسوف يلحق العار بك، ودوق براباننت، الذي نرغب بصداقته، سوف يعاملك — ليس من دون مسوغ صحيح — بازدراء».

وبناء عليه استدعى الملك النواب، والرجال الأحرار لتلك المنطقة، أي أن تقول منطقة ثاوثامبتون، وبمنظرة صارمة قال لهم: «ما هذا الذي سمعته عنكم؟ لقد وصلتني شكاوى أناس مسلوبين، ومن الضروري بالنسبة لي الإصغاء إليهم، حيث ليست هناك كونتية أو منطقة في جميع أنحاء انكلترا إلا وسيئة السمعة بهذا، أو ملطخة بعدد كبير جداً من الجرائم، حتى عندما أكون أنا حاضراً في المدينة، أو في ضواحيها، أو في الأماكن المجاورة، تقترب السرقات وأعمال القتل، كما أن هذه الجرائم ليست لوحدها، حتى أن خموري الخاصة عرضة للسرقه والنهب، وتحمل بعيداً في عربات من قبل أولئك المجرمين، الذي يضحكون ويسكرون عليهم، كيف يمكن التساهل مع مثل هذه الإجراءات أية مدة أطول؟، وفي سبيل استئصال هذه الجرائم ومايماثلها، عينت أشخاصاً حكماً للالتحاق بي في حكم المملكة وحمايتها، أنا رجل واحد، ولست أرغب، كما أنني لست بقادر على تحمل أعباء إدارة المملكة كلها من دون مساعدة معاونين، وأنا خجل ومنهك من التناثرة القذرة لهذه المدينة، وللمناطق المجاورة، فلقد ولدت في هذه المدينة، ولم يلحقني القدر نفسه من العار في أي مكان آخر كما لحقني هنا، ومن المحتمل، ولا بد أن أعتقد، لابل إن الأمر واضح الآن تماماً، أنكم أنتم سكان المدينة، وسكان المنطقة شركاء بالجريمة ومتحالفين سييء السمعة، واني سوف أدعو جميع كونتيات انكلترا، حتى يقوموا بمحاكمتكم بمثابة خونة لي، ولكي يلاحقوا جرائمكم، حتى لاتستمر براعة محاججاتهم في نيل الربح، أية مدة أطول»، وحدث هذا في قاعة

قلعة وينكستر، بحضور و. W. أسقف تلك المدينة، ثم صرخ الملك فجأة بصوت مرتفع: «أغلقوا أبواب القلعة، أغلقوهم على الفور»، وعندها انتصب الأسقف وقال: «تمهل يامولاي، تمهل قليلاً واستمع إليّ بصبر، إذا كان ذلك يرضيك، يوجد في هذه القلعة بعض الغرباء، مع رجال صالحين، لهم سمعة نقية، وهم أصدقاء لكم، ولا يرضيكم حبسهم، فأنت قد اتهمت سكان وينكستر ومحرضيهم فقط»، ثم تابع كلامه، وحول الأسقف وجهه نحو الحشود وقال: «أنا راعيكم ووالدكم الروحي، ولدي السلطة على أرواحكم في القضايا الروحية، وإلى حد كبير في القضايا الدنيوية، وإنني أحرم كنسياً جميع المتآمرين في هذه الجريمة البشعة، وكذلك الذين يجذبونها، أو يتعاملون معها من خلال الخوف، أو من أجل الحصول على جائزة، وكل الذين يخفون الحقيقة بأية طريقة من الطرق عندما يستجوبون حول هذه القضية»، وبناء عليه جرى هناك انتخاب اثني عشر شخصاً من بين سكان وينكستر، ومن كونتية ثاوثامبتون، وقد أقسم هؤلاء أن يعطوا أسماء أية لصوص عندما يعرفون، وبعدما انتقل هؤلاء الرجال إلى مكان خاص، عقدوا نقاشاً طويلاً، وكانوا تحت حراسة مشددة، وبعد مداولات طويلة، جرى استدعاءهم ثانية، لكنهم رفضوا إعطاء اسم أي واحد من اللصوص، الأمر الذي أزعج الملك كثيراً، لأنه كان مدركاً تماماً أنهم يعرفون شيئاً ما عن خطط اللصوص، وبما أنه اشتعل غضباً قال: «أمسكوا هؤلاء الخونة المخادعين، وغلوهم بالسلاسل، وألقوهم في الزنزانة الأعمق، لأنهم رفضوا الكلام، وأخفوا ماتوجب أن يكون معلوماً، وهم لاشك محرومين كنسياً من قبل أسقفهم، وانظروا كيف أعطوا هؤلاء الرجال الخطوة والتأييد، اختاروا لي اثني عشر واحداً آخر من سكان وينكستر وكونتية ثاوثامبتون، من الذين لن يعارضوا الحقيقة، لكي يكشفوا لي الحقيقة حول القضايا التي سوف أسألكم عنها»، وبناء عليه جرى اختيار اثني عشر آخرين، وجرت

دعوتهم، وعندما وجد هؤلاء أن الاثني عشر المتقدمين، قد جرى سجنهم، وحكم عليهم بالشنق، لأنهم أخفوا الحقيقة، شرعوا يشعرون بخوف عظيم، وقال أحدهم للآخر: «نحن أيضاً سوف نعاني من عقوبة مماثلة إذا ما أخفينا أي شيء من الحقيقة عندما نستجوب»، وبعد مداوولات سرية ومناقشات طويلة عقدوها فيما بينهم، قدموا عائدين إلى وسط الاجتماع، وأطلقوا عقاب ألسنتهم، وكشفوا سرقات وجرائم كثير من الأشخاص، الذين كان عدد كبير منهم ينتمون إلى المناطق المجاورة، بشكل خاص إلى ألتون Alton وإلى الملكية الخاصة بالأسقف في تانتون Tanton، ومن بين هؤلاء كان بعضهم من سكان المدينة والكثير منهم كانوا من سكان المنطقة، والذين كانوا يعدون من قبل صالحين، ورجالاً مخلصين، وكانت لديهم وفرة كبيرة من الممتلكات الغنية، وكان بعضهم ممن أنابهم الملك، كأوصياء ونواب، لحماية ذلك الشطر من البلاد، ولاعتقال اللصوص وطردهم، وامتلك آخرون خيولاً وثياباً غالية، وكان لدى بعضهم الآخر بيوتاً وأسراً، وتمتعوا بامتلاك خمسين أو ثمانين ملكية خاصة من الأرض، وكان بعضهم من كبار موظفي الملك وحاشيته، كما كان من بينهم رماة قسي عقارة يعملون في خدمة الملك، وجرى اعتقال هؤلاء جميعاً، وعندما تبرهن أنهم مجرمين، شنقوا، والتجأ بعضهم إلى الكنائس، وهرب آخرون بشكل مفاجيء وبصورة سرية، ولم يظهروا مرة ثانية، وكان بعض الأشخاص ينتمون إلى المدينة نفسها، وكانوا آنذاك يتولون خدمة الملك، بابعاد الناس الذين كانوا قد احتشدوا بسبب طرافة هذه الإجراءات وحدثاتها، فقد كان عدد الناس الذين اجتمعوا مع بعضهم كبيراً جداً، وامتزج هؤلاء ببراعة مع الحشود، وقاموا فجأة بمغادرة القلعة، حيث أبقوا أنفسهم مخفيين، أو هربوا إلى أقرب الكنائس، وعندما جرى استجواب الذين اعتقلوا بدقة أكبر، اعترفوا بأنهم قد اقترفوا جرائم لم يسمع بمثلهما، من نوعي السرقات والقتل، بالتواطؤ.

مع آخرين وبمساعدهتهم، ومن بين هؤلاء تبرهن أن حوالي الثلاثين كانوا مدانين، لذلك أخذوا وشنقوا، وأودع العدد نفسه أو أكثر في السجن، لينتظروا عقوبات مماثلة، وقال بعض الذين عادوا إلى حاشية الملك، عندما كانوا على وشك التعليق على المشنقة، للضباط الذين كانوا مسؤولين عنهم: «قولوا لمولانا الملك بأنه هو سبب موتنا، لابل السبب الرئيسي لذلك، لأنه أوقف لمدة طويلة الدفع لنا مانستحقه، ولذلك أرغمنا على أن نتحول إلى لصوص وقطاع طرق، أو لأن نبيع خيولنا وأسلحتنا، أو ملابسنا التي لم يكن من الممكن لنا العيش من دونها»، وعندما تسلم الملك هذه الرسالة، تأثر وشعر بالخجل والحزن، وعبر عن أسفه بتأوهات متواليه، وكان من بين اللصوص الأخصاء الذين اعتقلوا واحداً تقدم بالتماس استئناف، وكان اسم هذا الرجل وليم، ولقبه بابا Papa، وكان هذا الرجل لديه ثروات هائلة على شكل بضائع مخزونة، وكانت من الكثرة بمكان، حتى أنه لدى فحص بيته، بعد اعتقاله، وجدوا هناك في مستودعه حوالي الخمسة عشر برميلاً مليئة بالخمرة، وكان هذا الرجل قد تقدم بالتماس استئناف، ولكن عندما وجد مجرمًا، تم شنقه على الفور، وقام أحد الناس بعمل خدمة جيدة للملك في القتال، حيث حرر المنطقة من ستة من اللصوص، وهكذا جرى طرد هؤلاء المجرمين الذين لطخوا سمعة تلك البلاد، بقدر وتوفيق من رحمة الرب، إله الانتقام، وعلى كل حال تخلصت وينكستر، وثاوثامبتون وجميع تلك المنطقة من الوصمة الشائنة للسمعة، ومن مخازي تلك الوقائع، ولقد توليت شرح هذه الأحداث بشكل كامل وبإسهاب، حتى يكون واضحاً كم هو سهل أي تحالف، وكيف يمكن بسهولة تفكيك أية مؤامرة منسوجة بين مقترفي الشر، لأنهم يرتحلون في دائرة، وفي وقت الضرورة يسببون اضطراباً بينهم أنفسهم، لكي تكون العقوبة في النهاية أكثر حدة.

ازدياد سوء سمعة الإمبراطور بشكل جدي

وأصبح في الوقت نفسه اسم فردريك مشهور جداً في مختلف أنحاء العالم، بأنه أسوأ من هيرود، ويهوذا، ونيرون، بسبب التتانة المميتة الصادرة عن أعماله، حسبما ورد ذكر ذلك في الرسالة التالية، التي تثير سمع وقلوب المسيحيين، وتملأهم بالدهشة والحزن.

رسالة قدح صادرة عن الكاردينال

ريمير ضد الإمبراطور فردريك

«جريمة كبيرة، ممارسات شائنة، وحشية حيوانية، شرور لم يسمع بمثلها، دناءة متجاوزة الحدود، قد مورست في هذه الأيام، مظاهرة صورة مرعبة للرب، وللملائكته، وللناس، نحوها ينبغي أن تصبح الشمس شاحبة، وأن تختفي أشعتها بالغيوم، وأن تغلف النجوم بالظلام، وكأنها بالفعل محتومة بختم، والأرض ترتجف، والبحر يهتاج غاضباً، وآذان الذين يسمعون بهذه الأفاعيل ترن بها، واضطربت قلوب المؤمنين، واهتزت أحشاء المسيحيين، وثارت قلوب الملوك، والأمراء، والفرسان، وجميع المؤمنين الذين يعتقدون بالمسيحية للقيام بالانتقام، وانتبهوا كيف أن مبشر الشيطان، ونائب ابليس، ورائد المسيح الدجال، ومبدع الأعمال الوحشية ووكيلها كلها، قد هاجم بعنف وانقض على المكرسين للرب، وعلى الحبر الأعظم المسحوق بالميرون المقدس، وعندما أدرك مارسيلينوس Marcellinus المقدس، أسقف أريزو Arezzo، بأن مرجل الاضطهاد، قد حمي كثيراً بوساطة هبات رياح الشمال، وأنه كان يغلي بعنف ضده، في مدينته، انصاع أمام تيار غضبه، وعاش في المنفى والفقر لكثير من السنين في أنكونا Ancona، التي هي ابنة مخلصه جداً للكرسي الرسولي، وبعد لأي، قام إثر تلقيه توصية رسولية، فبذل جهوده بشكل مواظب لانقاذ شعب التخوم من بين فكي التنين

المسمم، ومن شرك الشياطين الذين كانوا يطاردونهم، ومن نير الطغيان، وفي هذا، كما يبدو، بفضل نعمة الرب، قد حقق بعض التقدم، وحدث على كل حال، أنه بإرادة من الرب وسماح، قد وقع بين أيدي أعدائه، وضغط عليه بشدة بالسجن والأغلال لمدة ثلاثة أعوام أو أكثر، بوساطة أتباع فرعون، وبعد مضي بعض الوقت فرح فرحاً عظيماً فردريك، رجل الدم ذاك، الذي كان يتجول ثائراً مثل تنين، ومثل أسد غاضب، يبحث عمن يفترسه، وهو ملوث بدم الأبرياء، ثمل من شرب دماء الرجال المقدسين، وبعدما فرح فردريك وشعر بالسرور العظيم، قام بمشاعر حيوان مفترس، وخطط بفكره لتدمير كاهن الرب هذا، ولاشك أن هذا الرئيس المدنس وغير التقي، كان يشعر مثل أبيه الشيطان، بغضب عظيم ضد كنيسة الرب، وبما أنه قد عرف أنه لا يمتلك سوى وقت قصير، انفجر على الفور غاضباً، وزجر وتفوه بقرار قضى بالشنق، ويقطع العنق ضد هذا الرجل المكرس للرب في مدينة المنصورة، التي تأسست من قبله، والتي لقبها ينبغي أن يدرج بين أولئك العائدين للمؤمنين، وقد حدث بوساطة معجزة مدهشة في اليوم الثالث قبل الانتصار المدمر له ولتلك المدينة، لأن المنصورة هذه، على عكس نوايا هذا الرئيس الغاضب، الذي منحها ذلك الاسم، قدمت اشارة مسبقة باسمها، بأنها سوف تدعن من نفسها إلى النصر المدوي لقضية الكنيسة، ومجدداً كان عمالقة الجحيم، وأتباع الشيطان، قد تلقوا أمراً من رئيسهم أن يفعلوا مايلي: أن يحرضوا الأسقف أن يعلن على الملأ الحرمان الكنسي للبابا، والكرادلة ولأساقفة الكنيسة الآخرين، وأن يكون ذلك أمام جميع الناس، وأن يقسم على تقديم الولاء إلى فردريك الغادر، الذي وعده بالعفو، ويكثر من الثروة إذا فعل ذلك، ولكنه وقد نال القوة بروح الرب، أكد بجرأة أنه غالباً ما تولى حرمان فردريك المذكور، ابن الشيطان وتلميذه مع أتباعه، كنسياً، ثم إنه قام بترديد حكم التكفير نفسه ضده، وعندما اقتيد هذا الكاهن إلى الشهادة، مّتن نفسه للمرة الأولى بدموع

التوبة، وبجميع القداسات، عندما اعتقد أنه على وشك أن يلقي به في الهاوية، عرف من الذين كانوا واقفين هناك، بأنه سوف يسحل خلال البلدة ليموت على المشنقة، وقتها أخذ ينشد بصوت مرتفع قائلاً: «نحن نحمدك أيها الرب»، وكذلك ترنيمة الملائكة، ثم إنه رغب بأن يجر إلى المشنقة، مثلما جرّ المسيح إلى الصليب، ولكن لوجود النساء والأطفال الذين كانوا يكون من حوله، لم يسمح بتعريته تماماً، وعلاوة على ذلك قام المسلمون بربط يديه وقدميه المقدسين، وبغطية عينيه، ووضع رأسه إلى جانب ذيل دابة تولت جره، وذلك من أجل أنه إذا ما خرج أي روث من الدابة، يمكن أن يلوث رأسه المقدس، ولكن مجدداً فإن هذه الدابة البهيمة، على الرغم من نخسها بالمهاميز، تعذر تحريكها، حتى أنهى بطل الرب هذا المزمور والصلاة التي كان قد شرع بها، وقد سمح لها بالسير من قبل الأسقف نفسه، وهكذا جره أولئك المسلمون إلى المشانق، خلال قلعة القديس بلاميانو Plamiano، وكأنه كان عامياً من أصل وضيع، محروم من الغطاء، أو أنه كان غادراً قاتلاً لأبيه، أو مغتالاً له، أو لصاً، أو مداهماً للبيوت ليلاً وللحقول، وكان بين الأشياء التي عملها أنه قدم اعترافاً للمسيح، ولبعض الرهبان الفرنسيين الذين وقفوا هناك، بأن هشاشة الضعف الانساني قد حرضته —إذا كان ذلك ممكناً— بأن ينجو من الشهادة التي رغب بها عندما كان حراً، وتابع هو شخصياً بشكل مكشوف الاعتراف بهذا، وبيع بعض التوافه التي جاءت إلى ذاكرته، وطرد من قلبه جميع مشاعر الكراهية ضد الذين آذوه، وقد تحمل بصبر كل الأذى الذي فعلوه له، وجرى تعليقه على المشنقة في أول أحد من هذا الصوم الحالي، وبالساعة نفسها التي صعد بها مخلصنا إلى الصليب، وتمت مركزة الحراس على مقربة منه، ومكث معلقاً على المشنقة لمدة ثلاثة أيام، أي حتى قام الفرنسيون بسرقة جسده، لكن الجلادين الذين تولوا عملية الإعدام، أخرجوه من القبر، وبعدما سحلوه خلال الوحل، علقوه مجدداً على المشنقة، على أن لا يحركوه وينزلوه من دون إذن

خاص، من بيلاطيوس الجديد، والمحتقر الكبير للمسيحية، والمهين لرجال الدين، والملحق العار المستمر بطائفة الكهنة، والمدمر للكرامة البابوية، ومع أن جسد الشهيد كان قد اهترأ من قبل، بسبب العقوبات القاسية التي تعرض لها، ولأنه دفن من قبل، لقد تماسك الآن بوساطة معجزة، فهذا ما شهد به الرهبان الذين قدموا من ذلك المكان، وأكدوه بشكل يقيني، أنه على الرغم من مرور عشرة أعوام، لم تصدر عنه أية رائحة قذرة، وعملت الشهادة نفسها من قبل رجال حكماء بالنسبة للمعلم هوغلين زيموكشيو Hugelin Remoccio وكان رجلاً محترماً، الذي كبا به فرسه، فوقع على الأرض، فأخذ أسيراً أثناء القتال، فجرى تجريده من قبل أعدائه غير الأتقياء، ومن ثم جرى ذبحه بوحشية.

انظروا أيها القوم المسيحيين، وتبصروا فيما إذا كان هناك أي حزن مثل حزن الكنيسة أمكم، أو بالحري كنيستكم، لأنه من الذي شاهد قط أو سمع بمثل هذه الإجراءات، أو ما يشابهها؟، فهل يمكن للعبيد المخلصين للمسيح، لدى تفكرهم بهذه الأشياء، أن يكفكفوا دموعهم، أو يوقفوا تأوهاتهم وتنهداتهم؟، هل هناك من قلب مهمل يكتفئ قاسياً، لا يحزن ولا يأسف عندما يضرب بمطرقة مثل هذه الوحشية الكبيرة؟ أو لم تسحق بعض القلوب الحجرية لبعض المسيحيين، وتتمزق صدورهم القاسية؟، أين هي غيرة الإيمان المسيحي؟، أين نار حب المسيح المعلق الآن ممثلاً بشخص رجل دينه وكاهنه الأعلى؟، وكما قال لبطرس: «اذهب إلى روما، واربح أن تصלב» «وشاول، شاول لماذا تضطهدي؟»، ومرة أخرى قال في الانجيل فيما يتعلق برسله: «كل من يرفضكم، يرفضني، وكل من يؤذيك يؤذي بؤبؤ عيني»، وعلى هذا، قام هذا التعيس الشرير، حتى يضيف إلى ركام شروره، ولكي يلوم قسوة قلوبنا، التي نادراً ما أثرت تجاه مثل هذه الجرائم المرعبة، فلم يتردد بالغالب في تكرار مثل

هذه الاعتداءات، مؤكداً بسبب أن مظالمه التي قد اقترفت مراراً من دون انتصاف، بأن الاحسان قد أصبح بين المسيحيين بارداً، وأن أوعية العواطف قد أصبحت جافة كلياً منهم، وأن الغيرة كلها من أجل الإيمان قد ماتت، لأنه تدبر منذ عامين اغراق أسقف غيراس Girace في كاليريا، في حمام عمل حاراً جداً، وفي هذا العام أيضاً تسبب في مدينة اللاتيران بمقتل أسقف سيفاليدي Cephaledi في صقليّة، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان قد طرد من كرسيه لمدة خمسة عشر عاماً بوساطة هذا الرجل غير التقي المذكور نفسه، وجاء مقتله بالسيف على أيدي قاتل صقلي مستأجر، وكان هذا الأسقف المبجل والجليل محبوباً، وكان قد أقام مدة طويلة في حجرة الفقر، تحت هواء النفي البارد، وكان بالفعل قد شرع يغرق من قبل نفسه في القبر، ولم يرسل هذا القاتل المستأجر المتقدم ذكره من أجل هذه الغاية فقط، بل أيضاً ليلقي — إذا استطاع — بيديه الدمويتين على أي واحد من الأعمدة الكبار للكنيسة، وينبغي أن لانعجب لدى قتله الأقل شهرة من الأساقفة، لأنه كان قد جلب من قبل قتلة مستأجرين، ورجال اغتيال لقتل النائب الأول للمسيح، وبعض إخوانه، كما أنه عمل محاولات مماثلة، ضد بعض الأمراء، وبالأأسف كيف أن الخوف من الرب قد نام لدى الأمراء المسيحيين، وكيف أن التراخي بحب المخلص صار مطلقاً، وكان يحدث فيما مضى في أيام الأمم إذا ماجرى انكار عبادة الشيطان في أي من البلاد الوثنية، كان الشخص المقدم على ذلك يمزق إلى قطع، ويقتل بوساطة عدة أنواع من العذاب، والآن وقد جرى الاستخفاف بالإيمان، وبدأ الهراطقة بالسيطرة، وهم الآن محميين محروسين من قبل هذا الرجل غير التقي، والتبشير بالهرطقة قائم في ممالك هذا الشرير التعيس، والارتداد بازدياد هناك، وجرى ازدراء القداسات مع مفاتيح الكنيسة، وديس على الحرية اللاهوتية، وانعدمت العناية بالأرواح.

ومنذ بعض الوقت، عندما كان الجيش الصليبي، الذي كان ناوياً الاستيلاء على القاهرة، قد منع من التراجع بفيضانات المياه، أولم يحدث أنه بلطف السلطان، جرى تزويده بالمؤن، وحفظ سليماً، وأرسل عائداً إلى الوطن من دون أذى؟ وكان مع ذلك الجيش أسقي ألبانو وعكا، صاحبي الذكرى اللامعة، وبعض الأساقفة الآخرين والقساوسة، وجون بريين، ملك القدس، صاحب الذكرى اللامعة، وأولم يكن جون دي كولونا Colonna، صاحب الذكرى اللامعة، والراهب الكاردينال، الذي ذهب إلى بلاد الاغريق مع امبراطور القسطنطينية، لاسترداد تملك تلك البلاد، قد وقع أسيراً لدى ثيودور كومينوس، وأقول أولم يكن هو الذي عومل باحترام وأطلق سراحه؟، وانظروا إلى جنون هذا العدو الأكثر وحشية، هو لم يكتف بهذه الأفاعيل الشريرة، بل إنه تسبب بتدنيس الكنيسة بوساطة المسلمين، وأن يجري تدمير المذابح، وبعثرة الآثار المقدسة، وأن يجري الاعتداء على العذراوات، والأرامل، والنساء المتزوجات، في الأماكن المقدسة وعلاوة على ذلك جرى بناء على أمره قتل الرهبان الفرنسيسكان، والرهبان الآخرين، الذين كانوا مسافرين حول العساكر المسيحيين وبينهم، لتحديد الكفارات عن الذنوب، ولدفن أجساد القتلى، لقد جرى قتل هؤلاء بسيوف أتباع هذا المتمرّد غير التقّي، وبالإضافة إلى هذا، ولكي يشتعل غضب الرب بحدة أعظم ضد هذا الرجل الشرير، قام المسلمون مؤخراً في هارينا Harina، على مشهد من الجمهور بجر تمثال المصلوب بذيل أتان، مع تمثال مريم المباركة، وقديسين آخرين، ثم قطعوا رجلي وذراعي تمثال المسيح، وفعلوا الشيء نفسه بالتماثيل الأخرى، وثبتوا الجميع على ترستهم، حتى يرغم المسيحيون أثناء القتال على طعنهم برماحهم ونشابهم، ولماذا على هذا، لا يكثر الصليبيون بهذه الأعمال الشائنة، فيحرثون الأنهار بسيوفهم، ويعبرون البحر لقتال المسلمين أو التتار، الذين أرسلوا غضبهم من مسافة، عندما عدّت وحشيتهم أقل بكثير من إجراءاته هذه؟.

إن المتوجب أولاً محق شرور المسلمين هذه، مع قادتهم ومحرضيهم، وعليهم بعد ذلك السير ضد آخرين، لأن القضية الموجودة الآن في الوطن، هي التي ينبغي أن تطلب في الخارج، والآن يجري الاضطهاد من قبل الكفار في قلب الكنيسة ذاتها، وفي ديرة المسيحيين، وداخل اطار العالم المسيحي، يبدو من الموائم أولاً طرد المقتربين لمثل هذه الجرائم من ايطاليا، خشية أن تجري رعاية الثعبان في الصدر، والفأر في القفيز، والنار في الرحم، وعليهم بعد هذا السير إلى أماكن نائية، لأن الرب لم يختار شعبه بالنسبة للمكان، بل بالحري العكس هو الصحيح، حسبما هو واضح من القديس بطرس والرسل الآخرين، الذين غادروا القدس وعبروا إلى الشعوب، وقدر بناء عليه، أنه إذا كان هناك أي واحد صاحب فهم، وإذا كان هناك أي واحد يحزن لموته، وإذا كان هناك أي واحد ينظر إلى الأذى الذي ألحق بكهنة الرب، وأن الرب يتطلع من السماء فيرى أبناء الناس، وعلى كل مسيحي أيضاً أن يقدر أنه في يوم الحساب عليه تقديم الاجابة إلى الرب، إذا ما عبر مع مثل هذه الجرائم، وبناء عليه، اتبع حتى النهاية قضية ابن الرب الأعلى، في سبيل أن تتمكن من إيصال قضيتك إلى نهاية جيدة، وحافظ على قرينه باليد اليمنى لقدرتك، من أجل أن يضعك القاضي العادل في يوم الحساب الأخير على يمينه، ويفضي بك إلى مجد سرمدي».

كيف أقنعت مفاسد البلاط الروماني كثيرين

بالوقوف إلى جانب قضية الإمبراطور فردريك

لدى وصول هذه الرسالة المرعبة إلى علم الناس، خرقت قلوب الكثيرين، وكانت ستغضبهم كثيراً، وتشجعهم على الوقوف ضد فردريك، لولا أن أعداءه البابويين كانوا ملوثين بدنس آثام الجشع، والسيمونية، والربا، مع شرور أخرى، فقد كان بين أعمالهم الجنونية تضيقهم على الصليبيين، حيث حشوهم تحت طائلة عقوبة الحرمان

الكنسي، في بعض الأحيان لإرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وفي وقت آخر، إرسال المساعدة إلى رومانيا (بيزنطة)، وألحوا لهم مرة أخرى أن عليهم الثورة ضد الامبراطور فردريك، والذي عدّ أكثر تقزيراً للنفس هو جعلهم الرهبان الفرنسيين والدومينيكان جباة للضرائب، وقد استخرجوا بحجة أو أخرى الامدادات الضرورية للسفر من الذين حملوا الصليب، وبناء عليه صحيح أن الطاغية فردريك قد اقترف جرائم فظيعة، ومع ذلك إنه بالنسبة لفظائع الرومان قد وجد عدداً من المحرضين بشكل علني أو سري وأصحاب في الجريمة.

حول الخلاف بين سكان كمبردج والكهنة فيها

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، أي في الصوم الكبير، نشب لسبب صغير خلاف بين سكان كمبردج والباحثين فيها، عنه نجمت قضايا قضائية، ومعارك، ونهب، وتدمير للبيوت، وجراحات وقتل، ووصلت صرخات شكاوى ثقيلة إلى أذن الملك، وانتشرت أخبار الفضائح في الخارج، وسببت الخسائر التي وقعت من على الجانبين الألمان كبيرة، وأعتقد أنه جدير بالذكر أيضاً، أنه بوساطة إثارة عدو الجنس البشري، حسبما جرت العادة في الصوم الكبير، أثير خلاف دموي بين الباحثين والعلمانيين، وكذلك في القارة، مثلما حدث على هذا الجانب من الماء، حسبما تقدم ذكر ذلك مراراً من قبل في هذا الكتاب، من أجل أن يصاب الانسان بالجراحة في هذا الوقت المقدس.

كيف نجا الإمبراطور من الموت بالسّم

تعرض في هذا العام نفسه فردريك للمضايقة الشديدة من جميع الجهات بوساطة قضايا متنوعة فهو قد جاء إلى هذا الجانب من الجبال لمحاربة البابا، ولكنه عاد إلى أبوليا ثانية، لأنه حسبما ذكر أحد التقارير قد دس له السم، وكان شديد المرض، وبناء على نصيحة أطبائه توجب عليه

استخدام الأدوية لتنقية نفسه من السم، وأخذ حمام يعدّ خصيصاً لهذه الغاية، وكان لدى المعلم بطرس دي فينيا الذي كان أقرب المستشارين من فردريك المذكور، وكان مسؤولاً بشكل خاص عن العناية بروحه، واحداً من الأطباء مرافقاً له، وقد ذهب هذا الطبيب بناء على أوامر فردريك، وكذلك أوامر بطرس المذكور، لعمل الترتيبات الضرورية لمعالجته، لكن مع نوايا خيانية، ذلك أنه قام بناء على تحريض من بطرس المذكور، بمزج سم قوي وقاتل مع شرابه الدوائي، وكذلك في الحمام، لقتل سيدهما الوثائق بهما بهذه الوسائل، وقال أعداء الكنيسة بأن البابا قد أفسد قلب بطرس بالهدايا وبالوعود الكبيرة، وأقنعه باقتراف هذه الجريمة، وحدث على كل حال، أنه في الوقت ذاته الذي كان الشراب سيجري تناوله، أن جرى تحذير فردريك بشكل سري من الجريمة المنوية، وتمّ اخباره بالتفصيل بجميع الخصوصيات، من قبل واحد من أصدقائه، وبناء عليه عندما عرض بطرس والطبيب الدواء وأرياه إياه قال لهما: «يا صديقي، إن روحي واثقة بكما، ولذلك أرجوكم احذرا فلا تعطيني، الذي عهد به إليكما، أي السم، عوضاً عن الدواء»، فأجابة بطرس قائلاً: «مولاي إن هذا هو طبيبي الذي غالباً ما أعطاكم دواءً صحيحاً ونافعاً، فلماذا أنت الآن خائف؟»، وكان فردريك قد وضع حرساً خلف الخائنين حتى لا ينجوا، ثم إنه قال بنظرة مقطبة للطبيب، الذي كان يقدم له الكأس: «اشرب نصف هذا الدواء معي»، وأصيب الطبيب بالدهشة تجاه هذا، ولأنه كان مدركاً لخبثه، تظاهر بأن شيئاً ما جعل قدمه تنزلق، فوق وقع متمدداً على الأرض، فأهرق الشرط الأكبر من السم، وأمر فردريك بالقليل المتبقي فأعطي إلى بعض الأشخاص المحكومين بالاعدام، وكانوا قد جلبوا من السجن، فلفظوا على الفور أرواحهم التعيسة، وبعدما اقتنع فردريك على هذه الصورة بالخيانة المميتة التي خططت ضده، أمر بشنق الطبيب، وبقلع عيني بطرس، ثم أمر بقيادته خلال عدة مدن في أبوليا، وإيطاليا، ليعترف بجريمته بشكل

علمي، وأخيراً أمر بإعطائه إلى البيازنة، الذين كانوا يشعرون بحقد عظيم ضد بطرس المذكور، كي يقوموا بقتله، وعندما سمع بطرس بهذا، أقدم متطوعاً فضرب برأسه ضد العمود الذي إليه كان مربوطاً، وأخرج دماغه، في سبيل أن لا يجري قتله بناء على إرادة أعدائه، لأن سينكا يقول: «أن تموت بناء على إرادة عدو، يعني أن تموت مرتين».

حزن فردريك وأسائه

ولدى تأمل فردريك لهذه الواقعة حزن من دون تعزية مع دموع كثيرة، وكان بالفعل مؤلماً مشاهدة ذلك يصدر عن شخص له مثل تلك السلطة، ومثل ذلك العمر، وشفق يديه معاً وقال مندهشاً: «الويل لي، لأن أحشائي تقاتل ضدي، فهذا بطرس الذي اعتقدت أنه صخرة، والذي كان نصف حياتي، عمل مؤامرة لقتلي، والبابا، الذي امبراطورية هذا العصر العائدة إلى أسلافي النبلاء، قد أوجدته من لاشيء، وأغتته، يسعى الآن إلى تدميرها ويستهدف موتي، أنا حاكم الامبراطورية المترنحة، فيمن سوف أضع ثقتي؟ وكيف يمكن أن أكون من الآن فصاعداً سليماً، وكيف يمكن أن أكون سعيداً؟ وشاركه أصدقائه الذين جلسوا من حوله في أسائه بتأوهات ودموع، وتدهورت سمعة البابا نتيجة لهذه الواقعة كثيراً، لكن الرب الفاحص الذي لا يخفق، للأسرار، وحده يعرف الحقيقة.

كيف جرى تبديد المؤن في قبرص بشكل سري

عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء هناك

وفي حوالي الوقت نفسه، كان الملك الفرنسي الذي كان يمضي الشتاء في قبرص، يعاني كثيراً من نقص المؤن، فأرسل كونت بار، وهو رجل جدي وفصيح، وصاحب بيجو Beaujeu وكان فارساً جريئاً، إلى البنادقة، وإلى سكان الجزر الأخرى المجاورة والمدن يربوهم بإلحاح الإحسان إليه

بمساعده، ببيعه المؤن والامدادات، لأنه كان يقاتل في سبيل الكنيسة
المسكونية، وأعطى البنادقة لهذا الطلب جواباً بالموافقة والإيجاب، وعن
طواعية أرسلوا ست سفن كبيرة محملة بالقمح، والخمر، وأنواع المؤن
الأخرى، وكذلك نجدة من الجنود، مع أعداد ممن حملوا الصليب،
وأرسلت بعض المدن الأخرى والجزر، التي طلب منها المساعدة، مختلف
أنواع الامدادات، ولم يسمح فردريك بهذا فقط، بل أقنعهم بلطف بفعل
ذلك، وقام هو ذاته، حتى لا يظهر نفسه أنه أدنى من الآخرين، فأرسل إليه
كميات واسعة من امدادات مختلف أنواع الطعام، وبذلك امتلك الملك
الفرنسي منها كميات وافرة، وبعدما كتب إليه يشكره، كتب إلى البابا
يرجوه، أن يتلقى فردريك بحظوته، وإيقاف الحرب ضده، والتوقف عن
التشهير بمثل هذا الصديق العظيم والمفيد للكنيسة، الذي بوساطته تحرر
الجيش الصليبي من مجاعة كبيرة وخيفة، وعندما سمعت بلانشي الأم
النبيلة للملك الفرنسي بهذا، بعثت شكرها إلى فردريك، وأنقلته بهدايا
لا تقدر بثمن، وأعلنت بأنه حفظ حياة ابنها، وكرامة الجيش الصليبي كله،
كما أنها كتبت إلى البابا أيضاً، تلتمس منه تخفيف الضغينة التي شعر بها ضد
فردريك المذكور، ورفض قداسته — على كل حال — جميع هذه
الالتماسات وضايق فردريك أكثر فأكثر كل يوم، لكن أينما ذهب صار
وضعه أسوأ فأسوأ في القضية.

كيف صالح الملك الفرنسي كثيرين

كانوا على خلاف فيما بينهم أنفسهم

وعمل الملك الفرنسي في الوقت نفسه مؤتمراً حكيماً ومقدساً، أصلح فيه
بين كثير من النبلاء كانوا على خلاف، وكان ذلك في قبرص وفي مناطق
أخرى تابعة للصليبيين، وكان بين الذين أصلح فيما بينهم الداوية
والاستبارية، في سبيل أن لا يترك مجالاً للخلافات فيما بينهم، ولكي يتمكن
من السير بأمان أعظم في رحلته.

هنري بن فردريك يكتب إلى الملك الفرنسي نيابة عن ملك إنكلترا

قام في هذه الآونة (بناء على تحريض من ملك انكلترا، كما هو معتقد) هنري بن فردريك والامبراطورة ايزابيلا، وابن أخت الملك المذكور بالتقدم بالرجاء إلى الملك الفرنسي، من أجل انقاذ روحه، وفي سبيل نجاح حجه، بأن يتصرف بشكل تقوي وعادل نحو خاله ملك انكلترا، وأن يتنازل له عن الممتلكات العائدة له، بموجب حق جده، خشية أن يتحول ذنب الملك الفرنسي لويس، بموجب غضب من الرب إلى ابنه البريء، ودعم طلبه هذا بكثير من الالتماسات، وبوساطة رسل خاصين، كانوا محملين بالهدايا، ويقال بأن فردريك أرسل أيضاً رسائل التماس إلى الملك الفرنسي حول القضية نفسها، لكنه لم يضغط، خشية أن يظهر بأنه قد باع هداياه وأعطياته، وعلى هذه الالتماسات ردّ الملك الفرنسي قائلاً: «بحق الصليب المقدس الذي أنا حامله، أنا على استعداد لفعل ذلك، لو أن مجلسي الاستشاري يسمح بذلك، لأنني باخلاص أحب ملك انكلترا، بحكم أنه قريب لي، غير أن الأمر سوف يكون محرّجاً أثناء حجّي، في ازعاج جماعة مملكتي كلهم بمخالفة آراء أمي ونبلائي، وذلك مهما كانت درجة حبي للمتوسطين لدي».

وصول رئيس أساقفة روان إلى إنكلترا

في العام نفسه، في حوالي عيد الفصح، وصل إلى انكلترا رئيس أساقفة روان، الذي كان راهباً من طائفة الفرنسيسكان، وكان فرنسياً من حيث المولد، وكان قد حصل على إذن الملك، لاسترداد ملكية بعض الموارد، العائدة لامتيازات كنيسته، وبعدما حقق غرضه، قدم الولاء، من أجلهم إلى الملك (لأنهم كانوا في انكلترا)، ثم عاد إلى وطنه، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، قدم إلى انكلترا أسقف طرطوس، الذي كانت أسقفيته في سورية،

والذي كان من أصل انكليزي، وجاء قدومه من أجل زيارة وطنه الأصيل، ورؤيته والديه إذا ما كانا أحياء، وكان هذا الأسقف قد ولد قرب ردنغ من أبوين متواضعين، ولكن بما أنه لم يجد أي أثر لبيت والديه، أو والديه، اللذان أذعنا للعمر ولل فقر، عاد إلى مقره أسفاً وخجلاً.

وذكر هذا الأسقف — بمثابة حقيقة مؤكدة — إلى التجمع الرهباني في ردنغ (حيث قام بمناسبة عيد العثور على الصليب المقدس بعمل قداس عالي) بأن بقايا الخوازمية في الأرض المقدسة قد ذبح أحدهم الآخر، وذلك بوساطة انتقام رباني حاق بهم، وأن سلطان القاهرة يثير الحرب فيما بينهم، وأن أكثر الأمراء المسلمين تميزاً، هم الذين أنهكوا أنفسهم بالحروب فيما بينهم، وأن جبروت ذلك السلطان المذكور، عندما أخبر بقرب الوصول العدواني للملك الفرنسي ضدهم، قد عمل سلاماً فيما بينهم، ووحدهم في حلف، وبما أن هذا السلطان المذكور أيضاً، كان هو الرئيس، أو واحداً من رؤساء أمراء المسلمين المشاركة، قد بعث برسالة إلى الملك المذكور، بأنهم جميعاً ينتظرون قدومه بتشوق، حتى يتمكنوا من الاشتباك معه بمعركة تصادمية، وأنهم لا يخشون على الإطلاق حملاته، وأردف ذلك برسائل قاسية ومتفاخرة.

حول اجتماع النبلاء في لندن

ومع انتهاء عيد الفصح اجتمع نبلاء انكلترا، مع بعضهم في لندن، حسبما كان مقرراً من قبل فيما بينهم، وذلك حتى يقوم الملك وقتها بالوفاء بما وعد به بالغالب، أي أن يقوم بتعيين مستشار، مع مسؤول عن العدالة، وخازن، بناء على توصياتهم، وكانوا يتصورون أنهم سوف يحصلون بكل تأكيد على جميع ما طلبوه، لكن غياب الايرل رتشارد، الذي بدا وكأنه مقدمهم، عطل تماماً كل تقدم في مجال هذا العمل، ذلك أنه كان قد ذهب من قبل إلى منطقة نائية في كورنويل، وكأن ذلك كان في سبيل قضاء عمل، وبذلك خدعوا ثانية، وعاد النبلاء إلى مواطنهم.

كيف أصبح رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباة الضرائب للبابا

وفي حوالي الوقت نفسه، شغل الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان أنفسهم بالتبشير وذلك بناء على أمر من البابا، الذي يطيعونه إطاعة تامة، وفي سبيل أن يزدوا من تقوى المسيحيين ذهبوا بوقار عظيم، إلى الأماكن التي كانوا قد بشروا بها من قبل، ومنحوا كثيراً من الأيام بالتفرغ إلى الذين قدموا لسماعهم، وجرى استقبالهم من قبل قساوسة وكهنة، وهم في ثياب بيضاء، يحملون الصليبان والرموز الأخرى، و جلبوا معهم حشوداً كبيرة من الناس، حسبما جرت العادة في اسبوع الابتهاالات، ولدى تبشيرهم لصالح الصليب، منحوا ذلك الرمز إلى الناس من كل عمر، وجنس، ورتبة، ومهما كانت ممتلكاتهم أو كانت تساوي، ومنحوه للناس المرضى وإلى النساء، وإلى المحرومين من قواهم بسبب المرض، أو تقدم السن، وبعد ذلك استردوا منهم في اليوم التالي أو مباشرة، الذي منحوهم إياه، وذلك بأن حللوهم من تعهدهم بالحج، مقابل أي مبلغ يمكنهم الحصول عليه مقابل ذلك الاحسان، والذي بدا غير لائق ومتناقضاً، هو أنه بعد أيام قلائل، جمع الايرل رتشارد جميع ذلك المال ووضعه في خزانته، عن طريق وكالة المعلم برنارد، الذي كان كاهناً ايطالياً، وهو الذي جمع الثمار، وبذلك لم تكن الفضيحة التي قامت صغيرة في كنيسة الرب، وفيما بين الناس بشكل عام، وبالنهاية تراجعت التقوى لدى المؤمنين وبردت حرارتها.

وفاة رئيس أساقفة منتز

ومات في الوقت نفسه أيضاً رئيس أساقفة منتز Mentz، الذي كان عدواً كبيراً لفردريك، لكن حتى لا يشعر فردريك بالسرور أو يمتلك سبباً لذلك بموته، قام البابا بتحويل رئاسة الأساقفة تلك، بأن أسندها، ووضعها تحت حكم وتصرف رئيس أساقفة كولون، لأنه كان قد قاتل

بشجاعة من أجل الكنيسة ضد فردريك وابنه كونراد، ثم إنه وضع بعد ذلك بين يدي رئيس الأساقفة نفسه أفخم الديرة، الذي اسمه وولسا Wolsa، وقد قيل إنه لم يكن هناك ديراً أفخم ولا أغنى في العالم منه، وكان هذا الدير مرغماً منذ قديم الزمان على تقديم ألف عسكري إلى كل امبراطور جديد بعد تنويجه في اكس لي شابيل، وأفقر الآن رئيس أساقفة كولون المذكور هذه الكنائس الفخمة، حيث استصفى جميع ممتلكاتهم، حتى يدفع إلى جنوده، وبلغ الأمر حداً أن الرهبان والكهنة قد تفرقوا، ولم يعد لدى القساوسة القلة الذين بقوا مايكفيهم بالكاد للانفاق على أنفسهم، واستولى على كل ما كان ثميناً من ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس غالية، وكذلك على الموارد الغنية، وأخذه، ولكن المحصلة التي نجمت عن هذه الطريقة بالسرقة، إن الحكاية التالية، سوف تظهرها، وعلاوة على ذلك فإن هذا الرئيس للأساقفة، العسكري والمثير للحرب، حصل من البابا على امتياز استخراج مبالغ ضخمة من المال من جميع أرجاء رئاسة أسقفية، لتابعة الحرب، وقام بالتحصيل حتى من فقرائها، الذين من المعتقد أن صرخات شكواهم قد وصلت إلى السماء.

كيف نصب إنسيوس بن فردريك كميناً للبارمين

وفي تلك الآونة نفسها حدث أيضاً، أن البارمين، الذين من أجل مواساتهم ودعمهم في معاداة فردريك أرسل البابا إليهم مبلغاً كبيراً من المال، وقوة من الجند، وقد بعثوا مائتين من الفرسان للدفاع عن إحدى القلاع القريبة من مدينتهم، وهي قلعة كانوا قد بنوها من أجل حماية مدينتهم، لكن انسيوس Ensiaus ملك سردينيا وابن فردريك، قد جرى تحذيره سرياً من الواقعة قبل حدوثها، فنصب كميناً، وأسرههم وهم غير متيقظين، وعندما كان على وشك شنقهم على مشهد من المدينة، أرسل سكان المدينة رسالة إليه، بأنه إذا ما شنقهم، سوف يشنقون جميع أفراد جيش فردريك الذين كانوا لديهم أسرى، ولذلك لم يشنق انسيوس أسراه،

واحتفظ بهم لبعض الوقت من أجل الفدية أو المبادلة، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى مسامع البابا، حزن حزناً كبيراً، لأن المال الذي كان قد أرسله إلى سكان المدينة تبدد من دون فائدة.

هطول غير معتاد للمطر

مع بداية شهر حزيران هطل مطر غزير في المناطق القريبة من أبينغدون Abingdon، إلى حد أن أشجار الصفصاف والأشجار الأخرى، والبيوت المجاورة، وجلود الأغنام، والأغنام، وحفر الملح، والطواحين وبيعة بنيت على مقربة من تلك البلدة، جرفت كل الأنهار الفائضة والمجاورة التي طافت بالماء، وصار القمح والسنابل النامية مع الأرض، ولذلك ظهر أن الخبز سوف يصنع من النخالة بدلاً من الطحين.

التحويل الثاني لجسد القديس ادموند رئيس الأساقفة المعترف

وحدث في هذا العام أيضاً، أن الجسد المبجل للقديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، المتوفى، قد جرى نقله ثانية، وكان غير متفسخ في بونتغناك، إلى تابوت جرى صنعه بشكل جميل من الذهب والفضة، مع جواهر مرصعة به، وكان مثبتاً بوصلات زجاجية، وفي اليوم نفسه الذي أخرج من الأرض، والذي كان اليوم التاسع من حزيران، وكان أيضاً يوم عيد القديسين بريموس Primus وفيلشـانوس Felicianus وضع الجسد باحترام، وكان مايزال سليماً لم يتفسخ، وذلك بفضل الحفظ الرباني له، وأنزل في القبر نفسه بحضور حشد كبير من الأساقفة والنبلاء.

كيف حمل عدد كبير من النبلاء الإنكليز

الصليب وانطلقوا نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه استعد للانطلاق عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، كان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee، وحامل

رايته روبرت دي فيري Vere، وعدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، الذين قدّر عددهم بأنه وصل إلى مائتي فارس، هؤلاء جميعاً استعدوا للانطلاق في رحلتهم نحو القدس، وبناء عليه قام وليم الذي كان قائد الصليبيين من مملكة انكلترا، بعدما حصل على اذن ومباركة أمه النبيلة، والراعية المقدسة لدير لأكوك Lacock، من دون أي مزيد من التأخير، فانطلق في شهر حزيران، والتحق بالجيش الفرنسي سليماً ومعافى، واستقبله الملك المسيحي التقي لفرنسا، مع رفاقه باحترام، وأدرجه بين أصدقائه الخاصين، وشكره لأنه قدم إلى مساعدته، والتمس بحرارة من أتباعه بعدم السماح للتجبر الفرنسي والحسد، بإثارة خلاف بينهم وبين الانكليز، كما حدث في أيام الملك الانكليزي رتشارد، ولكن نتيجة لمؤامرات الشيطان، الذي اعتاد منذ أقدم الأزمان على الغيرة من نجاحات الناس، فإن الفرنسيين عندما شاهدوا فيما بعد أن الانكليز كانوا عظماء، وقد حصلوا على ممتلكات كبيرة، وشهرة، أصبحوا غيورين، ووجهوا الإهانة إليهم، وأظهروا سوء سلوكهم المعتاد، ومزجوا ذلك بالاهانات الشنيعة، وبذلك نفذوا كلمات النبي الذي قال:

ما من حاكم يدمر شريكاً بقوته

وأيضاً بالطريقة نفسها، من الممكن القول:

ما من رجل متشامخ يدمر شريكاً

والذي كان أكثر أن تجبرهم أثار كراهية متبادلة وحسداً بينهم أنفسهم، وبذلك فإن سيدهم قد أعيق كثيراً في تقدمه، الأمر الذي سوف يجري شرحه بالتفصيل فيما سيأتي.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين من قبل إيرل ليستر

وفي حوالي الوقت نفسه، قام سيمون دي مونتفورت، إيرل ليستر إما بتغيير رأيه أو بإلغاء نيته بالحج (لأنه كان قد حمل الصليب) ومن ثم أقلع

لإخضاع أعداء الملك في غسكوني، وقد وصل إلى تلك المنطقة مع قوة كبيرة من العساكر، وكان مزوداً بمبلغ جيد من الأموال الملكية، وزحف على الفور إلى قتال أعداء الملك، الذين تمردوا بشكل خياني ضده، وقد أخضع غاستون، وروستين Rustein، ووليم دي سولاري Solaires، وجميع النبلاء الأكثر تميزاً في بوردو، وقد تصرف بشجاعة كبيرة وباخلاص استحق عليهما عن جدارة ثناء وحظوة جميع أصدقاء الملك، وقد قيل بأنه تصرف مثل أبيه في جميع المجالات.

أسر إنسيوس المتقدم ذكره من قبل البولونيين

في شهر أيار من هذا العام، عندما كان إنسيوس، الابن الطبيعي لفردريك، وملك سردينيا، في حملة خلال المناطق المجاورة لبولونا، من أجل إلحاق الأذى بأعدائه، وذلك برفقة بعض الكريمونيين، وأناس من ريغيو Reggio، وكان البولونيون قد أُنذروا مسبقاً بمقدمه وباقترابه، فنصبوا كميناً، وقاموا بهجوم مفاجئ عليه، عندما كان سائراً من دون حذر أثناء زحفه، وكان ذلك عند جسر القديس أمبروز Ambrose، الذي كان قائماً على منتصف الطريق بين بولون وكريمونا، وأعقب ذلك صراع عنيف، مع مقتلة كبيرة، وانهزمت فئة إنسيوس، ووقع هو نفسه بالأسر، مع الأشخاص الرئيسيين في حاشيته، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائتي فارس، وذلك مع عدد كبير من الكريمونيين، ومن سكان ريغيو، وحشد من عامة الجند، وقد أخذوا جميعاً إلى بولونا للايداع بالسجون، حيث أصبحوا تحت إرادة أعدائهم، وجرّت معاملتهم بوحشية وبلاإنسانية، وقام الأسرى، في سبيل الحصول على معاملة ألطف، ولكي يحصلوا على قليل من الراحة من قسوة السجن، فدفعوا إلى البولونيين مبلغ ثمانية عشر ألف باوند، من النقود الامبراطورية، التي تساوي المبلغ نفسه من النقود الاستيرلينية.

موت ولد آخر لفردريك وحمله هو مريضاً

وفي حوالي الوقت نفسه، مات ولد طبيعي آخر لفردريك في أبوليا، وهو نفسه لحقه مرض جلدي اسمه «داء الذئبة»، أو النار المقدسة، وهكذا وجد نفسه وقد قهر من قبل كثير من المآسي، فحزن كثيراً من دون مواساة، وبات متدلاً، وفقاً لكلمات داود: «املاً وجوههم بالعار، وهم سوف ينشدون اسمك يارب»، فعرض شروطاً مشرفة للسلام مع البابا، وفرح البابا كثيراً لمرضه وضعفه، ولذلك رفض قبول عروضه، ونتيجة لذلك حصل على غضب وسوء القبول والنوايا لعدد كبير من النبلاء، الذين شرعوا الآن بمواساة فردريك، والوقوف إلى جانب قضيته، رافضين تجر عبد عبيد الرب.

كيف جرى إرسال بطرس كبوشي بمثابة نائب بابوي إلى أبوليا

وجرى في الوقت نفسه أيضاً إرسال بطرس كبوشي Caboché، الذي كان كاهناً وصديقاً متنفعداً لدى البابا، جرى إرساله من قبل البابا، نائباً بابوياً في أبوليا، مسلحاً بسلطة عظيمة في مسح الذنوب، حتى يتمكن من سحق فردريك وأصدقائه، وبناء عليه، تمكن هذا الرجل، مع سلطة متزايدة القوة، كان قد حصل عليها في جميع المناطق، بوساطة إعطاء المال، ومنح غفرانات كاملة من الذنوب، تمكن من إلحاق الكثير من الأذى بفردريك، واستعاد كثيراً من النبلاء للتخلي عن ولائهم له.

كيف استحوذ الرهبان السسترشيان على مدارس في الجامعات

وفي تلك الآونة أيضاً حصل الرهبان السسترشيان على امتياز جديد، في سبيل أن لا يستمروا موضع استخفاف وازدراء لدى الرهبان الفرنسيين والدومينيكان، والرجال المتعلمين العلمانيين، خاصة المحامين، ورجال القانون، وفي سبيل هذا الغرض شيّدوا أبنية فخمة لأنفسهم في باريس وفي أماكن أخرى، حيث ازدهرت المدارس، وأرادوا من امتلاك المدارس، دراسة اللاهوت، والقوانين والشرائع، لكي لا يظهروا أدنى من الآخرين،

لأن العالم قد أصبح الآن أكثر تيهاً وتجراً، وازدري الدين والديرة، واستهدف تجريد الرهبان ورجال الدين من ممتلكاتهم، وهكذا إنه بسبب شروور العالم، تعرض النظام الصارم للرهينة إلى الوهن الكبير، لأننا لم نقرأ بأن هذا قد نشأ عن نظام القديس بندكت، الذي — حسب شهادة القديس غريغوري — كان قد تأسس في روح القديسين، والذي هو زيادة على ذلك أننا نقرأ ونغني عنه، أنه قد أهمل الدراسات الأدبية، وقرر أن يطلب الصحراء.

تتويج بونيفيس رئيس أساقفة كانتبري

في يوم عيد جميع القديسين، جرى تتويج بونيفيس رئيس أساقفة كانتبري، وسط تشريف عظيم وأبهة كبيرة، وكان ذلك بحضور الملك والملكة، وجميع الأساقفة تقريباً، الذين اجتمعوا لهذه المناسبة المهيبة وكانوا كثيراً، وعندما كان الملك مسرعاً إلى هناك مع حاشيته، أخذ جون مانسيل Mansel، مستشاره الخاص، وهو مريض مرضاً شديداً، وكان ذلك في ميدستون Maidstone، ذلك أنه كان قد تأثر — كما قيل — بسم دس له، حيث عانى منه لمدة يومين، وبصعوبة بالغة جرى انتزاعه من أبواب الموت، بفضل العناية الكبيرة للأطباء.

حول انتشار تقارير غير مؤكدة

وترددت في هذه الآونة اشاعات، لاندري مدى صحتها، مع أنه تمّ ارسال رسائل بليغة حول هذه المسألة إلى الملك، وقد تحدثت عن تحول ملك التتار إلى المسيحية، وهذه الرسائل التي تقدمت الإشارة إليها، يمكن للقارئ الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

عودة أسقف نورويك من البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت، عاد وولتر أسقف نورويك من البلاط الروماني، حيث كان قد حصل — كما روي — على امتياز مهين، لاستخراج المال من

أسقفيته.

تقرير حول الاستيلاء على دمياط

في حوالي عيد القديس ميكايل، وبعد ذلك، انتشرت التقارير المفرحة في جميع أرجاء بلدان الغرب وكان أول شخص جلبهم إلى انكلترا هو بونيفيس، رئيس أساقفة كانتبري، الذي وصل يوم عيد القديس متى، وأفادت هذه التقارير أن الملك المسيحي التقى لفرنسا، قد نزل على الساحل في قوة كبيرة، وأنه صدّ المسلمين وقهرهم، واستولى على دمياط، ولكي نكون أكثر اقتناعاً بهذه الحقيقة، تلقى ملك انكلترا حولها رسالة، يمكن الوقوف عليها في كتاب Additaments.

اجتماع رهبان الطائفة السوداء

وفي حوالي الوقت نفسه، في يوم عيد القديس كاليكستوس Calixtus، اجتمع رعاة ديرة رهبان الطائفة السوداء — أو حماهم — في بيرموندسي Bermondsey، حيث جرى إبرام اصلاح بفضل إلهام من الرب من الممكن الوقوف على محتوياته في كتاب Additaments، وقد تمت الموافقة على تلك الاصلاحات بالاجماع، وهناك أمر واحد، هو على كل حال جدير بالملاحظة، وقد ورد في بنود هذه الاصلاحات، أعتقد أنه لايجوز تجاوزه هو أن الملك — مع أنه لم يقدم لهم السماح بفعل ذلك — حصل منهم جميعاً، على وجوب أن يقرأوا يومياً لصالحه ولصالح الملكة، القداس الذي يجري الغناء به يومياً في كنائسهم تشريفاً للعدراء المباركة، وهو الذي بدايته: «أيها الرب، الذي بين يديه قلوب الملوك».

حول الحجرة التي حملت طبعة قدم رجل

وفي هذه الآونة أيضاً، جلب الرهبان الدومينيكان إلى انكلترا حجرة من الرخام الأبيض، كانت موجودة في الأرض المقدسة منذ أيام المسيح، والتي تحمل طبعة قدم مخلصنا عليها، وكأنها كانت قد عملت من شمع طري،

وهي تري بشكل واضح نصف قدم انسان، وبشأن هذه الطبعة أو الشكل، أعلن سكان الأرض المقدسة بأنها كانت طبعة قدم المسيح، عندما كان على وشك الصعود إلى السماء، وذلك بعدما قام بوداع تلاميذه، وكان الهدف من ذلك أن يخلد لتلاميذه ذكراه، وهم الذين نظروا إليه للمرة الأخيرة على الأرض، ويقال أنه وفق الطريقة نفسها، عمل المسيح أيضاً طبعة عن وجهه، في سبيل أن تبقى ذكراه مرعية على الأرض، وقدم الملك هذه الهدية الفاخرة إلى كنيسة ويستمنستر، مثلما كان قد فعل مؤخراً بدم المسيح.

حول ولادتين غير طبيعيتين

وفي حوالي ذلك الوقت نفسه، وجد في جزيرة وايت Wight، طفل صغير اسمه جون، لم يكن قزماً، بقدر ما كانت أطرافه غير موزعة بشكل صحيح، ومع أنه كان في الثامنة من عمره، لم يزد حجمه على الاطلاق، حيث لم يصل طوله إلى ثلاثة أقدام، ولكي تثير الملكة دهشة الذين يروه، أمرت بأن يحمل معها بمثابة أعجوبة طبيعية.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، ولد طفل ذكر في أراضي إيرل هيرفورد، على حدود ويلز، وقد أنجب من قبل الشيطان — كما قيل — ففي اطار نصف سنة، جرى تزويده بأسنان، وقد نما حتى وصل إلى ارتفاع شاب في حوالي السابعة عشرة من عمره، وكانت أمه بعدما ولدت، استولى عليها المرض، وتلاشت حتى ماتت، وكان هذان الطفلان أعجوبتان طبيعيان، أولهما تجاوز الحجم الطبيعي للكائن البشري، ولم يصل الآخر إلى الحجم الطبيعي.

عقد مباراة مقارعة في بريكلي

وعقدت في هذه الآونة مباراة مقارعة في بريكلي Brackley، فيها تعرض عدد كبير من فرسان جماعة انكلترا، الذين اعتيد على تسميتهم الفرسان الأغرار Bachelors، للجراحة، وفي هذه المباراة التحق

رتشارد ايرل غلوستر، الذي مارس دوماً الوقوف ضد الأجانب، ومساندة قضية الانكليز المحليين، هذه المرة بهؤلاء الأجانب، مما ألحق ضرراً كبيراً بقضيته وشرفه، لأنه بعمله هذا وبتصرفه على هذه الصورة، عانت الفئة الانكليزية من الهزيمة، وفي هذا الصراع تمكن وليم دي بلنسية أخو الملك، بمساعدة الايرل المذكور من إلحاق الهزيمة بوليم دي أودنغسلي -Odin-gesseles وجراحته وكان فارساً جريئاً من جماعة الفرسان الأغرار.

تكريس وولتر أوف كيركهام أسقفاً لدرم

في الأحد الأول للميلاد، جرى تكريس وولتر دي كيركهام Kirkham، الأسقف المنتخب لدرم، في يورك من قبل وولتر رئيس أساقفة تلك المدينة، ذلك أنه كان نائبه الأسقفي.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

ونشب في حوالي الوقت نفسه خلاف بين راعي دير ويستمنستر ورهبان دير، مما سبب فضيحة ومهانة إلى جميع طائفة الرهبان السود، وقد جرت حكاية السبب والتفاصيل بشكل كامل في كتاب Additaments، وتم بوساطة تدخل ووساطة من الملك، الذي لديه — على كل حال — رعاية خاصة لذلك الدير، الوصول إلى سلام ووثام من هذا النوع أو ذاك، وأعيد تأسيسه بينهما.

حول خلاف آخر وقع بين راعي دير بيتربورا ورهبانه

ولزيادة سبب الفضائح المتقدم ذكرها، تفجر في الوقت نفسه خلاف بين وليم راعي دير بيتربورا Peterborough وبين رهبان دير، لأنه على الرغم من توجيه دعوة له حول مايتعلق بانفاقه الأموال في سبيل اغناء أقربائه، وذلك بوساطة عدد كبير من الذين أحاطوا به، وذلك مما سبب خسارة كبيرة جداً إلى كنيسته، هو لم يقيم بإصلاح خطيئته، واستاء الرهبان تجاه هذا، فتقدموا بالتماس شكاية إلى أسقف لنكولن، الذي كان دائماً

المرتبه الكهنوتية، ونتيجة لذلك، أعطاه أسقف إيلاي كنيسة درم الغنية، التي كانت عائدة الى إرميا، الذي كان كاهناً للملك قد توفي مؤخراً، وشعر الملك على كل حال ببغضاء كبيرة نحو كل من الأسقف المعطي، وروبرت المتسلم، لأن الأسقف لم يقيم متطوعاً، بمنح تلك الكنيسة الى ايشمار، أخي الملك.

إيرل روجر بيغود يأمر باعتقال كونت غوزني

وفي هذا العام نفسه كان كونت غوزني Gusne على طريقه خلال انكلترا ليذهب الى الملك، وسمع الايرل روجر بيغود بهذه الحقيقة، فأمر باعتقاله، وعندما بات الكونت على دراية بهذا الأمر تقدم بشكوى حادة حولها الى الملك، ولذلك جرى استدعاء الايرل روجر، وفي اجابة على التهمة قال بشكل علني للملك: «مولاي، عندما بعثت الى مؤتمر ليون بمثابة مبعوث من قبلكم ومن قبل المملكة كلها، وكنت مسافراً بسلام خلال أراضي كونت غوزني، وكنت قد تحملت الكثير من النفقات، ولقد شعرت متأكداً بأنني لابد من أستقبل من قبله مع بعض التشريف والتكريم، صدوراً عن احترامه لكم، ومقابل كثير من الاحسان واللفظ الذي غالباً ما قدم إليه من قبلنا، وخلافاً تماماً كان عمله، لأنه لخسارتي ولاهنتي، أو بالحري لخسارتك واهانتك، أوقف خيولي عن متابعة سيرها وكذلك أتباعي، حتى استخرج أناوة (أنا لا أعرف لماذا، أو على أية قاعدة)، وكانت الأناوة بقدر ما اختاره نوابه أن يطلبوا، كما أنه لم يستثنيني، صدوراً عن الأدب والاحترام لكم، ولذلك عندما جاء الكونت الى هذا الطرف من القنال، وكان ماراً خلال أراضي، أنا رددت عليه، وكان حقي أن أفعل ذلك، لأنني متملك لأراضي منكم، لأنك مولاي الملك، وبشكل حر، مثلما هو متملك لأراضيه من الملك الفرنسي، وأنا مرتبتي ايرلاً كما هي مرتبته كذلك، فمن أين استمد حقه في ممارسة هذا النمط من السلب، أي بيع الطرقات والهواء الى المسافرين؟» ولدى سماع كونت غوزني لهذا كان صامتاً

جاهزاً وراعياً في معاقبة الذين يضلون عن الطريق القويم، ووضعوا أمامه شكوى ثقيلة حول تجاوزات راعي ديرهم.

ولقد تبرهن بأن الراعي كان مداناً بما اتهم به، وعندما رأى أن خلعه بات وشيكاً، استقال، وكان ذلك جاء بناء على رغبته، وتخلّى عن وظيفته الرعوية وعن مرتبتها، ووضعها بين يدي الأسقف، وبناء عليه، جرى منحه شطراً من تلك الرعوية، حوى عزبة واحدة، فقد تمّ تعيينها له، مع أنه لم يستحقها، وذلك من أجل أن يتمكن أن يعيش باستقامة وكرامة مثل ناسك يمارس أعمال التوبة، وجرى على الفور ارسال وكلاء الملك إلى هناك من قبله، وانكبوا على العمل في سبيل الربح، وكانوا يسعون لالتهام موارد تلك الرعوية، وشغلوا أنفسهم في سلب ذلك الدير وتدميره، وعلاوة على ذلك كان الملك غاضباً جداً، وتطلع نحو فرصة للعمل ضد ذلك الدير، لأنه أخبر بأن الرهبان قد اضطهدوا راعيهم، ولأموه لأنه كان كريماً نحوه ومؤثراً له، أي نحو الملك.

انتخاب جون أوف كاين راعياً لدير بيتربورا

ثم قام الرهبان، حتى يتجنبوا غضب الملك، الذي كان يصادر جميع ممتلكاتهم، قاموا بناء على رغبته وأمره، فانتخبوا راضين أو غير راضين، راعياً لهم ولديرهم هو جون أوف كاين Caen، الذي كان رئيس رهبان كنيسة القديس سويثن Swithin في وينكستر، وذلك على الرغم من أنه كان ينتمي إلى طائفة أخرى، وكان أجنبياً من حيث الأصل، لأنه كان نورماندياً.

كيف تخلّى روبرت باسلو عن البلاط

في يوم الخميس، قبل عيد القديسة لوسيا Lucia قام روبرت باسلو) الذي تقدم ذكره مراراً من قبل في هذا المجلد) بالتخلي عن البلاط الكثير التقلبات والتغيرات، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، وقد جرت ترقيته الى

لشعوره بالخجل، ولم يكن بإمكانه أن يرد بأي منطق على هذه التهم، وعندما وصل خبر اجراءات الكونت الى علم ملك فرنسا التقي (وحدث هذا بعد أمد قصير من المؤتمر)، أعطى علاوة سنوية الى الكونت المذكور، حتى لا يتحمل أية خسائر مالية، وأمر بإلغاء تلك الأتاوة، لأنها كانت مهينة، كما أنها كانت مؤذية، لذلك توجب التخلي عنها.

تكريس كنيسة بيوليو

قام في هذا العام راعي دير بيوليو Beaulieu، بتكريس كنيسة بوقار عظيم، بحضور الملك هنري (الذي كان والده الملك جون قد أسس وبنى هذه الكنيسة)، مع الايرل رتشارد — أخيه — وكثير من الأساقفة والنبلاء الآخرين، وقد أنفق على هذا الاحتفال المهيّب خمسمائة مارك، لابل أكثر، لكن الملك، لهذا السبب، لم يوفره، بل أرغم الراعي المذكور على أن يدفع إليه غرامة ثقيلة جداً، لأنه — كما قيل — اقترف ذنباً ضده، فيما يتعلق باحتلاله لأرض غابية، وعلاوة على ذلك، أرسل راعي الدير المذكور عشرين راهباً منتخباً، وثلاثة عشر راهباً آخر، مما سبب خسارة جسيمة لكنيستهم، أرسلهم ليسكنوا دير طائفة السسترشيان الجديد، الذي كان الايرل رتشارد قد أسسه قرب وايشيكومب، للوفاء بالنذر الذي كان قد قطعه على نفسه عندما كان في البحر.

تقارير عن تحول ملك التتار الى المسيحية

وتواتر في هذا الوقت نفسه وصول أكثر التقارير سروراً، أي التقارير التي تحدثت بأن أعظم ملوك التتار قوة، قد خضع لتأثير التبشير المتواصل واقناع بطرس الهندي، الذي كان راهباً من طائفة الرهبان السود (الذي ورد ذكره مراراً من قبل فيما يتعلق بالرسائل حول التتار)، وأنه قد تحول الى المسيحية، وجرى تعميده، على الطهارة، والأمانة، والقداسة التامة، التي جرى التبشير بها إليه وعلمت له.

وأرسل الملك المذكور أيضاً رسائل مواساة وتأييد، الى الملك الفرنسي، الذي كان مقيماً في دمياط، وقد شجعه، وأقنعه بإلحاح على متابعة الحرب ضد المسلمين، وأن ينظف أراضي المشرق كله من دنسهم، ووعدته أيضاً بمساعدة فعالة وسريعة، بحكم كونه كاثوليكيًا، ومعمداً جديداً للمسيح، والرسالة المتعلقة بهذه القضايا كلها، والتي جرت ترجمتها من العربية الى اللاتينية، والفرنسية، وأرسلت الى الملك الفرنسي، قد قدمت كاملة في كتاب Additaments. وكان الملك الفرنسي مسروراً جداً بهذه الاضافة إلى الإيمان المسيحي، فأرسل إليه بيعته الثمينة، وبعض الآثار الغالية، وأرسل أيضاً بعض الدومينيكان والفرنسيسكان، للحصول على معلومات وافية حول هذه القضية.

وجرى في الوقت نفسه أيضاً، اختراع بعض التقارير الزائفة الأخرى لطمأنة المسيحيين، ولربما لتشجيع الصليبيين على الابحار، والالتحاق بالملك الفرنسي، وقد انتشرت هذه التقارير خلال ممالك هذا الجانب من البحر، وكان الناشر لهذه التقارير والمخترع لها هو أسقف مرسليليا، وبعض مشاهير الداوية، وبما أنهم تولوا الكتابة، وختموا ما كتبوه بأختامهم، كانوا موثوقين أكثر، لكن عندما باتت الحقيقة حول القضية معروفة، تألم الناس بعمق أكثر منهم، وقد ظهر على كل حال ما هو حقيقة بالنسبة إليهم، هو أن المسلمين، ومقدميهم، اشترطوا، بعد الاستيلاء على دمياط وعرضوا بأن يتخلوا إلى الصليبيين عن جميع الأراضي التي كانت من قبل عائدة إليهم، مع اضافات أعظم، شريطة أن يعيدوا إليهم مدينة دمياط، دون أن تتعرض للأذى، ومعها المناطق التي استولوا عليها، لكن تجبر كونت أرتو لم يسمح بهذا، كما لم يقبل بأية عروض تقدم بها المسلمون المتذللون، ما لم يسمح للصليبيين بامتلاك دمياط بشكل سلمي، وأن يؤذن لهم بالاستيلاء على الاسكندرية، مضافة إليها، ولم يوافق المسلمون على هذه الشروط الثقيلة بأية حال من الأحوال، ولذلك نعتقد بأن الرب قد غضب، لأن الصليبيين

حين عبروا البحر، فعلوا ذلك لهدف واحد فقط لا غير، وهو تملك ميراث المسيح، ويقال بأن المسلمين تشاوروا فيما بينهم وتحادثوا وقالوا: «انتظروا قليلاً، انتظروا، إن هذا التجبر، وهذا الشره، الذي هو ممقوت من ربه يسوع المسيح سوف يدمرهم جميعاً»، وهكذا تحولت الأمور، وحدثت الوقائع، حسبما سوف يوضح التاريخ المقبل بشكل كامل.

الموت المؤسف للملك سكوتلندا

في الثالث من تموز من هذا العام، مات الاسكندر، ملك سكوتلندا، وكان رجلاً حكيماً ومعتدلاً، وهو بعدما حكم بعدل، وسعادة، وسلام لسنين طويلة، قام في الجزء الأخير من عمره، وقد أثير بالشره، ولذلك قيل بأنه ابتعد عن سبيل العدل، ففي سبيل أن يجد فرصة تكون متنفساً للتعبير عن غضبه، أبدع وسيلة لغضب عنيف ضد واحد من أعلى نبلاء مملكته اسمه أوين أوف أرغيل Owen of Argyle، وكان فارساً جريئاً ومجرباً، وبما أنه خطط ليحرره من ميراثه، اتهمه بالخيانة، على أساس أنه قدم في السنة الأخيرة التي مضت الولاء إلى ملك النروج، من أجل استثمار جزيرة عائدة إلى ذلك الملك، وهي جزيرة كان والد أوين المذكور، قد استحوذ عليها من الملك نفسه، وقد تمتع بتملكها بسلام لعدد كبير من السنين، شريطة تقديم مثل هذا الولاء، وكانت تلك الجزيرة قائمة فيما بين أوركني Orkneys، وسكوتلندا، وخوفاً من أوين من تهديدات ملك سكوتلندا، الذي كان مولاه، أخبره بأنه سوف يقدم الخدمة الكاملة المتوجبة عليه، إلى كل من ملك سكوتلندا وملك النروج، وعندما أجابه الملك السكوتلندي وهو مغضب بأن «مامن انسان يمكنه خدمة سيدين»، تلقى جواباً من أوين المذكور، بأن أي واحد يمكنه بشكل صحيح خدمة سيدين، عندما لا يكون السيدان نفسيهما متعادين، وبناء عليه، حشد ملك سكوتلندا جيشاً من أجل القيام بالهجوم عليه، وخشية من أوين من أن يغضبه، رجاء والتمس منه منحه وقتاً يقوم به بالتخلي عن ولائه، وعن

الجزيرة المذكورة إلى ملك النروج، وتم رفض منحه هذا، وظهرت وحشية وجشع ملك سكوتلندا بشكل واضح، ولذلك نال غضب الرب، وغضب القديس كولومكيل Columkil، المدفون في تلك الأماكن، حيث هو محل تشریف كبير، كما نال غضب عدد كبير من النبلاء، ثم تحدى الملك أوين المذكور، وطارده بالبحر حتى أرغایل، وكان يجرّضه — كما قيل — أسقف غير مستقيم، هو أسقف ستراثيون Strathune، لكي ينتهز فرصه، وكان هذا الأسقف ينتمي إلى طائفة الدومينيكان، لكن لدى مغادرة الملك لسفينة، وقبل أن يتمكن من امتطاء ظهر فرسه، حل به غضب الرب، فأصيب فجأة بمرض مميت، وهكذا فإنه في الوقت الذي أراد أن يجرّد انساناً بريئاً من ميراثه، لفظ كل من نفس الحياة ومطمحه.

وفاة هوغ برون إيرل التخوم

وفي العام نفسه، وبعدما نزل الملك الفرنسي في دمياط، تحرر هوغ برون، إيرل التخوم من جميع مشاكله الدنيوية، واستحق هذا النبيل القليل من البكاء عليه، لأنه تأمر بشكل خياني في بواتو ضد ابن زوجته، ملك انكلترا الذي وثق به، إلى حد أنه بعدما بعث إليه للقدوم إلى هناك، باعه بشكل خياني إلى الملك الفرنسي، ومن المأمول أن يكون قد حظي بالفضل فتحلل من هذا الذنب، ومن ذنوب جرائمه الأخرى، في حجه هذا.

موت كونت صنجيل أو طولوز

في هذا العام، ومع اقتراب نهاية الصيف، تراجعت قضية البابا، وأصبحت ضعيفة إلى درجة كبيرة، وبدأ حسن الحظ الذي تمتعت به عند بداية الصراع مع فردريك، بالتغير، علاوة على ذلك، فإن وليم كونت هولاندا، الذي جرت ترقيته في أيام حياة البابا، إلى مرتبة ملك ألمانيا، قد تعرض للهزيمة على يدي كونراد بن فردريك، وقد هرب، وتولى إخفاء نفسه.

وأصيب ريموند كونت صنجيل أو طولوز، بمرض شديد، وكان فارساً شجاعاً ومتفوقاً، وصديقاً كبيراً للبابا، ولأنه كان في خطر عظيم أعاد إلى البابا الأموال التي كان قد استه قد عهد بها إليه، في سبيل شن الحرب على أعداء الكنيسة، وبشكل خاص ضد كونت سافوي، وحين أعادها أعلن بأنه يعاني من مرض شديد وميت، وأنه كان يتوقع الموت، وأن الذي بقي له هو القبر فقط، ولذلك عمل وصيته بكل فخامة، وأمر بأن يدفن جسده في دير راهبات القديسة ايفرود Evrouد، عند قدمي الملك رتشارد الذي كان قريباً له، ومع جسده تبرع بخمسة آلاف باوند من الفضة إلى ذلك الدير.

موت بطرس دي غينور

ومات في العام نفسه أيضاً بطرس دي غينور Geneure، وكان من بروفانس من حيث المولد، ومع أنه كان متواضعاً من حيث الأصل، لكنه كان صديقاً للملك، الذي برهن على مكانته لديه بأعماله، ذلك أنه زوج بطرس المذكور من السيدة النبيلة ماتيلدا Matilda، وكانت ابنة وسيمة لوليم دي لاسي، وحين أعطاه إياها زوجة، أعطاه معها جميع ميراثها والمناصب الشرفية العائدة إليها في أيرلندا، ومن خلال هذه السيدة أنجب صبيّاً وابنة.

موت المعلم سيمون النورماندي

وفي هذا العام أيضاً، مات المعلم سيمون النورماندي، الذي كان من قبل المستشار الرئيسي للملك والرئيس والحافظ للختم الملكي، وهو وإن كان متكبراً، نال أخيراً غضب الملك، بسبب المسلك الأمين الذي اتبعه، لأنه عندما رغب الملك باعطاء صك إلى توماس، كونت أوف فلاندرز، وكان ذلك الصك مضاداً لكرامة التاج، وكان سيسبب كثيراً من الضرر لمملكة انكلترا، رفض سيمون المذكور التوقيع عليه لهذا السبب، وبهذا التصرف

كان أميناً ومخلصاً، وقد استحق الثناء، وبهذا العمل تحولت أعمال العنف الأخرى التي اقترفها إلى أعمال مسوغة.

وفاة وليم أوف درم

وفي هذا العام نفسه، مات في روان المعلم وليم أوف درم، أثناء عودته من البلاط الروماني، وكان رجلاً عظيم التميز بعلمه، وبوفرة موارده الكثيرة، مع أنه تشوق لاستحواذ المزيد، وكان قسيس الكنيسة الفخمة في ويرماوث Wearmouth، القائمة قرب البحر، وإثر موته تدبر الملك الأمر بشكل فعال، بحيث آلت كنيسته إلى أخيه ايثيلمار، وذلك من دون أي بحث جرى حول القضية، وقام ايثيلمار هذا بسبب كثرة موارده، خاصة في المناطق الشمالية من انكلترا، بتعيين مارتن دي سينت - كروكس Sainte - Croix، ليكون وكيله، وكان كاهناً، ورجلاً عاقلاً.

وفاة روجر فتز - جون

وفي العام نفسه، في حوالي عيد الشعانين، مات واحد من البارونات النبلاء لشمالي انكلترا، وكان اسمه روجر فتز - جون، الذي ترك ولداً صغيراً بمشابهة وريث له، وقد عهد الملك بالمسؤولية عنه إلى وليم أوف بلنسيه، الذي كان أخوه، مع أن أمه قد رغبت بشراء الوصاية على الطفل مقابل مبلغ ألف ومائتي مارك، وكان اسم الأم آدا دي بالأويل - Ada، de Baliol وقد نال الطفل اسم ن. N.

وفاة عدد من النبلاء الفرنسيين

عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء في قبرص، غادر إلى الرب عدداً من مشاهير الصليبيين الفرنسيين، أن نقوم بتعدادهم سيكون الأمر متعباً، ولا علاقة له بالتاريخ الانكليزي، ومات أيضاً كثيرون أثناء السفر، في البر والبحر، وكان من بين الذين ماتوا هناك على ظهر سفينة قرب قبرص، الأسقف النبيل لـ «نويون» Noyon، وكونت بالاتين Palatine،

وكان واحداً من الاثني عشر كونتاً (النظرء) لفرنسا، وقد مات أيضاً، أثناء السفر في أفينون Avignon، هوغ دي تشاتليون Chatelion، وكونت القديس بولص وبلو Blois، الذي قتل بواسطة حجر قذف من منجنيق، في أفينون، في الصراع الذي تورط الملك فيه مع سكان ذلك المكان، قبل أن يقلع، وكان ذلك نذير شؤم أنذر باخفاق الصليبيين، لأنه لم يكن في الجيش الفرنسي كله رجلاً أكثر نبالة منه، أو رجلاً أقوى منه في القتال، فقد كان في ركابه خمسين فارساً من النخبة، بمثابة حاملين لأعلامه في المعركة، لكن عندما مات، تفرقوا جميعاً، وتركوا مهملين، وكان الكونت هوغ هذا قد بنى سفينة أنيقة في انفرنس Inverness، في كونتية موري Murray، وفي مملكة سكوتلندا ليكون قادراً بوساطتها على عبور البحر مع البولونيين Bolognese، والفلمنكيين، والذين يعرفون بشكل عام باسم «رجال أفالتيرا» Avalterre، لكن هذه الاستعدادات قطعت قبل أن تكتمل، مثلما يقطع الحائك النسيج، ومات هناك أيضاً في قبرص جون دي درو Dreux، وكان شاباً عظيم الجرأة في الحرب، وكان زهرة أسرته، ومن أسرة عالية النبالة، وجاء موته نذير شؤم للمستقبل، وإلى جانب هؤلاء، مات نبلاء آخرون من كلا الجنسين، وذلك بعدما تعرضوا للمرض، نتيجة لتغير الطعام والهواء، وهو الذي يخاف منه بسبب الطبيعة، وقد طاروا مثل شهداء إلى الممالك اللاهوتية، وقد رأينا أنه من المناسب أن نتولى ذكرهم في هذا الكتاب، لأنهم ختموا حياتهم بسعادة في سبيل تقدم قضية الكنيسة العالمية، وفي خدمة الصليب.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٠، هو العام الثالث والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، فهو قد أمضى عيد الميلاد في وينكستر، حيث احتفل تبعاً للعادة بأعياد ذلك الموسم بوقار عظيم، ففي اليوم التالي للعيد، تناول طعام الإفطار مع وليم، أسقف تلك المدينة، الذي أصبح الآن ضيفه، حيث رغب في منحه

السرور بحضوره، وقد أسرع بعد ذلك بالتوجه إلى لندن، حيث أقام عيد القديس ادوارد، بالوقار المستحق، وحيث دعا إلى هناك بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أقام قداساً هناك، كما دعا سبعة أساقفة، وعدداً كبيراً من نبلاء المملكة.

ولادة كونتيسة كورنول لصبي

وفي حوالي الوقت نفسه، في اسبوع عيد الميلاد، قدمت سينشيا، كونتيسة كورنول، زوجة الايرل رتشارد، إليه ولدًا ذكراً في بيركها مبستد، لتعميده، وقد بعث به الايرل إلى بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، والذي كان عم الطفل، وتلقى المولود اسم ادموند، تشریفاً لادموند المعترف، الذي كان رئيس أساقفة كانتربري من قبل.

موت إرميا مستشار الملك

وخلال أسبوع الميلاد نفسه، مات أيضاً إرميا كاكستون Caxton، وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، وأعطيت كنيسة الغنية على الفور من قبل أسقف ايلاي، إلى روبرت باسلو، على أمل، أن يصبح بعد حياة غير مثمرة طويلة، كاهناً مقدساً.

حول الغرامة الثقيلة التي فرضت على وولتر دي كلففورد

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، جرى اتهام وولتر دي كلففورد Clifford، الذي كان واحداً من الأعظم مكانة بين بارونات الحدود الويلزية، سواء في القوة، أو الثروة، أو الكرم، وجاء اتهامه أمام الملك، بأنه قام متحدياً للملك المذكور، فعامل رسوله بعنف وبشكل غير لائق، وهو الرسول الذي حمل إليه رسائل ملكية، وأرغمه على أن يأكل الرسائل مع الختم، وقد تبرهن أن وولتر هو مدان ومجرم أمام الملك، ولذلك لم يتجرأ على الوقوف أمام المحاكمة، بل ألقى بنفسه على رحمة الملك، وبوساطة ذلك، هو مع الصعوبة نجا من الموت، ومن التجريد من الميراث، غير أنه

فقد حريته وجميع الأموال التي استحوذها، أو كان بإمكانه الحصول عليها، وقد وصل ذلك إلى حوالي الألف مارك، ثم سمح له بالعودة إلى موطنه دون أن يسجن، وذلك بموجب كفالة بعض الضمانات.

إعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

وأثناء العيد نفسه ثابر الملك على استخدام جميع الوسائل المتوفرة لسلطته، لإعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر، والتجمع الرهباني في ذلك المكان نفسه، لأن الفضيحة التي نجمت عن ذلك الخلاف، انتشرت في الخارج، ونشرت عدواها إلى جميع الرهبانيات، في جميع البلاد حقيقة، وجرى إخبار الملك، بأنه قد عرض نفسه إلى الاضطراب، وإلى تحمل النفقات من دون غاية، في إعادة بناء كنيسة ويستمنستر — أي الراعي والقطيع، يعني راعي الدير ورهبانه الديرين — الذي هم الحجارة الحية في مثل ذلك البناء الفخم، على مثل هذه الدرجة من الخلاف، وهكذا أمكن بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه تقدير خاص نحو تلك الكنيسة، أعيد تأسيس السلام، فيما بينهم.

كيف استدعى أسقف لنكولن جميع الرهبان في أسقفيته

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، قام المضطهد الذي لا يعرف الكلل للرهبان، روبرت، أسقف لنكولن، بتوجيه الدعوة إلى جميع الرهبان في أسقفيته، للاجتماع في ليستر، في يوم عيد القديسة هيلاري، حتى يستمعوا هناك إلى ولاية من البابا، لأن هذا الأسقف، قد سعى بأقصى ما أمكنه نحو وضع الكنائس وموارد الرهبان في جميع أرجاء أسقفيته تحت سلطته، وهو أمر كان سيسبب الأذى إلى كثير من الناس، ذلك أن تلك الموارد لم يكن لدى الرهبان موافقة عليها من قبل الهيئة الكهنوتية، كما لم يكن لديهم أية وثائق تعطي برهاناً حول القضية، وكان الأسقف، حتى يصل إلى غايته، قد أنفق مبلغاً كبيراً من المال، حيث أرسل كاهنه ليونارد، بمثابة رسول متردد

على روما، إلى البلاط الروماني، وكان هذا البلاط — كما قلت من قبل — مثل خليج، وقد كانت لديه القدرة، وعمل عادة ابتلاع موارد جميع الناس، لابل في الحقيقة جميع ممتلكات الأساقفة، ورعاة الدير، ومن الممكن الوقوف على الرسائل التي منحت هذا الامتياز إلى الأسقف في كتاب الـ Additaments.

كيف عبر كثير من النبلاء الإنكليز البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أقلع كثير من النبلاء الإنكليز، وغادروا انكلترا، لكن سبب اعدامهم على هذا لم يكن معروفاً لدى أي من الناس، وكان من بينهم الايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وهنري هيستنج Hastings، وكان بارونا، وروجر دي ثيركباي Thurkby، وعدد كبير آخر، وكان معهم من الأساقفة: أساقفة لنكولن، ولندن، ووركستر، ومعهم رئيس شمامسة أكسفورد، وبدفورد، وعدد كبير آخر من الكهنة، من أسقفية لنكولن، وسافر الايرل رتشارد خلال المملكة الفرنسية، بصحبة الكونتيسة زوجته، وابنه الأكبر هنري، وحاشية كبيرة، وكان محاطاً بمرافقة كبيرة، في أبهة عظيمة، وتألقت المرافقة من خمسين فارساً، مجهزين بجهاز جديد موحد، وكانوا ممتطين لخيول جميلة، تحمل مقاود جديدة، تلمع بالذهب، وكان معه خمس عربات، وخمسين دابة حولة، وبذلك قدموا مشهداً رائعاً ومشرفاً للفرنسيين الذين شاهدوهم وهم مندهشين، وجرى استقباله لدى وصوله من قبل السيدة الشريفة بلانشي، وذلك بأعلى احترام، وقد عبرت عن بهجتها لدى رؤيتها له، وقدمت له هدايا رفيعة، مثلما يفعل قريب إلى قريبه، أو بالحري كما تفعل أم وتتصرف نحو ابنها المحبوب.

ذهاب أسقف لنكولن إلى البلاط الروماني

وكان سبب عبور أسقف لنكولن للبحر واضحاً إلى الجميع، لأنه، وإن كان رجلاً مسناً، كان يسعى جاهداً لاخضاع جميع الرهبان الذين

استدعاهم إلى طاعة دقيقة له، فهو كان قد دعاهم — كما ذكرنا من قبل — لسماع نص الولاية البابوية، وقد كانوا قد ترفعوا إلى الكرسي الرسولي ضد مظالمه التي لم يسمع بمثلها، وكان رعاة الديرة المعفيين، وكذلك الداوية والاسبتارية، قد ترفعوا جميعاً، ومعهم عدد كبير آخر، وقد تمكنوا من خلال المال، من شراء السلام بشكل عقلائي، وذلك لأنفسهم، من البابا، وذلك وفقاً لكلمات الشاعر الكافر الذي قال:

عون القاضي مطلوب عندما تكون القوانين قاسية

وعندما بات هذا معلوماً لدى الأسقف، وبعد انفاق كبير للمال، ومتاعب بلا فائدة، ذهب إلى البابا، وهو آسف ومضطرب، وخاطبه كما يلي: «مولاي، الأب المقدس، إنني قد خجلت لدى هزيمتي في قصدي في تنفيذ ما اعتمدت عليه واثقاً بما جاء برسائلك، وبعودك، وإنني الآن أشعر بالخيبة في توقعاتي، لأن أولئك الذين صدقتهم وأخضعتهم، قد مضوا أحراراً، مما سبب الإهانة إليّ والاضطراب»، ويقال بأن البابا قد رد على هذا قائلاً مع نظرة عابسة: «ماذا ألم بك؟ لقد حررنا روحك، وصنعنا لهم معروفًا، فهل عينك شريرة، بسبب أنني جيد؟»، ثم قال الأسقف لنفسه وهو يتنهد: «آه أيها المال، أيها المال كم سلطتك عظيمة، خاصة في البلاط الروماني»، لكن البابا كان قد سمعه، فغداً ساخطاً، فأجابه قائلاً:

«آه منكم أيها الانكليز، أنتم أكثر الناس تعاسة، كل واحد منكم يعرض جاره، ويسعى إلى افقار تابعه، كم كان عدد الرهبان الخاضعين لك، مثل الشياه، ومن أبناء وطنك وبلدك، وأنت كنت تسعى بالالتماسات وبإظهار الكرم، كما أنك قد بذلت غاية ما تستطيع، في سبيل اشباع طغيانك ونهمك من ممتلكاتهم، وكى تغني آخرين، ربما من الأجانب»، وهكذا غادر الأسقف المهان، وسط صرخات الشتائم من جميع الذين كانوا حضوراً، ولكي لا يبدو أنه لم يحقق شيئاً، تولى متابعة القيام ببعض الأعمال الأخرى.

كيف باع كثير من نبلاء إنكلترا مزارعهم

وقام في هذا العام روجر دي مونتهوت Monthaut، وكان واحداً من أعلى النبلاء مرتبة في مملكة إنكلترا، بحمل الصليب، وتولى ايجار حصته التي امتلكها في الغابات وفي الموارد الأخرى في كوفنتري، إلى رئيس رهبان، ورهبان دير ذلك المكان، على شكل ضمان حر، مقابل مبلغ كبير من المال، في سبيل تزويد نفسه بالضروريات من أجل السفر، كما قام أيضاً بتحويل كثير من ممتلكاته الأخرى إلى آخرين، وباع بعضها، وكان كثيراً، بيعاً كاملاً، ومثله فعل كثير من النبلاء الآخرين، في كل من القارة وعلى هذا الجانب من القنال، وبالإضافة إلى روجر هذا، تولى عدد كبير جداً من النبلاء الانكليز، والأساقفة، وكذلك الفرسان، حمل الصليب في هذا الوقت نفسه، من أجل رفع شأن قضية الصليب، وكذلك في سبيل اللحاق بالملك الفرنسي ومساعدته، وكان من بين هؤلاء أسقفي وورسكتر، وهيرفورد، وإيرلات: ليستر، وهيرفورد، وغيفري دي لوسي، وروبرت دي قوينسي، وعدد كبير آخر، كانوا كثيرين جداً، لا يمكن ذكرهم، وقام عدد كبير أيضاً برفض تسلم شارة الصليب بشكل علني، وذلك خشية من مكر البلاط الروماني، كما أنهم رفضوا وضعها على أكتافهم، لكنهم عزموا سرياً بشكل ثابت، وتعهدوا بمساعدة الأرض المقدسة، بكل ما امتلكوه من تقوى وإخلاص.

معاناة البارميين

وفي هذه الآونة نفسها ازدادت قوة فردريك كثيراً جداً، فبعدما تمكن من طرد وليم أوف هولاندا، وسفيره بطرس كبوشي، خضع كثير من النبلاء إليه، وقدموا الولاء له، ولذلك تم الضغط كثيراً من قبله على البارميين، وعلى الريجانيين Reggians، أيضاً وكذلك على البولونيين، والعصاة الآخرين، وكان التضييق عليهم قد بلغ حداً، أنهم لم يتجرأوا على إظهار أنفسهم بعيداً عن مدينتهم، خشية الوقوع في

مصائده، ولذلك فإن تجار هؤلاء الناس، الذين كانوا بالعادة مليئين بالثروة، باتوا الآن في حالة العوز، بسبب تعطيل أسواقهم، واغلاق الموانئ، وتسكير الطرق، ولذلك شرعوا يرغبون بالسلام مع فردريك، ويمقتون الحرب البابوية، وجرى تحريض الكثيرين على هذا توبة فردريك المستمرة وتواضعه، والترضيات التي قيل بأنه قدمها مصحوبة بإخلاص لائق إلى البابا، لأنه رغب، وتواضع سأل منحه الاذن بشن الحرب ضد أعداء المسيح، وأن يقاتل في سبيل الكنيسة في الأرض المقدسة، لبقية حياته، أو على الأقل، حتى يتمكن بقوة السلاح، من استرداد ما كان ممتلكاً من قبل الصليبيين في أي وقت من الأوقات، شريطة السماح لابنه هنري — ابن أخت ملك انكلترا، الذي أحبه أكثر من أولاده الآخرين — بأن يحكم الامبراطورية من بعده، وعلاوة على هذا عرض بأن يعيد إلى الكنيسة كثيراً من ممتلكاتها التي كان قد جردها منها، وأن يعرض عليها خسائرها، وعلى هذه العروض أصر البابا بعناد وتمسك بجوابه، بأنه لن يكون من السهل أبداً إعادته إلى وضعه الطبيعي، وهو الذي جرى خلعه فادانته في المجمع المسكوني لليون، وقد أكد كثيرون بشكل حاسم بأن البابا رغب بشدة وتشوق فوق كل شيء، إلى الاطاحة بفردريك، الذي سماه الثنين الكبير، وذلك حتى إذا ما تمكن من دوسه بقدميه، ومن سحقه، يمكنه بعد ذلك بسهولة أكبر، أن يدوس على ملكي فرنسا وانكلترا، مع الملوك المسيحيين الآخرين (الذين أطلق عليهم اسم «الأمراء الصغار»، أو «الأفاعي الصغيرة»)، حيث يمكنه أن يتولا هم الرعب من خلال قضية فردريك المذكور، ويمكن بالتالي للبابا أن يجردهم مع أقربائهم من مقتنياتهم ومن مباحثهم، وقد أثارت هذه الأقاويل، مع الأفاعيل الكثيرة، التي تحمل براهين قوية على معاني كلمات البابا، كثيراً من الناس، وأدخلت الخوف في قلوبهم، ومنتت عدالة قضية فردريك، لذلك بدأت قضيته بالتحسن يومياً.

إحصاء ثروة بونيفيس رئيس أساقفة كانتبري

واجتمع في هذه الآونة أساقفة منطقة كانتبري في اكسفورد، لإحصاء الأموال التي جرى جمعها من جميع أرجاء أسقفياتهم من أجل استخدام رئيس أساقفة كانتبري، ولمعرفة فيما إذا كانت قد وصلت إلى المبلغ المسموح له به، وقد عرفوا هذا من الجباة الذين جرى تعيينهم في كل واحدة من الأسقفيات، لكن رئيس الأساقفة كان قد عيّن عدداً كبيراً أكثر، من أجل حساب جميع النفقات لصالحه، وبناء عليه منحه الأساقفة —مكرهين— الذي طلبه، لأنهم شاهدوا بأن البابا مؤثر له في كل شيء.

كيف طلب الملك المساعدة من سكان لندن من أجل إجراءاته الماضية

في يوم الأحد التالي قبل عيد القديس بيريتوا Perpetua، والقديس فيليستياس Felicitas، اجتمع جميع سكان لندن، بناء على أمر من الملك، واحتشدوا جميعاً مع أسرهم، لابل حتى مع الأطفال من ذوي الاثني عشر عاماً، في ويستمنستر، في القصر الكبير، الذي يدعى باسم القاعة الكبيرة، وكان عددهم كبيراً إلى حد أن القاعة وكذلك القصر قد غصا بحشود الجماهير المجتمعة، وبعدما اجتمعوا جميعاً، قام الملك بتواضع، وكأن الدموع خارجة من عينيه، فالتمس من كل واحد منهم، لابل منهم جميعاً، في أن يقوم سكان المدينة بفهم واحد، وبقلب واحد، بمساحته من أجل غضبه، وحقده، وضعيئته نحوهم، وقد اعترف بشكل مكشوف، بأنه غالباً ما قام هو وعملائه، بإلحاق الأذى مضاعفاً بهم، مع انتزاع ممتلكاتهم بشكل غير عادل والاحتفاظ بها، وخرقه المتوالي لامتيازاتهم، ولهذا طالبهم الآن ورجاهم أن يمنحوه عفوهم، ورأى سكان المدينة أنه من غير اللائق عدم الاستجابة، فوافقوا على طلبه، لكن جاء ذلك من دون إعادة أي من ممتلكاتهم المتزعة إليهم.

الملك يحمل الصليب ومعه كثير من النبلاء

وتسلم الملك في اليوم نفسه الصليب من يدي بونيفيس، رئيس أساقفة كانتبري، وقام رئيس الأساقفة نفسه فيما بعد بمنح ذلك الشعار المقدس إلى بعض النبلاء، وكان من بينهم فتز — نيقولا، قهرمان الملك، ووليم أوف بلنسيه، أخيه [الملك] لأمه، وبوينتز بير Pointz Pepper، الذي كان مستشاراً خاصاً به، مع عدد كبير آخر من النبلاء ورجال البلاط، وقام راعي دير القديس ادموند، الذي كان اسمه ادموند أيضاً، أمام سخرية الجميع، فضرب مثلاً سيئاً إلى جميع الرهبان، وسبب الضرر إلى طائفته المقدسة، فحرق كل تعهد، فحمل الصليب أيضاً، وكذلك فعل جون مونسل Maunsel، وفيليب لوفل Lovel، وكـ... كاهنين للملك ومستشارين، وكذلك عدد كبير آخر، هم كثيرين جداً حتى نتمكن من ذكرهم، وأقدم بعض المفسرين الأشرار على التأكيد بأن الملك قد حمل الصليب لغرض واحد فقط، هو أن يتمكن لهذا السبب من استخراج المال بالقوة من النبلاء الذين رفضوا من قبل الاستجابة إلى طلبه، والدفع له، وبأن يدفعوا له الآن بحجة الحصول على امتلاك الأرض المقدسة ورفع شأن المسألة الصليبية، لكن الأناس الجديين والأكثر عقلانية تحفظوا بآرائهم حول هذه المسائل، حتى يمكن تفسيرها وبرهنتها من خلال اجراءاته الماضية، لأن المتوجب على العقل الجيد أن يؤثر الأشياء البناءة على القضايا المشكوك بها حتى يتبرهن العكس، وأيضاً من الذي — غير الرب — يعرف ما يفكر به الناس الفانين؟، وكانت أسس هذه الشكوك قد ازدادت من خلال المثل السيء الذي ضربه الملك الفرنسي الذي انتزع من مملكته مبلغاً كبيراً من المال، الذي كان مفيداً قليلاً له أمام أيدي الرب المنتقم، الذي أعاق حجه، والثمار التي جناها من تلك الإجراءات، الرواية التالية سوف تظهرها.

حول القرار الجماعي للصليبيين

في السابع والعشرين من نيسان لهذا العام، اجتمع القادة بين رجال الصليبيين الانكليز في بيرموندسي Bermondsey، في لندن، لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق بحملتهم، ذلك أنهم أعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن عمل ذلك بسبب الملك، ولقد قدروا في الحقيقة، أنه كان غير مجدياً بالنسبة إليهم إهمال اخلاص أرواحهم، والتخلي عن واجباتهم نحو الرب السماوي، في سبيل خدمة أي ملك أرضي، وبناء عليه حددوا يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ليكون موعد انطلاقهم، وقد أحصى أنه كان في الاجتماع خمسمائة من الفرسان مع أتباعهم، بالإضافة إلى حشد لا يحصى من الأعوان، والناس المرتبطين بهم، لأن جميع نبلاء مملكة انكلترا مع عدد كبير من مملكة فرنسا، ممن عملوا استعداداتهم أمام ملك انكلترا، وحملوا الصليب، كانوا يتوقعون هذه الحركة المجيدة، وكان الملك مثله مثل جاسوس متيقظ، لذلك حصل على معلومات مسبقة حول هذه الاجراءات، فكان لذلك قد حصل بوساطة هدايا الأموال، والوعود بتقديم المزيد على الفور، على رسائل من البلاط الروماني، يمكنه بوساطة سلطاتها، تأجيل مغادرتهم حسب رغبته، حتى يتمكن، وهو القائد الرئيسي في بلاده، من المسير مع قوة كبيرة، إلى بلدان ماوراء البحار، فبذلك يمكنه التصرف بشكل أكثر جدوى وسلامة، وعلى هذا ردّ الصليبيون، بأنه سوف يكون من الموائم وأمرأ سليماً، أن يقوم الذين حملوا الصليب قبل أن يقوم الملك بذلك، والذين قد زودوا أنفسهم بالخيول، والسلاح، وبالضروريات المحتاج إليها أثناء السفر، بوساطة رهن أراضيهم، وبيعهم الكثير من مقتنياتهم، وودعوا أصدقاءهم، أن يقوموا بالانطلاق، والشروع برحلتهم أولاً، وأن يسيروا قبله، وبذلك سوف يواجهون ويستقبلون بمزيد من إمدادات الطعام، وعندما سيشاهد الأجانب هذا، سوف يقولون: «إذا كان

مثل هذا العدد الكبير من الناس من ذوي مثل هذه المراتب العليا، قد جاءوا قبل الملك النبيل لانكلترا، علينا أن نتصور كم سيكون عدد الذين سيرافقونه ويتبعونه عندما سيأتي هو نفسه؟»، وبذلك سوف يزداد الاحترام للملك بين جيرانه، وسيتضاعف الخوف منه بين أعدائه، لكن الرسائل المهددة للبابا، والالتماسات الملكية التي قام بها الملك، غيرت مقاصدهم، فبقوا، ومع أن هذا الاجراء لم يكن مشكوراً في ذلك الوقت، لقد تحول في هذه المناسبة فكان فيما بعد لحسن حظهم، ولكن بسبب أنهم لم يذهبوا إلى مساعدة الملك الفرنسي، في ذلك الوقت المناسب، كما رغبوا وتشوقوا، فإن القضية الصليبية، قد وهنت كثيراً لسبب أو لآخر، وتدمرت بشكل غير سعيد.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين الذين

تمردوا على مولاهم من قبل إيرل ليستر

وأمكن في العام نفسه، تدجين غسكوني إلى أبعد الحدود، من قبل سيمون دي مونتفورت، إيرل أوف ليستر، فقد جرى أسر غاستون دي بيارد، الذي كان أقوى أعداء الملك، أو كان واحداً من أكثرهم قوة، وأهين بعد أسره، وبناء على أوامر من الايرل، ذهب إلى انكلترا، إلى الملك المتأذي منه، الذي كان مقيماً آنذاك في كليرندون Clarendon، ليترجأه بتذلل، وليطلب منه العفو عنه وابقائه حياً، مع المحافظة على أطرافه واقطاعه، ورمى هناك بنفسه كلية على رحمة الملك، وليس على حكمه القضائي، وقد قوبل بالرحمة منه، مع أنه لم يستحقها، لأن الغضب الملكي قاهر، وقد ابتعد عن ممارسة انتقامه عندما شاهد بأنه قد قهر أعداءه، وذلك وفقاً لكلمات أوفيد التالية:

ضحيته قُتلت، الأسد بات راضياً

المعركة قد انتهت، وغضبه كله قد تبدد

وبناء عليه، استحوذ الملك، من خلال الايرل المذكور، على بعض القلاع، التي كانت عائدة إلى غاستون المذكور وإلى المتعاونين معه، وقد كان من بينها قلعتي فرونساك Fronsac، وايجريمونت Aigremont، وعدد كبير آخر، وبعد تذلل، الذي كان ظاهرياً فقط، وبوساطة تدخل الملكة، التي جعل نفسه قريباً لها، استقبل غاستون بحظوة كبيرة من قبل الملك، بلغت حداً أنه أعاد إليه تملك أراضيه، ولكن جاء ذلك مرتبطاً بكثير من الشروط الدقيقة، وقام الايرل المذكور بدراسة سبل تقليد أبيه في جميع المجالات، وأن يسير على خطاه، أو أن يتخطاها، ولذلك ضبط وقاحة الرعية التي كانت عاصية على الملك في بوردو، وفي جميع أرجاء غسكوني، حتى أنه أرغم وليم دي سولاري Solaires، وروستين Rusten، مع رجال آخرين متجبرين كانوا عصاة ضد الملك، وأجبرهم على الفرار، أو قام بتجريدهم من موارثهم، أو حكم عليهم بالنفي، كما أنه تولى شنق الكثيرين.

كيف استخرج الغسكونيون بالقوة مبلغاً كبيراً من المال من ملك إنكلترا

ليكن معلوماً، أنه عندما كان الملك في غسكوني، وظن أنه غادر حراً وبمشيئته، كان الغسكونيون، وبشكل خاص شعب بوردو، قد شاهدوا أنه كان في وضع حرج، لذلك قاموا قبل أن يسمحوا له بالمغادرة، فاستخرجوا منه مبلغاً كبيراً من المال، كان مقداره أربعين ألف مارك، ومن أجل الوفاء بذلك، استخرجوا منه أيضاً بالقوة عهده ويمينه، وكذلك صكاً مدوناً، وبعد ذلك، قام الملك إثر وصوله مباشرة إلى إنكلترا فاعتصر هذا المال واستخرجه من الأساقفة، وبذلك أفقر إنكلترا، وذلك حتى بعدما كان قد خسر بواتو، ولذلك بما أنه كره الغسكونيين، باع خزانته حتى يتمكن من الخلاص.

حول الحملة التي قام بها الفرنسيون ضد المسلمين

في يوم الاثنين، قبل أربعاء الرماد، حمل الجيش الفرنسي فجأة، وتقدم بقوة عظيمة من قلعة دمياط، وانقض رجاله على المسلمين الذين كانوا يتولون حصارهم، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وبعدما حصلوا على النصر، عادوا ومعهم أسلابهم، سالمين ومسورين، إلى المدينة، وأملوا في اليوم التالي بالحصول على حظ طيب مماثل في القتال، ولكن نظراً لتزايد أعداد الأعداء، نالوا السوء من المعركة، وخسروا عشرة أضعاف الأسلاب، التي فرحوا بها أثناء عودتهم إلى المدينة في اليوم السالف، فقد رجعوا وقد غطاهم الدم، وهم مجروحين، ومشوهين، وأعدادهم قد تناقصت كثيراً، وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يشعرون بالعزيمة في قلوبهم، ويرفع رؤوسهم عالياً أمام الصليبيين، فأغلقوا جميع الطرقات في جميع أرجاء المنطقة، وفي كل الاتجاهات، بما أن آمال السلطان أصبحت الآن في حال أفضل، جمع غلايين من الاسكندرية، ومن الأماكن الأخرى القائمة على الساحل، ومن كل مكان أمكنه الحصول عليهم، وأمر باقامة مراقبة متيقظة على البحار، وعلى السواحل، وعلى جميع الأماكن التي كانت مفتوحة لجلب المساعدات إلى الفرنسيين، واستخدم المزيد من العناية، حتى يمنع من جلب الإمدادات إليهم.

حول شروط السلام التي قدمها السلطان

وأخيراً جرت بعض المشاورات، وتم عقد مؤتمر بين الجانبين، وقد أرسل السلطان رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه في سبيل تسوية جميع الخلافات، سوف يكون من المعقول بالنسبة له، أن يتخلى عن مدينة دمياط مع امداداتها، التي تدعى عادة باسم «حواصل الحبوب»، ومقابل ذلك سوف يعاد إليه جميع منطقة القدس مع الأسرى الصليبيين بشكل سلمي، وقال أيضاً إن على الملك الفرنسي أن لايطمح أو يتطلع إلى أي شيء أكثر من إعادة الأرض المقدسة إلى الصليبيين، وعلى هذه الخطة، وافق وقتها

كثير من الصليبيين، خاصة ذوي المراتب المتوسطة والمرتبات الدنيا، الذين كانوا في حالة عوز، لابل وافق عليها حتى النبلاء، وأعلنوا عن رضاهم، وقالوا صحيح بأن عروض السلام هذه كانت متواضعة، إنه إذا لم يتم الموافقة عليها، فإن تجبر النبلاء سوف يلحق الأذى بالجيش كله، ولدى معرفة الملك، كان ميالاً للأخذ بهذه النصيحة، لولا أنه عورض بعناد من تجبر وتشامخ كونت أرتوي، الذي أصر على المطالبة بالاسكندرية، بالإضافة إلى ماتقدم، غير أن السلطان ما كان بأي حال من الأحوال، يقبل بالتخلي عن تلك المدينة إلى الصليبيين (لأنها كانت أكثر المدن فخامة، ومقصد جميع التجارات الشرقية والجنوبية)، كما أعلن أنه لأهل الاسكندرية ولا المصريين سوف يرضون بذلك.

كيف ماتت أعداد كبيرة من الفرنسيين بالجوع وبالسيوف

بدأت أحوال الفرنسيين، الذين كانوا محاصرين من جميع الجهات، الآن بالتدهور بدرجات عالية جداً، لأن الذين كانوا بالعادة نظيفين ولطيفين في طعامهم وشرابهم، قد أرغموا الآن على أكل طعام غير نظيف ومكروه، كما أنه لم يكن بإمكان فردريك، أو أي أمير مسيحي من البلدان المجاورة، مساعدتهم، ولكي نجمل الأمور ونصفها باختصار، لقد كان الضغط عليهم بالنسبة للأطعمة قد وصل إلى حد، أنهم أرغموا أثناء الصوم الكبير حتى على أكل خيولهم الثمينة، التي كانت ضرورية جداً إليهم، ولقد كان هذا مشهداً محزناً، والذي كان أكثر سوءاً، هو أن خلافاً وكرامية قد تفجرا بين النبلاء وبين الصليبيين البلديين [البولياني]، لأن النبلاء رفضوا بعناد شروط السلام المنطقية التي جرى عرضها، وعلاوة على ذلك كره المسلمون رعونة الصليبيين وعنادهم، فزادوا من قوة تحالفهم، وضغطوا عليهم بشدة أكبر من ذي قبل، ولذلك قام عدد كبير من الصليبيين منذ ذلك الحين، بسبب المصاعب، فتركوا القلعة والمدينة سراً، والتحقوا بحشود المسلمين، وفق شروط معتدلة، ووقفوا بشكل مؤثر وفعال ضد

بني قومنا، ذلك أن المسلمين استقبلوهم بسرور، وزودوهم بالأطعمة، في الوقت الذي كانوا يسقطون به من الجوع، وعينوا لهم مايكفي من الطعام يومياً، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من هؤلاء الصليبيين الفارين حافظوا على إيمانهم وشريعتهم، بسبب اعتدال المسلمين وتسامحهم، غير أن بعضهم قد ارتدوا، والتحقوا بدنسهم، وأكدوا ذلك بتقديم الولاء لهم، وجرى تزويد هؤلاء بشروات واسعة، مع زوجات وقلاع، وجرت ترقية لهم إلى كثير من مراتب الشرف، وسبب هؤلاء أضراراً قاتلة إلى الصليبيين، فضلاً عن أنهم كشفوا عن أسرارهم وعن خططهم إلى أعدائهم.

كيف أصبح عدد كبير من الفرنسيين مرتدين

بات العوز الشديد للصليبيين معروفاً تمام المعرفة لدى السلطان، بوساطة هؤلاء المرتدين، فأرسل رسالة سخريّة قاسية إلى الملك الفرنسي يسأله لماذا جلب معه في مراكبه إلى الشرق: مساحي، ومذارى، وعربات، ومخاريث، وأنواع أخرى من أدوات الفلاحة، التي لم يعرف كيف يستخدمها، ذلك أنها سوف تتلف بالصدأ؟، وقد أوضح أنه إذا ما أصبح الملك الفرنسي صديقاً له، سوف يجد كثيراً من الزاد يصل إلى جيشه أثناء إقامته هناك، من نوع القمح، والخمرة والزيت، واللحم، وقاوم الملك — ليس من دون حزن شديد — جميع إغراءات أعدائه، وبحكمة أخفى جرح قلبه، تحت ملامح هادئة.

موت السلطان

وإثر ذلك مباشرة مات السلطان، حيث يقال بأنه سمم من قبل حبابه، لأنه بات مكروهاً لدى قومه، ولدى قاداته جميعاً، ولدى جيرانه، لأنه كان متجبراً، وشرهاً، وغير عادل نحو الجميع، ولدى سماع الصليبيين بهذه الواقعة ابتهجوا كثيراً، مع أنه توجب عليهم الحزن، لأن كثيراً من المسلمين تظاهروا فقط بالوقوف إلى جانبه، في حين كانوا قد أغضبوه بكراهيتهم

المخفية، ومالبث بعد ذلك أن جرى تعيين سلطان جديد في مكانه، وامتلكت هذا السلطان نوايا طيبة نحو جميع شعب الشرق تقريباً، وتابع هذا الرجل النشاط الحربي ضد الصليبيين، لابل بشدة أعظم من سلفه، ورفض تمام الرفض أن يمنحهم عروض السلام، التي سلف منحها، والتي تمنّاها جميع الصليبيين وطلبوها، وبدأت أحوال الصليبيين منذ ذلك الحين بالتدهور بدرجات عالية، وباتت سمعتهم متدنية وكذلك احترامهم، في أعين شعب الشرق.

كيف تلاشى إيمان الكثيرين

وبناء عليه، بدأ كثيرون ممن لم يكونوا أقوياء في إيمانهم، يذعنون أمام اليأس، ويعبرون عن ذلك بتجديفاتهم، وتبدؤوا من خلال الجوع، ومؤسف القول إن إيمان الكثيرين بدأ يتلاشى، لأن أحدهم قال للآخر: «لماذا نخلى المسيح عنا، نحن الذين نقاتل هنا من أجله ومعه؟ فغالباً في أيامنا هذه ماهزمنّا، ووضعنا في حالة من الفوضى، وأعداؤنا — في الحقيقة أعداء المسيح — منتصرون علينا ومجددون في دمائنا، وفي الأسلاب التي أخذوها منا، وكان ذلك في المقام الأول عندما جرى تطويقنا بفيضان النيل، وفي دمياط، التي أرغمنا على التخلي عنها، وهي المدينة التي حصلنا عليها مقابل الكثير من الدماء، ومجدداً جرت هزيمة فرسان الداوية المشهورين قرب أنطاكية، وتمّ تفريقهم مع خسارة حامل رايتهم، الذي جرى اعدامه، ومجدداً كان قد حدث قبل عدة سنوات مضت، أن هزمنا من قبل المسلمين عند قيسارية، بعدما كان قد جرى انقازها من قبل الايرل رتشارد الانكليزي، فبعد ذلك بأمد قصير، جرى تمزيق جميع الصليبيين تقريباً، إلى مزق من قبل الخوارزمية، الذين لوثوا، ودمروا جميع الأماكن التي تدعى مقدسة، والآن، إن ماهو أسوأ من كل شيء، هو أن ملكنا المسيحي التقى، والذي أقيم من الموت بشكل إعجازي، بات الآن معرضاً لمخاطر مهينة واضحة، ومعه جميع نبلاء فرنسا، وصار الرب وكأنه عدو لنا، والرب

الذي كان بالعادة يدعى رب الحشود، هو الآن، وبالأسف، مزدري من قبل أعدائه، وبحكم أنه قد هزم مراراً، ما الذي أفادنا اخلاصنا؟، وما هي الفائدة التي نلناها من صلوات رجال الدين، ومن اعطاء الصدقات من قبل أصدقائنا؟، فهل ياترى شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) خير من شريعة المسيح؟»، وهكذا ترددت كلمات التجديف وسمعت من ضعفاء الإيمان، وبدا أن الصوم الكبير، هو وقت للعقوبة، أكثر منه وقت للتوبة.

تدهور أحوال الإمتيازات الكنسية

وحدث في العام نفسه، أن قام أسقف لنكولن بتجريد واحد من الكهنة في أسقفيته، اسمه رالف، من منفعته، بسبب أنه اتهم بالفجور، ومع أنه رفض —على الرغم من إدانته— التخلي عن المنفعة، جرى حرمانه كنسياً، وبعدما مكث الكاهن الآن لمدة تزيد على أربعين يوماً تحت الحرمان الكنسي، أرسل الأسقف رسالة إلى عمدة روتلاند Rutland، حيث سكن الكاهن، وعاش في ظل سلطانه القضائي، وطلب منه اعتقاله، وادخاله السجن، بحكم كونه متمرداً، غير أن العمدة الذي كان صديقاً كبيراً لرالف المذكور، إما قام بتأخير ذلك، ورفض تنفيذ الطلب، لأنه لم يكن صديقاً للأسقف، لأن سينكا يقول: «الذي يجري تأخير لوقت طويل، يرفض لوقت طويل»، وبناء عليه، عندما شاهد الأسقف الكراهية الخفية للعمدة، قام بوقار فحرمه كنسياً أيضاً، وبناء عليه قام العمدة وهو مغضب ويشعر بالإهانة، فتقدم بشكوى ثقيلة أمام الملك حول هذه القضية، وعندما سمع الملك بهذا هو ورجال بلاطه، أثروا جميعاً كثيراً، وأجاب الملك وهو حائق، وأرفق أجابته بقسم عظيم قائلاً: «إذا قام أي واحد من شعبي بجعل نفسه عرضة للتغريم من قبل هذا الأسقف، أو من قبل أي واحد آخر، يتوجب عليه تقديم الشكوى إلينا، لأنه يبدو وكأنه ينظر إليّ نظرة ازدراء»، وبناء عليه أرسل رسالاً خاصين إلى البلاط الروماني، وتمكن بوساطة المال، من الحصول بسرعة على الامتياز الوارد في

الرسالة التالية، مما ألحق الضرر بالحرية اللاهوتية.

رسالة البابا

«من أنوسنت الرابع، إلخ، إلى ابنه المحبوب، راعي دير ويستمنستر في لندن، تحيات: لقد وافقنا عن طواعية على رغبة ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، صاحب السمو، ملك انكلترا المشهور، حتى نظهر أنفسنا محايين له ومؤثرين، في القضية التي طلبها منا بشكل عادل، حيث أنه قد وقع، حسبما روي لنا باسمه، بأن بعض رجال الدين والأساقفة، قاموا من أجل تسبیب الأذى للملك المذكور، بإرغام نواب مملكته على الترافع بقضاياهم أمامهم، وحسب هواهم، وذلك في القضايا، العائدة إلى القضاء الملكي، وقد تفوهوا بقرارات الحرمان الكنسي ضدهم، إذا لم يفعلوا ماطلبوه منهم، واستجابة منا لالتماساته، وبموجب سلطات رسالتنا هذه، رأينا من الموائم، أن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي قسيس آخر في تلك المملكة، من القيام بارغام أي واحد من نوابه، على الترافع بقضاياهم أمامه، في القضايا العائدة إلى العدالة الملكية، أو القيام لهذا السبب بالتفوه بأي حكم ضدهم، وبناء عليه نحن نأمركم بهذه الرسائل الرسولية، أن لاتسمحوا بموجب اخلاصكم، أن يجري اغضاب الملك المتقدم ذكره بشكل غير موائم، من قبل أي واحد من جماعتكم في هذه القضايا، وذلك معارضة لمقصد حظرنا، فاعل الشر، إلخ، إلخ. صدر في ليون في التاسع من آذار الحالي، في السنة السابعة لحريتنا».

وفعل الملك هذا، لكن ليس من دون الحصول على ملامة الناس العقلاء، لأنه اشتكى إلى البابا حول هذه القضية.

عودة الإيرل رتشارد

في يوم الاثنين التالي قبل أسبوع الابتهالات، وصل الإيرل رتشارد عائداً من البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى لندن، استقبل بكل تشريف

واحترام، في سبيل أن لا يكون الاحترام المبذوب نحوه هنا ليس أقل مما أبدي نحوه في القارة، لأن السيدة بلانشي قدمت إليه كل الاحترام الذي كان بمقدورها، وفتحت صدر فرنسا كلها له، وبات معروفاً لدى الجميع، بناء على رواية الايرل وروايات أتباعه، درجة التشفير العظيم التي أضفها البابا عليه، لدى وصوله إلى ليون، ذلك أنه لدى اقترابه من تلك المدينة، جرى استقباله من قبل جميع الكرادلة والكهنة التابعين للبلاط الروماني، حيث بقي مع البابا كاردينال واحد وعدد قليل من الكهنة، وبالنسبة إلى أتباعه، والناس الذين جاءوا لاستقباله، كان هناك ضغط شديد، وحشد كبير للرجال والخيول، ولقد كان عدد حاشيته، وفخامة عتادها، وخيول تحميله كبيراً جداً، إلى حد أن سكان المدينة، وكذلك الذين جاءوا إلى البلاط الروماني لتأدية الأعمال، كانوا مندهشين لوصول مثل هذا الأمير العظيم، ولدى دخوله إلى البيت نهض البابا من مقعده، وذهب إلى استقباله، حيث حياه، وباحترام مليء بالبهجة استقبله معانقاً، ثم قام وهو هادئ الملامح، فسأله تناول طعام الافطار معه في ذلك اليوم، ووافق على هذا الايرل راغباً، وجلس إلى المائدة إلى جانب البابا، وكان رتشارد ايرل غلوستر قد أجلس بعيداً بعض الشيء، ثم إنهم انشغلوا بالمشاركة بالمائدة، بشكل موافق وأديب، وقاموا بالأكل والشرب ومزجوا ذلك بأحاديث ودودة، وذلك وفقاً لعادات الفرنسيين والانكليز، وبعد ذلك عقدوا كثيراً من المحادثات السرية والطويلة فيما بينهم، خاصة وسط كرم عظيم وغير معتاد للبابا، وفي نهاية نيسان، بعدما قدم الايرل رتشارد احتراماته إلى القديس ادموند المعترف في بونتغناك، عاد مسروراً إلى انكلترا، كما تقدم الذكر أعلاه.

حول مختلف الآراء التي جرى تداولها

حول مؤتمر البابا مع الايرل رتشارد

انتشرت آراء مختلفة، وتخمينات متنوعة حول هذا المؤتمر الطويل والودود وحول غاياته، وأكد كثيرون بأن البابا قد رغب بأن يقوم الايرل

رتشارد بضبط وقاحة الاغريق، وإعلاء شأن قضية إعادتهم إلى الحكم الروماني، ذلك أنه قد عرف أنه كان نهماً وطموحاً، ووافر الثروة، ولذلك أراد هذا البابا استخدامه لهذا الغرض، ولم يتردد آخرون عن الاعلان بأن البابا قصد بشكل مدروس الحصول على مساعدة الايرل، لكي يستقبل بتكريم في انكلترا، متى أراد القدوم إليها.

كيف اشترى الايرل رتشارد رئاسة رهبان أحد الديرة

وعندما كان الايرل عائداً عبر دير القديس دينس، دفع إلى راعي دير ذلك المكان مبلغاً من المال لشراء إحدى رئاسات الرهبان في انكلترا، كانت عائدة إلى كنيسة القديس دينس، وكانت هذه الرئاسة تعرف باسم [دير] هيرست Hurst [Deer]، وكانت واقعة قرب غلوستر، وكان آنذاك يعيش فيها بعض الرهبان، وكان عائداً إلى هذه الرئاسة ثمان قرى غنية، ولذلك كانت كنيستها تساوي ثلاثمائة مارك سنوياً، مع حديقة وملاحق، وكان كل مارك يساوي ثلاثين شلناً في المصرف، وقد حصل على ابرام هذه الصفقة والمصادقة على الشراء في البلاط الروماني، وبعد وصوله إلى انكلترا قام على الفور بطرد الرهبان، ودمر المباني، وأدخل الرئاسة في ممتلكاته، وبعد هذا لم يعد يخاف من أي من جيرانه، خاصة الرهبان، واعتماداً منه على حماية البابا، بعثر كل شيء حسب رغبته، وبذلك بدأت أحوال الكنيسة تزداد سوءاً يومياً، كما أنه عزم على بناء قلعة هناك على نهر سيفيرن Severn.

حول معجزة عملت بذراع القديس إدموند المعترف

في هذا العام نفسه، كان رهبان بونتغناك، إما أنهم قد تعبوا من الوصول المستمر للحجاج، وبشكل خاص النساء الانكليزيات (لأنه لم يكن مسموحاً لأية امرأة أخرى أن تفعل ذلك) اللائي تدفقن على شكل حشود، على قبر القديس ادموند، أو أن هؤلاء الرهبان قد أثيروا بالجشع — وهو

أمر مرعب أن تذكره — فأقدموا على عمل طائش، بأن بتروا الذراع الأيمن للقديس، غير أنهم بقيامهم بهذا الإجراء، لم يتمكنوا من منع أعداد الحجاج، من كلا الجنسين، من التدفق على شكل حشود لرؤية الجسد ولتعبدته، وهكذا كانوا قد هزموا بجدارة في مقاصدهم، وعلاوة على ذلك، إنه بسبب ما بدا أنه نقص في الإيمان، قاموا إما بسبب الحاجة إلى الثقة، أو صدوراً عن الجبن، وأيضاً (باستثناء الاحترام المستحق لطائفتهم) صدوراً عن العوز في الإيمان والفقرفيه، أقدموا على تحنيط جسد القديس بالزيت، وهو الجسد الذي حفظه الرب حتى الآن سليماً، وحدث أن أي جزء من الجسد قاموا بتحنيطه قد تحول إلى لون قبيح جداً، ولذلك تكدست الملامة المتوالية على رهبان بونتغناك، وفي الحقيقة على جميع الرهبان السسترشيان، وفي الواقع حزن كثيرون بسبب أن مثل ذلك الجسد المبجل قد وضع في كنيسة عائدة إلى السسترشيان، مقدرين كيف أن أجساد القديسين كانت محروسة بكل احترام في كنائس رهبان الطائفة السوداء، آه من العمل الطائش، فالذي حفظه الرب سليماً ودونما اهتراء، تجرأ الانسان على تشويهه، لأمثلياً فعل الملك الفرنسي التقي، عندما كان على وشك الانطلاق في حجه، حيث أجاب عندما جرى عرض جزء من الجسد ليمنح إليه قائلاً: «إنه لايسرني أن يجري تشويه ما حفظه الرب سليماً، من أجلي»، آه كم الحاجة ملحة لإعادة الإيمان! فالذي حفظه الرب سليماً دون اهتراء، وجميلاً، حنطه هؤلاء الرهبان بالزيت، واعتقدوا أنهم سوف يحفظونه بشكل أفضل بوساطة هذا الدهن، ولذلك تغير لون الجسد، وصار مثل لون الأرض، وغضب الرب محقاً، حيث بدأ يجعل وقوع المعجزات أكثر ندرة، مما كانت عليه من قبل، عندما كانت تحدث هناك باستمرار، ولذلك بات احترام الرهبان السسترشيان وأساقفتهم وكهنتهم أدنى في أعين النبلاء، ومن المعتقد بأن هذا قد وقع بمثابة نذير سوء إلى جميع المسيحية.

كيف وضع الملك قيوداً على ضيافته مائدته

وابتعد في هذا العام الملك بشكل مخجل عن سبيل أسلافه، فأمر بانقاص نفقات بلاطه ومعها التسلية المعتادة لضيافته مائدته، ومع أنه سوغ عمله هذا، إلا أنه جلب على نفسه تهمة الجشع، كما أمر بإلغاء كميات الصدقات المعتادة، ومعها أعداد الشموع في كنائسه، وعلى كل حال إن الذي يستحق عليه المديح هو أنه قام بعقلانية بتحرير نفسه من الديون، التي كان متورطاً بها نحو عدد كبير من التجار.

حول الغرامة التي فرضت على اليهود

أصبح الملك في هذه الآونة ظمئناً، ومتعطشاً بنهم، وقد ألقى جانباً كل رحمة، فأمر باستخراج المال من اليهود، إلى درجة ظهوروا فيها أنهم باتوا فقراء بشكل دائم، لأنه استخرج منهم كل الذي كان في صناديقهم، وهؤلاء مهما كانوا تعساء، هم لا يستحقون الشفقة، لأنه تبرهن مراراً أنهم قد أجرموا في تزييف النقود، وفي تزييف الأختام أيضاً، وعلى الرغم من سكونتنا على بقية جرائمهم، نعتقد أنه من الموائم ذكر حقيقة واقعة واحدة تتعلق بهم، حتى تظهر شرورهم وتكون أكثر وضوحاً للمزيد من الناس.

حول جريمة اقترفت من قبل بعض اليهود

كان هناك واحداً من اليهود العاديين غنياً، وكان اسمه ابراهيم، لكنه لم يكن مثل ابراهيم بالإيمان، وقد امتلك بيتاً ومنتجعاً في بيركهامبستد، ووولنغفورد Wallingford، وكان لسبب غير مناسب أو لآخر — كما قيل — مقرباً من الايرل رتشارد، وكان لهذا الرجل زوجة جميلة، وكانت مخلصه له، وكان اسمها فلوريا Floria، وفي سبيل أن يكسب المزيد من الإهانات على يسوع المسيح، اشترى تمثالاً للعدراء المباركة، محفوراً بشكل جميل ومطلي، وكما هي العادة، كانت تحتضن ابنها وتضمه إلى صدرها، ووضع اليهودي هذا التمثال في خلائه، وأقدم على عمل مهين

وبشع أن تتولى ذكره، حيث أقدم بشكل شنيع جداً بالنسبة للعذراء مريم، بأن عاملها بقذارة، ولوئها بالدنس والفضلات ليلاً ونهاراً بشكل متواصل، وهو عمل من الصعب ذكره، وجعل زوجته تفعل الشيء نفسه، ولكن بعد مضي عدة أيام، عندما رأت زوجته هذا، تحركت عواطفها بسبب طبيعتها الانثوية، وشعرت بالأسف ومضت بشكل سري إلى ذلك المكان، وغسلت من القاذورات وجه التمثال، الذي كان ملوثاً بشكل كبير جداً، ولكن عندما اكتشف زوجها اليهودي هذا، خنق زوجته بشكل فاجر، ولدى الكشف عن هذه الجرائم، تبرهن أنه مجرم بهم، ومع أنه لم تكن هناك حاجة لبراهين أخرى لإعدامه، أُلقي به في أكثر الزنانات قذارة في برج لندن، ووعد في سبيل الحصول على إطلاق سراحه وتعهده بأن يبرهن بأن جميع اليهود في انكلترا خونة منحطين، وبناء عليه أثبت دعوى تهمة ثقيلة ضده من قبل جميع يهود انكلترا الآخرين تقريباً، وبما أنهم سعوا إلى إعدامه، تكلم الايرل رتشارد لصالحه، وعندها اتهمه اليهود بقص النقود، وبجرائم أخرى ثقيلة، وعرضوا على الايرل رتشارد مبلغ ألف مارك حتى لا يجميه، وقد رفض قبول ذلك، لأن اليهودي — كما قيل — كان صديقاً له، ثم أعطى هذا اليهودي، الذي اسمه ابراهيم، إلى الملك، سبعمائة مارك، ليحرره من السجن المؤبد، الذي حكم به عليه، وتمكن من الحصول على ذلك بمساعدة الايرل رتشارد.

كيف جرى إرسال رجال عدالة

لفحص كميات المال العائدة إلى اليهود

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أرسل الملك رجال عدالة لإجراء بحث وتحقيق حول جميع كمية المال العائدة إلى اليهود، على شكل ديون عائدة إليهم، أو نقود هي بالفعل بحوزتهم، وأرسل معهم أيضاً يهودياً منحطاً وبلا رحمة، من أجل أن يقوم باتهام جميع البقية، حتى ولو مقابل ثمن تجاوز الصديق، ووجه هذا اليهودي النقد إلى جميع المسيحيين، الذين أسفوا

وحزنوا لما عانى منه بني جلدة هذا اليهودي، وأطلق على وكلاء الملك صفة المتهاونين والضعفاء بلا فعالية، وكشر بأنياه غاضباً تجاه كل واحد منهم، وأعلن — مصحّباً إعلانه بأيمان مغلفة — بأنه كان بإمكانهم إعطاء الملك ضعف الذي أعطوه إياه، مع أنه كذب بذلك، ومع هذا عمد حتى يزيد من أضرارهم، فأباح أسرارهم يومياً إلى وكلاء الملك المسيحيين.

موت واحد من الأرمن في إنكلترا

في تلك الآونة، قدم إلى إنكلترا بعض الرهبان الأرمن، الذين طردوا من ديارهم، نتيجة لما قام به التتار من دمار لها، وقد وصلوا إلى إنكلترا من أجل الحج، ولدى وصولهم إلى سينت ايف Ives، أصيب واحد منهم بالمرض في تلك المدينة ومات، وقد دفن بشكل مشرف قرب نبع سينت ايفو Ivo، وهو نبع قيل بأن مياهه قد امتلكت فضائل كثيرة، وكان الرهبان المذكورين يتمتعون بحياة مستقيمة جداً، واعتدال مدهش، حيث كانوا يمضون وقتهم كله بالصلاة، وكانت ملاحظتهم بسيطة وهادئة، وكانت لهم لحى، وكان الراهب الذي مات هو رئيسهم، وكان معلماً، وكان كما هو معتقد، رجلاً مقدساً جداً، وأسقفاً، وبدأ الآن بالتميز بصنع المعجزات.

حول مبلغ المال الكبير الذي أرسل إلى الملك الفرنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل مبلغ كبير من المال، لمساعدة الملك الفرنسي، الذي كان في ضائقة شديدة، وكان مقيماً في معسكره، المنسوب حول دمياط، وكان هذا المعسكر محاطاً بالخنادق، لكنه كان في حالة عوز، ويفتقر إلى المؤن، وكان معرضاً للحملات ليلاً ونهاراً، وكان عليه تحمل الهجمات التي عملت بوساطة كمائن كان فيها أعداد لا تحصى من المسلمين، كانوا يطوقون المناطق الجبلية المجاورة، مع أنه لم تكن هناك حاجة إلى حراسة متيقظة أثناء الليل، وفي سبيل حراسة المدينة، وضع فيها خمسمائة فارس، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجالة، الذين بقيوا هناك مع النائب

البابوي، والأساقفة، والملكة، وبعض السيدات النيلات الأخريات، وأرسل كميات كبيرة من الأموال على شكل طالن، ونقود استيرلينية، ونقود كولونية مجازة (وليس من الأموال المنحطة للباريسيين، أو أهل تور)، وحملت الأموال على إحدى عشرة عربة، وكل عربة جرها أربعة خيول قوية، وحملت أقصى مايمكن أن تحمل، وبالإضافة إلى العربات، كانت هناك بعض خيول التحميل، على ظهورها جرى حمل الأموال إلى شاطئ البحر، فهناك جرى تسليمها ووضعها على ظهر بعض السفن الجنوبية، وذلك من أجل نقلها إلى الملك المحتاج، وذلك مع كميات كبيرة من الامدادات، وحملت كل عربة سلتين واسعتين، صنعنا بشكل محكم من الحديد، وكان قد جرى اعدادها لهذه الغاية، وقد ملئت بالأموال التي تقدم ذكرها، وكان قد جرى استخراجها من ممتلكات الكنيسة خلال مدة مقدارها ثلاث سنوات، والنتائج التي حصل الملك عليها وتوصل إليها، سوف تبينها الرواية المقبلة بشكل كامل.

عودة النبلاء الإنكليز

عاد من القارة في أسبوع الابتهالات، إيرل رتشارد مع إيرلي غلوستر، وليستر، ونبلاء آخرين، كانوا قد عبروا البحر، كما تقدم الذكر من قبل، وقد عاد هؤلاء سالمين إلى انكلترا، وبقي أسقفان في الخارج، وهما: أسقف وينكستر، ولنكولن، وبقي أسقف وينكستر في فرنسا، وهو يعيش في بيت صغير، من أجل توفير النفقات، واستمر أسقف لنكولن بالبقاء في البلاط الروماني، في سبيل الحصول على ماتمناه وخطط له، من البابا.

أما بالنسبة لسبب رحلة الايرل رتشارد، فقد كان ذلك برأي بعضهم — ولم يكن هذا الرأي من دون منطق — بأن البابا بعث خلفه، ليدفع قضيته بالحصول على امبراطورية رومانيا (بيزنطة)، التي يعلم بأنها كانت مليئة بالأموال، ورأى بعضهم، ومارأوه أصبح صحيحاً، من خلال الحقائق التالية، بأنه قد ذهب من أجل اعاقبة الصليبيين، عن الاقلاع

والسفر بحرأً، وأعلن آخرون، أن المرجح — وهو ماتبرهن بعد ذلك على الفور أنه هو الحال — كان ذهابه بقصد شراء دير هيرست، من راعي دير القديس دينس، ولابتياح المؤن الضرورية للسفر للصليبيين، أما سبب اظهار البابا كثيراً من الرعاية له، هو أنه كما قيل، أن البابا أراد أن يعرف أنه إذا ما قدم إلى انكلترا، هل سيجري استقباله باحترام من قبله، وأن يتمكن الايرل من اقناع أخيه الملك، ونبلاء البلاد (خاصة الذين كانوا في المجلس الاستشاري للملك) بأن يرسلوا إليه للحضور إلى هناك، وقد جرت معالجة هذه القضايا، وتمّ التعرض إليها في الصفحات المتقدمة.

حول التقارير التي بلا أساس والتي انتشرت

وجرى في حوالي الوقت نفسه ارسال رسائل من الأرض المقدسة، إما بقصد تقديم مواساة زائفة إلى المسيحيين، أو من أجل تشجيع الصليبيين، الذين كانوا يعملون على إلغاء مغادرتهم للقيام بحجهم، وقد كتبت هذه الرسائل من قبل بعض الأشخاص ذوي النفوذ الموثوقين، وهم أسقف مرسيليا، وبعض الداوية، وحت هذه الرسائل تقارير مفرحة كثيراً، وقد شجعت الذين استمعوا إليها بوساطة أخبار كانت بلا أساس، وأفادت هذه الأخبار، بأن القاهرة والفسطاط جرى الاستيلاء عليهما، وأن المسلمين قد أرغموا على الفرار، وأن الاسكندرية تركت في وضع ميئوس منه، وأقول بأن هذه التقارير جرحت الذين سمعوها وصدقوها، في النهاية بعمق، وذلك بقدر ما أفرحتهم في البداية، ونظرنا منذ ذلك الحين إلى الرسائل التي وصلت، وإن كانت صادقة، نظرة شك كبير، وازدراء.

تكريس كنيسة ونغريف

في أسبوع الابتهاالات لهذا العام نفسه، نشب خلاف بين راعي دير القديس ألبان وبين جون دي ويدن Wedone، حول ما يتعلق بتكريس كنيسة ونغريف Wengrave، التي كانت شاغرة آنذاك، ثم

انتهى وتمت تسويته، وأعيد السلام إلى مابين الطائفتين، وأعلن جون المذكور بحضور رجلي العدالة الملكيين روجر دي ثيركيسباي Thurkesby، وروبرت بروس Bruce، وآخرين من زملائهما، أن حق الكنيسة المذكورة عائد إلى منحة راعي الدير المتقدم ذكره، غير أن جون المذكور حصل على المذكرة التالية، التي خلاصتها ضد راعي الدير: «من الملك إلى عمدة بكنغهام، تحيات: أصدر أمراً إلى راعي دير القديس ألبان، بأن يتولى دونما تأخير السماح إلى جون دي ويدن بأن يقدم شخصاً مناسباً وموائماً إلى كنيسة ونغريف، التي هي شاغرة، والتي هي كما قيل عائدة إلى أعطيته، والتي عمل بشأنها شكوى بأن راعي الدير المذكور يعارضه بشكل غير عادل، وما لم يعطك ضماناً بأنه سوف يترافع بقضيته، عندها وجه الدعوة، بشكل صالح وقانوني إلى راعي الدير المذكور، حتى يمثل أمام رجال عدالتنا، في اليوم التالي لعيد صعود ربنا»، إلخ، إلخ، لكن ما هي المنفعة أو الضرر الذي واجهته كنيسة القديس ألبان في هذه القضية، هو أن الرومان ووكلاء الملك استولوا بالقوة على جميع الكنائس الشاغرة، خاصة الكنائس العائدة إلى الرهبان، حيث تنافست كل فئة مع الأخرى.

كيف قرر بونيفيس رئيس أساقفة

كانتربري القيام بزيارات تفقدية

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، استشر بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري بالمثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي حصل على سلطة القيام بزيارات تفقدية لكهنته، وبناء عليه حاول أن يقوم بزيارات تفقدية إلى الأساقفة، ورعاة الدير، ورجال الدين، والناس في مقاطعته، وعلى هذا قام أولاً، وفي المقام الأول، بزيارة تفقدية إلى الهيئة الرهبانية، لرهبانه في كانتربري، وكان ذلك بكل دقة، وبلا رحمة، ولذلك قال الرهبان فيما بينهم: «إننا نعاني من هذا بسبب ضلالنا، لأننا قد أذنبنا بحق سلفه، القديس ادموند، الذي عددهنا قاسياً ومستقيماً، ونحن نتحمل مانستهقه بشكل عادل من أجل

انتخاب أجنبي، وجاهل، وغير معروف، ومن دون خبرة، وهو واحد متدرب على الأمور العسكرية ومختص بها، وليس بالمسائل الروحية، آه، كم كانوا رجالاً رائعين أسلافه، وشهداء، ومعلمين معتمدين، ومعترفين مقدسين للرب، لماذا ويالأسف، أطعنا في هذا الانتخاب ملكنا الأرضي، بدلاً من ملكنا السماوي؟، ومن هناك ذهب رئيس الأساقفة إلى رعية دير فيفرشام Feversham، ولم يتجرأ الرهبان الجبناء، لذلك المكان، لخوفهم من طغيانه، على الوقوف ضد زيارته التفقدية، ومن هناك ذهب وهو غاضب جداً إلى رئاسة رهبان روكستر، واستخرج أكثر من ثلاثين ماركاً من ذلك الدير الفقير، ومن هذا وضح أنه مارس وظيفة الزيارة التفقدية رغبة منه في الحصول على المال، أكثر من رغبته باصلاح الطائفة وعاداتها، لأنه كان جاهلاً بأنظمة وعادات الطائفة، كما أنه كان فارغاً من المعرفة.

الطغيان الذي مورس من قبل رئيس

الأساقفة بونيفيس على رجال الدين في لندن

في الثاني عشر من أيار، الذي كان يوم عيد القديس بنكراتيوس Pan-cratius وأتباعه من القديسين، قدم رئيس الأساقفة المذكور إلى لندن، ليقوم بزيارة تفقدية للأسقف وهيئته الكهنوتية، ولرهبان تلك المدينة، ولم يترك أحداً من الناس، وأقام في البيت الفخم العائد لأسقف شيبستر، قرب بيوت الدير والرهبان، ولم يذهب إلى بيته في لامبث، كما أنه أمر مارشالاته بأن يشتروا له مؤناً بالقوة من سوق الملك، الأمر الذي فعلوه، وكدس في الوقت نفسه، التهديدات، والملاطات والاهانات على التجار، وهو لم يقم —على كل حال— بدعوة أي ضيف، وقام في اليوم التالي بعمل زيارة تفقدية للأسقف فولك، وقد مارس ضده بلاحياء استخراجات، مارسها بنفسه ذلك الرئيس للأساقفة، وكذلك بمطالباته بالطعام، والشراب، والمقاود، والمقصود هنا مقاود الخيول، ولو تمكن أي انسان أن يحكي الذي

عمله، لأذى الأذان والعقول، ولجرح قلوب جميع الذين سمعوا بهم، وعندما كان على وشك عمل زيارة تفقدية للهيئة الكهنوتية في كنيسة القديس بولص، في لندن، عارضه الكهنة، وترافعوا إلى الحبر الأعظم، وبناء عليه حرم كنسياً العميد وبعض الآخرين.

حول المعارضة التي عملت من قبل كنيسة

القديس بارثلميو للزيارة التفقدية لرئيس الأساقفة

وفي اليوم التالي، وكان ما يزال يتميز غضباً، قام بارتداء دروعه تحت ثيابه، وأكد الذين شاهدوا رئيس الأساقفة هذا أنه ذهب إلى رئاسة رهبان كنيسة القديس بارثلميو Bartholomew ليقوم بزيارة تفقدية للكهنة هناك، لكن عند وصوله، وعندما كان على وشك الدخول إلى الكنيسة، استقبل من قبل نائب رئيس الرهبان (لأن الرئيس لم يكن آنذاك في الدير) ومن حوله رهبان الدير، بمسيرة مهيبة، وهم يحملون عدداً من الشموع المضاءة، وذلك وسط الأجراس التي كانت تقرع، وكان الرهبان أنفسهم يرتدون أردية القداسات، وكان الرداء الأكثر جمالاً يلبسه نائب رئيس الرهبان، ولم يلتفت رئيس الأساقفة كثيراً، إلى التشریف الذي قدم إليه، ذلك أنه قال بأنه قدم إلى هناك للقيام بزيارة تفقدية للكهنة، وكان جميع الكهنة قد اجتمعوا الآن في وسط الكنيسة، أي أن نقول في السدة، وكان قد اجتمع معهم رئيس الأساقفة المذكور مع الجزء الأكبر من حاشيته، وقد ضغط عليهم وعصروا بشكل فوضوي، ثم قام واحد من الكهنة، فتحدث مجيباً باسم الجميع، وأعلن بأن لديهم أسقف مجرب وحريص، وهو يقوم بوظيفة زيارتهم التفقدية، عندما يكون ذلك ضرورياً، وهم على هذا لا يرغبون بأن يقوم أي واحد بزيارة تفقدية لهم، كما أنه ينبغي عدم فعل ذلك، خشية أن يظهر أنه يقوم بذلك تحدياً، ولدى سماع رئيس الأساقفة بهذا، انفجر بغضب غير لائق ولا معتاد، وانقض على نائب رئيس الرهبان، ناسياً مركزه، وقداسة أسلافه، وأوقع بفجارة ضربه بمقبضه على هذا

الكاهن المقدس والراهب، وهو واقف في وسط الكنيسة، وبوحشية كرر ضرباته على صدره المسن، وعلى وجهه المحترم، وعلى رأسه الشائب، وهو يصيح ويزجر بصوت مرتفع قائلاً: «هكذا، بات عليّ التعامل معكم أيها الانكليز الخونة»، ثم إنه تفوه بشكل مرعب وتلفظ بأيمان لا يمكن ذكرها، وطالب بجلب سيف له على الفور، ومع ازدياد الفوضى والهباج، ومحاولة الرهبان انقاذ نائب رئيس رهبانهم من أيدي المعتدي العنيف، مزق رئيس الأساقفة الرداء الثمين، الذي ارتداه نائب رئيس الرهبان، وانتزع الوصلة التي تعرف عادة باسم الابزيم، وكان ثميناً مصنوعاً من الذهب والفضة والمجوهرات، وقد ديس عليه وسط الحشد وضاع، والرداء الفخم ديس عليه أيضاً، وجرى تمزيقه واتلافه، ومع ذلك لم يهدأ غضب رئيس الأساقفة، ذلك أنه انقض مثل رجل مجنون على هذا الرجل المقدس، وبعنف شديد، وأرغمه وقهره ودفعه نحو الخلف، وضغط على جسده المسن بعنف شديد على الحاجز الذي فصل مابين مقعدين، وكان معمولاً من أجل منصة، فسحق عظامه حتى النقي، وجرح رئتيه والأجزاء التي من حول قلبه، وعندما شاهد بقية رجال الحشد، العنف اللامتناهي لرئيس الأساقفة، تولوا انقاذ نائب رئيس الرهبان، بصعوبة بالغة من بين فكي الموت، ودفعوا المعتدي عليه إلى الخلف، وعندما سقط هذا على الأرض، وقعت أرديته جانباً، وأصبحت دروعه مرئية بوضوح من قبل الحشود، الذين أصيبوا بالرعب، لدى رؤيتهم رئيس أساقفة لابساً للدروع، وبناء عليه، أعلن كثيرون بأنه قدم إلى هناك، ليس من أجل القيام بزيارة تفقدية، ولا لإصلاح أخطاء، بل لإثارة معركة، وقام بالوقت نفسه أتباعه المتهورون، أو بالحري رجال بلاطه، بوحشية بمقاتلة الكهنة الباقين، الذين كانوا غير مسلحين وغير مستعدين، وجاء ذلك بناء على أوامر رئيس الأساقفة واقتداء به، وقد عاملوا الكهنة بقسوة متناهية، حيث ضربوهم، وجرحوهم، وألقوهم أرضاً، وداسوا عليهم، ثم قام الكهنة بعد ذلك، وهم قد تورموا، وأقدامهم ملطخة بالدماء، وقد تعرضوا للتشويه

والإهانات، وغير ذلك، فذهبوا إلى أسقف المدينة، وكانوا يبكون، وتقدموا بشكوى ثقيلة إليه، حول الإجراء المزدول، وجواباً على ما قالوه، أجابهم هذا الأسقف بقوله: «الملك موجود في ويستمنستر، اذهبوا إليه، وانظروا فيما إذا كان هذا العدوان الظاهر، والخرق للسلام في مدينته الرئيسية، سوف يثير غضبه؟».

الملك يرفض الاصغاء إلى الشكاوى حول طغيان رئيس الأساقفة

وبناء عليه، قام أربعة من الكهنة بالذهاب إلى الملك في ويستمنستر (فالبقية كانوا غير قادرين على الذهاب بسبب آلام جراحاتهم)، وأروه ثيابهم الممزقة، وآثار الضربات، الظاهرة من الدم، ومن شحوب أجسادهم وتورمها، وكان ذلك وسط كثير من الناس، الذين أشفقوا عليهم لما عانوه من آلام، ومقتوا مثل تلك الفعلة النكراء، وكان خامسهم، أي نائب رئيس الرهبان المذكور غير قادر على الذهاب إلى البلاط، لامشياً على قدميه، ولا على ظهر حصان، بل حمل وهو يئن إلى المصححة، وتمدد في فراشه، حيث أمضى بقية حياته في حالة من الضعف، وعلى كل حال، رفض الملك مقابلة الرهبان المذكورين، مع أنهم انتظروا طويلاً أمام باب حجرته، كما رفض الاصغاء إلى شكاويهم، ولذلك عادوا وهم في حالة اضطراب عقلي إلى كنيستهم، التي كان رئيس الأساقفة قد لطمخها، ولوئها بدم الكهنة والرهبان، واستثيرت المدينة في الوقت نفسه كثيراً، وكأن انشقاقاً قد وقع، ولذلك اقترح سكان المدينة قرع الناقوس العام، وتقطيع رئيس الأساقفة إلى أشلاء، مهما حدث بعد ذلك من أمر، وترددت أصوات الشتم والإهانات، وأخذ الناس يتجمعون بحثاً عنه، ويندفعون وهم يصرخون خلفه، عندما كان مسرعاً نحو بيته في لامبث، ويقولون: «أين هذا اللص؟ هذا الفاجر، والمعتدي الدموي، على كهنتنا، والذي هو ليس الكاسب للأرواح، بل المستخرج للمال، والذي ليس الرب ولا الانتخاب الحر قد ارتقى به إلى منصبه، لكنه أقحم به بشكل غير قانوني، وهو جاهل ومتزوج،

وجرى فرضه من قبل الملك، وسمعتة الفاسدة، قد نشرت عدواها في جميع المدينة؟، وما لبث بعد ذلك، أن نزل فوراً في نهر التيمز، وتقدم بشكوى ثقيلة حول المسألة أمام الملك، وسوغ نفسه، واتهم الآخرين، ثم إنه أسرع إلى الملكة، وتقدم إليها بشكوى أكثر جدية، وخشي الملك وقتها، وخاف كثيراً من قيام عصيان وانشقاق في المدينة، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي، بمنع أي واحد، تحت طائلة فقدانه حياته وأطرافه، من التدخل في هذا الخلاف، وجرى رفض هذا من قبل كهنة القديس بارثلميو، وكذلك من قبل كهنة الثالوث المقدس، الذين ترفعوا بجرأة ضد إجراءات الملك، ثم استمد رئيس الأساقفة الجرأة من حظوة الملك، وتابع سيره إلى لامبث، وجدد في البيعة هناك بشكل مهيب قرار الحكم الذي كان قد تفوه به ضد كهنة القديس بولص، وأدخل فيه أيضاً أسقف لندن، بدعوى أنه المحرض للكهنة المذكورين، وبما أنهم على هذا كانوا يعانون من الأذى والضرر من جميع الجوانب، عهدوا بقضيتهم بشكاوى حزينة إلى القديس بارثلميو الذي خدموه ليلاً ونهاراً، وصلوا إلى الرب، إله الانتقام، بما أن الإنسان، لم يقبل، ولم يتنازل، بالقيام بمعاقبة مثل هذه الآثام العظيمة.

استعداد رئيس الأساقفة للذهاب إلى البلاط الروماني

وكان رئيس الأساقفة مايزال حانقاً وشديد الغضب، فذهب في اليوم التالي إلى عزبة تابعة له اسمها هارو Harrow، كانت على بعد سبعة أميال من دير القديس ألبان، وذلك في سبيل القيام بزيارات تفقدية هناك، وقد جدّد في ذلك المكان قرار الحكم المتقدم الذكر، ومع أنه كان قد أخبر من قبل أصدقائه، وكهنته، ومن قبل أناس متعلمين، وفصحاء، وأحيط علماً بالامتيازات الفخمة الممنوحة إلى تلك الكنيسة من قبل الكرسي الرسولي، أخفى هذه المعرفة، وتجاهل هذه الامتيازات، ثم إنه عاد، وعمل الاستعدادات لعبور البحر، حتى يتمكن من إلقاء المصائد للأبرياء في البلاط الروماني، حيث كان له نفوذ عظيم، وحيث اعتاد على الإقامة لمدة

أطول من التروس على رعيته، كما يتوجب عليه كراع صالح، وقام أيضاً عميد القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مسناً وصاحب تجربة وصالحاً، والمعلم روبرت بارتون، والمعلم و. W من ليشفيلد Lichfield ورجال فصحاء ومتعلمين وكهنة من الكنيسة المذكورة، بصحبة نواب أسقفهم، والكهنة المتقدم ذكرهم، قاموا بالذهاب إلى البلاط الروماني، للتقدم بشكوى ثقيلة إلى الخبر الأعظم، حول جميع القضايا والإجراءات التي تقدم ذكرها، وكانوا قد تزودوا بشكل جيد بما يلزم من توجيهات وتعليقات حول القضية، وتمتوا بشهادات الكثيرين، للبرهنة على صدق شكواهم.

رسالة أسقف لندن إلى راعي دير القديس ألبان

وكان أسقف لندن منزعجاً كثيراً تجاه هذه المشاكل، وقد ارتعب رعباً عظيماً، ولاغربة بذلك، فقد كان هناك شره البابا ونهمه من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية صداقة الملك المريبة وسوء نواياه تجاه رعاياه الطبيعيين، ومن جهة أخرى كان يخاف من نبلاء سافوي، وكان لا يتجرأ على معاداتهم، وقد رغب في حالة الطوارئ هذه بالحصول على نصيحة راعي دير القديس ألبان والرهبان هناك، وعلى مساعدتهم، لذلك كتب الرسالة التالية إلى راعي الدير، وفق الصيغة التالية:

«إلى أصدقائه المبجلين، والمحبوبين كثيراً بالمسيح: ج. ل. الذي هو بنعمة الرب، راعي دير القديس ألبان، ورهبان ذلك الدير، وكذلك جميع الرعايا الآخرين التابعين إلى ذلك الدير نفسه، يرسل فولك Fulk الذي هو بموجب الاذن الرباني أسقف لندن، تمنيات الصحة، وعواطف مخلصنة مستمرة متزايدة:

تلمع الشهرة مع خطوتها البعيدة الروعة في أنحاء الأرض، وتهددنا بصوت الرأي العام، في الوقت الذي تنتشر فيه، في مناطق لا تحصى، أخبار الخطر الحالي، وقد هوجم الهدوء الطويل لأسقفيتنا من أبينا المحترم، رئيس

الأساقفة، وبما أننا نعتقد بأننا نقوم فقط بالإجراءات الصحيحة للدفاع، مثل مقاتليك، الذين يتحملون ثقل الحملة الأولى للمعركة، لصالح الجميع الذين في المقاطعة، نحن نخبركم سلفاً، بأن الحرب التي فرضت علينا — مالم نل عون الرب، وأنتم — سوف تنزل بثقل أكثر عليكم أنفسكم، لأن رئيس الأساقفة المذكور قد قام — كما ربما قد علمتم — بزيارة تفقدية إلى جميع الكهنة والناس، في أسقفيتنا، ولأنه طالب بالمال، أولاً منهم، ومن الهيئة الكهنوتية لدينا، ومجدداً من رئيسي الرهبان لتلك المدينة، ووجه بالمعارضة، والرفض، إنما بشكل أديب، وبناء عليه قام بحرمانهم كنسياً، وجاء هذا بالمقام الأول، لعدم السماح له بالقيام بالزيارة التفقدية المذكورة، وفي المقام الثاني لأننا أمرنا بعض الأشخاص الذين هم تحت سلطاننا، بأن لا يسمحوا له، القيام بهذا العمل، وقام في سبيل إلحاق الأذى بكنيستنا، فأصدر قرارات ضدنا شخصياً، مع أنه جرت معارضته بموجب إجراءات مرافعات قانونية، وضد قضايا عادلة، وصحيحة، ومنطقية، ولم يكتف بهذا وحده، بل إنه أغار على بقيتنا، لأنه تسبب بإعلان الأحكام التي هكذا تأسست، في أسقفيته، وفي كل مكان آخر، حسبما علمنا من التقارير، وبناء عليه، بعدما أرسلنا بعض نوابنا إلى البلاط، توجهنا بالخطاب بأنفسنا إلى بعض نظرائنا من الأساقفة حول القضايا المتقدم ذكرها، وقد تسلم هؤلاء بالجرأة، وأعدوا أنفسهم وقدموها للدفاع عن حقوقهم وامتيازاتهم، ولذلك رأينا أيضاً من الموائم أن نتوجه بالرجاء إليكم، وإلى عواطفكم حتى تقوموا بتقدير الأسس لهذا الطلب، آمليين بأن لا تسمح لكم كرامتكم، وحمايتكم، وصلاحكم، بالتراخي، وأن لا تغدو شجاعتكم باردة، بل أن تضعوا ثقتكم بالذي يتولى حماية المظلومين من المؤذنين والرجال غير العادلين، وأن تمدّ يد المواساة، والمساعدة، والمشورة إلينا، آمليين بأن تبقى أخوتكم دوماً بخير ورعاية في الرب».

والمراسيم التي أراد رئيس الأساقفة، أن يتخذها ذريعة لنواياه وخططه،

قد أعطيت كاملة في كتاب Additaments, مع اعتراضات جميع الأطراف.

حول الاجتماع العام للهيئة الرهبانية للدومينيكان

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في حوالي عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، اجتمع رهبان طائفة الدومينيكان، بناء على دعوة عامة، من جميع بلدان العالم المسيحي، لابل حتى من منطقة القدس، والتقوا في بيت في هولبورن Holborn لعقد مناقشة عامة حول أوضاعهم وإدارتهم، وبما أنهم لم يمتلكوا وسائل خاصة بهم، قدم لهم النبلاء والأساقفة، كرماً منهم المؤن وفعل ذلك بشكل خاص سكان مدينة لندن والأماكن المجاورة لها، وكذلك قام راعيا وولتهام والقديس ألبان، وأمثالهما من الناس، وعقد هذا المؤتمر في أسبوع العنصرة، وتم التوجه بالدعاء إلى الروح القدس، التي كانت قد أرسلت في مثل ذلك الوقت إلى الحواريين، وقد كان هناك حوالي الأربعمئة راهب حاضراً، وقدم الملك في اليوم الأول إلى اجتماعهم، وطلب العون بصلواتهم، كما أنه زودهم بالطعام، وصدوراً عن احترامه لهم تناول طعامه معهم في ذلك اليوم، وبعد ذلك تم تزويدهم بالطعام من قبل الملكة، ثم من قبل أسقف لندن، وبعد ذلك من قبل جون مونسيل، وفيما بعد من قبل القساوسة الآخرين، أي من قبل راعي دير ويستمنستر وآخرين، الذين التمسوا منهم برسالة، سداد عوضهم وتلبية حاجاتهم، من ثرواتهم الوافرة.

حول الاضطراب بين سكان لندن

واستثيرت مدينة لندن، في الوقت نفسه، بدرجة كبيرة جداً، لأن الملك استخرج بعض الضرائب من سكان المدينة، لصالح راعي دير ويستمنستر، مما سبب لهم خسارة كبيرة، وأضراراً لحقت بامتيازاتهم، وعارض عمدة المدينة والجماعة كلها بشكل عام، ويقدر ما امتلكوا من قدرة عارضوا رغبة

(أو بالحري عنف) الملك وسلبه، لكنه برهن أنه فظ وعنيد نحوهم، وبناء عليه، ذهب سكان المدينة، وهم في حالة هياج كبيرة، مع شكاوى أسفة، إلى الايرل رتشارد، وإلى ايرل ليستر، وإلى النبلاء الآخرين للمملكة، وأخبروهم كيف أن الملك، قد انحنى وتحول إلى قوس من الشرور، مقتدياً بالبابا، حيث قام بلاحياء بخرق صكوك حقوقهم، التي منحت إليهم من قبل أسلافه، وانزعج النبلاء المذكورين كثيراً، تجاه هذا، وخافوا من أن يحاول الملك اتخاذ إجراءات مماثلة معهم، ولذلك انتقدوه بحدة، وأضافوا التهديدات إلى نقدهم، ولاموا راعي الدير بقوة، الذي اعتقدوا أنه كان المسبب والدافع إلى هذا الخطأ، وكدسوا الاهانة فوق الاهانة عليه، وهو أمر لا يجوز لنا روايته، صدوراً عن الاحترام للطائفة، وهكذا أمكن بوساطة حكمة النبلاء، رد الملك بسعادة وتراجعه عن خطته التي صممها.

كيف منح الملك صكوك إمتيازات

جديدة إلى راعي دير ويستمنستر

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متأثراً بروح مشابهة، مضادة لصكوك امتيازات أسلافه، وأيضاً لصكوك الذين حكموا انكلترا قبل الاستيلاء (النورماندي)، ونقضاً لتعهداته وليمينه الأول، فقام بمنح صك جديد إلى راعي دير ويستمنستر، وذلك في سبيل إلحاق خسارة، وضرراً واضحاً بكنيسة القديس ألبان، عن طريق قرية ألدنهام Aldenham القديمة، وهي قرية اشتق اسمها من Ald، الذي تعني ترجمته «قديم»، ولهذا يبدو أمراً مسوغاً، إذا ما سكتت جميع الصكوك حول هذه المسألة، لكن القرية المذكورة كانت قد منحت في الزمن القديم إلى ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وبالإضافة إلى هذا، منح الملك صكاً بامتياز مطردة في أراضي دير القديس ألبان، وعلى مقربة من تلك البلدة، إلى أحد الفرسان، واسمه غيوفري (مع أنه لم يكن منحدرًا من آباء نبلاء أو فرسان) الذي كان يحتل مركزاً رئيسياً بالنسبة لكنيسة القديس ألبان، وجاء هذا مضاداً للامتيازات

القديمة لتلك الكنيسة، وللصكوك التي تم الحصول عليها من الملوك الأتقياء للزمن القديم، ولصك الملك الحالي هنري، وجاء ذلك لمجرد سبب هو أن الفارس المذكور، كان قد تزوج من أخت كاهنه، جون مونسيل، كما أن غيوفري روفوس المذكور، لم يتردد في التحرك ضد الكنيسة، سيدته التي ثقفته، ورفعته إلى مرتبة الفروسية، ولذلك وسم بعلامة السمة الأبوية، وليس بعلامة الخيانة للأم، لأنه بشكل ظالم وبلا حياء آذى الأم التي حملته، كما فعل نحو الكنيسة التي أغنته، وأغنت آباءه من قبله، وقد دفع مع الجراءة لأن يتصرف هكذا، من قبل الكاهن الخاص للملك المتقدم ذكره، والذي كانت ثروته، تعادل ثروة أسقف، والذي أخته كان روفوس Rufus قد تزوجها، كما ذكرنا أعلاه، وكان اسم هذه السيدة كلاريسا Clarissa، وكانت ابنة كاهن ريفي، وكانت مائتال من دون أولاد، وقد نظرت إلى نفسها وتفاخرت فوق منزلتها، مما كان موضع ازدراء الجميع، وكان زوجها كما يعتقد مفتوناً باقتراحاتها، ولا أعتقد أنه معذور بهذا، بل ينبغي بالحرى أن يكون مداناً بذلك، وذلك وفقاً لكلمات الرب عندما شجب بلعنته أبانا الأول، آدم بقوله: «بسبب أنك أطعت صوت زوجتك، أكثر من صوتي، اللعنة ستكون على الأرض إلى الأبد»، وعندما توجه مؤلف هذا الكتاب، أعنى الراهب متى باريس بالملامة إلى الملك، حول هذه الإجراءات، أجابه قائلاً من دون خجل: «ألا يتصرف البابا وفق هذه الطريقة نفسها، لدى إلحاقه رسائله بعبارة: دون التقييد بأي امتياز، أو غفران؟»، ثم إنه بعد وقت تكلم باعتدال أكبر، وقال: «انتظر قليلاً، سوف نفكر حول القضية»، لكن ذكرياته لجميع كلماته ووعوده عبرت وزالت مع صوت نطقه بكلماته .

كيف عهد بختم الملك إلى وولتر أوف كيلكني

خلال هذا العام، أخذ الملك بمشورة حكيمة، فعهد بالمسؤولية عن ختمه (الذي تبرهن أنه كان بالفعل مفتاح المملكة) إلى المعلم وولتر أوف

كيلكني Kilkeny، وكان رجلاً معتدلاً، وأميناً، ومتعلماً، وواحداً بارعاً جداً، وحكماً في القوانين الدينية وكذلك المدنية.

كيف مضى الملك الفرنسي بزحفه نحو الشرق

وقام الملك الفرنسي في هذه الآونة بحملة من دمياط، وذلك بعدما وضع بعناية حامية في تلك المدينة، تكونت من دوق بيرغندي، وعدد كبير من النبلاء الآخرين، والفرسان، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجالة، ومع النائب البابوي، وبعض الأساقفة والكهنة والملكة، وسيدات نبيلات أخريات وأسرهن، لأن:

الذي حصلت عليه، أكثر من عمل ربح جديد

وزحف هو مع جيشه، نحو المزيد من عمق المناطق الشرقية، وقد لحق به وليم لونغوسبي Longuespee مع أصحابه الذين رافقوه، وهم روبرت دي فيري Vere، وآخرين، عددهم كبير جداً لا يمكن ذكرهم، وبعض الفرسان والأتباع الذين احتفظ بهم بالأجر المدفوع.

كيف أصبح الفرنسيون غيورين من الإنكليز

وبسبب ما فطر عليه الفرنسيون من تجبر، استخفوا بوليم المذكور، وكرهوه مع أتباعه، وعاملوهم بجفاء، مع أن الملك الفرنسي التقي، قد حظر عليهم بشكل خاص هذا، ولذلك خاطبهم هكذا قائلاً: «أي جنون أصابكم وأثاركم أيها الفرنسيون؟ لماذا تضطهدون هذا الرجل، الذي قدم من بلاد بعيدة لمساعدتي شخصياً ولمساعدتكم، والذي هو حاج، ويقا تل باخلاص في سبيل الرب، كما تفعلون أنتم أنفسكم؟» ولم يتمكن الملك —على كل حال— من تهدئة عواطف الفرنسيين بهذه الحجج، أو بوساطة الالتماسات، حيث استمروا في ازدراء الإنكليز واضطهادهم كما قال الشاعر:

كل تجبر الغيرة شريك له

وكان أساس هذه الغيرة والكراهية هو مايلي: كان وليم المذكور، قد استولى ليس بالقوة، بل بالصدفة وحسن الحظ، على برج قوي قرب الاسكندرية، كان مليئاً بالسيدات، زوجات بعض النبلاء المسلمين، وحدث ذلك تماماً دون معرفة الفرنسيين، ولهذا السبب أصبحت شهرته واسعة، وانتشر الخوف منه ووصل حتى إلى مناطق بعيدة في الشرق، ولأنه امتلك كثيراً من المال هنا، كما فعل في كل مكان آخر، بموافقة حظ الحرب له، أغنى بذلك حاشيته وزاد من مكانته، (الأمر الذي لم يستطع الفرنسيون فعله مع أنهم كانوا كثيرون وأقوياء) ولذلك حسده الفرنسيون، وآذوه بالتآمر ضده، واضطهدوه مع كراهيتهم، كما أنهم لم يتمكنوا من إقامة أية علاقة صداقة معه.

حول الاستراتيجية التي مارسها وليم لونغوسبي

وأيضاً حدث ثانية، أن وليم المذكور، علم بشكل سري من بعض الجواسيس البارعين، الذين كان قد نشرهم، بأن بعض التجار الأغنياء من الشرق، كانوا قادمين من دون حذر، مع حراسة صغيرة، إلى بعض الأسواق التي كانت تعقد قرب الاسكندرية، حيث أملوا بثقة كبيرة بزيادة ثروتهم، وبناء عليه أخذ كتلة من جنوده معه، وبادر مسرعاً إلى هناك، سراً أثناء الليل، وانقض فجأة عليهم مثل البرق وهم غير متنبهين، فقتل التجار فوق تلك البقعة، وشتت المرافقة، وأسر جميع تلك الفئة، التي كانت تعرف بشكل عام باسم قافلة، ووجد بينهم جمالاً وبغالاً وحميراً، محملين بالحرير، والصور، والتماثيل، والذهب، والفضة، وذلك إلى جانب بعض العربات مع ثيرانها وجواميسها، وأيضاً الأطعمة الضرورية لكل من الخيول والناس حيث كانوا محتاجين إلى ذلك كثيراً، ومع أن وليم المذكور قتل أثناء القتال، وأسر عدداً كبيراً من أعدائه، خسر هو واحداً من الفرسان، وثمانية من الأتباع، فهؤلاء قد قتلوا، وكان بعضهم قد أصيب بجراحة، فأعادهم حتى

يستردوا صحتهم بوساطة المساعدة الطبية، وهكذا عاد إلى الجيش منتصراً، ومبتهجاً بثرواته، وكان الفرنسيون الذين مكثوا من دون نشاط، وفي حالة من العوز عظيمة، قد أثثروا بمشاعر الغيرة والشره، فاعترضوه لدى وصوله بطريقة عدوانية، وأقدموا مثل لصوص وقحين، فأخذوا منه بالقوة كل الذي ناله، عازين إليه أنه اقترف مايكفي من الخطأ، بإقدامه على ذلك العمل بتهور، على عكس أوامر الملك، وتعاليم قادة الجيش، وأنه قام خلافاً للنظام العسكري، بتهور وتجبر، فانفصل عن الجيش كله، وعندما سمع وليم هذا، وعد بتقديم الترضية إليهم بكل سبيل، وسمح بتوزيع جميع الأطعمة التي حصل عليها بين أفراد الجيش المحتاج، لكن الفرنسيون صرخوا ضد هذا، وادعوا أن كل شيء هو عائد إليهم أنفسهم، واستولوا على ذلك على الفور، وبذلك أضافوا الإهانة إلى الأذى، ولذلك حزن وليم، وشعر بالمرارة في نفسه، لدى معاناته من مثل هذه الأضرار، وهكذا تقدم بشكوى ثقيلة إلى الملك، حول القضية، وأضاف بأن أخاه كونت أرتوي كان رأس ومقدم هذا العمل العدواني والسلب، وعندما رد عليه الملك بصوت منخفض، وبروح تقوية كبيرة وب نظرة هادئة، وقال: «وليم، وليم، الرب الذي لا يجهل شيئاً، على دراية بالضرر والأذى الذي ألحق بك، وأنا أخشى من أن يقوم تجربنا مع ذنوبنا الأخرى، بإلحاق الخزي بنا، وأنت تعلم مدى خطورة الأمر وجديته، إذا ما أسأت إلى نبلائي أو أثرتهم، في هذا الوضع الخطير، الذي أنا موجود الآن فيه»، وعندما كان يتكلم هكذا، وصل كونت أرتوي، وهو هائج وغاضب مثل رجل مجنون، ومن دون تقديم التحية إلى الملك، أو إلى الذين كانوا جالسين هناك، رفع صوته، وهتف وهو غاضب جداً وقال: «مامعنى هذا، مولاي الملك؟ هل تريد الدفاع عن هذا الرجل الانكليزي، وأن تقف ضد رجالك الفرنسيين؟ لقد قام هذا الرجل متحدياً لك، وللجيش كله، وهو مدفوع بطيشه وتهوره، وبناء على مسؤوليته، وبمبادرة منه، فحصل بشكل سري على أسلاب، أثناء الليل، وذلك على عكس ما قضت به مراسيمنا، ولهذا السبب

انتشر صيته، وعمت شهرته وحده، وليس شهرة الملك الفرنسي وقومه، في جميع أنحاء مناطق الشرق، وبذلك حجب أسماءنا وألقابنا»، ولدى سماع الملك المسيحي النقي لهذه الكلمات، أشاح بوجهه، وألقى نظرة على وليم، وقال بلهجة معتدلة: «يمكنك الآن أن تسمع يا صديقي، هكذا يمكن للخلاف أن يتأصل، لاسمح الرب بوقوعه في هذا الجيش، إنه من الضروري في هذا الوقت الحرج، أن نتحمل مثل هذه الأشياء باتزان ورباطة جأش، لابل أن نتحمل أشياء أسوأ من هذه»، وعلى هذا ردّ وليم قائلاً: «بناء على هذا إنك لست ملكاً، حيث لا يمكنك أن تضبط شعبك، وأن تعاقب المعتدين منهم، مع أنني قد وعدت، أنني إذا ما أذنت، سوف أقدم كل ترضية من أجل ذنبي»، وأضاف وهو متألم مجروح في قلبه بسبب الأذى الذي لحق به: «إنني منذ الآن فصاعداً لن أخدم ملك مثل هذا، وبمثل هذا المولى لن أرتبط»، ولأسف الملك الشديد، غادر وهو غاضب، ثم إنه ذهب إلى عكا، وهناك أقام لعدة أيام، مع رفاقه بالسلاح، ونشر أخبار الأضرار التي عانى منها بين جميع الذين سكنوا هناك، وبذلك أثار شفقة الجميع نحوه، وخاصة شفقة الأساقفة، وحرك غضبهم ضد الفرنسيين، ولم يتردد أصحاب الخبرة والفهم، والذين كانوا مجريين في قضايا وشؤون الحرب، عن توقع بأن هذا كان نذير سوء بشأن الوقائع المقبلة، وأن الغضب الثقيل للعلي الأعلى سوف يثار بسبب مثل هذه الآثام، ويروى بأن كونت أرتوي وصل به الأمر إلى حد القول حول ما يتعلق بهذه القضايا: «الآن أصبح جيش النبلاء الفرنسيين نقياً تماماً من هؤلاء الانكليز ذوي الذبول»، وهو كلام سبب الضيق إلى كثير ممن سمعوه، وقرر وليم آنذاك البقاء مع السكان والداوية والاستتارية في عكا، وأن ينتظر وصول صليبية نبلاء انكلترا، من أجل أن يعلمهم بتجرب الفرنسيين، وبالأذى الذي عاناه على أيديهم، وليحثهم على قتال أعداء الصليب وفقاً لمشورة الناس الجديين، وذوي العقول المتواضعة، دون الوثوق بمساعدة الفرنسيين، وأن يحاولوا إلحاق الهزيمة بأعداء الصليب بقواتهم الخاصة.

حول سفر النبلاء الإنكليز نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه، بات النبلاء الإنكليز (الذين ذكرت أسماؤهم من قبل) الذين كانوا قد قرروا الانطلاق نحو القدس في يوم عيد القديس يوحنا، كما تقدم الذكر من قبل، والذين كانوا قد باعوا أراضيهم أو رهنوها، أو ألقوا بها في شباك اليهود والمرابين، والذين أيضاً قد ودعوا أصدقائهم، باتوا جاهزين، في الصباح المشهور لعيد القديس أوغسطين، للانطلاق والشروع بالسفر مع أتباعهم، لكن الملك تصرف مثل طفل مجروح أو مزعوج، الذي بالعادة يركض إلى أمه مع شكاويه، فبعث بكل سرعة إلى البابا يرجوه أن يمنع مغادرتهم، مبيناً له بأن بعض النبلاء المهمين من مملكته في انكلترا، والذين كانوا قد حملوا الصليب، قد قرروا على عكس رغباته وحظره الانطلاق نحو القدس، دون الموافقة على انتظاره، وهو مولاهم وملكهم، وهو الذي كان قد حمل الصليب أيضاً من قبل، واقترح المضي في الحملة نفسها، وأن هؤلاء النبلاء، قد اختاروا اتباع عدوه الرئيسي، أي الملك الفرنسي، الذي — كما قالوا — ذهب قبلهم، وأعد الطريق، والمدخل إلى أرض المشرق، وآثروا ذلك على مرافقته، وبناء عليه قام البابا، مثلما فعل الملك بوساطة أوامره الملكية، فمنع بكل دقة، أي واحد — تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي — من الاقلاع، دون الحصول على موافقة الملك، وذلك مهما كان الخطر أو المغامرة المحيطة بالملك الفرنسي.

كيف وضع الملك الإنكليزي حرساً على الموانئ الإنكليزية

علاوة على ذلك، بعث الملك على الفور، أوامر إلى قسطلان دوفر، وإلى حكام الموانئ الأخرى، ألا يسمحوا إلى أي نبيل، يحمل شارة الصليب، بالنزول إلى البحر للسفر، وقد عزي إلى الذين كانوا معارضين لهذا، بأن الملك قد تصرف بشكل غير حكيم، لأنه لو أن مثل تلك الأعداد من ذوي المراتب العليا (كان هناك حوالي خمسمائة مارشال فارس إلى جانب أتباعهم، الذين لا يمكن تعدادهم تقريباً) كانت ستسير قبله، فإن كل الجماعة

المسيحية كانت ستقول وهي مندهشة: «كم هو عظيم، وكم هو مرعب، لا بد أن يكون هذا الملك، الذي بعث مثل هؤلاء القوم أمامه، ومقدمة له، فكم من الأعداد، لنا أن نخمن ونعتقد سوف تصاحبه، ونتيجة لذلك، فإن جميع المسلمين سوف يرتجفون خوفاً»، لكن ماهي فائدة هذه المناقشة؟ لأنه بالإضافة للعوائق التي وضعها الذين منعوهم، كان هذا أيضاً، النتيجة الطيبة لما حدث إلى الحجاج، لأنهم حتى لو كانوا قد أقبلوا (آسف أن أقول) لما كانوا قد وصلوا في الوقت المناسب والموائم لتقديم النجدة إلى الملك الفرنسي، الأمر الذي رغبوا كثيراً في فعله، وذلك حسبما سوف نروي في الأخبار المقبلة، ذلك أننا لانستطيع أن نحكي جميع الذي وقع في الوقت نفسه، مرة واحدة.

الملك الإنكليزي يستخرج المال من جميع المناطق

وفي الوقت نفسه لم يتوقف الملك عن سلب الأموال وجرفها من جميع الجهات والمناطق، وبشكل رئيسي من اليهود، وفي الدرجة الثانية من رعاياه الطبيعيين المسيحيين، ومارس ذلك إلى درجة كبيرة، وتابع استخراجاته من اليهود، حتى أنه استخرج من واحد منهم، اسمه هرون، وكان قد ولد في يورك، وامتلك بيتاً في تلك المدينة، أربعة عشر ألف مارك [فضي]، وعشرة آلاف مارك من الذهب، من أجل استخدامات الملكة (لأنه كما قيل، قد تبرهن إن كان مجرمًا بتزييف أحد الصكوك)، وأن يجري دفع ذلك خلال وقت قصير، حتى يحول دون وضعه في السجن، وبالإضافة إلى دفعه هذه المبالغ كلها، لقد تبين أن هرون هذا المذكور، كان قد دفع إلى الملك، لدى عودته من القارة، مبلغ ثلاثين ألف مارك من الفضة، ومائتين من الذهب، من أجل استخدامات الملكة، وذلك حسبما أعلن هرون اليهودي هذا، بوساطة شهادة قانونية، وبناء على عهده، إلى الراهب متى، مؤلف هذا الكتاب، وعلى كل حال، إن هؤلاء اليهود، مهما كانوا أشقياء وتساء، هم لا يستحقون الشفقة، لأنه قد تبرهن بوضوح بأنهم كانوا المفسدين للنقود

الملكية، والمزيفين للأختام، وللصكوك، ومن أجل ذلك تعرضوا مراراً للملامة والإدانة.

طغيان غيوفري لانغلي

وفي حوالي الوقت نفسه، قام أحد الفرسان، واسمه غيوفري لانغلي Langley، وكان نائباً للملك، ومحققاً بالتجاوزات التي اقترفت في الغابات الملكية، بجولة في عدد من المقاطعات في انكلترا، وبراعة، وشره، وارغام، استخرج مبلغاً كبيراً من المال، وبشكل خاص، من نبلاء المناطق الشمالية لانكلترا، وكانت كمية المبلغ الذي جمعه فوق تصور جميع الذين سمعوا به، وسبب الدهشة إلى عقولهم، وظهر أن هذا الظلم الشديد الذي مارسه ضد النبلاء الشماليين، قد صدر عن كراهية قديمة نحوهم، وكان غيوفري المتقدم ذكره محاطاً بحاشية كبيرة، وجيدة التسليح، وكان إذا ما حاول أي واحد من النبلاء المتقدم ذكرهم أن يعتذر، أو تجرأ على التعبير عن تدمره، بأن القضاة كانوا أعداءه، كان يأمر على الفور باعتقاله، وإيداعه في سجن الملك، فلم يستطع أحد أن يرد على الطلب بموجب أية حجج منطقية، وذلك للخوف من أن يعد ذلك ذنباً، ذلك أنه من أجل حيوان صغير، خشف أو أرنب، وإن كان ضائعاً خارج الطريق، قام بإفكار بعض الناس من ذوي الأصل النبيل، وأوصلهم حتى الدمار، فهو لم يوفر لا الدم ولا الحظ، ومقارنة بهذا الرجل، كان روبرت باسلو يعدّ الأكثر لطفاً، وفي الحقيقة عدّ جميع أسلافه عادلين، وجاء الحديث عنهم جيداً، وخاصة عندما كانوا يقارنون به، وكان غيوفري هذا، منذ الوقت الذي جرت فيه ترقيته إلى وظيفة مارشال حاشية الملك، ليقوم بحمل العصا العائدة للمارشال الكبير، ويقدر ما أوتي من سلطة، قد أنقص الضيافة والرعاية العائدة للمائدة الملكية، فبهذا وبأعمال تملقه قد أبهج الملك، وبناء عليه حصل على حظوته مع أنه لم يستحق ذلك، وفيما بعد عدّه روبرت المذكور، انساناً مخلصاً، وجديراً بأن يتشارك معه شخصياً، لذلك دعا، وجعله زميلاً وشريكاً في وظيفة المسؤول عن عدالة الغابات الملكية، لكن غيوفري

نصب شركاً لقدمي ولي نعمته روبرت، وفيما بعد أحل نفسه بدناءة محله، وبدناءة خلع النواب الذين كان روبرت قد عينهم في وظائفهم، مما جلب له كثيراً من العار والأذى، لكن من الذي سوف يشفق على الحاوي، إذا ما لدغ من قبل الأفعى؟، وبناء عليه تجنب روبرت المذكور مصائد البلاط، ورجال البلاط، وحصل على تكريس نفسه كاهناً، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، كما كنا قد ذكرنا من قبل.

كيف ذهب رئيس أساقفة كانتربري إلى البلاط الروماني

وفي الوقت نفسه علم بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، بأن عميد القديس بولص مرافقاً ببعض الكهنة التابعين لتلك الكنيسة، وبيع بعض وكلاء الذين كان قد آذاهم، قد ذهبوا إلى البلاط الروماني، وبناء عليه، وقد تشجع بمشورة المحامين، أقلع بأبهة كبيرة وفخامة وتوجّه نحو البلاط نفسه، مسلحاً بحماية الملك وبرسائله، ومعتمداً على نفوذ أسرته، وذلك في سبيل أن يصبح بوساطة سلطات البابا، أكثر قوة وطغياناً.

موت روبرت أوف ليكسنتون

وفي التاسع والعشرين من أيار لهذا العام، مات روبرت أوف ليكسنتون Lexington الذي استمر مدة طويلة في وظيفة المسؤول عن العدالة، فحصل على اسم متميز، وعلى ممتلكات وافرة، وكان على كل حال، قبل سنوات قليلة من موته قد أصيب بالشلل الارتجافي، فتخلى عن الوظيفة المذكورة، وبذلك كان مثل القديس متى، استدعي من وظيفة تسلم العشور إلى حياة أفضل، وشغل نفسه في تقديم الصدقات بشكل وافر، وبالصلاة التقية، وبذلك أنهى حياته الواهنة بطريقة محمودة.

التقارير المتنوعة حول الاستيلاء على القاهرة

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، كثر تداول تقارير تبعث كثيراً على السرور، لكنها كانت بلا أساس، وقد تحدثت عن الاستيلاء على القاهرة

والفسطاط، وعن تدمير الاسكندرية، وقد سكّنت هذه الإشاعات، وأرضت قلوب جميع الناس في الغرب، بوسائل مواساتها الزائفة، وتبين أخيراً أنها صدرت عن السبب والمصدر التالي، وهو ما يتطلب رواية طويلة، مهما كانت — على كل حال — غير مثمرة، لأن:

المحصلة الدنسة تدمغ الإجراء جميعه بالدنس

حول الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين

عندما علم سلطان مصر بقرب وصول ملك فرنسا المشهور ومعه جيشه، في العام المنصرم، عهد بالمسؤولية عن دمياط إلى واحد من مقدميه، وكان له فيه ثقة كبيرة، وعهد بالقاهرة والفسطاط إلى عناية أخيه المقدم نفسه، لكن بعد الاستيلاء غير المتوقع على دمياط، دعا السلطان المذكور إليه جميع أعيانه، وعلى مسمع منهم جميعاً وجه تهمة ثقيلة ضد المقدم الذي إليه عهد بمدينة دمياط، والذي ضاعت وهي تحت وصايته، واتهمه ليس فقط بالخسارة الخيانية لمدينته الرئيسية، من خلال الإهمال والجبن، لابل أيضاً بتسليمها ووضعها بين يدي العدو المعلن، وبذلك امتلك الصليبيون الذين هم أعداء جميع المسلمين، الآن منفذاً حراً إلى مصر، وإلى جميع بلاد الشرق، مع آمال بالاستيلاء بشكل أسهل ومؤكد أكثر على جميع المناطق الأخرى، والحصول على مكان جيد الدفاعات وملاذاً، مما ألحق الأذى والاضطراب بجميع المسلمين.

وعلى هذا ردّ المقدم المتهم قائلاً: «مولاي الأعظم قوة، إنني خادمك المخلص والوفى، قد أرسلت جواسيسي إلى جزيرة قبرص، عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء هناك، ومنهم قد علمت، أنه عندما غادر تلك الجزيرة، سوف يبحر إلى الاسكندرية، ليقوم بحصار ذلك المكان، وبناء عليه قمت بإرسال جميع العساكر من دمياط إلى ذلك المكان، لتقديم مساعدة فعالة إلى أصدقائنا الاسكندريين، الذي هم رعيّتك، ولأسر الملك المذكور،

وللاستيلاء على أسطوله كله، وإرساله إليك، لكن الحظ لم يكن موافقاً لنا، فبتغير الريح لتكون موائمة لهم، جلبت أعداءنا، وأوصلتهم إلينا، عندما كنا غير مستعدين، وبذلك نالوا الاستيلاء على الساحل، مع أننا قاومنا إلى أقصى ما كان في قدرتنا، كما تعلم أنت شخصياً.

وفي اليوم التالي ابتسم سعد الحرب لعدونا، فألقى الحصار على دمياط، التي وجدها مجردة من جميع وسائل المقاومة، وقد وصل معه أسطول كبير جداً، إلى حد أن وجه البحر بدا وكأنه مغطى بالسفن، وبناء عليه، قدرنا ذلك، وبما أننا كنا بدون مقدمين، ومن دون أسلحة المدينة، وقدرنا سلامتنا وسلامتك، فقتلنا وقطعنا أعناق جميع الأسرى الصليبيين، الذين كانوا بين أيدينا، ثم عمدنا إلى الفرار سراً أثناء الليل، حتى نتمكن من استدعاء القوات التي كنا قد أرسلناها إلى الاسكندرية، ومحاربة الصليبيين بقوة أعظم.

غير أن بعض الأسرى الصليبيين، عندما شاهدوا وصول بني قومهم، ورأونا ونحن نعدم رفاقهم، تمردوا علينا، وثاروا علينا بطريقة عدوانية غاضبة، وقتلوا بعضاً من قومنا، وقام هؤلاء أيضاً بعد مغادرتنا، بجلب الفرنسيين المقربين الزاحفين عبر ممرات غير معروفة، وأدخلوهم إلى الأماكن السرية والداخلية من المدينة، وقمنا قبل مغادرتنا بإلقاء النيران في المدينة، حتى لا يتمتع أعداءنا بممتلكاتنا، لكن الأسرى أخذوها في أسرع وقت استطاعوه، وعندما أرغمنا على التراجع، كنا في حال من الأسى لعنا فيها شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لابل لعنا فيها النبي نفسه، ووددنا بأننا لو كنا أمواتاً، ولم نكن أحياء»، وعندما سمع السلطان هذا انفجر غاضباً، واستولت عليه حالة من الهياج (لأنه كان متجبراً وبلا رحمة)، ومع أن المقدم المذكور، استطاع بشكل صحيح أن يبرئ نفسه من التهمة، حسب رأي بعض الحضور، وقف السلطان بمزيد من العنف ضده، وأمر به ليعلق على المشنقة كخائن ومجدف كافر.

وعندما وصل هذا إلى مسامع أخيه، حاكم القاهرة، (الذي كان قلبه منذ

زمن طويل مضى ميالاً إلى العقيدة المسيحية، إنها بشكل سري، لخوفه من المسلمين) استدعى بعض الذين كانوا أسرى لديه، وكان من بينهم بعض الداوية والاستتارية، وبعض الفرنسيين، الذين كانوا قد أخذوا أسرى، مؤخراً في المعركة عند غزة، وخاطبهم كما يلي:

«لدي سر خفي في صدري، عليّ بثقة أن أبوح به إليكم، إذا ما وعدتموني بيمين دقيق تحلفونه بحق إيمانكم وشريعتكم، أن تحفوه، وأن تساعدوني، وقتها سوف أبوح به إليكم».

وجواباً على هذا الاقتراح، أعطاه الأسرى كلمتهم ويمينهم، ووعدوه بالحفاظ على الصدق والاخلاص غير المنقوض معه، في كل شيء، وبناء عليه شرع يقول لهم مايلي:

«إن سلطان مصر، لم يعد الآن مولاي، وهو الذي خدمته حتى الآن باخلاص في كثير من المخاطر، ذلك أنه قد سبب لي مؤخراً غضباً لا يحتمل، وإهانة، وآذاني كثيراً، ذلك أنه شق مؤخراً على المشنقة، أخي الذي أحببته أكثر من أخ — وفي الحقيقة أكثر من جميع أسرتي إلى جانبه — حيث اتهمه بأنه سلم عن طواعية دميّاط إلى الفرنسيين، أو من خلال الخوف، مع أنه لم يمتلك سبباً أو بينة تؤيده في اتهامه له، وأنتم تعلمون تمام المعرفة، بأن هذه التهمة التجريبية زائفة تماماً، لأنكم تعلمون، كيف أنه قاتل بشجاعة واخلّص، وتصدى للفرنسيين عندما استولوا على الساحل، وكانوا كثرة كثيرة، وفي الحقيقة لقد قاتل كثيراً إلى جانب كثير من أصدقائنا وأقربائنا الذين هلكوا هناك، وقد خسرنا ركننا (ركن الدين) الذي كان أعظم رجل بيننا، والثاني بعد السلطان، وهو الذي كان قد قتل كثيراً من الصليبيين في الأوقات الماضية، ونال النصر على قومكم في غزة، ولذلك قد أوقفت نفسي على الانتقام بسبب مثل هذا الطغيان الكبير، وأن أعطي إلى الملك الفرنسي التقي هذه القلعة التي لا ترام، التي عليها تعتمد ثقة جميع المسلمين، والتي فيها مخزون جميع أموال السلطان، وإنني أيضاً أسلم نفسي وجميع ممتلكاتي إلى

يسوع المسيح، وإلى الملك الفرنسي، وأطالب بقداس التعميد، ذلك أن مافعله السلطان بأخي، سوف يفعله، بدون شك بي، إذا حدث ووقعت بين يديه، وذلك مهما كنت بريئاً.

أنتم الآن قد أطلق سراحكم من سجنكم، وبناء عليه، اذهبوا بحذر، وبأعظم سرعة إلى الملك الفرنسي، وقدموا له تقريراً صادقاً حول جميع القضايا، ولكي يكون أكثر تأكيداً من حسن اخلاصي، عليه أن يجلب جيشه كله الذي نعده جيشاً لا يقهر، أن يجلبه وهو معبأ للقتال.

وعندما سيصل هذا إلى مسامع السلطان، سيدفع بقواته كلها للتصدي له لدى اقترابه، لكن عليكم عدم الخوف من هذا، وأن لا يشكل ذلك مناسبة للخشية، لأنكم سوف تجدون القلعة المتقدمة الذكر مهياة لكم، وكذلك مدينة الفسطاط، التي سوف تفتح لكم، وتكون بمثابة مكان لاللتجاء والتحصن، ولكي نسبب اضطراباً مفاجئاً إلى جميع المسلمين، سوف يكون لديكم ارشادي، ومشورتي، ومساعدتي في جميع إجراءاتكم.

وكبرهان أول على صدق أقواله، جرى إطلاق سراح جميع الأسرى، مما منحهم سروراً وبهجة، وذهبوا على الفور بشكل سري إلى الملك، وبما أن الذين حملوا هذه الرسالة وجلبوها كانوا موثوقين، وأشخاصاً معروفين بشكل جيد، حصلوا على تصديق كامل، ولدى سماع الملك بهذه الرسالة، أمر بعدم إباحتها إلى أي انسان، حتى تكون خططه قد أعدت بشكل أكثر تحديداً.

وكان حزناً لغياب وليم لونغوسبي وأتباعه، الذين كانوا قد عانوا من أضرار بالغة، ولأن جيشه كان قد نقص تعداده كثيراً، وكان يعاني من الفضيحة، قام على الفور بإرسال واحد إليه حتى يأتي، ويتلقى كل ترضية من أجل الأذى الذي ألحق به، وقال له في نهاية رسالته: «ولكي تسمع بعض التقارير المفرحة، التي سوف يتلوها بعض الأحداث المرغوب بها منذ زمن

طويل، والمتشوق للابتهاج بها كثيراً، والتي رغبنا وأمانينا أن تكون شريكاً بها».

وانتشر خبر هذه الرسالة بين جميع سكان عكا، ومن خلاهم وصلت إلى سكان تلك المنطقة من البلاد، وبناء عليه، ذهب وليم وقتها مع جميع أتباعه إلى الملك، مطيعاً لأوامر مثل ذلك الأمير العظيم، لكن بشكل رئيسي بناء على الإضافة الأخيرة، وبعدما سمع من الملك، رسالة المقدم المتقدم ذكره، قام بسبب السرور الذي شعر به، بالتخلي عن مشاعر الغضب والحقد ضد الذين أساءوا إليه.

وبسبب هذه الأحوال المستجدة، قام بعض المتطفلين، فكتبوا بشكل سري، رسائل مفرحة فيها الأخبار السارة، وبعثوا بها، وكأنهم قد نالوا الذي وعدوا به، واستحوذوا عليه، ولذلك بعثوا برسائل زائفة إلى أصدقائهم، الذين أرادوا تنشيطهم وافراحهم، بأن القاهرة والفسطاط قد جرى الاستيلاء عليهما، وأن الاسكندرية تركت عرضة للاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، ومن هاهنا كان منشأ تلك التقارير، والرسائل المتقدم ذكرها.

كيف عرض السلطان كثيراً من الهدايا

على الصليبيين حتى يحصل على السلام

وبناء عليه انتعش الملك، وارتفعت آماله، فوضع حامية موثوقة في مدينة دمياط، مكونة من دوق بيرغندي، وعدد كبير من أتباعه المخلصين، وأخذ اتجاه القاهرة، مع جميع جيشه معبئاً وفقاً للنظام العسكري، وقتل على طريقه بعض المسلمين، الذين كانوا موضوعين على شكل كمين، لمنع جلب المؤن إلى دمياط، وأخبر السلطان في الوقت نفسه عنهم، أنهم قد رفعوا أعلامهم، وهم مسرورين مبتهجين، وأقلعوا حاملين من دمياط، وشعروا بكثير من الآمال بالاستيلاء على البلاد كلها، ولذلك خاف من قتال

الفرنسيين، فأرسل بعض الرجال الأعيان من بلاطه، بمثابة رسل، يعرضون التخلي عن جميع الأرض المقدسة إلى الصليبيين، يعني أن تقول جميع مملكة القدس وزيادة، وكذلك مبلغاً من المال، من ذهب وفضة، مع هدايا أخرى مرغوبة، على شرط — على كل حال — وجوب إعادة الملك لدمياط، مع جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطانه، وأنه سوف يتسلم جميع الأسرى أحراراً، وأن يكون مسموحاً بقيام اتصالات حرة وتجارات، بشكل عام في بلدان كل منهما، من التمتع بمنافع السلام، واللطف المتبادل. وما قيل تأكدت صحته كحقيقة، أن السلطان قد عزم مع عدد كبير من الأعيان المسلمين، على التخلي عن عقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم) (التي ظهرت بوضوح إليهم على أنها...)، وأن يلتحقوا مخلصين بعقيدة المسيح، التي كانت من الواضح نظيفة جداً، ومشرفة، شريطة أن يسمح لهم بسلام بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، لكن عروض السلام هذه رفضت بعناد، من قبل النائب البابوي، طاعة منه للأوامر البابوية، الذي شجعه على التصرف هكذا، إذا ما حدث، وتقدم المسلمون بمثل هذه العروض.

كيف جرى إعلام السلطان بخيانة المقدم

خلال هذا التعويق غير المفيد والطويل، حول هذه القضايا، تمكن بعض المسلمين، من المناطق الجبلية، الذين وضعوا على شكل كمين، بين الرعاة الذين كانوا يرعون قطعانهم في الوادي، لمنع وصول المؤن إلى المدينة، من أن يعرفوا عن طريق جواسيسهم، ويكشفوا خيانة حاكم القاهرة، الذي تقدم ذكره، ولذلك امتطوا أسرع خيولهم، وبذلوا كل سرعة ممكنة حتى وصلوا إلى السلطان، فأخبروه بكل وضوح بسبب اقتراب وصول الصليبيين، ونشاطاتهم، ومشاعرهم بالأمن، فأرسل على الفور بعض الجنود المجريين بكل سرعة إلى القاهرة، فاعتقلوا الحاكم، واحتفظوا به في السجن، حتى يتمكنوا من الوقوف على براهين على صدق التقرير، وكان أول برهان وجدوه، هو أنهم وجدوا السجن فارغاً من الأسرى، وبذلك تبرهن

خيانة الحاكم، ولذلك قام السلطان على الفور بتقوية القاهرة والفسطاط بحاميات من الجنود قائلًا: «الآن، أمل، أخيراً بأن رب الصليبيين المولى يسوع المسيح، الذي يحب الاعتدال والتواضع، سوف يخزيهم لتجبرهم».

وأصبح السلطان من ذلك الحين هادئاً، وواثقاً مطمئناً، ورفض منح الصليبيين عروض السلام التي كان قد تقدم بها من قبل إليهم، مع أنهم رجوه أن يفعل ذلك، ومع أنه جرى تشجيعه على أن يوافق، تطلع واثقاً للتصدي إليهم، أو بالحري للانتصار عليهم، وبناء عليه جمع أعداد كبيرة من العساكر من جميع بلدان الشرق، من بين الذين كانوا قلقين على الصالح العام، والمتشوقين للحصول على ثروة كبيرة، وأمر بأن يعلن على الناس جميعاً بصوت المنادي، أن كل من يقدم له رأس صليبي، فسوف يتسلم عشرة طالن، وذلك بالإضافة إلى عطائه المعتاد والموعود به، وأن أي واحد سوف يجلب اليد اليمنى لأي صليبي فلسوف يحصل على خمسة، ولسوف تكون جائزة الذي سوف يحضر قدماً طالين.

كيف أخذت شؤون الإمبراطور فردريك بالتحسن

وكان في العام نفسه الإمبراطور مزعوج تماماً بسبب زيادة عناد الايطاليين، وبشكل خاص عناد البارمين، والبولونيين: البارميون بسبب مقتل ثاديوس مع أتباعه المخلصين الآخرين، ولدمار قلعته، التي سماها المنصورة، والبولونيون لأسرهم ابنه وحبه، وبدأ إنسيوس Ensius بشكل مواظب يعمل على ابداع خطط ضدهم، ليتنقم للأذى الذي لحق به، وللأضرار التي لحقت بالكريمونيين، فقد أخذ البارميون، نتيجة للسلام الطويل الذي سمح به فردريك إليهم، يتمتعون بالتجول هنا وهناك سالمين من غير أذى، وتجولوا أولاً في المناطق المجاورة لمدينتهم، لكنهم بعد ذلك نقلوا بضائعهم إلى سوق كان على مسافة أكبر من ذي قبل، ومارسوا أعمالهم دونما انزعاج، وعادوا سالمين، وفي أحد الأيام، عندما عدّ بعض من الأعلى في طبقات أهل المدينة، أن هذا برهاناً على الأمن والسلام، فذهبوا

وهم يشعرون بالأمن، وهم غير مسلحين، لتفقد حداثتهم وقلاعهم التي بنيت في ضواحي المدينة من أجل حمايتهم، كانت هناك كتلة من أتباع فردريك جالسين في كمين، وقد سمحوا لهم بفعل ما أرادوه دون اعتراض سبيلهم، وفجأة انقضوا عليهم خارجين من المكان الذي تخفوا به، وكانوا مسلحين تسليحاً تاماً، وقطعوا جميع طرق الوصول إلى المدينة عن أهل المدينة غير المسلحين، وهكذا تمكنوا من أسر جميع هؤلاء من سكان المدينة، وهم غير متنبهين، وكانوا مثل طيور وقعت في الشبكة، وكان كثير منهم من أصل نبيل، ثم تمكن هؤلاء الجند من دخول المدينة، بعدما شقوا طريقهم بالقوة من خلال الحرس الأول عند الأبواب، واعتقدوا أنهم استولوا على المدينة، وأنها صارت تحت إرادتهم، غير أن الناس الذين كانوا باقين في المدينة، رفعوا أصوات الانذار، وتصدوا لهم على الفور، وأوقفوا تقدمهم، ووضعوا سلاسل، وجذوع أشجار، وعوارض خشبية عبر الطرق، كما أنهم دحرجوا براميل فارغة على الأرصفة، حيث صدرت عنها أصوات مرعبة، أخافت الخيول، وجعلتها تفر، لكن عندما علم أهل المدينة بأسر أبناء مدينتهم توسلوا بتدليل لمنحهم بعض العروض للسلام، وقام عدد كبير منهم، بالاندفاع خارجين من المدينة، وقد تمكنوا عن طريق بذل مبلغ كبير من المال من اقناع الامبراطور فردريك بقبول الولاء منهم، وأنهم سوف يخضعون له، وتمسك بعضهم الآخر بوجوب التصدي له، وكان اعتمادهم على حصانة أبراج المدينة، حيث التجأوا إليها، وشرعوا يرمون بالنشاب والحجارة الثقيلة على المهاجمين لهم، وآثروا تحمل أي خطر من المخاطر، على الخضوع لإرادة فردريك.

وعندما سمع البولونيون بهذه الوقائع، بعثوا رسلاً إلى فردريك، ورجوه بتوسلات وتذلل أن يمنحهم السلام، لكن فردريك رفض الاضغاء إلى طلبهم، وأرسل في حوالي الوقت نفسه بعضاً من رسله الموثوقين إلى مدينتي أفينون وآرل الفخمتين، الواقعتين على مقربة من ليون، فتلقى أيان الولاء من سكانهما، وعندما باتت أخبار هذه الوقائع معروفة لدى البابا،

حزن وتحسر متألاً لانفاقه من دون فائدة تلك المبالغ الكبيرة من المال، ولزيادة أسى البلاط الروماني وحزنه، فارق الحياة رينير أوف فيتربو Reiner of viterbo، وكان كاردينالاً وحاجباً للبابا، وكان رجلاً من أسرة مشهورة، عندها ممتلكات غنية، وكان مضطهداً لا يعرف التعب ومشهوراً بفردريك، وإثر وفاته أرسل الرومان رسالة، مصحوبة بالتهديدات إلى البابا، يأمرونه بالعودة من دون تأخير إلى روما، بحكم كونه راعيهم الروحي وأسقفهم.

برنارد دي نيمفا يجمع المال من الصليبيين

وقام في الوقت نفسه برنارد دي نيمفا Nympha، وهو كاهن، كان مسلحاً بوثائق بابوية، بجمع مبلغ كبير من الصليبيين، من أجل استخدامات الايرل رتشارد، وكان ذلك بطريقة غير آمنة تماماً، حتى أن ذلك بدا هو سرقة أكثر منه عدالة، والولاية الأمرة باقتراف هذه السرقة المهينة، قد جرى تقديمها كاملة في كتاب Additaments، وذلك حتى لا تؤذي آذان ومشاعر الكثيرين.

التقارير المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

في يوم عيد القديس كينيلم Kenelm، الذي كان في اليوم الأول من تموز، عندما كان الايرل رتشارد عند المسؤول المالي في لندن، قدم إليه إلى هناك بكل سرعة رسول، كان الحامل الكتيب لأكثر التقارير المحزنة، ورسائل تحتوي على التقرير الاخباري التالي: «تشجع الملك الفرنسي المسيحي التقى، من قبل رجل كان يلي القاهرة — الذي جرت الإشارة إليه من قبل — فقام بعدما عقد مجلساً استشارياً عاماً، فنقل معسكره من دمياط نحو القاهرة، وقتل بعض المسلمين الذين تصدوا له على الطريق، وبما أن حظ الحرب قد ابتسم له من كل جانب، تمّ الاقلاع بهجوم حاد على المسلمين، فيه عانى الصليبيون بعد قتال طويل وحاد

جداً، من خسائر مرعبة، وفي الحقيقة كانت الخسائر من على الجانبين، وفي الأخير نال الصليبيون نصراً مجيداً عليهم، ثم قام الملك مع نهاية عيد الفصح، فعبر نهراً كبيراً اسمه تنيس، وكان يتدفق من مجرى نهر النيل، وجاء العبور بوساطة قوارب، كانت قد ربطت إلى بعضها بقوة، كما وعبر كثير من الناس النهر بوساطة مخاضة سرية، دلم عليها بعض المسلمين المتحولين إلى المسيحية، وأخذ روبرت كونت أرتوي — أخو الملك — معه بعض النبلاء، كان واحداً منهم وليم لونغوسي، وعبر إلى الشاطئ الثاني، ودون معرفة أخيه الملك، وكانت نيته الحصول على النصر لوحده، بدلاً من السماح للجميع بالمشاركة به، وأن يحصل على فضل النصر لوحده، بحيث يعزى إليه وحده فقط (لأنه كان متجبراً وأرعناً وشرهاً للحصول على مجد عابث)، وعندما وجد بعض المسلمين هناك، تمكن هو وأصحابه من قتلهم، ثم قرر بشكل غير حكيم أن يستولي بالقوة على قرية كانت أمامه اسمها المنصورة، وقد استهدف قتل السكان الذين كان سيجدهم فيها، ثم أن يدمرها، ولذلك شق طريقه إلى داخلها، لكن أمكن قهره بالحجارة التي ألقيت عليه، وأرغم على مغادرتها، إنما ليس من دون قتل بعض السكان، ثم عقد مع أصحابه مؤتمراً للتداول حول الذي ينبغي عمله، وكان الكونت روبرت يأمل بأن تكون النهاية سعيدة مثل البداية، لذلك أقنعهم وشجعهم جميعاً، بمتابعة الزحف، وقال لمقدم فرسان الداوية، الذي كان معه، وإلى وليم لونغوسي الذي كان أيضاً موجوداً: «دعونا نلاحق العدو الهارب، الذي قيل بأنه قريب منا، بينما الأحوال الطيبة بين أيدينا، وفي الوقت الذي نرى فيه قومنا متحمسين، ومتعطشين إلى دماء أعدائهم، الذين هم يائسين من نجاتهم، وبذلك إذا ما سحقناهم جميعاً، يمكننا على الفور جلب حربنا إلى نهاية سعيدة، ودعونا نتابع زحفنا بثقة، لأن ثلث الجيش الفرنسي يتبعنا، وإذا صدف ووقع لنا أي شيء غير سعيد — لاسمح الرب به — إن الجيش الذي لا يقهر لأخي الملك سوف يأتي إلى مساعدتنا

بناء على استدعاء منا»، وعلى هذا الخطاب ردّ مقدم الداوية، الذي كان رجلاً حكيماً، وحذراً، وبارعاً وجيداً في قضايا فن الحرب، ومجرباً، قائلاً: «مولاي، يأيها الكونت النبيل، نحن نثمن بحق جرأتكم ونثني على شجاعتك، وعلى عظمتك الفطرية، واقدامك، وعلى اخلاصك التطوعي لصالح شرف الرب وكنيسته العالمية، وهو مانعرفه، وغالباً ما جربناه، ومع ذلك إننا — على كل حال — نحن نود أن ننصحك ونرجوك، أن تتولى تقدير هذا الاحسان، وأن تميل نحو الاعتدال والحذر من أجل أن نتمكن من استرداد أنفاسنا قليلاً، بعد هذا النصر، والشرف الذي أضفاه الرب علينا، فبعد حرارة وتعب هذه المعارك، نشعر بالإرهاك، ونحن مصابون بالجراحة، وجائعون، وعطشانون وإذا كنا نحن نشعر بالمواساة بشرف ومجد النصر الذي نلناه، ما من تشریف أو سرور يريح خيولنا المعقورة، التي بدأت الآن تخذلنا، وبناء عليه، دعونا نأخذ بخطة أفضل، بأن نعود، من أجل إذا ما اتحدنا بجيش ملكنا، يمكننا أن نتقوى بمشورته، ومساعدته، وبذلك تتمكن خيولنا، وكذلك نحن أنفسنا من الانتعاش بوساطة قليل من الهدوء والراحة، وعندما سي شاهد أعداؤنا هذا سوف يحمدون اعتدالنا وحكمتنا أكثر، ولسوف يشعرون بخوف أكبر منا، ثم إننا بعقدنا المزيد من المشاورات المحكمة، مع أبناء وطننا، عندما نجتمع مع بعضنا، بعد ذلك يمكننا النهوض ثانية أقوى، ولسوف نمتلك ثقة أعظم بقواتنا الموحدة، لأن الصرخات قد ارتفعت من الفارين، الذين يمتطون خيولاً سريعة، سوف تنبه السلطان مع أعدائنا الآخرين، الواصلين بقوتهم، وبأعدادهم، وسوف تنذرهم وتعلمهم بعددنا الصغير، وعندما سيعلمون بهذا كله وبهذه الأشياء جميعاً، سوف يتشجعون لانفصالنا عن جيشنا، وهذا أمر لظالمنا تشوقوا إليه، فبذلك سوف يحملون علينا بجرأة أكبر وبثقة أعظم، ولسوف يصبون قواهم علينا من أجل تدميرنا وخرابنا، لأنهم يعلمون الآن، أنهم إذا ماسحقوا في الوقت الحالي سوف يجردون كلياً من مواريتهم، ولسوف يدفعون مع

أسرهم للغرق في نهر النيل».

التأنيبات التي جرى تكديسها على الداوية والاستبارية من قبل كونت أرتوي

وعندما سمع كونت أرتوي هذا الكلام، بات غاضباً جداً، وأجاب وهو يتميز غضباً وتجبراً قائلاً: «انظروا إلى الخيانة القديمة للداوية، وللمتدرد القديم المعروف للاستبارية، وكيف ظهر الآن خداعهم المخفي منذ زمن طويل، وانفجر وتدفق الآن بيننا، فهذا الذي كنا قد أخبرنا به منذ زمن طويل جداً، وهذا ما تحقق بعدما كان متوقعاً، ولقد كان من الممكن منذ وقت طويل مضي الاستيلاء على كل بلاد الشرق، لولا أننا العلمانيين كنا مخدوعين بالاعتماد على الداوية والاستبارية، مع آخرين يدعون أنفسهم الرهبان، انظروا إن فرصة أسر السلطان باتت مفتوحة أمامنا، وتدمير جميع المسلمين في متناول اليد، وكذلك التمجيد الدائم للإيمان المسيحي، وهذا كله ما يحاول هذا الداوي الموجود هنا ويسعى إلى إعاقته بحججه الواهية والمخترعة، ذلك أن الداوية والاستبارية والمشاركين لهم، يخشون من أنه إذا ما أمكنت السيطرة على البلاد واخضاعها إلى الصليبيين، فإن تحكمهم الذي عظم اعتماداً على مواردها الغنية، سوف يزول وينتهي، ولذلك فإنهم سمموا — بمختلف الطرق — الصليبيين الذين جاءوا إلى هنا، وهم جاهزين لمساعدة قضية الصليب، وهم بتحالفهم مع المسلمين قد قتلوا هؤلاء الصليبيين بطرق خيانية متعددة، أوليس فردريك الذي عانى من خيانتهم، هو الشاهد الأعظم توكيداً حول هذه القضية؟».

جواب مقدم الداوية

وحزن مقدم الداوية المتقدم ذكره وتألم بقرارة نفسه مع اخوانه، وكذلك فعل مقدم الاستبارية واخوانه، وانزعجوا كثيراً من هذه

الكلمات التوبيخية والقاسية، وردوا وكأنهم عقل واحد، كما يلي: «لماذا أيها الكونت النبيل، توجب علينا ارتداء الزي الرهباني؟ هل فعلنا ذلك من أجل الاطاحة بالكنيسة، وهل بممارسة الخيانة، نتولى فقدان أرواحنا؟ إن هذا بعيد عنا، وفي الحقيقة بعيد عن كل مسيحي»، وبما أن مقدم الداوية كان غاضباً كثيراً، قال أيضاً بصوت مرتفع إلى حامل علمه: «انشر علمنا وارفعه، دعونا نزحف نحو القتال، لكي نتمكن في هذا اليوم جميعاً من تجريب حظ الحرب، ونواجه فرص الموت، فنحن سنكون غير ممكن قهرنا إذا ما استمرينا غير منقسمين، لكننا لسوء الحظ قد انقسمنا وصرنا مثل رمل من دون كلس، وبذلك غير موثمين من أجل واجهة روحية، ومن دون ملاط التعاطف سوف نكون منذ الآن مدمرين، مثل مواد مرفوضة؟».

حول المشاحنة بين وليم لونغوسبي وكونت أرتوي

ولدى سماع وليم لونغوسبي لهذا الكلام، وكان يخشى من حدوث انشقاق في الجيش، ولذلك رغب في تهدئة العنف الأرعن للكونت أوف أرتوي، وفي تلطيف واطفاء غضب مقدم الداوية، لهذا صاغ رداً تدخل به وقال: «إنه من مثل هذا الشقاق والخلاف —تبعاً لكلمة الرب— ينجم الخراب، لذلك دعونا بناء عليه أيها الكونت الأعظم نبالة، نصغي إلى هذا الرجل المتنفذ والمقدس، لأنه مقيم منذ وقت طويل في هذه البلاد، وقد تعلم من كثير من التجارب، وعرف قدراتهم وكذلك مكرهم وبراعتهم، وهل هو أمر غريب، إذا كنا نحن القادمين الجدد، ونحن شباب وغرباء، أن نكون جاهلين بمخاطر الشرق؟ ومثلما هي المسافة بين الشرق والغرب، مثل ذلك الخلافات القائمة بين شعب الغرب وبين هؤلاء الشرقيين»، ثم إنه التفت نحو مقدم الاستبارية، وخطابه بكلام فيه تهدئة وتلطيف، وقد سعى إلى إطفاء عنف مشاعره، ووقتها عارضه كونت أرتوي فجأة وقاطعه وهو يتكلم، وتفوه بصوت

مرتفع، وفقاً للعادة الفرنسية، وتلفظ بأيمان غير معتادة، وصدرت عنه التوبيخات التالية والشتائم المهينة على مسمع من الحشود: «ما هذا الجبن الموجود هنا، لدى هذا الانكليزي الرعديد، ذي الذيل الطويل، فكم سيكون هذا الجيش سعيداً، وإلى أي مدى سيكون نقياً، لو أنه تنظف من هؤلاء الذبول ومن هؤلاء الأشخاص ذوي الذبول»، وشعر وليم لونغوسي بالحتجل، ولأنه أثير وأغضب بكلماته العدوانية، فأجابه قائلاً: «ياكونت روبرت، من المؤكد أنني سأزحف غير عابىء بأي خطر أو خوف من الموت الوشيك، ويخيل لي أننا سنكون في هذا اليوم، حيث لن نتجراً على لمس ذيل حصاني»، ثم وضعوا خوذهم على رؤوسهم، ونشروا أعلامهم، وتابعوا زحفهم ضد العدو، الذي غطى سهلاً شاسعاً مع الجبال والوديان في جميع الاتجاهات.

وكان الكونت روبرت يرغب في أن يعزو كل شيء إلى نفسه، إذا ما حدث ونال الصليبيون نصراً، وتأبى عن إخبار أخيه الملك الفرنسي، بالخطر المفترض، وجرى إعلام السلطان بجميع هذه المسائل بوساطة جواسيسه النشطين، فاستلهم الشجاعة لأن يقاتل بجيشه الكبير، الذي احتشد في وقت قصير وغير اعتيادي، وخاطب رجال حشوده كما يلي: «إعلموا إن هذا ما انتظرته طويلاً، ورغبت به، وتشوقت إليه، إن الصليبيين منقسمين على أنفسهم، فالأخ غير متعاون الآن مع أخيه، لابل حتى هؤلاء الرجال الذين يشكلون ثلثهم فقط، على خلاف، فيما بينهم لقد أعطوا إلينا بمثابة غنيمة نناها ونسلبها، فهم في هذا اليوم بالذات قد تشاجروا، وتقاذفوا بالشتائم فيما بينهم، وإن الذي يفعلونه، وما هم مقبلون على فعله، الملك الفرنسي جاهل به تماماً، وهو على مسافة بعيداً عنهم، ففي المقام الأول، علينا أن نسحق هؤلاء الرجال، الذين هم قلة، وهم بلاشك قد هدهم الجوع، وأنهم القتال، مع متاعب السفر، ويعانون من كدمات الحجارة وضرباتها وهي التي رميت

عليهم في المنصورة، وسيكون ذلك في سبيل أن يكون من السهل فيما بعد محاربة الآخرين، الذين هم الآن مقطوعين عن جميع وسائل الحصول على المؤن»، وعندما سمع المسلمون الآخرون بهذه الخطة، تمت الموافقة عليها من قبل الجميع، ووقتها اندفع السلطان مع حشوده التي لا تحصى، بشدة ضد الجيش الصليبي، وتلا ذلك قتال شديد جداً، وخلال وقت قصير جرى تطويق الصليبيين من قبل جمهور المسلمين، وابتأوا أشبه بجزيرة في البحر، وأقحم المسلمون أيضاً أنفسهم، ووقفوا بين الصليبيين وبين النهر الذي عبروه، حتى لا يتمكن أي واحد منهم من النجاة، ولدى رؤيته هذا، أسف كونت أرتوي، أنه لم يأخذ بنصيحة الرجال الأكبر سناً منه، والأكثر حكمة، لكن الذي كان قد وضع خوذته على رأسه ما كان من الممكن له الانسحاب من القتال، ولدى رؤية روبرت الكونت وليم لونغوسبي، وقد جرى تطويقه من جميع الجهات، من قبل كتلة كثيفة من الأعداء، وأنه كان يتحمل لوحده ثقل المعركة كلها، صرخ الكونت روبرت مستحياً، ومن دون حكمة: «وليم، الرب يقاتل ضدنا، لا يمكننا الاستمرار بالمقاومة، تدبر أمر نجاتك بوساطة الفرار، وانج حياً، مادام حصانك قادراً على حملك والنجاة بك، وإلا فإنك سوف تطلب فعل ذلك، عندما تنعدم من لدنك الوسائل»، وعلى هذا ردّ باختصار، وبقدر ماسمح له الصراع: «لاسمح الرب بأن يقوم ابن أبي بالفرار من أمام أي مسلم، وإنني أؤثر الموت بسعادة على أن أعيش من دون سعادة»، لكن روبرت كونت أرتوي، رأى نفسه وقد بات مطوقاً من قبل أعدائه، وليس لديه أية فرصة مفتوحة أمامه أو قدرة على الفرار، أدار رأس حصانه، وشرع بالفرار، وحيث أنه كان ممطياً لحصان سريع، شق طريقه بكل سرعة نحو النهر، وقصد إما نهر النيل، أو نهر تنيس الذي يتدفق فيه، وعلى الفور دخل به، وهو مسلح لابساً لدروعه كما كان، واثقاً من إمكانية السباحة وعبور النهر، لأنه قد عرف بأن حصانه كان حصاناً قوياً جداً، لكن الحصان كان غير قادر

على السباحة، لأنه كان مثقلاً بدروع حديدية، وبمعدات أخرى، ولذلك فإنه غرق، وغرق هذا الرجل المتجبر بشكل تعيس، وهو هارب، لهذا لم يشفق عليه أحد من الناس، كان متواضعاً، أو باختياره، بل إن فعل ذلك، فعله مكرهاً، فهو لم يحظ بدموع أي إنسان، لأنه وإن كان قد انحدر من دم ملكي نبيل، لقد ضرب مثلاً سيئاً للآخرين، ووفقاً للكلمات الشاعر:

حسبما يشغل الانسان مكانة عالية أو منخفضة

مثل هذا ينظر إلى جريمته فتعد صغيرة أو كبيرة

أما وقد غرق الكونت، ألمّ اليأس بالفرنسيين الذين كانوا في تلك المعركة، فتراجعوا على شكل كتل متفرقة، ووجد وليم، الذي انقض المسلمون كلهم عليه، أن القضية باتت قضية موت أو حياة، ومع ذلك صمد بشجاعة أمام حملاتهم، وأرسل بأرواح الكثير من أعدائه إلى الجحيم، مع أنه بعد مضي وقت طويل، أصبح حصانه ضعيفاً، وقطعت قدماه، ومع ذلك، تمكن وليم نفسه حتى وهو في ذلك الوضع من قطع رؤوس، وأيدي وأقدام بعض مهاجميه.

موت وليم لونغوسبي

وأخيراً بعدما تلقى الكثير من الضربات، والجراحات، وأنهك بوساطة ماتساقط عليه من رمايات الحجارة المتواصلة، بدأ وليم بالسقوط، لنزيفه ولنقصان دمه، ولفظ أنفاسه ليتسلم تاج الشهادة، وهلك معه روبرت دي فيري، الذي كان الحامل لرايته، وكان فارساً نبيلاً، وهلك أيضاً الكثير من الانكليز الذين تبعوا رايته، منذ بداية الحرب، وفي الليلة التي تقدمت على هذه المعركة، ظهرت رؤيا إلى أمه النبيلة، راعية دير لأكوك، وكان اسمها هيللا Hella، فقد ظهر في هذه الرؤيا فارس شاكي السلاح، لابساً لجميع دروعه، وقد جرى

استقبله في السماوات التي انفتحت لتلقيه، وبما أنها عرفت ترس الفارس من خلال الرنك المرسوم عليه، تقصت وهي مندهشة لتعرف من كان الفارس الذي صعد إلى السماء، وتم استقباله من قبل الملائكة، بمجد عظيم، وبعدما عرفت ترسه، جاء الجواب واضحاً إليها، وبصوت جلي: «إنه ابنك وليم»، وبناء عليه، سجلت اسم الليلة التي ظهرت فيها الرؤيا، والتي أبيح لها معناها بشكل واضح فيما بعد.

ولكن دعونا نعود إلى القضية الأساسية، حيث كان روبرت، كونت أرتوي قد غرق، وقتل وليم لونغوسيبي، وهنا صار المسلمون واثقين من النصر، فالصليبيون باتوا محاصرين ومن دون أمل، وقد كانوا طعمة للسياف من دون شفقة، ونجا من جميع تلك الكتلة المجيدة من الفرسان المتميزين، فقط اثنان من الداوية، وواحد من الاستبارية، وشخص واحد من فئة أدنى، وكان قد سبح عبر النهر وهو عريان، وجلب الخبر إلى الملك الفرنسي، وإلى بقية الجيش، وحدثهم حول هذه الحادثة، التي مأسوف من أجلها من قبل جميع الأجيال، أما الآخرون الذين نجوا، فكانوا منهكين إلى أبعد الحدود، ومصابين بالجراحة، وبالكاد يمكنهم أن يتنفسوا، ولذلك كانوا غير قادرين على عبور النهر، غير أنهم أخفوا أنفسهم وسط نباتات الشعراء التي كانت قائمة على ضفاف النهر، وانتظروا حتى حلول ظلام الليل، لكن غضب الرب، لابل بالحقيقة حق الرب، لم يسمح لواحد من ذوي المراتب العالية بالنجاة.

كيف شجع الملك الفرنسي أتباعه

وعندما وصلت أخبار هذه الوقائع إلى علم الملك الفرنسي التقي، انفعل وشعر بالحزن في قرارة قلبه، ولم يتمكن من حبس نفسه عن التهديد بألم وعن سفح الدموع بوفرة، وهو يضرب يداً على يد، وعينه شاخصتان نحو السماء، وقال وشهقاته تعترض كلامه: «بما أن ذلك يرضي الرب، هكذا وقعت الأمور، تبارك اسم الرب»، ثم جمع النبلاء

الفرنسيين الذين كانوا من حوله وقال لهم: «أصدقائي، وأتباعي المخلصين، وشركائي في مخاطري، ورفاقي الشجعان في السلاح، ما الذي ينبغي عمله في هذه الأزمة الحزينة؟ إننا إذا ما تحملنا هذه الأشياء وتراجعنا دون أن نعبأ بهم، سيعلو عدونا علينا، وكأنه قد حصل على النصر علينا كلنا، وهم سيتمجدون ويفرحون بتراجعنا أكثر من سرورهم بقتل رفاقنا، ولسوف يتشجعون بقوة أعظم للهجوم علينا، ولمطاردتنا، بما أنهم أسرع منا، وهكذا سيتمكنون فوراً من تدميرنا، وإزالتنا من على وجه الأرض، مما سيلحق الأذى والعار بالمسيحية كلها، وباتخاذ مثل هذا الإجراء سوف تزداد الكنيسة دماراً كلياً، وتوصم فرنسا بعار لا يمكن إزالته، ولذلك دعونا نتوجه بالدعاء إلى الرب، الذي من الواضح أنه غاضب علينا بسبب ذنوبنا، ودعونا نقوم بالاجتماع وبثقة نهاجم أعداءنا الذين تلطخوا بدماء إخواننا، ودعونا نطالب بغضب موائم بدماء أصدقائنا، التي سفكت على أيدي أعدائنا، فمن الذي بالحقيقة بات بإمكانه أن يتحمل أية مدة أطول ويصبر على هذا الأذى العظيم الذي لحق بالمسيح»؟.

الزحف غير السعيد للملك إلى المعركة

وهكذا تشجع الجميع، وقاموا بناء على أوامر الملك، وكأنهم رجل واحد بحمل أسلحتهم، ولكن بما أن كل رجل قد أعاد إلى ذاكرته، موت بعض الأصدقاء أو الأقرباء تأوه وبكى بألم، وبدموع تدفقت من عينيه بغزارة، وهكذا تلاشوا ضعفاً بالحزن أكثر منه بسبب الجوع، وكان الذين امتلكوا القوة قد أخذوا بالزحف، وقد سار أمامهم حامل الراية الفرنسية الحربية الحمراء، وساروا على آثار إخوانهم الذين قتلوا، كما ذكرنا من قبل، وأرسلوا العجزة والضعفاء، والذين كانوا من دون أيدي، وأيضاً بلا امدادات، بقوارب، بوساطة طريق النهر إلى دمياط، حتى يتمكنوا هناك من استرداد قوتهم في المأوى الذي تقدمه لهم المدينة.

وأخبر السلطان بهذه الواقعة، فأمر على الفور بجلب قوارب تحمل إلى هناك على العربات التي تجرها الثيران، من أجل أن يكون بإمكانهم بالتعاون مع السفن التي كانت لديه هناك، الحيلولة دون وصول الامدادات، ولكي يتمكن من امتلاك اسطولاً أكبر لإكمال تدمير الصليبيين التعساء، وواجهت هذه المراكب، المليئة بالمسلمين، الصليبيين وهم يبحرون نزولاً بالنهر، وأعقب ذلك معركة بحرية هي الأكثر دموية، فقد تساقط نشاب المتقاتلين، وتطاير كأنه زخات برد، وأخيراً بعد قتال طويل، تحول إلى قتال مرعب بوساطة النفوط، التي قذفت عليهم من قبل المسلمين، وبدأ الصليبيون يعانون من الانهك ومن الجوع والحزن، ولذلك انتصر المسلمون عليهم بسرور، ونتيجة لوجود الاسطول الاسلامي الذي جاء من دمياط، وكذلك الاسطول الذي تمركز بالنهر، لمنع حمل الامدادات إلى تلك المدينة، ولمعارضة هؤلاء للصليبيين والتصدي لهم، وكانت جميع الممرات مغلقة في وجههم عندما رغبوا بالفرار، لذلك مامن واحد من الصليبيين نجاً ليحمل أخبار الكارثة، إلى أصحابهم في دمياط، بل هلكوا جميعاً حيث أنهم إما أنهم غرقوا، أو أحرقوا، أو طعنوا بالأسلحة، أو واجهوا نوعاً آخر من الميتات التعيسة، وكان هناك واحد ممن جاءوا في الساقة، وكان على مسافة بعيدة عن كتلة الطليعة منهم، تمكن مع بعض الصعوبة من النجاة، وعاد دون المتابعة بسيره نحو دمياط، وقد طارده المسلمون، وفي أثناء فراره أصابوه بخمس جراحات كبيرة، وكان اسم هذا الرجل الاسكندر غيفارد Giffard، وكان انكليزياً من حيث المولد، وكان من أصل نبيل، وكانت أمه سيدة نبيلة، أقامت مع الملكة.

حول المذبحة التعيسة للفرنسيين

وعندما علم الفرنسيون بهذه الوقائع، تلاشوا ضعفاً أكثر فأكثر، مع الأسى الداخلي، ولم يستطع الملك مواساتهم، واستبد بعقولهم جميعاً،

وطغى عليها شعور باليأس الكبير، وفي المقابل كان السلطان الذي سمع بالكارثة التي حلت بالصلبيين، قد فرح وشعر بالسعادة، واستمد المزيد من الجرأة، وعندما سمع بالزحف الهجومي للملك الفرنسي مع جيشه دهش تجاه تهورهم، بعد تلك النوازل، وعجب كيف أن قلة من الرجال الجائعين قد تجرأوا على إثارة مثل ذلك الجيش الكبير، وتحريضه على القتال، ذلك أنه كان جيشاً تألف من جميع قوى الشرق، ولذلك دعا أعيانه للاجتماع معاً، وشجعهم بالكلمات التالية: «أيها المقدمون الأعظم نبلاً في الشرق، الذين تمكنوا الآن بشكل مشرف من الانتصار، وهزيمة قرابة نصف الجيش الفرنسي، والذين يتمتعون بأسلاب، وأسلحة، وخيول الذين قتلوا، تصدوا بجرأة لهذه الحثالة المقبلة، الذين هدد أفرادها الجوع، والحزن، ومن السهل سحقهم، وعليكم أن تقتلوا بلا رحمة الذين يتصدون إليكم، حتى لا يتمكن أي واحد منهم من الفرار، أو يتملص من أيديكم المنتصرة، لأنه ما هذا التهور الأحمق الذي حرضهم على مهاجمتنا، والسعي لحرماننا من ميراثنا، نحن الذين سكنا في هذه الأرض الجلييلة منذ الطوفان؟ فهل هم يريدون منا أن نؤمن بمسيحهم على الرغم من إرادتنا؟ فمن الذي يمكنه أن يتحول عن دينه، أو يؤمن بشيء ضد إرادته؟ هناك محرض ما — هو ضعيف — قد دفع الصليبيين إلى اشتهاء السيطرة على ما يسمونه مقدساً، لكن ما شأنهم ومصر، ولماذا يفعلون فيها ما يفعلون؟ فهم غير أهل لأن يكونوا سادة على البلاد التي تشرب من نهر أرسل من الجنة، وتنال الثروة منه، إنهم رجال بلاحى، وحليقين، وليسوا أهلاً للقتال، وبلهاء، ومخنثين، لابل أكثر شبهاً بالخصيان، أو بالحري بالنساء، منهم بالرجال فكيف تجرأوا أن يفعلوا الذي فعلوه؟»، ولدى سماع هذه الكلمات التهب جميع المسلمون حماسة ورغبة بالقتال، وصاروا مثل نار مستعرة، وواجهوا رجال الصليبيين في القتال مع كثير من الثقة.

أسر الملك الفرنسي

وعند ذلك زحف اخواننا الصليبيون، وعندما اقتربوا من مكان المعركة، التي هلك فيها اخوانهم من الفرنسيين بشكل تعيس، وجدوا أجساد القتلى من دون رؤوس، وقد حرموا من أيديهم وأرجلهم، كما كانوا كذلك مشوهين، لأن المسلمين تنافس واحداهم مع الآخر، في قطع أطراف ورؤوس أجساد القتلى، وذلك في سبيل الحصول على الجائزة الموعودة من السلطان، وتركوا بقية الأجساد حتى تلتهم من قبل الحيوانات، والطيور الجارحة، وعندما رأى الفرنسيون هذا المشهد شرعوا بالندب والنحيب، ومنتفوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، وبللوا دروعهم وترستهم بدموعهم، وبذلك كان أساهم يمكن أن يثير شفقة حتى أعدائهم، وفي الوقت نفسه، ظهرت حشود العدو أنها باتت قريبة جداً، وأعقب ذلك على الفور نشوب صراع محزن، لكن ماالذي كان من الممكن أن يفعله مثل ذلك العدد الصغير من الرجال، الذين أنهكهم الحزن، والآلام، والجوع، والعوز، وكانوا يمتطون خيولاً جائعة، ويؤثرونه ضد مثل تلك الآلاف المؤلفة؟، وانهزم الفرنسيون، ونزلت بهم الضربات، وقتلوا، وتنافس واحداهم مع الآخر في الخضوع إلى أعدائهم، وباختصار جرت هزيمة الجيش الفرنسي وتمزيقه، وعدد قليل فقط من أعداء الفرنسيين قتلوا، وفي هذا القتال المشؤوم، قتل واحد فقط من ذوي المراتب بين المسلمين كان معروفاً وكان اسم هذا الرجل Melkadin ابن Rocus(?) وعلى الرغم من سقوط الكثيرين من الجانب المعادي، مثلما خسرننا، فإنه لم يظهر على جيشهم أي نقص، ذلك أننا خسرننا ألفي فارس وثلاثمائة فارس، كلهم من أصل نبيل، وخمسة عشر ألفاً من الجنود، فهؤلاء جميعاً قد قتلوا، أو وقعوا أسرى وصاروا تحت إرادة أعدائهم، ولكي يضاف إلى أحزان الفرنسيين، وخزيهم الدائم، ولاضطراب الكنيسة والمسيحية بأجمعها،

وقع الملك الفرنسي بالأسر، مع عدد صغير جداً كانوا قد دافعوا عنه، وهم شارل كونت بروفانس، وألفونسو كونت بواتو، ونبلاء آخرين ثبتوا إلى جانبه، ولم يرد قط في أي كتاب بأن ملك فرنسا قد وقع أسيراً، خاصة لدى المسلمين، أو لحقت به الهزيمة، إلا هذا الملك، وطالما أنه هو وحده قد بقي سالماً ومشرفاً، وإنه وإن سقط البقية، فإن المسيحية يمكنها أن تمتلك بعض الوسائل، في استرداد أنفاسها، وفي تجنب العار، ولهذا قام داود في المزامير، بالدعاء بالروح، بأن يتم حفظ الملك، لأن على بقائه يعتمد بقاء الجيش كله، وجاء هذا في قوله: «يارب، احفظ الملك»، أما بالنسبة للقوات التي قادها روبرت كونت أرتوي، أخو الملك، في حملته الطائشة، فقد هلك حوالي الألفي فارس، وسبعة آلاف ومائتين من الرجال المحاربين، وقد نجا من الداوية ثلاثة فرسان فقط، ومن الاسبتارية أربعة فقط، فقد مات الخامس من جراحاته، ولنزيفه ونقصان دمه، وكانت وفاته قبل أن يصل إلى عكا، ونجا من رهبان طائفة التيوتون ثلاثة فقط، وكانوا نصف أموات، وسقط هناك في هذا الصراع المميت، إلى جانب الداوية والآخرين، الرجال المشهورين التاليين: «رالف دي كوسي Coucy، وكان فارساً مشهوراً ومتميزاً، وهوغ، كونت فلاندرز، وكان رجلاً صاحب قوة كبيرة، ومتميزاً، وهوغ برون Brun، كونت التخوم، الذي كان والده قد توفي قبل وقت قصير في دمياط، وأيضاً كونت أوف بونثيو Ponthieu، وكان حاجاً، ولكي نجمل ما حدث ببضع كلمات فإن جميع النبالة الفرنسية قد سقطت هناك وقتلت، ووقع بالأسر غوشير دي شاتيلون Gaucher de chatillon، وكان جريئاً، وفارساً لا يقهر، ونقل بعد المعركة، وأرسل ليقدم هدية إلى الخليفة بين هدايا غنائم المعركة، وكان من عادة الخليفة عدم اطلاق سراح أي صليبي، أودع في سجنه، وكان وليم لونغوسبي، قد سقط أيضاً، وهو مغطى بالدماء، بعدما لطخ سيفه بدماء عدد كبير من أعدائه، وسقط معه روبرت دي

فيري، وعدد آخر من الفرسان المشهورين وأتباعه، وهذا الفارس، مع أنه أقنع بأن ينجو، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك، رفض خشية أن يظهر أنه غير جدير بالتعايش مع الشهداء الآخرين.

حول ولاية دمياط والأسطول الذي ترك هناك

وكان قد ترك في دمياط مسؤولاً عنها: دوق بيرغندي، الذي تولى إمرة القوات والناس الذين تركوا في تلك المدينة، وأوليفر أوف تيرمس Termes، وكان مقاتلاً متميزاً، وقد تولى إمرة رماة القسي الزبارة، وخيول المناوشة، وكان هناك أيضاً في المدينة أودو، النائب البابوي مع أسقف أميان Amiens وسواسون، وقساوسة آخرين وكهنة، وكذلك ملكة فرنسا، وسيدات أخريات كثيرات كن في خدمتها، أما بالنسبة لقيادة الأسطول أيضاً، الذي كان تعداد سفنه كبيراً جداً، ومثله في الفخامة، أو أحسن منه تزويداً، لم يشاهد مثله قط، فقد عيّن لقيادته بعض مشاهير الفرسان، وقد تركز في المدينة، مع بعض الجنويين، والفلمنكيين، والبواتيين، والبروفانسيين، وكانوا جميعاً مخلصين للملك الفرنسي، وخاضعين له.

وينبغي أن نشير هنا، إلى أنه في اليوم نفسه الذي جرى فيه أسر الملك الفرنسي، كان الايرل رتشارد يحتفل مع البابا، ومثلما أسر سلطان مصر الملك الفرنسي، كان البابا يسعى لأن يأسر الايرل، بوساطة الاحتفال به، وليقدم له معروفاً واستجابة لرغباته.

كيف رفض الملك الفرنسي إعادة

دمياط إلى المسلمين مع أنه كان أسيراً

وبعدما جرى أسر الملك الفرنسي، ووضع في سجن مضمون، وقام المسلمون، كما كانوا قد فعلوا من قبل في قضية الذين أسروهم وكانوا مع أخي الملك روبرت، فقطعوا الآن رؤوس أطراف وأيدي وأرجل

القتلى، وذلك بمثابة علامة على الانتقام الأقصى، وذلك حسبما أمر السلطان، وكانوا أيضاً يأملون بالجائزة التي تقدم ذكرها أعلاه، إنما كان كلما ازدادت آلام هؤلاء الشهداء المقدسين، كانت بلاشك الجائزة التي سوف ينالونها أعظم، وقرر السلطان أخذ الملك الأسير إلى الأجزاء القصوى من الشرق، وذلك كعلامة على النصر، وموضوع هزة إلى جميع المسلمين، ولكي يحصل على شهرة لنفسه، من أجل أن يتعرض أسيره إلى اهانات جميع المسلمين، وفي سبيل أن يجري تقديم أكثر الملوك المسيحيين شهرة إلى الخليفة، تشریفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، على أساس أن أعظم المسيحيين نبلاً ومكانة قد سحق، فبذلك يمكن للمسلمين أن يشعروا بأمال سحق البقية.

لكن بما أنهم كانوا أشد رغبة بتملك دمياط، جرى تغيير الخطة، وذلك خشية أن يموت الملك حزناً وكمداً، لأنه رفض أكل أي شيء، أو الشرب لمدة يومين بعد أسره، وقد رغب بالموت، ولو أنه مات، لكان بإمكان المحاصرين، الوقوف والصمود دونها خطر، لمدة عام على الأقل، في وجه حملات جميع جيوش الشرق، بكل من البر والبحر، ولكان في الوقت نفسه من الممكن تحريرها بوساطة نجدة من الصليبيين، لأن دمياط كان مدافعاً عنها بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية، والأبراج، وكان الأسطول في البحر أسطولاً لا يقهر، ولذلك قدر الأناس الأكثر حكمة والأعلى مكانة بين المسلمين هذا الأمر، ورأوا دعوة الملك على الفور لتسليم دمياط، وأن يدفع بمثابة فدية لشخصه مبلغ مائة ألف باوند من الذهب، وعلى هذه المطالب رد الملك بملامح كئيبة، وبلهجة متوسلة: «الرب القدير يعلم بأنني قدمت إلى هنا من فرنسا ليس لنيل أراض أو مال لشخصي، بل لأربح للرب أرواحكم المحيقة بها الخطر، وأنني لم أقم بهذه الرحلة الخطرة في سبيل منفعتي، بل من أجلكم، ووفاء لنذري، لأنني أمتلك كثيراً جداً من الأراضي،

المعتدلة والصحية، مع أنني مذنب ولست جديراً بها، غير أنني مشفق على أرواحكم، التي سوف تهلك بدون شك، كونوا راضين بالدمار الذي لحقني، لأن المسيح غاضب عليّ، ولذلك عانيت بطرق مختلفة، أنا من الممكن أن أقتل، ومن الممكن استخراج المال مني، إلى حد إفقاري تماماً، لكنني لن أسلم دمياط إليكم، التي حصلت عليها بوساطة معجزة لاهوتية».

كيف حاول المسلمون الاستيلاء على دمياط بالخداع

بينما كان المسلمون يتداولون حول هذه القضايا، قال واحد من الأكثر دهاء بينهم: «لماذا أنتم مترددون؟ إنه سواء أرضي هذا الأمير الأسير الضعيف، أم لم يرض، سوف نحصل على دمياط وعلى المال المطلوب»، وبموجب هذه النصيحة، قامت كتلة قوية من المسلمين مساوية في العدد لتعداد الجيش الصليبي، أو ربما كانت أكبر، وقام أفراد هذه الكتلة بلبس دروع الصليبيين بشكل خياني، وحملوا أيضاً ترسة وأعلام الصليبيين الذين قتلوا، وانطلقوا على الفور وهم مموهين على هذا الشكل نحو دمياط، من أجل أنهم، وقد حملوا مظهر الفرنسيين، يمكنهم الحصول على سماح بالدخول إلى المدينة، فما أن يسمح لهم بذلك، حتى سيقتلون كل الذين سيجدونهم هناك فيها، لكنهم عندما وصلوا إلى المدينة، نظر الحرس الصليبي من وراء شرفات المدينة والأبراج نحوهم، واعتقدوا في البداية أنهم صليبيين مسرورين يحملون الأسلاب والغنائم، لكن مع ازدياد اقترابهم، ظهروا أكثر أنهم لا يشبهون الفرنسيين، لأنهم ساروا مسرعين وعلى شكل حشود غير منتظمة، وحملوا ترستهم بشكل فوضوي، وفق عادات المسلمين أكثر منه وفق عادات الفرنسيين، وعندما وصلوا إلى الحد الأقصى من التحصينات، واقتربوا من أبواب المدينة، تبرهن بشكل واضح أنهم مسلمين من خلال وجوههم السوداء الملتحية، وكانت مهمة جداً مسألة لحاهم، وطلبوا

على الفور بشك جليل السماح لهم بالدخول إلى المدينة، لأن جميع الممرات إلى القلاع والمدينة، كانت محروسة بتيقظ وحذر.

حول حزن الصليبيين لدى معرفتهم بالمذبحة التي تقدم ذكرها أعلاه

عندما شاهد رجال حامية المدينة المسلمين، وقد تجهزوا بأسلاب الصليبيين، ومن ثم أخبروا بتدمير الجيش الصليبي، ملأوا المدينة كلها بنحيبهم، ورفضوا — على كل حال — السماح إلى أعدائهم بالدخول إلى القلاع وإلى المدينة، وأعلنوا بجرأة، أنه وإن كان الجيش الصليبي، وكذلك ملكه، قد هلكوا، فإنهم سوف يتحملون بثبات الحصار، وسيصمدون أمام حملات جميع المسلمين في الشرق، لوقت طويل، لأنهم يأملون بشكل أكيد باستلام المساعدة، إنما عندما رأى الأشخاص الذين كانوا يتولون المراقبة من أعلى الأبراج، بأنه كان هناك جيشاً كبيراً واسع الانتشار، وقد تكون من هؤلاء القادمين الجدد، ولأنهم عرفوا أن قواتهم كانت تماماً غير قادرة على الوقوف أمام قوات الأعداء، قرروا عدم الاقلاع بحملات للهجوم عليهم، خاصة وأن قواهم أخذت تحبطهم بسبب الحزن والعوز، هذا ومن الذي كان بإمكانه أن يروي بشكل كامل حزنهم القلبي وأساهم، عندما شاهدوا أعداء المسيح وهم مظهرين لتفاخرهم واستخفافهم، وهم مرتدين لدروع، ويحملون أعلاماً، ورنوكاً يعرفون أشكالهم بوضوح؟.

كيف تنازل الملك الفرنسي عن دمياط إلى المسلمين ثمناً لحرية

وعندما أخفقت هكذا خطط المسلمين عادوا، وشرعوا منذ ذلك الحين بالتعامل بلطف مع الملك الفرنسي، وبناء على ذلك سمحوا بخدمته بالطعام وبالشراب، وأن يتولى ذلك رعاياه الذين وقعوا في الأسر معه، لأنه كان خائفاً من أن يجري تسميمه، وفقاً لعادات المسلمين، وقد احتفظ

به سجيناً بينهم لمدة شهر وأكثر، وطولب خلال تلك المدة، مع تهديدات مرعبة، بالتخلي عن دمياط، وبما أنه رفض أن يفعل ذلك، وفق أي شرط من الشروط، طالبوه بوجوب دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره من دون نقص، أو أنه سوف يتعرض لميئة شنيعة، بوساطة عذاب طويل، أو أنه سوف يرسل إلى الخليفة، مما سيسبب العار للإيمان المسيحي، حيث لن يسمح له بالعودة، ولن يكون هناك أمل بالفدية.

وبناء عليه، قدّر، وهو في هذه الضائقة، أنه لن يتمكن من النجاة من بين أيديهم، وأنه لن يستطيع بأية وسيلة من الوسائل الاحتفاظ بدمياط، أو الحيلولة دون سقوطها للعدو الذي سيحاصرها (فمن الذي كان يمكنه وقتها أن يجره، أو ينقذ تلك البلاد بالقوة؟)، ورغبة منه في أن يحسن أوضاعه بطريقة ما، أجابهم الملك قائلاً: «نحن في الغرب ليس لدينا الوفرة الكبيرة من الذهب مثلما لدى شعبكم في الشرق، كما أننا لانستخدم الباوند في حساباتنا، ولذلك نبدل الذهب إلى فضة، والباوندات إلى ماركات، ودعوني أذهب تحت الضمان والارشاد من قبلكم إلى عكا، لأتدبر إعادة الأسرى من على الطرفين، وخلوا أيضاً الذين يسكنون في دمياط يذهبون تحت ضمانتكم، إلى مكان آمن، غير متعرضين للأذى بأشخاصهم، ومحتفظين بأسلحتهم، فوقتها سوف أقول بقلب جريح بعمق:

إنني سأتحلى لكم عن دمياط، إذا ما تمكنت من اقناع المحاصرين في المدينة بالموافقة على هذه الشروط»، وبما أن هذه العروض، مضاف إليها هدنة عشر سنوات، قد أرضت السلطان، أرسل الملك أربعة من فرسانه، مصحوبين ببعض الأعيان المسلمين، مع رسائل، واعتمادات سرية إلى النائب البابوي، والدوق، وإلى الآخرين الذين كانوا مسؤولين عن المدينة ومتولين لحكمها، وأعطاهم شارة، وأقنعهم بإعادة دمياط إلى المسلمين، وفق الشروط التي تقدم ذكرها أعلاه.

وعندما عبر رسل الملك المعسكر بصحبة المسلمين الذين تقدم ذكرهم، ووصلوا إلى أبواب المدينة، سلموا الرسالة التي كان معهوداً بها إليهم، ولدى تسلمها حزن النبلاء الصليبيون أكثر مما يمكن التعبير عنه، ومكثوا وقتاً طويلاً وهم في حيرة حول الذي عليهم فعله بالنسبة للقضية، لأنهم تخافوا خوفاً عظيماً من مكر العدو، وخشوا أنهم بعد تسليمهم دمياط، أن يجردوا الملك وقد تسمم، وكذلك جميع الذين كانوا معه، وأنهم سوف يعيشون لوقت قصير جداً فقط، لأنهم كانوا على دراية جيدة بهذا النوع من الخيانة الإسلامية، ولكنهم عندما علموا من رسل الملك، بأنه كان لا يتسلم الطعام أو الشراب من أيدي أي من المسلمين، اقتنعوا بوساطة تدخلات النائب البابوي والملكة، وأصدقاء الملك الآخرين، الذين كانت تهمهم حياته، بأن يتجاوبوا مع الشروط، وبعدما تسلموا ضمانات حول سلامة الملك، وكذلك سلامتهم، وسلامة البحارة، وكذلك أماناً حتى الوصول إلى عكا، تخلى ولاة المدينة (وأنا آسف أن أكتب ذلك) عن مفاتيحها، ولم يكن ذلك على كل حال من دون تأوهات حزن عميقة، وعندما سمع الناس بهذا، قاموا بهياج حزنهم، وغضبهم، وعلى عكس الشروط التي تمت الموافقة عليها من الجانبين، فدمروا جميع المؤن، التي كانت متروكة هناك، وهي المؤن التي كانت عائدة إلى الملك أو إلى الآخرين، وكسروا براميل الزيت، والخمرة، ورموا بالقمح والشعير، واللحوم المملحة، أو أحرقوها، لأن الحزن كان قد استبد بهم وقهرهم لدى التفكير بأن أعداء الإيمان سوف يسمنون اعتماداً على مخزوناتهم، التي حفظوها خلال تلك المدة الطويلة من حالة الجوع، ورأوا أنه كان من الأفضل أن لا تؤخذ مطلقاً.

كيف جرى إعدام الصليبيين في دمياط

ثم أطلق السلطان سراح الملك، وأرسله بأمان إلى عكا، وتملك مدينة دمياط، لكن لدى دخوله إليها، وجدها مجردة تماماً من جميع أنواع المؤن،

وأن الأوعية التي تحفظ هذه المؤن قد حطمت إلى قطع، لذلك أمر بأفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين الذين وجدهم هناك [لأن أصحاب المراتب العليا كانوا قد نجوا] فأعدموا، وحزن لأنه سمح لأعيان الناس —الذين وافقوا على الشروط— بالمغادرة بسلام، كما أنه أمر بإحراق أسطول الصليبيين الذي وجدته هناك، وعلاوة على ذلك، فإن الصليبيين الذين كانوا قد غادروا المدينة على شكل حشود، قد جرى اعتراضهم من قبل كثر من المسلمين، الذين هاجمهم من الجبال ومن الوديان، وقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء من قبلهم، ولحسن الحظ كان الأسرى قد أعيدوا قبل هذه الواقعة.

كيف تحدى الملك الفرنسي السلطان

عندما وصلت أخبار هذا الإجراء إلى مسامع الملك الفرنسي، الذي كان مقيماً في عكا، تحت حماية الداوية والاستبارية مع الصليبيين الآخرين، أرسل رسالة إلى السلطان، بأنه غادر، وعدواني، لأنه خرق من دون حياء الهدنة التي عقدها، وأنه حصل على المال، الذي تسلمه منه —الملك الفرنسي— بالخداع، وعلى هذا رد عليه السلطان قائلاً، بأن الفرنسيين هم الذين أسهموا في إعطاء فرصة الانتقام هذه، وأثاروا عدوانية المسلمين، وأن شطراً منهم قد تبرهن بأنهم قد تورطوا في هذه الآثام العدوانية، لذلك عانوا بعدل من العقوبات التي تقدم ذكرها.

المسلمون يثورون ضد السلطان

عندما سمع شعب الشرق مع المصريين بأن السلطان قد رشي، وبذلك سمح لمثل ذلك الملك القوي ولإخوانه بالمغادرة وهم أحرار، غضبوا غضباً شديداً، وثاروا بالسلاح ضده، ولم يستطع أن يسوغ نفسه إليهم بالسبب الذي أعطاهم إياه، من أنه رغب في استرداد دمياط لصالح المسلمين كلهم، وفي سبيل أن لا يكون الميناء الموجود هناك،

ووسائل الدخول إلى البلاد، مفتوحة لبقية الصليبيين، ولذلك إما أنهم أرغموه على الفرار، أو قتلوه، وقد ازدادت ثورة الشعب المسلم ضد السلطان، من أنه لم يعط أحداً شيئاً من المال الذي حصل عليه، قبل أسر الملك، وبعد أسره، ولم يدفع لهم الأعطيات المتفق عليها مع أنهم أوصلوا الحرب إلى نهايتها، وتولوا إعدام الفرنسيين المغلوبين، بناء على أوامره.

ونشب بين ذوي المراتب العليا من الناس الشرقيين، الذين كانوا هناك، صراع ممت وخلاف شديد، حول من الذي من بينهم سوف يتمتع بمجد الاستحواذ على مثل تلك الغنائم الكبيرة، هذا وعندما علموا باطلاق سراح الملك، صبوا جام غضبهم على السلطان.

وهلك في مدينة دمياط أوليفر دي تيرمي Termes مع جميع أتباعه، الذين ندعوهم الـ Ruptarii (الناوشين بالخيل)، وهلك أيضاً عدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى يتمكن من ذكرهم، لكنهم — كما هو معروف بشكل جيد — قد دونت أسماءهم اسماً اسماً في كتاب الحياة، ومن الواضح أن السبب في هذه الكارثة الكبيرة كان تجبر كونت أوف أرتوي، الذي رفض مع الشتائم الإصغاء إلى تواضع المسلمين، عندما تقدموا — في سبيل السلام — بكثير من العروض، سلف ذكرها، وبعد ذلك، ومن أجل أن ينسب المجد إليه كله، أخذ معه ثلث الجيش، وترك بشكل سري بقية جيش الملك، ولكي نكون على اطلاع كامل حول خصوصيات المسائل المتقدم ذكرها، أقحمنا في هذا العمل، الرسالة التالية، التي أرسلت إلى الايرل رتشارد.

الرسالة التي أرسلت إلى الايرل رتشارد

«إلى صاحب السمو رتشارد، ايرل أوف كورنويل، مستشاره جون، إلخ، إلخ:

بما أنه في بعض الأحيان تقلق عقول الكبار، وتتعذب نتيجة لعرض مختلف الاشاعات، حتى تبات الحقيقة معروفة، رأيت من المناسب أن أوصّل إليكم بعض الأخبار المحزنة والمبكية المتعلقة بالجيش الفرنسي، بشكل محدد وصادق، وهي تقارير لم تنشر بعد، وقد علمت بخصوصيات ذلك برواية شفوية، وليس من خلال رسالة مكتوبة، وهي تقارير معتمدة وصادقة سمعتها من كاهن سالف لي، كان قد أرسل إلى ملكة فرنسا، وذكرت هذه التقارير، أنه بعد عيد طهارة مريم العذراء المباركة، أخذ الملك الطريق نحو القاهرة، وقد بقي دوق بيرغندي في دمياط، وكذلك زوجات النبلاء، وكثير من السيدات يتولين خدمة الملكة، لكن عندما حاول الملك عبور النيل، جرى اعتراضه بقوة من الطرف الآخر للنهر من قبل سلطان مصر ومعه أعداد كبيرة من المسلمين، ولذلك نصب معسكره على هذا الجانب من النهر، وجمع قوارب، من أجل أنه إذا ماربطهم مع بعضهم، يمكنه عبور النهر مع جيشه بهذه الوساطة، التي تكون بمثابة جسر، وفي اليوم الأول للامتناع عن أكل اللحوم، كان السلطان غائباً، مع أنه ترك حشداً كبيراً في معسكره قرب النهر، وتطبيقاً لخطة واحد من المتحولين المسلمين، كان كونت أرتوي ومقدم الداوية وجميع اخوانه الذين كانوا هناك، قد تلقوا تعليمات خالصة بعبور النهر، وكان هذا المتحول بين جماعة كونت أرتوي، لابل كان في الحقيقة خادمه، وكان برفقة هذين المقدمين ولیم لونغوسبي وأتباعه، مع عدد كبير آخر، يصل تعدادهم إلى حوالي ثلث الجيش كله، فهؤلاء جميعاً عبروا النيل، وانقضوا بشكل مفاجيء على المسلمين، واشتبكوا بجرأة معهم في القتال، وتبع ذلك صراع عنيف، وبعد طويل وقت، وبعد مقتل عدد كبير، في الحقيقة مقتل جميع المسلمين الذين وجدوهم في السهل، وكذلك في معسكرهم، وبعدما كانت هناك مذبحه ألت بكلا الجنسين، حصل الصليبيون على نصر مجيد، لكن الكونت وأتباعه لم يكونوا قانعين بهذا، ذلك أن الكونت رغب بعناد

بالمتابعة متوغلاً، ليهاجم قرية اسمها المنصورة، وكانت على مقربة منهم، مع أن الداوية عارضوا ذلك، وسعوا لإقناعه بالاقلاع عن فعل ذلك، عازين الأسباب إلى المصاعب التي عملوا في ظلها، والناجمة عن تعب أجسادهم وجراحاتها، ومثل ذلك خيولهم، مع أسباب أخرى، لكن الكونت المذكور وأتباعه ما كان ليعود بأي حال من الأحوال، وبعد تبادل اللوم بين أحدهم والآخر، تابعوا زحفهم إلى القرية المذكورة، وهاجموا الأعداء بجرأة، ولدى رؤية هذا، هرب جميع المسلمين الذين سكنوا في تلك القرية وفي الأماكن المجاورة، مع أصوات بكاء وانذار مرتفعة، وبذلك علم السلطان الذي لم يكن وقتها بعيداً كما هو معتقد، وسمع في اليوم نفسه الصراخ، وعلم بحقائق القضية، ودخل الصليبيون — على كل حال — دون حذر إلى القرية، فقطعوا عن طريق تراجعهم، وقهروا بوساطة الأحجار التي انهالت عليهم، والتي رماها بعض السكان، الذين بقيوا متخفين فوق الشرافات، وتمزق أفراد الجيش وتفرقوا، وبصعوبة بالغة نجوا من ذلك المكان، بعدما تناقص تعدادهم كثيراً، ولذلك بدأوا على الفور يأسون، ثم قدم السلطان مع حشد كبير جداً، واشتبك بصراع دموي معهم، وأخيراً — بعدما سمح الرب — تم قتل جميع الصليبيين، باستثناء شخص واحد، من مرتبة متدنية، أخذ طريقه عائداً بصعوبة كبيرة، وحزن الملك كثيراً لدى سماعه بهذا (ولاعجب في ذلك)، واستعد بكل حماسة في عقله، وبكل سرعة في مقدوره، ليتمكن شخصياً من عبور النهر، بوساطة القوارب المتقدمة الذكر، وبوساطة مراكب أخرى، قائلاً لأتباعه: «إنه من الضروري الآن أن تعرض فرنسا كل شجاعته، وأن تبذل قوتها كلها»، لكن في الوقت نفسه كان كثير من الصليبيين قد سقطوا من الجوع والعطش، وحيث أن خيولهم كانت مرهقة وجائعة، بدأت تزداد ضعفاً، والذي كان أسوأ من هذا كله، ومحزناً، هو استعادة ذكرى الذين قتلوا، فهذا أصاب قلوب الجميع وجعلهم يشعرون بالمرارة في أرواحهم.

وفي الوقت نفسه أيضاً، تبع العائق العائق، لأن السلطان المذكور، الذي كان كثير من المسلمين قد هجره، صدوراً عن كراهيتهم له، بالعقل والجسد، بسبب تجبره وخداعه، قد مات في هذا الوقت، وقام المسلمون على الفور بتعيين واحد آخر، هو ابنه، وقد توحدوا جميعاً معه، وأدوا يمين الولاء له على أساس أنه مولاهم، وهكذا أصبحوا كلهم بالفعل جسداً واحداً، وأخذوا يشعرون بالثقة، وصاروا متوحدين بقوة أعظم مما كانوا عليه من قبل، في سبيل تدمير الصليبيين، لأنهم رأوا أن الدمار الشامل محقق بهم، وعرف السلطان المعين حديثاً عن طريق نصائح الشيوخ والشرط الحكيم من أتباعه، بعد عمل مثابر، بإجراءات الصليبيين وخططهم.

وأرسل الملك في الوقت نفسه، كثيراً من أفراد الجيش الفرنسي، الذين هدهم المرض والجوع، في أسطول، عن طريق النيل، عائدين إلى دمياط، في سبيل أن يستردوا قوتهم في مكان آمن، وكان السلطان قد أخبر سلفاً بهذا، فتدبر جلب عدد أكبر من المراكب، مشحونة برجال مسلحين، وجلبت هذه المراكب في عربات تجرها الثيران، وكانت مهمة هذه المراكب اعتراض أسطول الملك، ونشبت معركة بحرية حادة جداً فوق النهر، فيها تم تبادل الرمايات من على الجانبين، حيث تطايرت مثل زخات البرد، وقد تمكن المسلمون بقذفهم النفوط على الصليبيين، من إحراق كثير من مراكبهم، وقتلوا الناس الذين كانوا فيهم، وحصلوا على النصر، وغرق الصليبيون، أو قتلوا، أو أحرقوا، وهكذا تمكن الرب في غضبه من تدميرهم جميعاً بالسيف مثلما دمرهم بالجوع، ونجا واحد منهم فقط، وكان انكليزياً من حيث المولد، ليعلن خبر الكارثة المبكية إلى الملك، الذي غلبه الحزن والأسى، فكان مثل أيوب آخر.

وبعد هذا، في ثمانية الفصح التالي، قام الملك مع جيشه بعبور النهر الذي يتدفق من النيل، وهو يعرف باسم آخر، هو نهر تنيس، وقد قبل

من قبل السلطان مع حشد لا يحصى من المسلمين، وأعقب ذلك معركة، انتهت بنتيجة مأساوية محزنة، ذلك أن الجيش الصليبي الذي ضعف من الآلام ومن الحزن، انهزم، ونزل سوء حظ لا يمكن جبره بشعب المسيح، ووقع الملك مع أخويه الحيين بالأسر، ومثل ذلك كان حال البقية، الذين لم يقتلوا، وهكذا بحكم خفي وبقضاء من الرب، تحولت قيشارة المسيحيين من الغناء إلى الحزن، وعوضاً عن صوتها الجميل السالف، أخذت تقزع أصوات نذب مبكية، وبعدما بات الملك مع الآخرين أسرى، تحدث السلطان معه ومعهم حول السلام، إنما أثناء البحث حول هذه القضية — لأنهم لم يستطيعوا الاتفاق، لأن الملك كان حزيناً يائساً إلى حد الموت تقريباً — أرسل السلطان بشكل خياني كتلة كبيرة من رجاله، يحملون الراية الفرنسية الحريرية الحمراء مع الأعلام الفرنسية الأخرى، من أجل مفاجئة الصليبيين الذين كانوا يجهلون هذه الحادثة، بغية التمكن من السيطرة على المدينة.

وكان الصليبيون — على كل حال — قد أُنذروا سلفاً وحذروا من هذه الخديعة، وتنبهوا من خلال الزحف غير النظامي للقوات، فأغلقت الأبواب، وجرى عقد مؤتمر، رفض خلاله الدوق مع الآخرين مطالبهم، وأعلنوا أنهم ليسوا خائفين، وأن بإمكانهم الدفاع عن المدينة لمدة عامين أو أكثر، ففي خلال تلك المدة، وقبل أن تنتهي، لابد وأن الرب سيزودهم بالمساعدة وبالرأي الصحيح، وأنهم لن يتزحزحوا عن موقفهم من أجل المحافظة على حياة الملك، وبناء عليه عادوا إلى السلطان مخفيين فيما نووه.

وعلى كل حال، عمل الملك هدنة عن نفسه وعن ورثته، وربط نفسه، بوساطة رهائن، بأن يدفع مائة ألف مارك من الفضة مع فقدان دمياط، ولأن موقف ولاية تلك المدينة بوساطة الملكة وبعض أصدقاء الملك، الذين رغبوا في إنقاذ حياته، وأعيدت دمياط (أنا أكتب ذلك خجلاً) إلى

أعداء المسيح، مما ألحق الإهانة بالكنيسة المسكونية، وهلك في هذه المعركة السيئة الحظ، جميع نبلاء فرنسا تقريباً، ومات جون أوف درو Dreux في قبرص، وكان فخار فرنسا، كندير سوء حول مستقبل شرير».

سخط الفرنسيين لدى سماعهم بمقتل أبناء بلدهم

عندما جلبت أخبار هذه الحوادث المفجعة إلى علم السيدة بلانشي ونبلاء فرنسا، بوساطة بعض الناس الذين عادوا من البلدان الشرقية، لم يكن بإمكانهم تصديقها، ولم يرغبوا بذلك، وأمروا بحملتها بأن يشنقوا، ولقد كان هؤلاء، كما نعتقد، شهداء ظاهرين، وبعد لأي، عندما سمعوا بالحقائق نفسها من تقارير متوالية حملها أناس لا يمكن التجرؤ على تسميتهم رواة حكايات، وعندما شاهدوا رسائل تحتوي على الروايات نفسها، مع وثائق موثوقة لا يمكن أن تخطىء، ساد فرنسا كلها الحبيب، والشعور بالإهانة، وتلاشى لاهوتيون وكذلك فرسان حزنًا، ورفضوا تلقي المواساة، وكان الآباء والأمهات في جميع الاتجاهات يندبون موت أولادهم، وبكي التلاميذ واليتامى موت الآباء، والأقرباء موت الأقرباء، والأصدقاء موت الأصدقاء.

وتغير جمال المرأة، ورمي جانباً بأكاليل الورود، وألغيت الأغاني، ومنعت الأدوات الموسيقية، وجرى تغيير كل نوع من أنواع البهجة إلى نحيب وبكاء، والذي كان أسوأ هو أنهم اهتموا رب العدل، وجذفوا بمرارة قلوبهم، ولعنوا حزنهم، وتفوهوا بكلمات الكفر، التي بدت ولها مذاق الردة أو الهرطقة، وبدأ إيمان الكثيرين يترنح، وكان من الممكن لمدينة البندقية الفخمة، وعدد كبير آخر من المدن، التي كانت مقطونة بأناس نصف مسيحيين، أن تقع بالردة، لولا أنها جرى تثبيتها بمواساة أساقفتها المقدسين، ورهبانها، الذين أكدوا بكل ثقة، بأن القتلى كانوا الآن يحكمون بمثابة شهداء في السماء، وهم لا يرغبون الآن بالعيش في

وادي ظلام العالم، من أجل جميع الذهب الموجود في الدنيا، وهكذا
أمكن بعد بعض المصاعب، تهدئة غضب بعضهم، لكن ليس غضب
الجميع.

كيف حمل ملك قشتالة الصليب

عندما سمع ملك قشتالة العظيم الانتصارات، والذي ربح حتى
الآن أكثر من ثلاثة عشر نصراً على المسلمين، سمع بهذه الحوادث،
أشفق على الفرنسيين لما عانوه، وحمل شخصياً الصليب، معتقداً أن من
الأفضل إخضاع الأرض المقدسة للمسيح، وأجدر من إخضاع أي بلد
آخر.

الشكاوى التي عملت بسبب استخراج المال

مثل هذه كانت الثمار التي أنتجت بوساطة السلب والنهب، الذي
مارسه النبلاء، بناء على إذن من الكنيسة الرومانية، أو بالحقيقة بناء على
تعليم منها، مارسوه على جميع الفقراء المتألمين، في سبيل أن يملأوا
أكياسهم، عندما ينطلقون للحج وليقاتلوا في سبيل الرب، ومن
الحوادث المتقدمة الوقوع، من الواضح وضوح الضوء، كيف أنه
لا يرضي الرب الربح الذي يأتي من ظلم الفقراء وافقارهم.

مثل واضح حول استخراج المال مورس في فرنسا

مع أن ممارسة استخراج المال، التي جرت في جميع أرجاء المملكة
الفرنسية، لم يجز ذكرها، وينبغي أن تبقى في صمت أبدي، رأينا أنه من
الموائم، إقحام مثل في هذا الكتاب، حيث من المعلوم أن الملك الفرنسي،
قد استخرج — بناء على إذن من الكنيسة الرومانية — العشر من
الكنايس في جميع أرجاء مملكة فرنسا، لمدة ثلاث سنوات، على شرط أن
يقوم البابا باستخراج الكمية نفسها من الجهة نفسها، حتى يتمكن من
متابعة الحرب بنشاط أكبر ضد فردريك، لكن بعد الجباية لمدة ثلاث

أعوام، عندما رغب البابا في أن يجمع الثمار لنفسه، جرى اخبار الملك الفرنسي بذلك فرفض بشكل مكشوف السماح بذلك، ومارس خداعاً خاصاً به، ليهزم هؤلاء الجباة الشرهين، معطياً سبباً لذلك، بأنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال، السماح بأن تتعرض كنائس مملكته للإفقار، من أجل شن الحرب على مسيحيين، لكن في سبيل قتال الكفار، هو يمكنه أن يتحمل ذلك بمزيد من رباطة الجأش، لكن حتى آنذاك، يؤثر أن يكون ذلك بوساطة العلمانيين وليس رجال الدين، وبالإضافة إلى ذلك، إذا تركت الكنائس فريسة لمدة ثلاث سنوات مقبلة سوف تكون عرضة إلى دمار لا يمكن جبره، وهذا أمر لن يزعج البابا حوله، وهو على هذا قام — حسبما ذكرنا أعلاه — باستخراج المال المذكور، بوساطة وكلاء البابا، حتى يكون التحصيل أكثر فاعلية، وأيضاً حتى يتمكن كذلك من معرفة كم ستكون حصة البابا، عندما ستجمع، وبهذا الإجراء، شعرت قلوب الكثيرين بحزن عميق، وفي وسط لعناتهم صلوا، بأن ينزل حكم النبي اشعيا، أو بالحري حكم الرب، بالذي لم ينظر نظرة مقت إلى جميع السرقات المرتبطة بالتقديرات إليه.

فهل من الممكن أن يقوم ملك انكلترا مع أخيه الايرل رتشارد، والأمراء الصليبيين الآخرين الذين هم عازمين على نيل الربح القدر، أن يزنوا هذه الأشياء بميزان العقل، لأنه مع أن عمل الحج المقدس، هو عمل تقوي بحد ذاته، مع ذلك إن التزود من أجل الرحلة، عندما يتم الحصول عليه بوسائل قذرة، يندس ممارسة العمل التقوي، وهذا — كما هو معتقد — كان سبب العار المتقدم ذكره أعلاه والدمار، مع أنه لعل هناك أسباباً أخرى، ربما هي غير مطلوبة، وبشأن الاستخراج الذي مورس في مملكة فرنسا، رأينا أنه من المناسب ذكر قضية واحدة، على أساس أنها حادثة مهينة جداً، فقد صدف أن قابل وكيل البابا المذكور كاهناً صغير المرتبة لإحدى القرى، وهو يحمل ماء في وعاء صغير، مع

مرشة وبعض قطع من الخبز أعطيت له مقابل رشه بعض الماء المقدس، وإليه توجه الروماني المخادع بمخاطبته هكذا: «كم هي المرباح التي تحصل عليها من هذه الكنيسة سنوياً؟» وعلى هذا السؤال رد الكاهن الجاهل بالدهاء الروماني: «حوالي العشرين شلن، كما أظن»، ووقتها أعلن الروماني عن نفسه، وقال له: «من هذا المبلغ، يترتب على هذا من أجل منفعة المورد أربعة وعشرين بنساً، أي شلنين»، فدمر على الفور ذلك الرجل المسكين، الذي تسول من باب إلى باب قائلاً: «ادفعوا إلى الملك ما يستحقه منكم»، ولكي يدفع هذا المبلغ الصغير، أرغم هذا الرجل المسكين على اكتراء مدارس لأيام كثيرة، وأن يقوم ببيع كتبه في الساحات، وأن يسير وهو نصف جائع، لابل بحياة جائعة، لكن دعونا نترك الآن عملية الجباية هذه، وأن نعود إلى قضيتنا الأساسية.

شهادة راعية دير لأكوك

وعندما وصلت أخبار الكارثة المذكورة أعلاه إلى علم البابا، حزن بشكل مؤلم، ومثل ذلك فعلت كل جماعة البلاط الروماني، وجرى تعليق جميع المراسيم لبعض الأيام، وازدادت سمعة البابا سوءاً، وانتشر ذلك في الخارج بدرجات كبيرة، وكان من بين شكاوي الفرنسيين، كلمات سمعت، مثل مايلي: «وأسفاه، كم من الشرور جلبه علينا تجبر البابا، الذي رفض بعناد أن يقبل بتذلل فردريك، وأن لا يتلقى منه ترضية صحيحة وموائمة، لابل بالحرى أثاره حتى أوصله إلى مرارة الروح، فهو قد عرض بلا تردد، بلطفه، أن يسترد — من دون سفك للدماء — لنا جميع الممتلكات التي كانت في أيدي الصليبيين، في أي وقت من الأوقات، في الأرض المقدسة، والآن وبالأسف، كم من الدماء العامة والنبيلة، جرى سفكها — من دون فائدة — في الأرض المقدسة، وفي ألمانيا، وفي إيطاليا، وما هو أسوأ، إن الإيمان يتأرجح ويتراجع، والأرض المقدسة عرضة للخطر، والديانة المسيحية قد

تلاشت في تأثيرها، وأوهام المسلمين قد ارتفع شأنها، ففي ظل أي كوكب غير سعيد لابد أنه قد ولد، لأن سوء الحظ قد تفجر في أيامه، في كنيسة مولانا يسوع المسيح، الذي أعلن هو عن نفسه أنه نائبه».

وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى مسامع راعية الدير الكونتيسة هيلا، التي أدارت بنشاط نسائي ديراً للسيدات الراهبات في لأكوك، وهي التي كانت أم النبيل وليم لونغوسي ولدى تذكرها الرؤيا المجيدة التي رأتها حول ابنها، في الوقت الذي مات فيه، حيث كان واضحاً أنه كان شهيداً، كما ذكرنا أعلاه، قامت بروح مشرقة، فضربت يداً على يد، وجثت على ركبتيها، وانطلقت تحمد الرب وتثني عليه، وقدمت شكرها بشكل رفيع إلى المسيح بهذه الكلمات: «أيها الرب يسوع المسيح، أقدم لك شكري لأنك قضيت بذلك، قضيت بأن يخرج من جسدي — مع أنني مذنب — مثل ذلك الابن، الذي تفضلت بتشريفه بتاج الشهادة، وإنني أمل بمساعدته، سوف أتقدم على الفور نحو أمجاد مملكتك السماوية»، وعندما شاهد الذين كانوا حاملين لهذه التقارير، والذين التزموا الصمت لوقت طويل، لخوفهم، شاهدوا أعمالها، وسمعوا كلماتها، أثنوا على هذا الثبات الأكثر مما هو نسائي، لهذه المرأة، وعجبوا كيف أنها بعاطفة الأم لديها، لم تنفجر بالنحيب والشكوى، بل بالخري تجددت فرحاً ببهجة روحية.

وفيات بعض النبلاء

في سياق هذا العام الحزين، مات بعض النبلاء الذين كانوا رجالاً من الأعظم شهرة، أثناء ذلك الحج الذي تقدم ذكره، وكان بين هؤلاء: إيرلات، ومركيزات، وأساقفة، وفرسان، وقد مات بعضهم على ظهر سفنهم، وبعضهم في الجزر التي نزلوا بها، وغرق بعضهم، وكان واحداً من هؤلاء أسقف نويون Noyon، الذي كتب اسمه، وكذلك أسماء البقية، كما هو واضح، في كتاب الحياة السرمدية، وفي هذا العام

أيضاً، في حوالي يوم عيد القديسة مرغريت، مات روبرت موسشامب Muschamp، وكان رجلاً صاحب اسم رفيع في المناطق الشمالية من انكلترا، ومات في حوالي الوقت نفسه أيضاً هنري هيستنج Hastings، وكان فارساً متميزاً، وباروناً غنياً.

كيف استعد المسلمون لإلقاء الحصار على عكا

وفي حوالي الوقت نفسه، عندما رأى المسلمون أن الحرب تقدمت بين أيديهم ونجحت، عملوا الاستعدادات لحصار عكا، لأنهم تمتعوا الآن وابتهجوا بالأسلاب الوافرة التي أخذوها من أعدائهم القتلى، وتألّفت هذه الأسلاب من: الخيول، ومن الأسلحة والدروع، وآلات الحرب، والقسي الزيارة، والسفن، والمؤن، وأيضاً بسبب الجراحة التي شعروا بها إثر الهزيمة الأخيرة للصليبيين، وكذلك نتيجة للهدنة التي تمّ التخلي عنها وهجرها، وكانوا آسفين أيضاً إلى أقصى الحدود، لأنهم سمحوا للملك الفرنسي ولأخويه الحين بدفع الفدية، أو بالمغادرة وهم أحرار بعدما دفعوا الفدية، ولهذا صبوا التهم ضد سلطان مصر، كراهية منهم لنهمه، وكانوا أيضاً واثقين تماماً بأنهم سوف يستردون مقتنياتهم المفقودة، وأن ينالوا النصر على الملك وعلى أخويه، وأسرهم أثناء تعبهم وهم مرهقين.

الملك الفرنسي يرسل أخويه عائدين إلى فرنسا

قام الملك الفرنسي التقي بتقدير الأمور، فبعدما دفع مبلغ مال الفدية المتقدم ذكره، وهو مبلغ كان قد استقرضه من الداوية والاستبارية، ومن الجنويين والبيازنة، وبعدما استرد الرهائن التي كان قد أعطاها، أرسل فجأة وبشكل سري أخويه الحين: ألفونسو، كونت بواتو، وشارل كونت بروفانس، في سفينة قوية، فبحكمة أعادها إلى الغرب، وتحت إرشاد الرب وحايته وصلا سالمين معافين، أما الملك نفسه، فبقي

حزيناً، ودوننا مجد في عكا، وأقسم في قرارة قلبه المرير، أنه لن يعود إلى فرنسا الحلوة، في مثل تلك الحالة من العار، لأنه من الذي يستطيع من دون تأوهات ودموع الحزن، أن يصف أساه ونحيبه، عندما يرى أن أخاه روبرت قد بات ميتاً، وهو نفسه قد هزم، وقد عهد بأخويه الآخرين، في وضع مخز، إلى الأمواج الكبيرة في المحيط؟.

وذهب الأخوان المتقدمان الذكر، مع دوق بيرغندي، الذي عاد معها إلى الوطن، على الفور إلى البابا، لأنهم أمروا بأن يفعلوا ذلك من قبل الملك، ليقوموا بحثه، لكن ليس بتوسلات ناعمة، بأن يرسل مساعدة سريعة إلى الملك الفرنسي، الذي كان موجوداً في خطر ضائقة شديدة، وكان يقاتل في سبيل كرامة الكنيسة المسكونية، وأن يعيد فردريك المتذلل إلى السلام مع الكنيسة، بحكم أنه هو وحده بين جميع المسيحيين يمكنه أن ينجد في حالة الخطر هذه، ومن ثم اقناعه لإعطاء نجدة فعالة وسريعة إلى الملك، الذي هو الآن في وضع ميئوس منه تقريباً، وإذا لم يستجب وكان الأمر على عكس المطلوب، على الدوق، والكونتين المذكورين، نقله، أي البابا من مقره في ليون، على أساس أنه عنيد في كراهيته، غير حريص على كرامة الإيوان المسيحي، وإذا ما قام الأسقف المنتخب لليون مع أخيه رئيس أساقفة كانتربري، اللذين وضع فيهما ثقته، بالدفاع عنه، فإن على فرنسا كلها، برئاسة النبلاء المتقدم ذكرهم، الثورة ضده.

حول الفيضان غير الاعتيادي للبحر وهياجه

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في اليوم الأول من شهر تشرين الأول، وكان القمر في ربعه الأول، ظهر هناك قمر جديد، منتفخ، وأحمر في شكله، وذلك كإشارة على قدوم عواصف، وذلك وفقاً للكتابات المجربة لفيلسوف وشاعر في قوله:

عندما مايزال القمر جديداً، وعليه مسحة من اللون الأحمر
منتشرة فوق وجهه، إنه يهدد بعواصف من الرياح
مالم يمنع ذلك حرّ، أو برد شديد.
وعندما يكون وجهه متورماً، ينذر بالعواصف، لكن عندما يكون
شاحباً

ومشعاً، فهو ينقي وجه السماء

وبناء عليه فإنه في الأسبوع الأول من زيادة القمر، تغطت السماء
بضباب كثيف، وبدأت تضطرب كثيراً بعنف الرياح، التي بدأت تمزق
وتطرح الأغصان والأوراق التي كانت وقتها تتلاشى وتموت على
الأشجار، وحملتهم إلى مسافة بعيدة في الهواء، والذي كان أكثر تدميراً،
هو هياج البحر الذي تجاوز حدوده الطبيعية، وتدفق تيار المدّ لمرتين من
دون جزر، وقذف بأصوات زئير مرعبة، إلى حد أنها بعثت الدهشة لدى
الذين سمعوها حتى في مناطق نائية عنها، واعترت الدهشة حتى
الشيوخ من الناس، وفي الحقيقة ما من أحد في العصور الحديثة يتذكر
قط وقوع مايشبه هذا الشيء من قبل، وفي ظلام الليل أيضاً، ظهر البحر
وكأنه يحترق مثل النار، وبدأت الأمواج الهائلة وقد احتشدت مع
بعضها، وكأن إحداها تتحارب مع الأخرى، بحدة كبيرة إلى حد أن
البحارة البارعين ما كان بإمكانهم انقاذ سفنهم من الغرق، ودون أن
نذكر قضايانا الأخرى، ففي ميناء هارتبورن Hertbourne
وحده، ابتلعت الأمواج الهائلة والهائجة ثلاث سفن فخمة، إلى جانب
سفن أخرى صغيرة، مع سفن أخرى متوسطة الحال، وفي وينشلسي
Winchelsea — وهو ميناء على الساحل الشرقي — جرى تدمير
بيوت الملح، ومساكن صيادي السمك، والجسور، والطواحين،
وبالإضافة إلى ذلك تمّ تدمير أكثر من ثلاثمائة بيت في تلك القرية،

وذلك بالاضافة إلى بعض الكنائس، فقد أطيح بها بوساطة البحر الهائج والمرتفعة مياهه، وعانت هولاندا في انكلترا، وهولاندا في القارة أيضاً، وكذلك فلاندرز، والمناطق الأخرى المنخفضة، المجاورة للبحر من دمار يصعب جبره، وأرغمت الأنهار التي تصب في البحر على التراجع وازدادت مياهها إلى درجة أنها فاضت على المروج، فدمرت الطواحين، والبيوت المجاورة لهم، وهاجمت الحقول، وحملت الحبوب التي لم تكن قد خزنت بعد في الهري، وبذلك ظهر غضب الرب واضحاً إلى الفانين في البحر، وكذلك على الأرض، وبدت عقوبات المذنبين أنها باتت وشيكة، وفقاً لنبوءة حبقوق في قوله: «هل أنت غاضب أيها الرب في الأنهار، أم أن سخطك هو في البحر؟» وهل من عجب في ذلك؟ لأنه من البلاط الروماني، الذي يفترض أن يكون نبع العدالة كلها، صدرت آثام لم يذكر مثلها، وإن واحداً منها — مع أنه غير جدير بالوصف — رأينا أنه من الموائم إقحامه في هذا العمل.

حول الاستخراج المقيت من رئاسة رهبان بنهام

مع أن رئيس رهبان بنهام Binham كان له الحق الكامل في كنيسة ويستلي Westley، على أساس أن يستحوذها لاستخداماته الخاصة، وذلك على قاعدة منحة الراعي، وتأكيد أسقفين مع هيئتهما الكهنوتية، ومن ثلاثة بابوات من بابوات الكنيسة الرومانية، وهم: لوكيوس Lucius، ويوجينوس Eugenius، وغريغوري Gregory التاسع، ومع هذا كله فإن جنوياً كان زائفاً وجاهلاً، قد حصل على الرسالة التالية من البابا، وهي رسالة مناقضة لجميع الحقوق، والعدل: «من إنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، المعلم برنارد دي نيمفا Nympha، كاتبنا في انكلترا، صحة ومباركات رسولية، بما أن ولدنا المحبوب كثيراً وحاجبنا N. كان قد أعطى من قبل كنيسة ويستلي Westley، في أسقفية

إيلاي، إلى رينير دي سوليريوم Reiner de Solerium
قسيس يبري Ypres، الذي توفي مؤخراً، ومع أن هذه الكنيسة
عائدة إلى تقدم أولادنا المحبوبين كثيراً، رئيس رهبان ورهبان المجمع
الرهباني في بنهام، من طائفة القديس بندكت، وقد احتفظ بها القسيس
المذكور وبقي في انكلترا أثناء حياته، لقد رأينا من الموائم أن نقوم
بموجب سلطاتنا، بالانعام بالكنيسة المذكورة ومنحها إلى ولدنا المحبوب
كثيراً، كاهن هيريغيتوس Herrigettus ابن النبيل بيراشين Per-
rachin دي مالاشانا Malachana أوف فولتا Volta
وهو من أهل جنوى، معلنين أن كل شيء يعمل ضد استغلاله لها لاغياً
وفارغاً، ونحن نصادق على الذي عمله حاجبنا في هذه القضية،
وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمركم، إما أنتم شخصياً أو بوساطة
شخص آخر، بتعيين نائب لـ هـ H. المذكور، أو أي شخص
آخر، يمكنك أن تختاره باسمه ليستحوذ شخصياً على الكنيسة نفسها،
وليتولى حمايتها عندما يُنصب فيها، وأن يزال منها أي معيق مهما كان،
وتأجيل جميع المرافعات، وضبط المتذمرين بالروادع الكنسية، دون
الأخذ بالانعامات التي أعطيت إلى الانكليز، من أنه عندما يموت كاهن
إيطالي، أو يتخلى عن منفعه، لا يجوز أن يتسلم ايطالي آخر على الفور
تلك المنافع، أو أية انعامات أخرى، يتوجب ذكرها في هذه العروض،
أو التي من الممكن بها تعويق أو منع هذا التنصيب أو التعيين، ودون
الأخذ بأي مرسوم برحلة اليومين، مما صدر في المجمع المسكوني. صدر
في ليون في التاسع والعشرين من نيسان، في السنة السابعة لحبريتنا».

كيف قمع رئيس أساقفة كانتبري

بالتهديدات شكاي المتذمرين

وفي حوالي الوقت نفسه شعر رئيس أساقفة كانتبري، بأن ضميره قد
جرح حول مايتعلق بالعدوان الكبير الذي اقترفه في لندن، خاصة في

كنيسة القديس بارثلميو، كما روينا أعنلاه، فأرسل سراً برسلاً مع تهديدات وكذلك مع كلام لين باسمه وباسم الملكة، وباسمه شخصياً، وسعى إلى قمع شكاوى الكهنة.

وفاة وليم أسقف وينكستر

وفي حوالي عيد القديس متى في هذا العام، توفي وليم أسقف وينكستر في تور، بعدما أقام هناك لحوالي أحد عشر شهراً، مع حاشية صغيرة، من أجل أن يوفر على نفسه النفقات، لأن أسقفيته كانت مثقلة بديون لانهاية لها إلى البابا، وهي الديون التي ازدادت، عندما أخرجه الملك —ببتكيله به— من انكلترا، فوقتها كان البابا يتمتع بالثروة، لذلك فتح له صدر المواساة، كما ذكرنا من قبل، وبعدها حقق —على هذا— السلام مع البابا، وجعل الملك يميل نحوه بمشاعر طيبة، قام بانقاص النفقات المعتادة لمائدته، وأنقص كثيراً عدد حاشيته، في سبيل أن يتمكن في أسرع وقت من جمع مبلغ المال المتفق عليه، من أجل تحرير كنيسته من ديونها، وعندما كان على وشك الموت، ورأى قربان الموت قد جلب إليه، قال، والكاهن كان داخلاً من الباب، وهو حامل للقربان: «تمهل قليلاً يا صديقي، إنه من الموائم لي، أنا الخائن لربي والمستخف به، وجوب حملي أمامه»، وبناء عليه أطيع، وحمل من قبل خدمه إلى أمام جسد المسيح، فتلقى قربان التحية بدموع الندامة، وهكذا وهو في حالة خوف من الرب، لفظ روحه النادمة.

الملك يستخدم أقصى مساعيه اليقظة للحصول

على انتخاب أخيه ايثيلمار لكرسي وينكستر

وسمع الملك بهذه الحادثة، فتفوه بكلمات أسف قصيرة مع دموع جافة، كانت ممزوجة مع البهجة، وسعى باستخدام جميع الوسائل التي كانت بمقدوره أن يؤمنها إلى تعيين أخيه ايثيلمار في مكان الأسقف

المذكور، مع أن هذا الأخ لم تكن فيه الشروط المطلوبة، فيما يختص بالطائفة، والعمر، والمعرفة، وبناء عليه أرسل على الفور اثنين من مقدمي كهنته (الذين عرف بأتهما بارعين كثيراً في جميع أنواع المناقشات) إلى وينكستر، يحملان رسائل منه، من أجل أنه بمزج الكلام الناعم مع التهديدات، والوعود، يجعل عقول رجال دين الكاتدرائية، الذين إليهم يعود حق الانتخاب، تميل إلى طلب ايثيليار المذكور، حتى يكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وكان الشخصان اللذان أرسلا لهذه الغاية هما: جون مونسيل Mauncell، وبطرس تشيسبورك Chacepork، وكانا كاهنية، ولقد استخدموا كل جهد ممكن في تأمين الأخذ برغبة الملك، وإلحاق الوهن بعقول عدد من الرهبان، أقنعاهم بطلب ايثيليار المذكور ليكون أسقفهم، ولقد قلت: «طلبوا»، بسبب أنه كان عاجزاً تماماً، وغير أهل لمنصب الأسقفية، وبعد مرور حوالي خمسة عشر يوماً، استخدم خلالها الكاهنان المذكوران أقصى مساعيهم، للتأثير على الرهبان، الذين ظهروا أنهم ثابتين أكثر من الآخرين حتى يرضخوا لإرادة ملكهم الأرضي، وأن يضعوا جانباً كل خوف من الملك السماوي، وقد ذهب الملك نفسه إلى وينكستر، وتوجه على الفور إلى الكنيسة الكاتدرائية للقديس سويزين Swithin، ودخل إلى مقر الهيئة الرهبانية، وكأنه كان أسقفاً أو رئيساً للرهبان، وأخذ كرسي الأسقف الرئيس، وشرع بإلقاء القداس التالي، مقدماً له بنص مقدس.

كلمة الملك التي ألقاها وكأنه يعظ في الهيئة الرهبانية لوينكستر

«قبلت الاستقامة والسلام بعضهما بعضاً» إلخ، ثم تابع إلقاء كلمته فأضاف: «إنه بالنسبة لي وللملوك الآخرين، وأيضاً للمقدمين ولرجال العدالة لدينا، الذين بوساطة العدالة، لديهم سلطة حكم الناس، وفقاً لصرامة الحكم والعدل، وإليكم أنتم، الذين هم رجال السلام، وطلاب

الدين، يعود السلام والهدوء، في هذا اليوم، بسبب إظهاركم، لحسن التوافق بأنفسكم، مؤثرين لطبي، وموافقين عليه، وذلك كما سمعت — وإنه جيد بالنسبة لكم أنكم تصرفتم كذلك — قبلت الاستقامة والسلام بعضهما بعضاً، كما قلت من قبل، ففي بعض الوقت الذي مضى، قد كنتم متمردين ضدي، في انتخاب وليم دي ريلي Rele، أسقفكم المتوفي أخيراً، الذي كان غير مقبول لدي، ولقد كنت قاسياً عليكم، لكنني أصبحت الآن راضياً عنكم وصديقاً ودوداً إليكم، وبتذكري لمعروفكم، أنا ملتزم بتقديم عظيم الاحسان، بالمقابل إليكم.

علاوة على ذلك، من المعروف بشكل جيد، أن الدمار أول ما جلب إلى العالم، جلب بوساطة امرأة، لكن بوساطة امرأة أيضاً جاء الخلاص، وفي الحالة الحاضرة، مثل هذا، إنه في محاولة مني لإرضاء رغبات الملكة زوجتي، التي رغبت في الارتقاء بهذا الكرسي بوساطة انتخاب عمها وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وكنت قد ضايقتكم من قبل بالتماساتي للقيام بذلك، وألحقت بكم الضرر، غير أنني الآن أرغب في رفع شأن قضية أخي لأمي، الذي هو بسبب امرأة، هي الملكة ايزابيلا، أمتنا، هو بلا شك متحالف معي بحكم القرابة، لذلك سوف أكون أنا متصالحاً معكم، ولسوف أعمل بشكل مؤثر، على إعلاء شأن منافعكم شخصياً ومنافع كنيستكم، ولسوف أطوقكم بذراعي العواطف القلبية.

ومجدداً، عليكم أن تلقوا في ميزان العقل، قضية، ليست هي الأقل أهمية، هي حقيقة أنني ولدت في هذه المدينة، وتعمدت في هذه الكنيسة ولذلك إنكم مرتبطون بي بروابط أعظم عاطفة، وينبغي عليكم عدم معارضة إرادتي بأية طريقة، لالبحري أن تدعموني في جميع المسائل، مع اخلاص رفيع، كما أنه لا يخفى على عقولكم وجوب إعطاء الموافقة، لأنه إذا ما جرى انتخاب أخي ايثيلمار سوف يتمكن لوقت طويل — كما نأمل — من إنارة هذه الكنيسة، مثل الشمس، بأشعة أصله النبيل،

وعنصره الملكي، فهو متميز بهذا بسبب أمه، وبسبب دمه المتميز الصادر عن أبيه، وأيضاً بسبب لطفه الأصيل، وبسبب شبابه، وفي ذلك هو مرض لكل من الرب والانسان.

اذهبوا — على هذا — بسلام للتشاور، وعودوا مسرعين، ومن دون أية إعاقة أو اعتراض، ونفذوا غايتي التقوية، التي أعطيتموني الأمل حولها، وأن تعلنوا بالإجماع بحضوري عن أخي ايثيلمار مرشحكم للأسقفية»، هذا وقد أضاف في نهاية موعظته، أنه إذا ما وجد الرهبان معارضين لقناعاته، فإنه سوف يدمرهم جميعاً، وفقاً لكلمات الشاعر:

الرجل في السلطة يستجدي بسيف مجرد

كيف قام رهبان وينكستر، وهم تحت

الأكراه بطلب ايثيلمار ليكون أسقفهم

أما وقد وضع الرهبان هكذا، في ضيق عسير، تناقشوا بدقة حول هذه القضايا، وكان ذلك عندما ابتعدوا عن مقر الهيئة الرهبانية، وأعادوا إلى عقولهم ذكرى الاضطرابات السالفة التي جنوها، والتي كانت ظالمة، في قضية وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، لابل أكثر من ذلك لدى انتخابهم وليم، أسقفهم المتوفى أخيراً، وقال أحدهم للآخر: «ومرة ثانية ها نحن مهددون بوساطة التوسلات المسلحة للملك، وأن نقوم بمعارضته، إنها قضية صعبة ومرعبة، وهي مليئة بالمخاطر لكنيستنا، لأن البابا مطيع للملك في كل شيء، وبما أنه الآن في وضع حرج، سوف يتجنب من خلال الخوف تقديم أية إساءة إلى الأمراء، وبناء عليه إننا إذا ما طلبنا، أو انتخبنا أي شخص آخر، مهما كان انساناً أهلاً وموائماً، وقتها فإن أخاه الملك، سوف يستثار إلى حد الغضب، لابل في الحقيقة إلى حد الانفجار، ولسوف يقوم بإلغاء جميع إجراءاتنا، حتى لو أننا قمنا بتعيين القديس بطرس، لو أنه كان حياً، سوف يقوم باضطهادنا، وهكذا

فإننا سنجعل من الجانب الأول الملك عدواً لنا، ومن الجانب الآخر المعارضة الشديدة لدى البابا، الذي من السهل رشوته، وسوف نسحق، وكأننا بين حجري رحا، وسيكون اضطرابنا ودمارنا الذي لا يمكن جبره، قريباً جداً.

بالإضافة إلى هذا، كنا قد رقينا وليم أسقف نورويك، وانتخبناه ليكون أسقفنا، ووضعنا أنفسنا تحت سلطانه، على الرغم من رغبة الملك، ومع أنه عارض الانتخاب، وظلمنا لهذا السبب نفسه، فإن وليم المذكور، بعدما تسلم السلطة كاملة، ومع أنه كان انكليزياً، بارعاً في قوانين البلاد، وواحداً كنا نأمل أنه سوف يرضي الرب في جميع المجالات، وسيكون مفيداً لأنفسنا، قام بالتنكيل بنا من دون رحمة، وألحق الأضرار التي لا تحبر بنا، ناسياً جميع المنافع التي كان قد تسلمها، ومن أجله عانينا من آلام وأضرار لاتعد ولا تحصى، فقد سجننا، وسحلنا، وضربنا، وتألما من الجوع، وتلطخنا بالدماء من جراحاتنا، وغللتنا مثل اللصوص، فبمن على هذا يمكن أن نثق؟ وبمن يمكن أن نضع آمالنا، فمن الجانب الأول نخاف من سيلا (صخرة خطيرة في الجانب الايطالي من مضيق مسينا) ومن الجانب الآخر من خطر الدوامة الوشيك، [أي بتنا بين نارين]، وإذا فعلنا هذا فالموت نصيبنا وإذا لم نفعل سوف لن ننجو من أيدي الملك.

وإلى جانب هذه الأشياء، إنه أيضاً مما يعطينا سبباً عادلاً للخوف هو أننا إذا ما رقينا ايثيلمار المذكور إلى الأسقفية، هو سوف يكون دوماً أسقفاً منتخباً، وليس أسقفاً، وهذه حالة لم تعرفها هذه الكنيسة من قبل، ونأمل أن لا يحدث هكذا مطلقاً، ولربما أيضاً، سوف يحصل على اذن من البابا، بأن يحتفظ — إذا ما انتخب — بالموارد التي لاحصر لها، التي هي الآن بين يديه، لأنه ما هو الذي لا يستطيع الكرماء بأعطياتهم، أن لا يحصلوا عليه في البلاط الروماني في هذه الأيام؟، وإذا ما انتخبناه،

سوف لن يكون الأقل في الثروة والسلطة من أي واحد في انكلترا، وبصعوبة يمكن حتى استثناء الملك، ووقتها يمكن أن يمتلك القدرة (لكن عله لن يسير على خطى أبيه أو البواتيين) على تحويل انكلترا كلها إلى بواتو، أو يكون مثل الحاجب للملك، الذي يمتلك السلطات كلها، فيجلب بواتو كلها إلى انكلترا، وبذلك سوف يدمر ذكرى الانكليز ويزيلها من على وجه الأرض»، وفي النهاية على كل حال، وبعد تحمل الكثير من الآلام، وبعدما رأوا أن الوقت كان شريراً، وأن ما من مكان للجوء مفتوح أمامهم في صدر أيبنا البابا، الذي يقدم بشكل عام المساعدة إلى الذين يفرون إليه، الذين انحنوا أمام قسوة التجريد من الأملاك، والذين أرغموا على الرضوخ لرغبات الملك، وبناء عليه قام رهبان وينكستر، وقد أرغمهم تدخل الملك وانتهازيته، وكانوا أيضاً يائسين من مساعدة البابا، قاموا بصوت واحد — لكن ليس بقلب واحد — بالمطالبة أن يكون ايثيلمار أسقفهم، والراعي الروحي لأنفسهم، وهو الذي كان أخو الملك لأمه، وابن هوغ برون، كونت التخوم، وايزابيلا زوجته، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكان من مواليد بواتو، وطالبوا به مع أنه كان غير كفء للمنصب، في العمر، والمعرفة، والطائفة، وكانت لديه موارد لا تحصى موائمة لرئيس أساقفة، وهكذا قاموا بناء عليه، بحضور الملك، بترشيح ايثيلمار المذكور بشكل علني ومهيب، وعلى هذا صار ايثيلمار مرشحهم، أو أسقفهم المنتخب، على شرط، أن مثل هذا الشخص يمكن ترقيته إلى المنصب الأسقفي، فقط بواسطة إعفاء من البابا وموافقة.

ملك إنكلترا يبعث رسلاً إلى البابا

ثم إن الملك عبّر عن سروره، بملاحح وجهه، وبحركاته، وبنبرات صوته، وأمر كاهنه، روبرت سوثندن Sothenden، وكان بليغاً بارعاً، أمره بصياغة رسالة بليغة ومؤثرة، يمزج فيها تهديدات مرعبة،

مع وعود سخية وافرة، والتماسات حارة، حتى تنقل إلى البابا، ثم أرسل رسلاً خاصين، وفصحاء، يعرفون كيف يربحون البابا وكرادته للقبول برغبتهم، وللتباحث مع البابا والتشاور، حول هذه القضية الصعبة بشكل مرض، لأنها قضية مرغوبة قليلاً من قبل الملك، وأن يقوموا بوساطة الالتماسات وكذلك الرشوة، حتى يرضى بإعطاء موافقته عليها.

حول رسالة الملك الشاكية إلى البابا

وأأسفاه، لماذا ضعف العالم سوف يطول أكثر؟ ولماذا قام السلام والعدل، اللذان يأخذ منهما الملك نص قداسته، فنيا نفسيهما؟، وأين هي حرية الانتخاب، وأين هو السلام الأولي للكنيسة، الذي أقسم الملك على رعايته من دون إحباط، أثناء انتخابه، وأأسفاه، وأأسفاه، هو الآن يزدرى الرعايا الطبيعيين لمملكته، مع أنهم رجال مقدسين، ومتعلمين، ومتدينين، وجرى اقحام الأجانب، مع أنهم رجال غير لائقين بأي منصب، وجاهلين تماماً بالآداب، ولا يعرفون اللغة الانكليزية، وهم غير نافعين كلياً في الاعتراف، وفي الوعظ، من دون نظام، أو مكونين بشكل جيد في أخلاقهم، مستخرجين للأموال، ومهملين لأنفس، والذين كانوا فيما مضى رجالاً مقدسين، ومتدينين، ومتعلمين، بالتعاون وبوساطة إلهام الروح القدس، جرى سحبهم، حتى من دون موافقتهم، ونزعهم من كراسيهم الكنسية، التي جرى الآن الاستيلاء عليها بالقوة، بعدل، أو من دون عدل، من قبل رجال البلاط والأجانب، وجميع الديرة التي إليها يعود حق انتخاب الأساقفة، قد تدمرت، بسبب هذه الظروف نفسها، وغدت الرعاية الآن عبثاً، ولم تعد مرتبة شرفية، ومصدر خسارة، وليس مصدر منفعة، وجميع الكنائس، سواء أكانت أسقفية أو ديرية، بحكم سقوطها بيدي الملك بعد شغورها — وهو الذي ينبغي أن تكون سلطته وقدرته مسخرة لحمايتها والدفاع عنها — هي الآن عرضة للسلب

والنهب، آه، أيها البابا، يا أبا الآباء، لماذا سمحت لبلدان المسيحية، بأن تتلوث بمثل هذه الإجراءات؟ وعلى هذا، كان بعدل طردك من مدينتك ومن كرسيك، وابعادك إلى المنفى مثل قابيل محروم آخر، وأعدائك، الواقفين إلى جانب فردريك يتقدمون، وأنت هارب من الذين أرغموك على الفرار، والذين يطاردوك سريعين وأقوياء، وفي كل مكان أمرك يردد مدوياً فوق الذين هم رعية لك، لكن ليس له قيمة بين الذين هم متمردين عليك، ففي كل بقعة يجري حرمان الأساقفة من منافعهم، وتصدر الأوامر بإعطاء المنافع إلى أناس غير جديرين بها، وإلى أجناب، وإلى أشخاص غير معروفين، وإلى الذين يطلبون الحليب من شياه قطع الرب، ويجتزون الصوف، ويسلخون الجلد منها ويذهبون به، ويبقرونها ويفرغون ما في جوفها، وما من أحد يمكنه الحصول على الحماية بوساطة الامتيازات الممنوحة إليه من قبل الآباء المقدسين، وبين الأمم والبلدان أيضاً، إن انكلترا — كما يعلم العالم — هي المكان الذي ازدهرت فيه المسيحية كثيراً، وهي أيضاً التي ديست بالأقدام وسحقت أكثر، وبظلم البابا سلبت أملاكها وحرمت من ثمار جهودها، ومع أن ما من واحد يتولى سلبه، هو يعمل بمثابة سالب نحو الآخرين، لأنه أين هو الانكليزي، الذي من المعروف أنه يمتلك موارد في أي جزء من روما، أو إيطاليا، أو جنوى، أو في أية مملكة أخرى، مع أن رجال هذه البلدان مستولين على كل شيء في انكلترا؟ آه يارب، يا إله الانتقام، متى ستتولى شحذ سيفك مثل البرق، لكي يغرق في دماء مثل هؤلاء الناس؟، وصدقاً إن ذنوبنا هي التي جلبت بعدل مثل هذه النوازل، وأوقعتها علينا.

حول وفاة أسقف روكستر وانتخاب المعلم

لورانس دي سينت مارتين إلى ذلك الكرسي

وفي الوقت نفسه من العام، في حوالي عيد القديس ميكائيل، مات أسقف روكستر، وفي مكانه انتخب رهبان روكستر المعلم لورانس دي

سينت مارتين Martin، وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً بالملك، وفعلوا ذلك خشية منهم أنهم إذا ما اختاروا واحداً آخر، سوف يعارض الملك ذلك الاختيار.

عودة أسقف لنكولن من البلاط الروماني

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل نفسه، عاد إلى انكلترا روبرت أسقف لنكولن حزيناً وغير راض، بعدما بقي عدة أيام في البلاط الروماني، ومقابل اتفاق كبير من دون فائدة، ودون أن يتمكن من تحقيق غرضه كما رغب، وكان قد قام على كل حال، بالتضييق إلى أبعد الدرجات على كثير من الرهبان، وآذاهم بإرغامهم على الدفاع عن أنفسهم ضد هجماته.

ولدى وصوله إلى أسقفيته، وقد شاهد الفوضى المحيطة بالكنيسة المسكونية، كما قد تعلم من مثل نيقولا، أسقف درم، جرد نفسه وحررها من جميع مشاكل الدنيا، التي غالباً ما مزج نفسه بها، وشغلها من دون فائدة، وعهد بإدارة الواجبات والوظائف العائدة إليه إلى المعلم روبرت مارش Marsh، وكان من موظفيه، ناوياً أن يقول وداعاً إلى هذا العالم الفاني، وأن يتخلى عن أسقفيته، ولكن بما أنه كان يخشى من سلب الملك ونهبه، الذي تولى بالعادة إفقار الكنائس الشاغرة، وقيامه بعد ذلك بإقحام أشخاص غير لائقين بها، لهذا جلس ينتظر بصمت، وعلق تنفيذ نيته السرية، دون أن يعرف الذي عليه عمله في هذه الحالة من اضطراب الشؤون الدنيوية.

كيف عارض أساقفة إنكلترا رئيس أساقفة كانتربري

وفي الوقت نفسه، علم أساقفة انكلترا، من إفادات الأسقف المذكور، الذي عاد مؤخراً من البلاط الروماني، ومن إفادات آخرين، ومن جواسيسهم المنايين، الذين كانوا قد أرسلوهم إلى هناك، بأن رئيس

أساقفة كانتربري كان يخطط للتآمر ضدهم، من أجل اإذائهم، ولذلك جمعوا مالاً للانفاق على أنفسهم في ذلك البلاط، الذي مال بالعادة إلى هذا الجانب وإلى ذلك الجانب بتدخل المال، وكان مثل قسبة تهتز وتتمايل مع الريح، وبناء عليه أخذوا من الأشخاص ذوي المنافع بنسب من كل مارك، لأن المسألة كانت مسألة صعبة، أي ما طلبه المستخرج المذكور، فهو أراد الحصول على المال، وتحصيل ضرائب للزيارات التفقدية من رجال الدين والناس في مقاطعته التي كانت مقاطعة واسعة، وكان هذا الإجراء سيضغط على الجميع بثقل شديد، لأنه كان من الواضح أن رئيس الأساقفة المذكور الذي كان معاباً في أخلاقه، وفي علمه، انتهى أن ينال من زيارته التفقدية ليس زيادة الدين، أو إصلاح الأخلاق، بل هدف من وراء ذلك الربح الدنيء، الذي صار الآن عادة له.

حول الهزة الأرضية في تشيلتين في إنكلترا

في العام نفسه، في يوم عيد القديسة لوسيا Lucia، وفي حوالي الساعة الثالثة من النهار، وقعت هزة أرضية في سينت ألبان، وفي المناطق المجاورة، التي اسمها تشيلتين Chiltern، وذلك حيث أن مثل هذه الحادثة لم يسمع بمثلها من زمن سحيق، ولم يشاهد قط مثلها، لأن الأرض هناك متماسكة وحوارية، ليست ذات حفر، أو مائية، أو قرب البحر، وعلى ذلك كانت هذه الواقعة غير اعتيادية وغير طبيعية، ولكن الأكثر عجباً منها، هو أنه لو كانت هذه الهزة الأرضية مدمرة في تأثيراتها، مثلما كانت غير اعتيادية ومدهشة، لتولت هز جميع الأبنية وحولتها إلى قطع، وقد جاءت مع حركة كبيرة، وترافقت، مع صوت كان مرعباً، وكأنه كان رعداً من تحت الأرض، وقد وقع حادث مدesh أثناء هذه الهزة الأرضية، هو الحادث التالي: استولى الرعب على الحماهم، وعلى الغربان، وعلى العصافير، وعلى الطيور الأخرى، التي كانت

معشعشة فوق البيوت، وعلى أغصان الأشجار، وكان رعبها وكأن صقراً كان يحوم من حولها، ثم مدت هذه الطيور أجنحتها ونشرت فجأة وهربت، وكأنها كانت مجنونة، وطارت بشكل مضطرب نحو الأمام ونحو الخلف، وأثارت الخوف والرعب بين الذين شاهدوا هذه الواقعة، لكن بعد توقف اهتزاز الأرض، وتوقف الضجيج الذي رافق ذلك، عادت إلى أعشاشها المعتادة، التي اضطربت بوساطة الهزة الأرضية، وأوقعت هذه الهزة الأرضية — في الحقيقة — الرعب في قلوب الجميع، وكان ذلك أكثر من الدهشة، أو الخوف، وقد قيل بأنها كانت منذرة بالحوادث المستقبلية، وفي هذا العام، تأثرت الأرض، وكذلك البحر بالتحركات غير الاعتيادية والمرعبة، التي وقعت وفقاً للكلمات المهددة للرب في الانجيل، في قوله: «سوف تكون هناك هزات أرضية في أماكن مختلفة»، وهدد هذا وأندر بأن نهاية العالم باتت وشيكة.

كيف ردع رئيس أساقفة كانتربري

الشكاوى الصاخبة لكهنة القديس بارثلميو

وفي حوالي الوقت نفسه أرسل البابا رسلاً خاصين إلى ملك انكلترا، ورجا أن ينال اذنه ليتخذ مقر إقامته في بوربدو في غسكوني، لأن أخوي الملك الفرنسي، استجوباه، بدقة، وسألاه باسم الملك المذكور، وطالباه باسمهما، فيما يتعلق بكرامة الكنيسة العالمية، بأن يقيم سلاماً مع فردريك، الذي تذل الآن، وعرض تقديم الترضيات، وأن يبدي الاحترام للكنيسة، وقام أخوا الملك، أي كونتا: بواتو، وبروفانس، بالتلميح له، بأن سوء الحظ الذي تقدم ذكره، قد نشأ من خلال جشعه، لأنه — أي البابا — فاسد بالمال، منع الصليبيين من الزحف لتقديم النجدة إلى الملك وانقاذه، وحللهم من نذرهم بالحج، مع أنهم هم الناس الذين كانوا قبل وقت قصير مضى، قد حملوا علامة الصليب، نتيجة لجهود وكلائه، أي الدومينيكان والفرنسيسكان، وبالإضافة إلى

ذلك كان قد باع الصليبيين إلى الايرل رتشارد وإلى نبلاء آخرين، وفق الطريقة نفسها التي مارسها يهود الأزمان الخالية، لدى بيعهم الأغنام والحمام في الهيكل، وهؤلاء هم الذين عوقبوا ورميوا إلى الخارج من قبل الرب الغاضب، كما نقرأ في الانجيل، ولم يعبأ البابا بهذه الحجج وبوسائل الاقناع هذه، وأظهر نفسه عنيداً متشبثاً، وبناء عليه غادر الكونتان بقسوة ومع كلمات نابية، وبادرا مسرعين إلى انكلترا، لاقناع الملك الانكليزي، نظراً لرغبته بتكريم المسيح، بأن يقوم بكل سرعة بالتوجه لانقاذ الملك الفرنسي ونجدته، وفقاً لما تعهد به، ذلك أن هذا الملك متشوق لحضوره.

حيرة ملك إنكلترا

وبناء عليه، كان الملك الآن في وضع حرج صعب، بسبب أنه كان إذا ما أراد قطع الطريق على البابا، فإنه سوف يغضب، ولسوف لن يرقى أخيه ايثيلمار، وإذا ما أراد فتح صدر الحماية للبابا سوف يثير فردريك ويغضبه، فمن خلال أراضي فردريك كان سيرغم على المرور، عندما سيسير لأداء حجه، بالاضافة إلى ذلك هو لن يرضي الفرنسيين، وكان هناك أمراً آخر أقلق الرجال الأكثر حكمة بين الانكليز، وهو أنه إذا ماسمح للبابا بالإقامة في بوردو، سوف يكون بإمكانه الابحار في وقت قصير إلى انكلترا، وأن يؤذيها، لابل أن يدنسها بحضوره، لأن هؤلاء الأشخاص كانوا يعتقدون أن البلاد كانت تعاني من الفساد، فهي كانت بالفعل تعاني من ذلك بوساطة أعمال الربا للسماسة، وكانوا يخافون من أنها سوف تكون ملوثة أكثر ببلاط البابا، إذا (لاسمح الرب) كان حاضراً، ولذلك عقد مناقشات دقيقة، وأكثر طولاً، حول هذه المسألة.

رسالة البابا إلى راعي دير القديس ألبان وإلى بعض الآخرين

وفي حوالي الوقت نفسه، أي مع ميلاد ربنا، أرسل البابا أوامر إلى

راعيي دير القديس ألبان، ودير وولثام Waltham، وإلى رئيس شمامسة المكان الأول، بأن قرار الحرمان الكنسي الذي أصدره بونيفيس، رئيس أساقفة كانتبري ضد: هنري عميد لندن، وبطرس رئيس الشمامسة وروبرت المرتل لذلك المكان، وأيضاً ضد المعلم وليم أوف ليشفيلد Lichfield، ووليم ليفتي Leafete، وضد رهبان آخرين من لندن، بسبب العدوان على هيئتهم الكهنوتية، ينبغي الإعلان أنه لاغياً وفارغاً، وعلى الرغم من هذا، ضغط رئيس الأساقفة المذكور بطلبه في البلاط الروماني من أجل الحصول على الأموال، وعلى ضرائب الزيارات التفقدية من الذين سوف يزورهم، وطالب بهذا بمزيد من الإلحاح، وبثقة أكبر، بسبب أن أسقف لنكولن، الذي من المعروف أنه كان أدنى منه مرتبة، وكان قد حصل قبل عدة سنوات خلت من البابا على امتياز القيام بزيارات تفقدية لكهنة كنيسة في لنكولن، مع أنهم عارضوه بشدة، وأنفقوا مبلغاً كبيراً من المال في الدفاع عن أنفسهم ضد محاولاته، إنما من دون فائدة، والرسائل حول هذه القضية، أي فيما يتعلق بقاعدة الشجب، قد أعطيت كاملة في كتاب Additaments.

موت الإمبراطور فردريك

وفي حوالي الوقت نفسه، فارق هذه الحياة فردريك، الذي كان أعظم أمراء الأرض، وأعجوبة هذا العالم، والمنظم لإجراءاته، فارقها وهو منسحق الفؤاد بشكل مدهش ومتدلل، وبعدما جرى تحليله من الحكم الذي صدر ضده، وقد قيل بأنه ارتدى زي الرهبان السسترشيان، وقد مات في يوم عيد القديسة لوسيا، ولذلك فإن الهزة الأرضية التي وقعت في ذلك اليوم لم تكن بوضوح من دون أهمية وبوفاته، ماتت جميع آمال الفرنسيين التي عاشوها بإنقاذ، أو انجاد ملكهم، وأبقي خبر وفاته سرياً لمدة عدة أيام، حتى لايفرح أعداءه على الفور، لهذه الواقعة، لكن في يوم عيد القديس اسطفان، جرى الإعلان عن ذلك، وجرى إخبار الشعب

به، وسوف نكتب وصيته النبيلة في كتاب Additaments⁽¹⁾.

إكمال خمسة وعشرين نصف قرن من سنة النعمة

مع نهاية هذا العام يكون قد انقضى، منذ سنة النعمة خمسة وعشرين نصف قرن، أي ألف ومائتين وخمسين عاماً، ويتوجب أن نذكر أيضاً، وأن لانمر باستخفاف دون أن نوضح، أن ما من واحد من أنصاف القرن هذه حتى ثلث الثلاثين سنة الماضية، قد وقعت فيه حوادث مدهشة، وغير اعتيادية وجديدة، كالتى وقعت في هذا النصف الأخير، أي في الخمسة والعشرين عاماً، وهناك في الحقيقة كثير من الكتاب والباحثين في التاريخ، الذين يقولون، إنه لم يشاهد في أنصاف القرون الأخرى، أعاجيب ومستجدات مدهشة كالتى وقعت في النصف الذي انتهى الآن، ولا حتى حوادث أسوأ من التي هي متوقعة الآن مع الخوف.

حول الأحداث المدهشة لهذا النصف الأخير من القرن

لأنه في نصف القرن هذا، غادر التتار ملاجئهم، وعاثوا فساداً، بوحشية الحيوانات المفترسة بلدان الشرق، والبلدان المسكونة من قبل المسيحيين، وكذلك البلدان المسكونة بالكفار. وتمت هزيمة أمير المؤمنين الذي كان أقوى ملوك اسبانيا وأفريقيا، وانهزم، وتفرق جيشه كله.

وعندما كان المعلم أوليفر يعظ في المقاطعات الألمانية، ظهر تمثال المسيح في السماء، وكان مرئياً بوضوح إلى كل واحد، وانسحبت الكنيسة الاغريقية من الخضوع إلى كنيسة روما، بسبب التجاوزات لهذه الكنيسة، خاصة ممارستها للربا وللسيمونية (بيع المناصب)، وبيع العدالة، وأثم

١ - مالبث متى باريس أن غير نيته، بادخاله نص هذه الوصية بعد قليل في كتابه هذا.

أخرى كثيرة لا يمكن التهاون بها.

وجرى الاستيلاء على دمياط، المدينة المصرية المشهورة مرتين، واستردت مع فقدان عظيم للدماء، من الجانبين الاسلامي والصليبي.

ووضعت انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة سبعة أعوام، وعانت المملكة نفسها من حروب داخلية للمدة نفسها تقريباً، وغدت أيضاً دافعة للجزية، وتنفيذاً لنبوءات بعض الأشخاص، لم يكن بين يدي الملك جون، عندما مات أي استحواذ كامل لأية منطقة، ولذلك أطلق عليه اسم «بلاوطن».

وجرى تحريم ممارسة المحنة بالنار والماء للبرهنة على البراءة.

وأعطي الاذن لشخص واحد بتسلم مرابح عدة أسقفيات، وبأن يحتفظ بالموارد التي كانت لديه من قبل.

وجرى تحويل الشهيدين: القديس توماس في انكلترا، وادموند المعترف في فرنسا، وانتشر صيت القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا في ألمانيا خلال هذه الحقبة، وجرى منع الأشخاص، وبعد ذلك سمح لهم عن طريق المال، بأن يملكوا أكثر من كنيسة واحدة، وبذلك صار غير الشرعي شرعياً.

وجرى انتخاب لويس الابن الأكبر لملك فرنسا، والوريث الشرعي له سيداً، وكأنه صار ملك انكلترا، لكن مالبث، بسبب خرقه لوعوده، أن ترك البلاد بشكل مهين، وواجه الامبراطور الروماني أوتو سقوطاً محزناً بسبب اضطهاد البابا انوسنت الثالث له، ذلك أنه هزم في القتال، وحرّم كنسياً، وخلع من العرش.

وجرى مرتين أسر رهبان الداوية، والاستبтарыة، ورهبان طائفة التيوتون للقديسة مريم، والقديس لعازر (لازاروس)، وتمزيقهم،

ولإعدامهم.

وتعرضت مدينة القدس المقدسة، مع كنائسها المقدسة، وأماكنها التي تقديست بحضور المسيح للدمار مرتين، وفي المرة الأخيرة سويت مع الأرض بشكل وحشي، من قبل الخوارزمية وسلطان مصر.

وحدث كسوف للشمس مرتين خلال ثلاث سنوات، وظهرت ثانية أعجوبة مذهشة في السماء، عنها جرى تقديم رواية كاملة في هذا الكتاب، وكان ذلك في سنة النعمة ألف ومائتين وثلاث وثلاثين، ووقعت هزات أرضية في انكلترا، وكان ذلك حتى في تشيلتين، لعدة مرات، وفي مقاطعات سافوي، جرى سحق خمس قرى، مع كنائسهم، وبيوتهم، وسكانهم بركام الجبال الذي سقط عليهم، وحدث فيضان للبحر غير اعتيادي ومدمر، مثله لم يشاهد من قبل، وشوهد في إحدى الليالي سقوط عدد لا يحصى من النجوم من السماء، بحيث كان هناك في وقت واحد، وفي اللحظة نفسها عشر نجوم أو اثنتي عشرة نجمة تتطاير هنا وهناك في وسط السماء، وكان بعضها يتطاير في الشرق، وبعضها الآخر في الغرب، وبعض في الجنوب، وبعض في الشمال، ولئن كانت هذه النجوم نجومًا حقيقية، لما بقي نجم واحد في السماء، ولم يمكن العثور على سبب منطقي واضح لهذه الحادثة في الكتب حول الأنواء وعلم الهيئة، باستثناء أن تهديد المسيح كان وشيكًا وحقيقًا بالناس، وهو قوله: «ستكون هناك علامات بالشمس» إلخ، إلخ.

وجرى عقد مجمع مسكوني مرتين في روما، وفي ليون: وفي المجمع الثاني منها (في ليون) جرى خلع الامبراطور الروماني فردريك، ووقع بالأسر الكاردينال أوتو، الذي كان من قبل النائب البابوي في انكلترا، وجاء وقوعه بالأسر قرب جنوى، مع عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والقساوسة، وبعض الجنوبيين، الذين غرق منهم عدد كبير.

وفي ويلز حدث أنها بعدما فقدت أميرها للويلين، وولديه بالتوالي، اللذان واجها موتاً مبكراً، خضعت إلى القوانين الانكليزية، ولحكم الملك الانكليزي.

أما غسكوني التي تحركت ضد سلطة ملك انكلترا، فتم اخضاعها من قبل سيمون ايرل ليستر.

وعبر الملك هنري الثالث البحر مرتين مع جيشه، ليستراد حيازة ممتلكاته في القارة، بالقوة، وخاصة نورماندي، التي جرى انتزاعها من أبيه، بوساطة قرار من النبلاء النظراء الاثني عشر لفرنسا، لأنه تلتطخ بقتل ابن أخيه آرثر، وعاد هذا الملك مرتين مهاناً، ومجلاً بالعار، ورجلاً فقيراً.

وجرى استرداد جزء كبير من اسبانيا وإعادته إلى المسيحية، وذلك مع عدة من مدنها الجلييلة، التي كان من بينها: قرطبة، واشبيلية، وبنشكلة Peniscola مع مدن أخرى، وكذلك جزيرتي: ميورقة، ومنورقة، وأماكن أخرى كثيرة على الساحل، وجاء الاستيلاء عليها من قبل الملوك المنتصرين لقشتالة.

وفي المناطق الشمالية، تم الاستيلاء على جزء كبير من فريزلاند، وروسيا، وذلك إلى امتداد سفر اثني عشر يوماً، وذلك من قبل وولدمار Waldemar، ملك داشيا Dacia، حتى أنه جرى اكتساب سبع أسقفيات للمسيح بوساطة هذه الحادثة.

وهرب البابا، أو بالحري طرد من مدينة روما بوساطة تنكيل الامبراطور فردريك، ونفى نفسه، واتخذ مقراً لذاته متخفياً في أناني Anagni ويروسيا Perusia، ذلك أنه اتهم من قبل الامبراطور المذكور، بأنه سعى إلى الاستيلاء على الامبراطورية، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وقام الداوية أيضاً،

بسبب الحقد المثار بهم من قبل البابا بانتهاز الفرصة، والسعي إلى تسليم الامبراطور، ووضعه بين يدي سلطان مصر.

وإثر وفاة البابا غريغوري، بات الكرسي البابوي شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وقد جلس ثلاثة على الكرسي الرسولي خلال عامين، وكان هناك واحداً من الكرادلة، متميزاً أكثر من البقية، هو المعلم روبرت سمركوت، وكان من أصل انكليزي، وقد جرى قتله خنقاً في القصر، الذي عرف باسم قصر الشمس، خشية من أن ينتخب بابا، وصدوراً عن الحسد كما قيل، وأخيراً جرى انتخاب سينيولد Sinibald، وكان كاردينالاً، انتخبه بابا تحت اسم انوسنت الثالث، وقد سار على خطى سلفه، فحرم كنسياً الامبراطور فردريك وظل يهرب من قصر إلى قصر، ليتجنب اضطهاد الامبراطور، وذهب أخيراً إلى ليون، حيث تولى في مجمع مسكوني، خلع الامبراطور المذكور، وتولى من دون حياء استخرام مبلغ من المال من أساقفة الكنيسة، وسعى بوساطة هذا المبلغ إلى ترقية لاندغريف ثورنجا، وبعد ذلك وليم كونت هولاند، إلى العرش الامبراطوري، وقد مات الأول من هذين، وألحقت الهزيمة بالثاني، فأخفق في مقصده.

ووجد الممارسون للربا، الذين اسمهم الـ Caursins، والذين عدّوا مسيحيين، مكان التجاء، وموضع استقرار وهدوء في انكلترا، أولاً بموجب تساهل من البابا فقط، لكن بعد ذلك تحت حمايته المكشوفة، ولذلك أطلقوا بلا حياء، على أنفسهم، اسم تجار البابا، وصرافيه.

وجرى تعليق الأساقفة وحرمانهم من استغلال منافعهم الكنسية، حتى تتم تلبية طلبات الجشع البابوي وارضائها، من أجل أتباعه الذين لا يستحقون، والذين لم يظهروا قط في انكلترا، ولم يزعجوا أنفسهم للقيام بأعباء المسؤولية عن الأرواح والأنفس.

وظهرت طوائف رهبانية متعددة ونبتت بأعداد وافرة، ففي البداية ظهر الدومينيكان، وبعدهم الفرنسيسكان، وظهر الآن حملة الصليب، ثم ظهر الكرمليون، وفي ألمانيا نشأت هناك طائفة النساء العفيفات، اللائي حملن لقب الـ Beguins. وقد غدا تعدادهم كبيراً جداً، إلى حد أن ألفاً منهن أو أكثر أقمن في كولون وحدها، ومارس هؤلاء الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان في البداية حياة فقر، وقداسة عظيمة، وكرسوا أنفسهم لأعمال الوعظ والتبشير، والاعترافات، وللواجبات اللاهوتية في الكنيسة، وللقراءة والدراسة، وتخلوا عن كثير من الموارد، وتبنوا فقراً تطوعياً في خدمة الرب، ولم يحتفظوا بشيء لأنفسهم لليوم التالي، لاسيما من أنواع الطعام، غير أنهم حصلوا خلال أعوام قليلة لأنفسهم على ما جعلهم في أحوال رائعة، فبنوا بيوتاً ثمينة، وعلاوة على ذلك، جعلهم البابا — على الرغم من إرادتهم — المتسلمين للضرائب، والوكلاء الذين يستخرجون الكثير من الأتاوات لصالحه، ويبدو أن الزمان قد عاد بالحقيقة، إلى الوقت الذي كان فيه القديس بندكت، الذي بروح جميع القديسين، قد عمل إشارة إلى هذا، في بداية نظامه، وذلك حيث عالج قضية مختلف أنواع الرهبانيات، هذا ولم تنحدر طائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين طوال الوقت الطويل منذ تأسيسهما أولاً، مثلما انحطتا في هذه الأيام.

وأشع القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، الذي وجد جسده غير مهترىء في بونتغناك، والقديس روبرت الناسك الذي كان في نارسبورا Knaresborough، والقديس روجر، أسقف لندن، مع عدة قديسين آخرين، أشعوا وانتشر صيتهم بوساطة عدد من المعجزات المدهشة، التي عملت عند قبورهم، ومثلهم أيضاً القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا، والقديسة هيلديغارد Hildegard، التي كانت نبية في ألمانيا.

وأعيد بناء كنيسة ويستمنستر، وتمت إشادة معبد ذهبي بأعمال ذات نفقات عالية جداً، من قبل الملك هنري الثالث، من أجل استخدام القديس ادموند، وجلب إلى انكلترا بعض دم المسيح، وحجرة تحمل طبعة قدمه، ووضعت في ويستمنستر بمثابة هدية من الملك.

أما بالنسبة لهرطقات الأليينين Albigenses والجوفينانيين Jovinians مع هرطقات كثير من الشعب الايطالي، التي نمت لها فروع كثيرة، فقد جرى تدميرها في هذه الحقبة. وجرى مسح هاكو وتتويجه ملكاً على النروج.

وسار الرهبان السسترشيان على خطى رهبان الطائفة السوداء، فحصلوا على اعفاء من البابا، فعمروا أبنية موائمة في باريس وفي أماكن أخرى، حيث ازدهرت جماعات العلماء، وامتلكوا مدارس هناك، حتى لا يكونوا موضع عدم احترام من قبل الدومينيكان والفرنسيسكان.

وتمت حيازة الكرسي الجليل لكانتربري مع الكنيسة، من قبل شخص غير كفء، أقحم من قبل الملك، مع أن هذا الكرسي كان متميزاً وقد تقدس من خلال كثير من رؤساء الأساقفة في الأزمنة الماضية، وقام هذا الدخيل، وقد حرصه المثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي لم يعبأ بمعارضة كهنته، فحصل على سلطة زيارتهم زيارات تفقدية، فاستخرج في السنة الأولى منافع الكنائس الشاغرة، لمدة سبعة أعوام، وظلم بذلك الكثيرين ممن كانوا خاضعين له.

وفي السنة الأخيرة هذه من نصف القرن الأخير، حصل المسلمون على نصر فرضوه بإرادتهم، وجرى تمزيق الجيش الصليبي كله، الذي تألف من نبلاء جميع فرنسا، والداوية، والاسبتارية، وفرسان طائفة التيوتون للقديسة مريم، وفرسان طائفة لعازر، وتقطيعه إلى أشلاء، وجرى بالوقت نفسه أسر لويس، الملك التقى لفرنسا، مع أخويه:

كونت بواتو، وكونت بروفانس، وكان وليم لونغوسبي هناك، وقد قتل مع كثير من نبلاء انكلترا، وهرب كونت أرتوي، أخو الملك الفرنسي، من المعركة، وغرق.

وخسر البابا والبلاط الروماني كله الحظوة والمكانة لدى رجال الدين، وكذلك لدى الناس، لأن الصليبيين جرى بيعهم، وحلّلوا من عهودهم، مقابل دفع المال، وتأخروا وأعيقوا بطرق كثيرة مضاعفة.

وانزعجت المسيحية كلها واضطربت، وتعرضت الكنيسة العالمية للخطر، بسبب الحروب التي تفجرت عن الكراهية وصدرت عن عدم الاتفاق بين البابا وفردريك.

وحمل الملك هنري الثالث الصليب، ومثله فعل كثير من نبلاء انكلترا، وكذلك فعل كثير من ملوك، وأمراء، ونبلاء، وأساقفة العالم المسيحي، وكان راعي الدير الوحيد الذي فعل مثل هذا، هو راعي دير القديس إدموند، الذي نسي أنه مع القلنسوة الرهبانية، قد تعهد بأن يحمل بشكل دائم صليب المسيح، وسط سخرية الكثيرين، فهو حين تسلم الشارة المزيفة للصليب، بحضور الملك ومعه، عمل عملاً له بشكل واضح طعم التملق.

وفي هذا العام المميت، غادر خلاله إلى المسيح عدد كبير جداً من النبلاء، الذين كانوا قد تركوا أوطانهم، وزوجاتهم وأولادهم، وأقربائهم، وأصدقائهم، ليقاتلوا بإخلاص في سبيل المسيح، وكان هؤلاء جميعاً بشكل واضح شهداء، وأسماؤهم التي لا يمكننا تقديمها في هذا الكتاب، بسبب عددها الكبير، هي قد دوت بأحرف لا يمكن مسحها في كتاب الحياة، وهم أنفسهم قد تسلموا تاج الشهادة، وفقاً لما استحقوه.

وعلاوة على ذلك، توفي في يوم عيد القديسة لوسيا، فردريك أعجوبة

الدنيا، وكانت وفاته في أبوليا.

ووقعت هذه الحوادث المدهشة جميعها خلال نصف القرن الأخير، وهي حوادث غريبة مثلها لم يشاهد قط أو سمع به، كما لا يمكن العثور عليه في أي من كتابات آبائنا في العصور الخالية.

هنا نهاية تواريخ الراهب متى بارييس، الذي هو من رهبان القديس ألبان، وقد تولى كتابة هذه التواريخ لصالح الأجيال المقبلة، صدوراً عن محبة الرب، ومن أجل تشريف القديس ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وذلك من أجل أن لا تتعرض ذاكرة الحوادث الحديثة للدمار بوساطة تقادم الزمن أو النسيان:

منذ أن حملت العذراء أولاً بولدها، انقضى

ألف واحد ومائتين وخمسين مرة

جرى فيها سياق الأعوام حتى الآن، وخلال جميع ذلك الوقت

لم يقع الفصح قط في اليوم السادس

قبل غرة نيسان، في السنة

التي أنهت نصف قرن، باستثناء السنة

التي انتهت الآن.

لقد انقضى على هذا خمسة وعشرين نصف قرن، منذ تجسيد ربنا، ويبدو أن الفصح لم يحتفل به في سنة اليوبيل، التي هي السنة الخمسين، في وقته الصحيح، أي في السادس والعشرين في هذه السنة الأخيرة:

تاريخ متى انتهى هنا

وأرسلت سنة اليوبيل
وأنزلت رقوداً من السماوات
وأعطى أيار رقوداً له
هنا على الأرض، وفي عليين في السماء
عندما فيها سيقوم هناك

ومن المعتقد، وماعتقده ليس من دون أهمية، أن جميع العناصر الأساسية قد عانت في هذه السنة الأخيرة، من الضرر والنار، لأنه في ليلة عيد الميلاد الذي مرّ مؤخراً، أشعت السماء بطريقة مرعبة، معاكسة للمسيرة الطبيعية للطبيعة والهواء، وحدث أيضاً أنه في أسقفية نورويك وفي المناطق المجاورة لها طولاً وعرضاً، كانت السماء قد غطيت بالضباب، واضطربت برعد غير طبيعي، وليس في موسمه، وذلك لوقت طويل، وقد حجبت بغيوم كثيفة، كما أنه لم يسمع منذ زمن طويل مثل هذا الرعد المخيف، كما أنه لم يشاهد مثل ذلك البرق حتى في الشتاء، وكذلك حدث أن البحر قد تجاوز حدوده الطبيعية، ودمر الأماكن المجاورة له، كما حدث أيضاً أن الأرض اهتزت في انكلترا، لابل حتى في تشيلترن، التي هي بالعادة أرض حوارية وصلبة:

متى تعبك هنا انتهى
أوقف قلمك ولا تتعب أكثر
ولا تطلب الذي سيجلبه المستقبل
فجيل آخر لديه أشياء أخرى*.

* يبدو أن متى باريس توقف عند هذه النقطة من تاريخه، ولم يتابع العمل فيه لبعض الوقت، غير أنه استأنف العمل فيما بعد وكتب التكملة.

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين، العام الخامس والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث:

فيه أمضى الملك عيد الميلاد في وينكستر، وبسبب أن أخاه — كما تقدم الذكر — ايثيلمار قد جرى ترشيحه لشغل الكرسي الأسقفي لوينكستر، الذي كان شاغراً، كبح يديه الجشعتين عن نهب وسلب ممتلكات الأسقفية، حسبما كانت عادته الطبيعية، ولكن بما أن العادات القديمة لا يمكن نسيانها بسهولة، أمر بالأشجار بأن تقطع وأن تباع، وأن يجري جمع المال الذي سيتم تحصيله من البيع وأن يضاف إلى خزيرته، مع أنه أخبر بكل وضوح بأن مثل عملية السلب تلك هي بلا شك لن تفيد الذين كانوا ذاهبين إلى الحج، للقتال في سبيل الرب.

حول عاصفة رعدية جاءت في غير موسمها في الشتاء

وفي حوالي هذا الوقت، أي في ليلة عيد الميلاد، سمع رعد خفيف، وعد ذلك بمثابة دليل على غضب الرب، وظهر هذا بشكل خاص في أسقفية نورويك، وفي المناطق المجاورة لها، ولمع برق وقذف شرره، وقد ترافق مع هياج غير معتاد للهواء، وفي غير موسمها، مما أوقع رعباً عظيماً وخشية شديدة في قلوب الجميع، الذي سمعوا ذلك ورأوه، وقال اللاهوتيون بأن هذا نذير بكاء كبير في المستقبل.

عدم توزيع الملك أية ملابس بمناسبة العيد

وفي هذا العيد الذي يحتفى به كثيراً لم يوزع الملك أية ملابس عيد على فرسانه، وعلى آل بيته وحاشيته (ولعله لم يفعل ذلك للتوفير لأنه كان قلقاً على حجه)، مع أن جميع أجداده قد مارسوا أعمال التوزيع منذ عصور قديمة، حيث كانوا يمنحون ملابس ملكية، وجواهر ثمينة.

كيف جرى إلغاء نفقات المائدة الملكية

وجرى أيضاً إلغاء المائدة الغنية والضيافة الملكية، وقام الملك من دون حياء، بالسعي لنيل الإقامة ووجبات طعامه مع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، و الكهنة، ورجال من درجات متدنية، حيث أقام معهم، وسألهم منحه الهبات والهدايا، وفي الحقيقة هو لم يعد الأشخاص الذين اقتصر عملهم فقط على تقديم الضيافة والمعاملة الفخمة له، ولحاشيته، وللملكة والأمير ادوارد ورجال البلاط، بأنهم متأدبين وكرماء، إذا لم يرفقوا ذلك بتخصيصه بهدايا كبيرة وفخمة، وفي الحقيقة هو لم ينجل بسؤالهم، ولم يكن سؤاله لهم تقديم معروف له، بل توجب عليهم ذلك لأن هذا كان حقه.

وفي هذه الآونة أيضاً، بعدما تناول الملك مؤخراً وجبه طعام عند روبرت باسلو في بيعته في ويستمنستر، أثقله بتوبيخات مهينة، فما كان منه إلا أن أجازه الآن ببعض الهدايا الثمينة، كما أن رجال البلاط، والحاشية الملكية، لم يقبلوا أية هدية، ما لم تكن ثمينة، وغالية الثمن، مثل أن يكون ذلك: جياذ جميلة، وكؤوس من الذهب أو الفضة، وعقود بجواهر متتخبة، وأحزمة امبراطورية، وماشابه به ذلك من أشياء، وصار بلاط الملك مثل بلاط روما، حاضنة، أو بالحري، يمدد نفسه، مثل عاهرة، من أجل الربح.

وكان عدد الذين قتلوا من جيش الملك الفرنسي — بسبب رعونة كونت أرتوي — أكثر من ستين ألفاً، وعشرين ألف رجل كانوا تحت السلاح، وذلك بالاضافة إلى الذين غرقوا، مع آخرين اختفوا أثناء الفرار، والذين سلموا أنفسهم عن طواعية إلى العدو، وصاروا مرتدين عن المسيحية، وسبب هؤلاء للمسيحيين أذى أعظم مما فعله أعداؤهم الآخرين.

ولم يختلف رقم مبلغ المال من أجل فدية الملك، الذي وقع بالأسر، من خلال غضب الرب، كثيراً عن رقم تعداد الذين قتلوا، حيث كان ستين ألف باوند، من أفضل أنواع الذهب الخالص، أي من النقود الاستيرلينة، إلى جانب بعض الأموال العامة الأخرى، من نقود تور وباريس، وكان ذلك مبلغاً هائلاً، ووقعت هذه المذبحة في سنة النعمة: ألف ومائتين وخمسين، وجرى دفع الفدية، مع تقديم الرهائن من أجل ذلك، في السنة التالية، أي في سنة ألف ومائتين واحد وخمسين.

كيف فرضت الحراسة بمزيد من الشدة على سجناء الإمبراطور

وفي هذه الآونة، كان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص من كل مدينة من مدن إيطاليا، مع بعض المواطنين من دول أبوليا، ممن حاربوا ضد فردريك وابنه، وكانوا مودعين في سجن فردريك (وكلهم كان قد اعتاد أن يسميهم خونة أو متمردين ضده) هؤلاء جرى إرسالهم بعد موت فردريك من قبل ابنه كونراد إلى مناطق نائية من أراضيه، أي إلى نابل Naples وبلرم في صقلية، حتى يمكن حراستهم بشدة أعظم، ويكونوا أكثر حفظاً، وقد فعل كونراد هذا بناء على نصيحة أبيه، وجرى تسليم بعض السجناء إلى هنري بن فردريك، والذي هو أيضاً ابن أخت ملك انكلترا، غير أن وضع هؤلاء السجناء في سجن فردريك، وكان من بين هؤلاء السجناء ابن مركيز مونتسرات Montserrat، وهو الذي جرى تقديمه بدلاً عن انسيوس، وكان ولداً آخر من أبناء فردريك، وكان مايزال سجيناً لدى البولونيين، ذلك أن المعاهدة من أجل هذا التبادل كانت على وشك الإبرام، عندما تدخل موت فردريك، وحال دون الاتفاق النهائي عليها.

كيف ثار أبناء فردريك وأصدقائه ضد البابا

ثم شرع أبناء فردريك مع أصدقائه، الآن بتقوية أنفسهم، ومن ثم التحرك ضد البابا، وصحيح أن رأساً قد جرى قطعه — حسب ما حدث في قضية هيدرا Hydra، التي قيل بأن هرقل قد قتلها — نمت عدة رؤوس في مكانه، لأن كونراد، كان فارساً شجاعاً جداً هو نفسه، ومحبواً، ومخشياً جانبه من قبل جميع الامبراطورية، لأنه كان ابن ابنة جون الذي كان لا يغلب، وكان ملكاً على القدس، وأيضاً لأن هنري — أخي كونراد — كان شاباً وسيماً، ومقبولاً من الجميع، وقد كان موضع تقدير من قبل جميع أصدقاء الامبراطور، لأنه كان ابن الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت محبوبة من قبل الجميع، وكان أيضاً ابن أخت الملك المسيحي التقي لانكلترا، هذا وكان البابا، بسبب جشعه، وكذلك جشع بني جلدته كلهم، هدفاً للكراهية العالمية ولكراهية أتباع الامبراطورية، ولذلك غدت الكنيسة، بسبب تزايد تنكيلها في وضع خطير جداً، وعانت من أضرار مضاعفة، وكانت استعادة ذكريات كوارث الماضي، أيضاً شوكة في أعين الذين وقفوا إلى جانب البابا، وهكذا نجد هنري راسبي Raspe، الذي كان لاندغريف ثورنجيا، والذي استهدف البابا أن يرقى به إلى العرش الامبراطوري، والذي من أجل ترقيته أنفق مبلغاً كبيراً من المال، قد هلك في ميتة مهينة، وبعد موته جرى اختيار هنري أوف غولديري Gueldres، لكنه لدى تفكره بالميتة المهينة للذي تقدم عليه، رفض هذه الترقية، وجرى من بعده اختيار دوق برابانت واللورين، لكنه رفض هذا العرض رفضاً تاماً، وكان الذي وقع الاختيار عليه بعد ذلك لشغل المنصب إيرل رتشارد، لأنه كان رجلاً داهية، ولديه أموالاً كثيرة، وأيضاً لأنه كان أخصاً لملك انكلترا، لكنه رفض كلية المنصب، بسبب أن حظوظ الحرب كانت موضع شك، ومن بعده اختار البابا وليم كونت هولاندا، الذي بطيش

وافق على ذلك، وهو الآن، بعدما فقد كل شيء، قد أرغم على العودة إلى أراضيه، وفي الحقيقة، هي الآن ليست أراضيه، لأنه كان قد أعطها إلى أخيه، ولذلك قد أرغم الآن، على الاستجداء، وقد ازدري مكر البابا ووعوده، وبعد هذا كله، سعى البابا إلى وضع هاكمو، ملك النروج، على العرش الامبراطوري، مكان فردريك، وفي سبيل أن يحوله لأن يكون مناسباً، وأكثر حظوة وموائمة لمقصده، تدبر أمر تكريسه وتوجيهه ملكاً، لكن إثر تنويعه مباشرة، أعلن الملك المذكور صراحة بأنه كان دوماً على استعداد لشن الحرب ضد أعداء الكنيسة، ولكن ليس ضد أعداء البابا، وهذا ما كان هذا الملك قد أعلنه لي، أنا متى كاتب هذه الصفحات، ولكن بوساطة يمين عظيم، وإنه بسبب معطيات الظروف المينة أعلاه، أحقت المخاطر وتفجرت يومياً من كل جانب لتصيب الكنيسة.

حول الخلافات بين اثنين من أعظم السلاطين قوة

وفي حوالي الوقت نفسه نشب خلاف بين اثنين من أعظم أمراء المسلمين قوة، هما سلطان حلب وسلطان مصر، وذلك بسبب قبول الفدية من الملك الفرنسي، وإطلاق سراحه من بين أيدي المسلمين، من خلال جشع سلطان مصر، لأن الشرقيين قالوا بشكل عام، بأنه كان ينبغي عدم فقدان مثل هذه المنحة الثمينة، وأن هذا ما كان ينبغي أن يحدث لولا تقاعس المصريين وجشعهم، ولذلك تعرض السلطان المذكور للهجوم من كل جانب، من قبل المسلمين، وخاصة من قبل سلطان حلب، وأرغم على الاعتراف بهذا، وأيضاً على إرسال رسالة إلى الملك الفرنسي، يتوسل إليه بتواضع لعقد السلام معه، وعرض بنود إقامة صداقة على أساس شروط محددة وصالحة، ومن خلال ذلك، ومن معطيات الظرف توفرت الآمال، بأن الحفاظ على القدس سوف يكون ممكناً بفعالية.

وفيما يتعلق بهذه القضية، تلقينا رسائل موثقة ومختومة من مقدم

الاستتارية في القدس، وإذا ما رغب أي واحد برؤيتهم، عليه العودة إلى كتاب Additaments. وقد شعر الشخص الذي قتل السلطان بالتجبر والتفاخر، إلى حد أنه أثار غضب جميع شعب الشرق، لأن السلطان الذي جرى للتو قتله بشكل خياني، كان مستقيماً، ومعتدلاً، وواحداً غيوراً من دون تعب على إيمانه وعهده، ولأنه تعرض للنقد الشديد أثناء حياته، وللملامة لأنه سمح بفدية الملك الفرنسي وتركه يغادر حياً، قيل بأنه قد ردّ كما يلي: « ياأصدقائي، أنتم تعلمون أنه الأعظم نبلاً بين جميع المسيحيين، ولذلك لو أنه قتل، لشعر أقرباؤه، الذين هم كثرة كثيرة، في قرارة قلوبهم، بوجوب الانتقام له، وعلاوة على ذلك إنني كنت سأخسر مال الفدية، لأنه بدفع هذا المال سيلحق الفقر بفرنسا، وسينال المسلمون الغنى والسرور، كما أنني لم أتجرأ على اقتراف ذنب دس السم لمثل هذا الشخص، صاحب مثل هذه المرتبة العالية، خشية من أن تثير مثل هذه الخيانة الكبيرة الرب والمسيحيين، ولذلك دعونا نكون راضين بفضل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبدمار مثل هذا الملك العظيم، الذي هزم، وأخذ أسيراً، ودفع الفدية، وذلك مع العلم أنه لا يوجد شخص له مرتبة عالية، أو حتى هو معروف، يمكنه أن ينجو من بين أيدينا، ونحن فرحون في تملكنا لأشخاصهم، وأسلحتهم، وحيولهم، وأموالهم، وعلينا أن نفتخر بالنصر الذي فاق جميع الثروات، ولم ترضهم هذه الإجابة فقط، بل إنها ألهمت غضبهم وزادته، وقالوا له: «أنت تكذب بدناءة، لأننا لو قتلناه، أو أودعناه في السجن الدائم، لقدفنا بالرعب وبالا احترام في قلوب جميع شعب الغرب، لكن الجشع أعمى قلبك»، وقبل أن يحذر ذلك السلطان ويكون متنبهاً، طعن بخنجر، ومات بطريقة مؤلمة، والحائن الدموي الذي — كما ذكرنا — تولى قتله، مع أنه مولاه، قد حل محله، وخبر مقتل هذا السلطان وتعيين السلطان الآخر، جرى اعلام الايرل رتشارد به، برسالة يمكن العثور عليها في كتاب Additaments.

حول صبر الملك الفرنسي

وفي الوقت نفسه تحمل الملك الفرنسي المسيحي التقى جميع الانتكاسات بصبر وصمت، وبقي في عكا ينتظر المساعدة، ويرجو صلوات الرهبان، وبشكل خاص الذين كانوا في الهيئة الرهبانية لطائفة اليسوعيين، حتى يمنحهم الرب لطفاً ويمنّ عليهم بالهدوء، بعد تلك العواصف الثقيلة، وقام أيضاً، كما تقدم الذكر من قبل، بارسال أخويه، اللذين عقد عليهما آمالاً كبيرة، ووضع بهما ثقة عظيمة، وقد بعث بهما إلى المناطق القريبة من جبال الألب، ولكنهما — على كل حال — نسيا يوسفهما، وتوليا القيام بالواجب الذي فرض عليهما، بإهمال كبير، وأخرا القضايا إلى درجة أنها بديا وكأنهما غير راغبين بمساعدته، وذلك وفقاً لكلمات الفيلسوف: «المحاولة الطويلة هي تردد كبير».

وصول غي أخي الملك من الأرض المقدسة

أثناء الاحتفالات المهيبة لعيد الميلاد، وصل غي، أخو الملك لأمه، وهو عظيم السرعة، من الأرض المقدسة، وليس معروفاً فيما إذا كان قد جاء فاراً من المعركة، وعلى كل حال من الممكن القول أنه بالنسبة لمقامه، بأنه هرب بحكمة ونجا من السجن في دمياط، بعد إعادة تأسيس السلام، وبما أنه وصل إلى انكلترا في حالة من الفقر، وكان مسافراً على قدميه تحول وهو على طريقه إلى دير فيفرهام Feversham، ليطلب الضيافة، وقد استقبل هناك بلطف وعمول بفخامة وكرم، ثم إنه سأل راعي الدير بأن يتفضل صدوراً عن رعايته له، وبسبب مكانته، ولا احترامه للملك، بإعارته وأصحابه، بعض الخيول، وأيضاً بعض الخدم، إلى أن يتمكن من الوصول إلى لندن، معلناً ومقسماً، أنه بمجرد وصوله إلى هناك، هو سوف يعيد الخيول ويرسلها مع الخدم مصحوبة بكثير من الشكر، وعلى هذا وافق راعي الدير، ولبي مطالبه، ولكن عندما وصل غي المذكور إلى

لندن، لم يخف من نيل تهمة نكران المعروف، مع الخزي البواتي القديم، ولذلك لم يعد الشكر إلى راعي الدير، كما لم يرجع الخيول، بل أعاد الخدم فقط، بعدما أغضبهم بشتائم لا يمكن ذكرها، وعلى هذا من الممكن مقارنة هذا الضيف، الذي هو بلا حياء بأفعى في الصدر، أو بفأر في الجبن.

كيف أغنى ملك إنكلترا إخوته

وعندما رآه الملك، اندفع مسروراً، واحتضنه بسرور أخوي، وبما أنه وجده فارغ اليدين، يتطلع لنيل المال الملكي، أعطاه على الفور مبلغاً كبيراً من المال، كان قد أخذه من اليهود، وعلى هذا فإن الحقائق التي كانت فارغة على ظهور الخيل، امتلأت الآن بخمسمائة باوند، وعلاوة على ذلك أعطى إلى أخيه غيوفري المسؤولية عن بارونية هيستنج Hastings الفخمة، التي كانت شاغرة آنذاك، وهكذا ضل النبلاء المحليين لانكلترا، الذين هم رعاياه الطبيعيين، وحرهم من كل شيء، وعيّن الأجانب كل يوم في مكانهم، وبذلك يمكن للانكليز الشكاية محقين، وأن يرددوا مع النبي قوله: «أعطيت موارثنا إلى الآخرين، وبيوتنا إلى الغرباء»، كما أن الملك لم يكن قانعاً بالتوزيع غير المعقول بين العلمانيين والأجانب، المال، الذي توجب عليه حفظه، لتأمين شراء الضروريات من أجل حجه، بل سعى بمواظبة للحصول على ترقية الأجانب غير الأكفاء، وغير الجديرين، إلى المراتب اللاهوتية العالية، وتسليحهم وتشجيعهم ضد الانكليز، والدفاع عنهم في القضايا القضائية المرفوعة ضدهم، لأنه كان قد كتب إلى البابا يرجوه بحرارة أن يبدي بشخصه الرعاية نحو بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، في القضية القائمة بينه وبين أساقفة انكلترا، وبشكل خاص بينه وبين أسقف لندن وكهنتها، وذلك حتى لا يحبط رئيس الأساقفة المذكور في أي من رغباته وخططه.

كيف أقسم أسقف لندن على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة

وعلى الرغم من أن أسقف لندن قد تعرض مؤخراً إلى الإيذاء الكبير من قبل رئيس الأساقفة، الذي حرّمه كنسياً، وتسبب بنشر قرار الحرمان الكنسي في الطول والعرض، إنه عندما تأمل في هذه الأشياء كلها، ونظر إليها بعين الحكمة، وتفكر فيها قال لنفسه: «إن شرف انكلترا ينحدر بسرعة، ورئيس الأساقفة يقوم باضطهادي والتنكيل بي وبجميع الانكليز، ومع أنه أجنبي، يتولى مضايقتي مع أنني من أهل البلاد، وشخصية متميزة بدم نبيل انكليزي، ثم إنه عندما سيمتلك الملك الفرصة للتعبير عن غضبه نحوي ونحو أسرتي، سوف يسخر نفسه لفعل ذلك بكل سرعة وسرور، ولسوف يجرد أقربائي من جميع ممتلكاتهم، بكل وسيلة من الوسائل في قدرته، ومن ثم سوف يغني الأجانب بها، وبذلك فإن الشرور سوف تتكبد فوق الشرور في انكلترا»، ولدى تفكيره بعمق حول هذه الاحباطات، وجد نفسه في وضع صعب، وكأنه مسحوق بين حجري رحا، وقد سيق ودفع إلى هذا الجانب وإلى ذاك، فمن الجانب الأول كانت هناك قضية الكنيسة وكرامتها، ومن الجانب الآخر عنف الغضب الملكي.

واختار أخيراً— في سبيل أن يعاني من أدنى أذى ممكن، مع أنه انزعج وتألم تحت الأذى— أن يتواضع بنفسه لبعض الوقت، وأن يقسم على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة، مع أنه عدو، بدلاً من أن يخاطر في نيل غضب الملك، و حصل بهذه الوسائل على التحليل من قرار الحرمان الكنسي الذي صدر ضده، وذلك في الوقت الذي عجب فيه كثيرون من عدم خوفه من تهديد النبي في قوله «ويل لك يا من تسوغ عمل الرجل غير التقي».

ذهاب البابا إلى بيروسييا

وفي حوالي الوقت نفسه، بعدما أمضى البابا شهراً وزيادة في ميلان، وسط كثير من القلق، تابع سفره إلى المدينة (روما)، وأثناء عبوره خلال المدن التي كانت على طريقه، أنفق مبالغ كبيرة من المال، ووصل أخيراً إلى بيروسييا Perusia، حيث رأى أنه سيكون من الحكمة والأفضل له البقاء، لأنه فهم أنه إذا ما ذهب إلى روما، سوف يستخرج منه شعب روما مبلغاً كبيراً من المال بالقوة، وأنه لن يمتلك القدرة على الوقوف بوجههم وفق شروط متساوية، لأنه سوف يكون داخل شباكهم، ولذلك، وعلى الرغم من أن الرومان رغبوا بحضوره، لم يذهب إلى هناك، خائفاً من المؤامرات، التي نجا منها منذ بعض الوقت، وقال وكأنه كان يخاطب روما:

إن آثار الأقدام تلك التي تشير إلى الوكر فقط

تخيفني كثيراً، لأنه لا توجد آثار تشير إلى طريق العودة.

إجراءات شكايى البنادقة مع آخرين ضدّ ملك فرنسا

وفي هذه الآونة أيضاً، شكل البنادقة، والبيازنة، والجنويون مؤامرة ضد ملك فرنسا، وضد أخويه، وضد رعيته، مع أنهم كانوا ليسوا بحاجة للمشاكل وللاضطراب والأذى، ذلك أنهم قالوا بأنهم تمكنوا بالقوة من الحصول على مدخل إلى دمياط قبله، غير أنهم طردوا بعد ذلك من المدينة بسبب جبروت وعنف الفرنسيين عندما وصلوا، كما أنهم اتهموا الملك الفرنسي بممارسة الفوضوية، وبالخيانة، والجبن، ذلك أنه عندما كان الملك جاهزاً للاقلاع برحلته، أبعد عشرة آلاف رجل من رماة القسي الزيارة، كان من بينهم بنادقة، وبيازنة، وجنويين، وكذلك بعض الفرنسيين، ولم يتعب نفسه بأخذهم معه، مع أنه قد استدعاهم، ووعدهم بأن يدفع لهم مبلغاً محدداً من المال عندما سينطلق، ويأجرائه

هذا الذي قضى بابعادهم، هو أرغمهم على العودة إلى حالة من التسول، فعندما عادوا إلى مناطقهم، لم يسمح لهم حتى بالاقامة في البيوت والحقول التي باعوها، ولذلك قاموا بإغلاق الموانئ بغلايينهم، وراقبوا البحر بحرص، من أجل سلب، أو إغراق أي فرنسي، يمكن أن يعبر البحر.

حول اتحاد بعض الرهبان

وفي هذا العام، رأى بعض القساوسة والرهبان الذين انضموا إلى الكنائس الديرية، بوضوح بأن الأساقفة في جميع الأماكن، الذين من المفترض أن يجدوا فيهم حماة لهم، قد أصبحوا الآن منكلين بهم بشكل مكشوف، وأذوهم أكثر من أي رجل علماني أو مدني، وأيضاً أن الخبر الأعظم كان الأكثر حدة في ظلمهم، وأن هذا كان يزداد، كلما ازداد قوة، لذلك عقدوا اتحاداً فيما بينهم، من أجل أنه بالمساعدة في تحمل أعباء بعضهم بعضاً، يمكن لهذه الأعباء أن تكون أقل ثقلًا عليهم، وبناء عليه قام تحالف تجاري بين التجمع الرهباني للكنيسة الأسقفية لكانتربري، مع رعوية ودير وولتهام Waltham، وقاموا هم، وكذلك قام آخرون بالرجاء بتواضع بتقديم طلب المعونة نفسها والمساندة، من قبل دير القديس ألبان.

عودة سيمون إيرل ليستر من غسكوني

في يوم عيد الغطاس، عاد فجأة سيمون إيرل ليستر، وبشكل مهين، وبكل سرعة من غسكوني، يحيط به ثلاثة رجال مسلحين فقط، كانت خيولهم قد هدها الجوع والتعب، وعند وصوله إلى لندن طالب بسرعة وإلحاح تقديم مساعدة فعالة من الملك، بالمال والعساكر، حتى يكبح وقاحة العصاة الغسكونيين، ذلك أنه أكد، أنه لن يستطيع الاستمرار في تلك الحرب العالية النفقات اعتماداً على امكانياته وحده فقط، من دون

مساعدة الملك، علماً بأنه سوف يستنزف موارد إيرليته في ليستر، وفي سبيل هذه الغاية، حث الملك وشجعه بالكلمات التالية، حيث قال:

«مولاي الملك، عليك أن تعيد إلى ذاكرتك، أنك عندما كنت مؤخراً في غسكوني، لجأت واثقاً، إلى مساعدة أولئك الذين عددتهم رعاياك المخلصين، ومع ذلك لم يفتحوا صدر العطف والمساعدة إليك، كما أنهم لم يمدوا يد العون إليك، حسبما هو متوجب عليهم، كما أنهم لم يشفقوا مطلقاً عليك، عندما كنت هارباً من خيانة وتنكيل الملك الفرنسي، وأيضاً لم يشفقوا على الملكة أثناء حملها، وعندما كانت متمددة مريضة في ريولي Reoli، ولا أثناء ولادتها في بوردو، بل انتزعوا أموالك منك، وسمحوا لك بفقدان أراضيكم، وكرامتك»، وعندما سمع الملك هذا تأثر، وأشفق على الايرل لما عاناه من آلام وارهاق، فأجابه بطريقة فيها مواساة له قائلاً: «بحق رأس الرب، لقد أخبرتني بالصدق، أيها الايرل، وأنا سوف لن أرفض تقديم عون فعال لك، أنت الذي تقاتل بنشاط ومواظبة من أجلي، غير أن صرخات شكاية قد وصلت إليّ، من أنك توليت بشكل تعسفي سجن الذين جاءوا إليك بطريقة مسالمة، والذين أنت بعثت خلفهم، وأنت قد وعدتهم بالوفاء وتعهدت لهم بالحفاظ عليهم، غير أنك توليت قتلهم عندما أصبحوا تحت سلطانك»، وقد أنكر الايرل هذا بشكل كامل، وأضاف قائلاً: «مولاي، إن خيانتهم معروفة، فأنت قد جربت ذلك وعانيت منه، وقد جعلهم هذا غير جديرين بالتصديق».

إجراءات الايرل سيمون قبل مغادرته غسكوني

قام الايرل سيمون المتقدم الذكر، الذي كان رجلاً صاحب قوة وخبرة في الحرب، قبل مغادرته غسكوني، بالاستيلاء على قلعة فرونساك Fronsac الحصينة، وأسر المحاصرين، وسوى القلعة مع الأرض، وكانت هناك قلعة لا يمكن الوصول إليها تقريباً، وواقعة

في منطقة جبلية، وكانت بالفعل قلعة لاترام، وكان اسمها اغريمونت Aigremont، وهذه أيضاً أفرغها من سكانها، وبذلك صار بإمكان جميع المسافرين عبر ذلك الطريق، متابعة سفرهم، وتنفيذ ارتحالهم بسلام، وكان هذا المكان محاطاً بصخور لا يمكن اجتيازها، وكانت هناك أبراج قد بنيت على قمم الصخور حيث أشرفت من علو فوق الوديان، كما أنه لم يكن بإمكان التجار أو الحجاج، لابل حتى سكان تلك المنطقة، العبور من دون التعرض للسلب من قبل اللصوص، والتعرض حتى للقتل، وقد أخضع الايرل هؤلاء جميعاً، وجعلهم طائعين للملك بقوة السلاح، وهذا أيضاً مافعله بالنسبة لبعض سكان بوردو، والذين تمردوا ضد القوانين العادلة.

مغادرة الايرل المذكور إلى غسكوني

واسترد الايرل المتقدم ذكره أعلاه أنفاسه من المواساة، التي قدمت إليه من قبل الملك، ومع أنه كان مقهوراً من قبل ثورة جماعة الخونة كلها في غسكوني ضده، أصبح الآن متشجعاً ولديه آمالاً عالية، وبعدها تسلم ثلاثة آلاف مارك من خزانة الملك، وبعدها جمع مبلغاً كبيراً من كونتية ليستر التابعة له، ومن الأراضي التي كانت عائدة مؤخراً إلى غيلبرت دي همفرونفيل Humfronville، التي كان له حق الوصاية عليها، عاد على الفور مسروراً، وأرسل رسالة إلى دوق برابانت، وإلى المقدمين الجيران له، حتى يرسلوا له بعض الفرسان والأتباع المزودين بالسلاح، لكي يستقبلوه لدى وصوله، لأنه كان مسرعاً تماماً في طريقه إلى غسكوني، وقال بأن أولئك الرجال سوف يقاتلون مخلصين لصالحه، فلسوف يغنيهم بعتاء وافر، وإطاعة من الكونت لأوامره، أرسل إليه ثلاثمائة فارس غير نظاميين، وبعض رماة القسي الزيارة، الذين هبوا لمساعدة الايرل، وكانوا متعطشين مثل علاقات لامتصاص دماء الغسكونيين، وفي الوقت نفسه كان الغسكونيون غير مهملين لأمرهم، فحصنوا أنفسهم ضدهم.

كيف جرى ادخال عبارة «دون التقيد»

بالاستخدام في المحاكم العلمانية

وفي حوالي الوقت نفسه، نشب خلاف قضائي بين سيلفستر Sylvester، أسقف كارلايل، وواحد من البارونات، حول عربة، كان البارون المذكور قد باعها إلى وولتر، سلف الأسقف المذكور، والتي قد رغب البارون المذكور باسترداد تملكها، وبحكمة ظهر الأسقف المذكور بشخصه في المحكمة، لأن خصمه كان في القارة، مع أن حماته كانوا موجودين، ولذلك حصل على رسائل حماية من الملك، طوال غياب البارون، وإلى عودته مسروراً إلى مقاطعته، وبقيت الفئة المعارضة ساكنة، لكن عندما سافر الأسقف وابتعد إلى مسافة، حصلوا على رسائل من الملك فيها عبارة «عدم التقيد بالرسائل السالفة، وأن قضية البارون لا يجوز تأخيرها»، ومن المعتقد أنه لم يتم الحصول على هذا الإجراء، من دون استخدام المال، وانتشرت الرسائل وتوزعت في كل اتجاه، وفيها قد أقحمت العبارة المقيتة «دون التقيد بالأمر المتقدم»، أو عبارة «عدم التقيد بأي امتياز قديم، وبموجب ذلك ينبغي أن تكون إجراءات القضية»، ولقد أدخلت هذه العبارة بالاستخدام، وبالإضافة إلى هذا تسللت تأويلات شريرة الآن إلى الصكوك، وباتت ممارسة، من ذلك على سبيل المثال، إذا ورد مكتوباً مايلي: «نحن نمنح امتياز كذا إلى الدير الفلاني»، وقد ورد ذكر الدير بوضوح، وتبع ذلك قوله: «وجميع عربه»، وهنا إذا لم يرد ذكر العزب بكل دقة ووضوح، من الممكن للعبارة المضافة أن تكون بلا فعالية، وهذا كما هو واضح مضاد للعقل، ولجميع أشكال العدل، لابل في الحقيقة معاكس لأحكام المنطق، التي بوساطتها يمكن البحث عن الحقيقة من دون اخفاق، وتولى تأسيس طريقة الإجراءات هذه رجل غير مستقيم، كان وقتها مسؤولاً عن العدالة، وكان اسمه روجر دي ثيركباي Thurkeby، وقد قال

وهو يتنهد بعمق مشيراً إلى العبارة المتقدمة الذكر: «وأأسفاه، وأأسفاه، لماذا انتظرنا كل هذا الوقت؟ إن المحكمة المدنية ملطخة الآن بالأمثلة اللاهوتية، والنهر كله قد تسمم بالنبع الكبرى».

إطلاق سراح بعض الصليبيين من الأسر بين المسلمين

وفي هذه الآونة، تبين أن بعض الأشخاص الذين كان من المعتقد أنهم قد قتلوا في المعركة ضد المصريين، هم أحياء في سجون المسلمين، وتم الآن دفع فديتهم من قبل أصدقائهم، فقد جرى دفع فدية كبيرة من أجل مقدم الاستبارة، وأطلق سراحه، ونظراً لسجنه جرى تعليق استخدام ختم الاستبارة، الذي كان من الرصاص، وذلك وفقاً لعادة الطائفة، وظل معلقاً حتى تم التأكد من إطلاق سراحه ثانية، وجرى تقديم شكل الختم المذكور في كتاب Additaments، كما أن الرسالة التي قيل بأن المقدم المذكور قد بعث بها إلى أصدقائه، قد جرى ادخالها هناك.

حول تحليل عمدة لندن وكهنتها من قرار الحرمان الكنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تحليل عمدة وكهنة كنيسة القديس بولص في لندن، الذين تقدمت الإشارة إليهم في الصفحات الماضية، من العقوبة التي أصدرها ضدهم رئيس أساقفة كانتربري، وجاء ذلك بناء على سلطان البابا، وتولى ذلك راعي دير القديس ألبان، وراعي دير وولتهام Waltham، ورئيس شامسة كنيسة القديس ألبان، غير أنهم وضعوا بعد ذلك تحت العقوبة نفسها، لسبب آخر.

حول النزاع المتعلق بحصة الأسقف الأخير لدرم

ورغب في حوالي الوقت نفسه، بعض ذوي العقول الشريرة، والأشخاص المرائين بإرضاء وولتر أسقف درم، فذهبوا إلى البابا، وأعلنوا بأن حصة من أسقفية درم، قد أعطيت من دون سبب إلى

يقولوا، الأسقف الأخير، الذي كان قد استقال من منصبه، وأن يقولوا المذكور، قد احتفظ بحوالي ثلث الأسقفية، وبناء عليه تقدموا الآن بالرجاء إلى البابا من أجل إعادة الأسقفية كاملة، أو على الأقل أن تكون أقل ضرراً، وعلى هذا رد البابا قائلاً: «نحن مندهشون لسماع كلامكم هذا، أولم يكن قد جرى التوزيع والتقسيم بعد مداولات طويلة، ووفقاً لرأي أناس متعلمين، وكذلك بناء على موافقة الفرقاء، وأولم يجري تثبيت ذلك من قبلنا ومن قبل ملك انكلترا، ومن قبل نوابنا؟»، وكان أسقف باث، الذي كان واحداً من النواب، آنذاك موجوداً في البلاط، ولذلك دعي ليقدم بيته حول الحقيقة، فشهد بأن كل شيء قد عمل، مع التقدير المتوجب للعدالة، ولذلك جرى ابعاد المشتكين مع الملامة، وهم في حين فكروا باضعاف قضية الأسقف يقولوا، هم قاموا فقط بزيادة قوتها، ولم تمر هذه الإجراءات من دون تسبب الاهانة لـوولتر أسقف درم، وإلى رئيس رهبان ورهبان ذلك المكان، الذين من الواضح أنهم كانوا شركاء سريين في المؤامرة وفي التحريض عليها.

حول التقارير الشريرة المتعلقة بهنري أوف باث

وجرى في العام نفسه، في يوم عيد طهارة القديسة مريم تقديم شكوى ثقيلة ضد هنري أوف باث Bath، وكان فارساً متعلماً، وبارعاً تماماً في شريعة البلاد، ورجل عدالة ومستشاراً خاصاً للملك، وكانت فحوى التهمة، أن كونه صديقاً وحيداً للملك، قام بخداع مولاه أثناء شغله لمنصب المسؤول عن العدالة الذي عهد به إليه، وتولى بوساطة حجج بارعة، إن لم نقل بوساطة الخيانة، من افراغ حافظات النقود للآخرين، ليملاً حافظته، ولم يتردد، أو يخف، من تسليم الهدايا من جميع الجهات بكتلتا يديه، وبذلك صار ثرياً، بالموارد، والعزب، والذهب، والفضة، حتى أنه صار الآن الأول الأكثر ثروة بين زملائه المتولين لأعمال العدالة، وكانت زوجته أيضاً، امرأة جشعة ومتجبرة،

وكانت من حيث الأصل من أسرة باسيت Bassets ومن ساندفوردز Sandfords، وعلى هذا كانت متفاخرة بنسبها وأصلها، وقامت بتحريض هنري المذكور على هذا السلوك، وبما أنه حرض، ومال ليعمل هكذا بإرادته، صار متشوقاً للبحث وراء الربح الدنيء، بالعدل وأيضاً من دون وسائل عادلة، فقد قيل إنه حصل لنفسه ولاستخداماته في جولة واحدة أثناء ممارسته لأعمال العدالة، على أكثر من مائتي قطعة أرض، ولذلك انتشرت حوله فضائح كثيرة، ونشب خصام أيضاً بين هنري المذكور وايفرارد دي ترمينغتون Everard de Trumpington، بشأن إحدى العزب، ووجهت التهمة إلى هنري بالحنث بالوعود وبالخيانة، من قبل أحد الفرسان واسمه فيليب دي أرسى Arcy، وكان ذلك بحضور الملك والملكة، ولذلك احتجز، أو بالحري كما يقال بالعادة جرى اعتقاله، مع أن جون مونسيل Maunsell، الذي كان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك رغب بضمائنه، وأن يكون كفيله بأنه سوف يلتزم بالعدل، غير أنه أخفق بالحصول على الإصغاء، لأن غضب الملك اشتعل بشكل مرتفع، وأجاب بأنه لن يقبل بأي كاهن ليكون كفيلاً له في مثل هذه القضية، لأنه عدّ الجريمة إحدى جرائم الخيانة العظمى، وبما أن أسقف لندن جاء ليتحدث لصالحه، وبناء على وساطة وتدخل كثير من الوسطاء جرى تسليمه وعهد به إلى أربعة وعشرين فارساً، سوف يحضرون المحاكمة ويسوغون هنري المذكور بالمحاكمة خلال مدة جرى الاتفاق عليها وتحديدها.

حول كفالة هنري أوف باث

وكان هنري رجلاً بارعاً وداهية، ففكر آنذاك وتصرف وفق قول الشاعر الكافر:

مساعدة القاضي مطلوبة من أجل الشرائع غير العادلة

وبناء عليه أرسل زوجته إلى جميع أقربائها من الباسيت Bassets، ورجتهم بحرارة، من أجل التدخل بشكل فعال لدى الملك من أجله، وأن لا يوفروا تقديم الهدايا الكثيرة، والوعود الأكثر، وإذا لم يتمكنوا من نيل أي شيء بهذه الوسائط، عليهم الظهور من أجله في يوم الفزع، وهم مجهزين بالسلاح والخيول إذا كان ذلك ضرورياً، وعلى هذا وافقوا جميعاً بصوت واحد، لأنه كان هناك واحداً من بينهم اسمه نيقولا دي ساندفورد Sandford، وكان فارساً جريئاً، وكان قادراً، وراغباً وعلى استعداد للقيام بدوره ضدهم جميعاً، حتى لو كلفه ذلك المخاطرة بحياته، وأبلغت أخبار هذه الاجراءات سراً إلى الملك، فازداد غضبه، ورفض بإصرار قبول جميع الهدايا، والكلام التلطيفي، وأقسم على أنه سوف يتابع القضية حتى تعرض وسط محاكمة دقيقة، وعندها عرف هنري أنه في وضع حرج، لذلك ذهب مع أسقف لندن، وفيليب باسيت وبعض أصدقائه الآخرين إلى الايرل رتشارد، وأمكن بوساطة الالتماسات والرشاوى جعل قلب ذلك النبيل يميل إلى قضيته، وأضافوا متوعدين بوساطة أيان مرعبة، أن الملك إذا ما تسبب بموته، لابل حتى بحرمانه من ميراثه، لسوف تثار المملكة كلها، وتثور ضد الملك، وأنه إذا ما حدث هذا، فإن قضايا أخرى سوف تستخدم، خاصة التحكم غير العادل والصحيح للأجانب، وبالتالي ظلم الانكليز، وأن الشقاق الذي ظهر في الخارج، سوف لن يهدأ ويخمد، وعندما سمع الايرل هذا، استولى عليه الرعب، ولكونه تمت السيطرة عليه بوساطة التماسات وهدايا هنري المذكور، ذهب إلى الملك ليهدى غضبه، وليطالب لصالح هنري، ولصالح سلام المملكة، ولكن غضب الملك وسخطه كان من غير الممكن تهدئته هكذا، وعندما كان الايرل على وشك المغادرة وتركه، خاطبة على الشكل التالي: «نحن لا يمكننا منع نبلاء المملكة من تأييد حقوقهم وامتيازاتهم، ولن نستطيع النجاح في تأسيس سلام المملكة المترنحة».

إحصاء كمية نفقات الملك

وأمر الملك في تلك الآونة بإجراء احصاء وفحص لجميع السجلات والملفات، بغية اكتشاف مبلغ النفقات غير العادية التي عملها منذ تنويجه، وقد تبين أن ذلك كان مبلغاً ضخماً جداً، وقد جرى تقديمه في كتاب Additaments.

تأسيس دير للنساء من قبل كونتيسة آرونديل

وفي حوالي الوقت نفسه، أسست السيدة النبيلة ايزابيل، كونتيسة آرونديل Arundel أرملة هوغ إيرل آرونديل، ديراً للنساء في مكان اسمه مارهام Marham قرب لينني Lynne، وكان ذلك على نفقتها، أي من حصة زواجها.

جلب أخبار وفاة الإمبراطور فردريك إلى الممالك الغربية

ومع نهاية عيد الميلاد، ومع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم، انتشر تقرير في جميع بلدان الغرب، مالبث أن تأكد، وقد تحدث عن وفاة فردريك الإمبراطور الروماني الأخير، ذلك أنه أصيب بمرض متعذر الشفاء، في يوم عيد القديسة لوسيا العذراء، ومات في يوم عيد القديس اسطفان، وأضاف التقرير أنه عندما شاهد أن حلول موته بات مؤكداً، بات نادماً، ومع دموع غزيرة عمل اعترافاً كاملاً بذنوبه، وعهد بنفسه إلى الرب، وإلى طائفة السسترشيان، التي كان قد لبس زيها، فهذا ما أخبرنا به رفاهه بشهادة مؤكدة، حيث قالوا أنه قام بتواضع وبتقوى قبل وفاته بلبس زيهم وارتدائه، وبحكم اقتراب وفاته، تم جلب أحد الأساقفة، بناء على طلب الإمبراطور، من أجل التحليل من ذنوبه، وأيضاً لتحليله من حكم الحرمان الكنسي، وذلك باسم الرب، الذي لا يرغب بهلاك أي واحد يؤمن به.

وصية الإمبراطور فردريك

ومع تنهدات عميقة، وإعلان أنه ودّ لو أنه لم يلد، ولم يتسلم حكومة الامبراطورية، وفي سبيل استرداد وتأيد الحقوق التي من أجلها تورط في كثير جداً من الأحزان العميقة، وأسف كثيراً، يروى بأنه عمل الوصية التالية:

أنا فردريك، أترك من أجل خلاص روحي في المقام الأول ألف أونصة Ounces من الذهب، حتى تنفق، وتوضع تحت تصرف ابني كونراد، من أجل استرداد الأرض المقدسة، ومن أجل الكنيسة الرومانية المقدسة.

بند: إن إرادتي تقضي برد كل الممتلكات التي أخذت بشكل غير عادل من أي واحد.

بند: إنني أمنح الحرية إلى جميع السجناء العائدين للامبراطورية أو المملكة، باستثناء الخونة فقط.

بند: إنني أدع جميع ممتلكات الكنيسة حرة، وتقضي رغبتني بإعادة جميع حقوقها إليها.

بند: إنني أترك كونراد بمثابة وريثي للامبراطورية الرومانية، وللمملكة صقلية.

بند: إنني أترك لابني هنري مملكة القدس، وعشرة آلاف أونصة [من الذهب] لتدفع باملاء من ابني كونراد.

بند: وأترك لحفيدي، أي ابن ابني، هنري بدوقية النمسا، وعشرة آلاف أونصة ذهب.

بند: وأترك ابني مانفرد Manfred بمثابة نائب لكونراد في

الامبراطورية، من بافيا Pavia على هذا الجانب، ومملكة صقلية، لمدة سبعين سنة، إلا عندما يكون كونراد موجوداً.

بند: انني أختار هنغاريا لتكون مكان دفني، وذلك حيث جرى دفن الملك وليم».

وتحتوي الوصية على أعطيات أخرى كثيرة، لم أقم بتذكرها، لأنها أقل أهمية، وقد وزع بين أصدقائه، وأولاده الآخرين، وخدمه كميات كبيرة من الممتلكات، وبشكل رئيسي من الذهب والفضة، وهذا من الممكن تصديقه، لأنه في تلك السنة نفسها، جرى إرسال اثني عشر جملاً إليه من الشرق، كانوا محملين بالذهب والفضة، لأنه كان شريكاً في حركة نقل التجارات، وصديقاً كبيراً لجميع سلاطين الشرق، ولذلك فإن الذين كانوا يسافرون بالبر والبحر، وصولاً حتى إلى الهند، كانوا على حسابه.

كيف جرى إيقاع عقوبة الحرمان الكنسي بعميد وبكهنه لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، قام رئيس أساقفة كانتربري بوساطة المعلم يوستاس أوف ليني Lynne، الذي كان موظفاً لديه، بانزال عقوبة الحرمان والملامة بعميد وبكهنه لندن، مما سبب الدهشة لكثيرين، وعلل ذلك بسبب اعتداءاتهم، وزاد على ذلك، دعوتهم للظهور أمام البابا، وبذلك تفجرت فضيحة مهينة، لأنهم حرموا في الوقت الأول كنسياً من قبل فئة أولى لسبب ما، ومن جهة أخرى جرى تحليلهم من قبل آخرين لسبب ما آخر، وكان حال الكهنة أنهم شعروا بخوف كبير، وبمرارة في القلب، والتمسوا من جميع أساقفة انكلترا مساعدتهم في الوقوف ضد هذه المظالم، وأن يقاوموا العنف الذي أنزل بهم، بحكم أن جدار جيرانهم كان يحترق، وأما الملك، فلأنه كان هو الذي أوجد رئيس الأساقفة، والملكة لأنه كان عمها، لم

يستطيعا تركه معزولاً مهجوراً، مع أنها شعرا بالخجل، وعلى الرغم من أن قضيته كانت قضية غير عادلة.

الموت الجريء للإيرل وولتر

وتعرض في هذا العام الايرل وولتر للانهاك والتلاشي، وهو الذي كان قد أظهر قوته في الأرض المقدسة بالقول والفعل، وهو الذي كان لبعض الوقت حاكم يافا، وبعض القلاع الأخرى على الساحل، وبعض الجزر القريبة منها، وكان مسجوناً ومضيقاً عليه في زنزانة قذرة لدى المسلمين، ذلك أن المسلمين قد كرهوه، لأنه عندما كان حراً، غالباً ما ألحق بهم أذى كبيراً، ولأنه لم يكن هناك واحداً أكثر شهرة منه في جميع الأرض المقدسة، أو أعظم قوة منه، أو أخلاقه رضية أكثر منه، وبعدما كاد يتلاشى وبعدما تعرض للجوع والعطش، بناء على إرادة أعدائه، ونظراً لأنه كان قد تعرض للجلد مراراً، بات واضحاً أنه أخذ يقترب من الموت، وأن القبر هو كل ما بقي له، واستخدم المسلمون جميع وسائل التعذيب حتى يرضخ ويرتد، أو يذعن لإرادتهم، لكن من دون فائدة، وبناء عليه جرى عقد مؤتمر فيما بينهم، وجرى جلب الايرل للوقوف وسطهم، وعلى هذا تولى السلطان مخاطبته بكلام ناعم وبتهديدات، ومزج ذلك بوعود وافرة، وحثه المسلمون بقدر ما كان لديهم من قوة، ووعدوه بالحصول على حريته، بحكم أنه كان بين أيديهم، على أن يقوم بتسليمهم يافا، التي كانت موضوعة تحت عهده، والتي كان قد عهد بها إلى أتباعه الشجعان والمخلصين، وخاطبه السلطان قائلاً: «أيها الايرل الذي لا يقهر، إنك غالباً ما ألحقت بي أذى لا يمكن الخلاص منه، ولذلك إنك تستحق أن تعاقب بعدة ميتات، ومع ذلك، يمكنك الآن أن تنقذ حياتك، وأن تنال التكريم مع هدايا كثيرة، إذا أعدت يافا إلينا، التي كانت لبعض الوقت تحت حكمك، والتي وضعت فيها حامية موثوق بها من أتباعك، الذين لم نستطع اضعاف ثباتهم، ولسوف يجري

آخذك إلى باب تلك المدينة، لتتولى إعلام المحاصرين بهذه الشروط، أي حصولك على حريتك مع حرية جميع سكان المدينة»، وأعطى الايرل موافقته على هذا، وحمل إلى باب المدينة — التي كانت مطوقة بعساكر المسلمين — من أجل أن يخبر الحامية بذلك العرض، وعندما شاهد سكان المدينة الايرل، وجدوا صعوبة بالغة بالتعرف عليه، لأنه كان متلاشياً، وقام الايرل أولاً بمخاطبة حرسه قائلاً: «اسمحوا لي بإلقاء خطابي حتى النهاية، لأننا نقول بأن الكلمة الأخيرة تحتوي على المغزى»، وأعطى الاذن ليفعل ذلك، وسعى الايرل إلى ايصال الكلمات التالية بوضوح وبصوت مسموع، إلى جنوده الذين اجتمعوا فوق الباب، حيث قال: «أيها الصليبيون الشجعان والأتقياء، والجنود المخلصين، انظروا إلى جسدي حيث أنه قد تلاشى إلى حد أنكم تستطيعون التعرف لي فقط من خلال صوتي، وكلامي وحده، إن موتي بات وشيكاً، وجسدي هو تقريباً بلا حياة، وبصعوبة يحتفظ بالرمق الأخير، لا تتنازلوا عن شيء أبداً، ولا تمنحوهم أية عروض للسلام مطلقاً من أجل، فلماذا يتوجب فداء جسد شبه ميت؟ وإنه إذا ماجرى فدائي، إنني لن أتمكن مطلقاً من استرداد صحتي، ولذلك إنني أرجوكم بحق دم المسيح المسفوك، الذي تدفق في هذه الأرض من أجل خلاص العالم كله، بأن لا تسلموا لالقلعة ولا المدينة إلى هؤلاء الكلاب الكفرة، الذين هم متشوقون بشدة للاستحواذ على هذه المدينة، وتدمير المسيحية كلها، لأنهم سوف لن يظهروا الرحمة نحوكم بعد تسليمها، كما أن الحجاج والسكان الذين قد استعدوا الآن للقدوم إلى مساعدتكم على الفور، لن يتمكنوا وقتها من مساعدتكم»، ولدى سماع المسلمين لهذا الخطاب ضربوا الايرل صاحب العقل النبيل على فمه بمقابض سيوفهم، التي أبقيوها مجردة، فسبوا تدفق الدم الكثير، وخلعوا أسنانه، ثم سحبوه وجروه إلى الورا لتولوا قتله بوساطة جميع أنواع العذاب القاسية، وقد تحمل الايرل جميع هذه الاجراءات برجولة، وسار على الطريق الذي سلكه قريبه أمير أنطاكية،

وبما أن الإشارة قد تمت إلى هذا الشخص الأخير، نعتقد أن من الموائم ادخال رواية قصيرة حول موته وكتابتها على صفحات هذا الكتاب.

حول ثبات أمير أنطاكية أمام الموت

عندما كان صلاح الدين يقاتل ضد الملك رتشارد في الأرض المقدسة، وقع أمير أنطاكية بالأسر، وقد عومل بشكل لاإنساني كبير في السجن الاسلامي، حيث احتفظ به مضيقاً عليه بشدة، وكان يعاني من الجوع والعطش، ولذلك بدأ يتلاشى، وأمر صلاح الدين في أحد الأيام بجلبه إلى حضرته، الأمر الذي جرى تنفيذه، ونظر إليه صلاح الدين وهو مقطب وقال له: «أخبرني الصدق، لو أن الله قد أعانك وكنت بين أيديك وتحت سلطانك، كما أنت الآن بين يدي، مالذي كنت ستفعله بي؟» وعلى هذا ردّ عليه بازدراء ودونها خوف: «لو أن الرب قد أعانني، لقمّت على الفور بالأمر بقطع رأسك، لكن بما أنك ملك، وإن كنت كافراً، لما جعلت أحداً يتولى قطع رأسك، بل توليت ذلك بنفسى أنا شخصياً، لأنه لايجوز لأي انسان من مرتبة متدنية فعل ذلك»، وعلى هذا ردّ صلاح الدين قائلاً: «إن فمك قد أملى عقوبتك» ودعا على الفور بجلب سيف إليه، وقال: «وهكذا إننى سوف أتولى على الفور قطع رأسك»، وكان أمير أنطاكية مغلولاً من يديه وقدميه، ومع ذلك قفز نحو الأمام وهو مسرور، واقترب من صلاح الدين، ومدّ رأسه نحو الأمام، وكذلك مدّ رقبته، حتى يكون أكثر جاهزية لضربة يد صلاح الدين، وتفوه للمرة الأخيرة بالكلمات التالية: «خذ أيها الكلب، هذا الرأس المهان، والأشعث، وذى اللحية، وهذا الوجه الهزيل، والاذنين القذرتين، وإن الذى ستكسبه قليلاً — لابل لاشيء له قيمة زائدة — وإننى أعهد بروحي إلى الرب»، وعند ذلك تمكن صلاح الدين بضربة واحدة خفيفة من قطع رأس ذلك الشهيد الرائع في الرب، قائلاً:

Bibliotheca Alexandrina



0414621